رجال العدالة الثلاثة

إدجار والاس



ترجمة رشا صلاح الدخاخني

رجال العدالة الثلاثة

تأليف
إدجار والاس

ترجمة
رشا صلاح الدخاخني

مراجعة
محمد يحيى



رجال العدالة الثلاثة

إدجار والاس

The Three Just Men

Edgar Wallace

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٩٥٨ ٤

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٥.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- شركة أوبيرزون	٧
٢- رجال كورزون ستريت الثلاثة	١٧
٣- الثأر	٢٥
٤- هجمات الأفعى	٣١
٥- المرأة الذهبية	٣٧
٦- في تشيستر سكوير	٤٥
٧- ضغط أخلاقي	٥٣
٨- منزل أوبيرزون	٦١
٩- قبل انطفاء الأضواء	٦٩
١٠- عندما انطفأت الأضواء	٧٣
١١- جيرتر	٨١
١٢- نظريات ليون	٨٧
١٣- عودة ميرابيل إلى المنزل	٩٧
١٤- البائع المتجول	١٠٥
١٥- «حادثتان»	١١٥
١٦- راث هول	١٢٥
١٧- خطاب مكتوب بطريقة برايل	١٤٣
١٨- قصة مونت دور	١٥١
١٩- في مزرعة هيفيتري	١٥٩
٢٠- إفادة جيرتر	١٦٩

٢١- دفتر الحساب ١٧٥
٢٢- داخل قبو المخزن ١٨٥
٢٣- حامل الرسالة ١٩٣
٢٤- على متن قطار البريد المسائي ٢٠١
٢٥- عودة جيرتر ٢٠٩
٢٦- في الأَسر ٢١٥
٢٧- معضلة السيد نيوتن ٢٢٣
٢٨- داخل مسرح براتر ٢٣٥
٢٩- مهمة جيرتر ٢٤١
٣٠- جوان سجينة ٢٥٣
٣١- محتويات الصندوق ٢٦٣
٣٢- عملية البحث والتفتيش ٢٧١
٣٣- تحت الحصار ٢٨١
٣٤- أنبوب الموت ٢٩٥

الفصل الأول

شركة أوبيرزون

«مطلوبٌ في الحال، براتبٍ سنوي قدره ٥٢٠ جنيهًا إسترلينيًّا، سكرتيرة لمختبر. فتاة صغيرة السن؛ لا يشترط الخبرة السابقة، ولكن لا بد من أن تكون قد اجتازت اختبارًا معترَفًا به يشمل مادتَي الفيزياء والكيمياء اللاعضوية (المستوى الأساسي). الأولوية لمن تنحدر من أسرةٍ لها باعٌ في المجال العلمي. التقديم من خلال إرسال خطاب على صندوق بريد رقم ٩٧٥٤، ديلي ميجافون. إذا طلب صاحب الإعلان من المتقدمة للوظيفة الحضورَ لإجراء مقابلةٍ شخصية؛ يتكفَّل هو بدفع أجرة المواصلات من أي محطة تقع في نطاق مسافة مائة وخمسين ميلًا من لندن.»

أرسل صديقٌ مخلص إحدى الصحف التي تحتوي على هذا الإعلان إلى مزرعة هيفيتري، ووضع دائرةً حول الإعلان بقلم رصاص أزرق اللون. وجدَت ميرابيل ليستر الجريدةَ على أريكة الرِّواق حين عادت بعد أن أطعمَت الدجاج، وظنَّت أن مَن أرسلها هو سمسار أراضي منطقة ألينجتون الذي لطالما لفتَ انتباهها إلى أصحاب الإعلانات الذين يتمنَّون شراء المزارع الزهيدة الثَّمن. كان هذا من عادته. أما ميرابيل فكان يُساورها شعورٌ بأنه يكره وجودَها في الريف، وكان حريصًا أن يحل محلَّها مالكٌ أقلُّ فقرًا. فتحَتِ الغلافَ بإصبع إبهامٍ يكسوه التراب، وانتقلت بطبيعة الحال إلى صفحة الإعلانات، وما زال السمسار يُسيطر على تفكيرها. تفحَّصت عيناها سريعًا عمودَ «مطلوبٌ للشراء». كان هناك عدةُ إعلانات من نوعية «سادة محترمون يطلبون شراء مزرعة صغيرة في منطقة جيدة»، ولكن لم يَرُق لها أيٌّ منها، وكانت تتساءل عن السبب الذي جعل الرجلَ البخيل يُنفق بنسَين ونصفًا على طابَع بريد وورقةٍ حين وقعت عينها على الإعلان المرسوم حوله دائرة. هتفت ميرابيل قائلة: «رباه!»

وقد تباعدَت شفتاها الحمراوان في دهشةٍ يغلبها الحماس. رفعت العمةُ ألما عينَيها عن دفتر قصاصات الجرائد، وقد تفاجأت من دخول ميرابيل باندفاع. قالت ميرابيل بنبرةٍ استعراضية، وهي تُشير بإصبعها إلى الإعلان: «أنا!» ثم تابعت: «أنا شابةٌ صغيرة السن، من دون خبرة، لديَّ شهادة عُليا، وكان لأبي شأنٌ في مجال العلوم. ونحن، يا ألما، على بُعد مسافة مائة وأربعين ميلًا بالضبط من مدينة لندن!»

«يا إلهي!» قالتها العمةُ ألما، وهي سيدة ذات مظهر هزيل ومروِّع، يبثُّ الرعب في نفوس التجار والعاملين في المزرعة، رغم أنها امرأةٌ وديعة للغاية.

«أليس هذا رائعًا؟ هذا يحلُّ كلَّ مشكلاتنا. سنترك المزرعة لمارك، وننتقل إلى شقَّتنا في بلومزبري — يمكننا تحمُّل تكلفة تذكرة أو تذكرتين للمسرح أسبوعيًّا.»

قرأَت ألما الإعلانَ مرةً ثانية.

قالت بنبرةِ حذرٍ معتادة: «يبدو جيدًا، رغم أنني لا تُعجبني فكرة عملك، يا عزيزتي. والدك العزيز ...»

قالت ميرابيل بنبرة قاطعة: «كان سيوصلني إلى المدينة، وكنت سأحصل على الوظيفة الليلة.»

ولكن ألما لم تكن متأكدة. فلندن مليئةٌ بالمخاطر والشرور التي لا تُوصف والمتربصة في أزقَّتها ودروبها المظلمة. وهي نفسُها لم تذهب إلى لندن مطلقًا إلا رغمًا عنها.

قالت ألما: «لقد ذهبت إلى هناك قبل سنواتٍ حين كان رجالُ العدالة الأربعةُ المرعبون هناك، يا عزيزتي»، واستمعت ميرابيل، التي كانت تحبها، إلى قصتها المحفوظة. وواصلت ألما: «لقد أرعبوا لندن. لم يكن في استطاعة المرء أن يخرج ليلًا وهو متأكد من أنه سيعود حيًّا مرة أخرى ... أما وقد حصلوا على عفوٍ غيرِ مشروط! فهذا يُشجِّع الجريمةَ بكل بساطة.»

قالت ميرابيل (وكان هذا ردَّها المحتوم): «عزيزتي، لم يكونوا مجرمين مطلقًا. هم رجالٌ أثرياء بذَلوا حياتهم لمعاقبة أولئك الذين يُفلتون من أصابع القانون العتيقة الزلقة. وقد عُفي عنهم بسبب المهامِّ الاستخباراتية التي أنجزوها في الحرب؛ أحدهم عمل لمدة ثلاثة أشهر في مكتب الحرب الألماني، ولم يكونوا أربعةً مطلقًا، بل كانوا ثلاثةً فقط. وأودُّ أن ألتقيَ بهم ... لا بد أنهم لطفاء!»

عندما تظهر التكشيرة على وجه العمَّة ألما، يُصبح وجهها بشعًا. تحاشَت ميرابيل أن تلتقيَ بعينَيها.

قالت: «على أي حال، هم ليسوا في لندن الآن، يا عزيزتي، وسيُمكنك النوم في هدوء في الليل.»

تساءلت الآنسة ألما جودارد بنبرةٍ متشائمة: «ماذا عن الأفعى؟»

في الوقتِ الحاليِّ، كان موضوع الأفعى هو أحدَ الموضوعات التي لا يتمنَّى أيُّ شخص يُفكِّر في زيارة لندن أن يُذكِّره بها أحد. إذ يستيقظ ستة ملايين شخص من نومهم كلَّ صباح، ويفتحون الجرائد ويبحثون عن آخر أخبارِ الأفعى. ثماني عشرة جريدةً يومية لا تترك يومًا مطلقًا دون أن تُخبرَ قراءها بأن الخوف كان سلوكًا صِبيانيًّا، وتعلِّقَ تعليقًا صادمًا على النَّزعات العصبية للعصر؛ كما أنها تنشر، على أوقاتٍ منتظمة، تفاصيلَ دقيقةً عن المامبا السوداء، وعاداتها وطابَعها الفتاك، وتُخصِّص طاقِمًا كبيرًا من المراسلين المتحمسين «للعمل على هذه القصة الإخبارية».

لقد هربَت المامبا السوداء، وهي أكثر الثعابين الأفريقية فتكًا، من حديقة الحيوان في إحدى الليالي الباردة والضبابية في شهر مارس. وكان من المفترض أن تكون هذه هي نهاية القصة – فقرة من ثلاثة سطور، تتبعها في اليوم التالي فقرة أخرى من ثلاثة سطور تذكر تفصيليًّا كيف عُثر على الأفعى ميتةً على الأرض المتجمدة؛ لأن المامبا لا تستطيع أن تعيش في درجة حرارةٍ أقلَّ من ٧٥ فهرنهايت. ولكن الفقرة الثانية لم تظهر أبدًا. وفي الثاني من أبريل، عثَر شرطيٌّ على رجلٍ متكومٍ عند مدخلٍ في ميدان أورم. وتبيَّن أنه سمسار بورصة معروف، وثريٌّ فيما يبدو، يُدعى إيميت. كان قد فارق الحياة. ووجد في وجهه المتورم جُرحَين لثقبَين صغيرين، وأبدى العالِم البارز الذي استُدعي للمشورة رأيَه بأن الرجل تُوفِّي إثر لدغة أفعى؛ أفعى مميتة للغاية. كانت الليلة باردة، وكان الرجل قد ذهب إلى المسرح بمفرده. وصرَّح سائقُه بأنه قد ترك سيده بروحٍ معنوية مرتفعة عند عتبة الباب. أظهر المفتاحُ الذي عُثر عليه في يدِ الرجل المتوفَّ أنه قد لُدغ قبل أن تبتعد السيارة. وعندما جرى التحقُّق من أحواله، تبيَّن أنه كان مفلسًا على نحوٍ ميئوس منه. وقد اختفت مبالغُ مالية ضخمة كانت قد سُحبت من حسابه البنكي قبل ستة أشهر.

لم تكَد لندن تتعافى من هذه المفاجأة الصادمة، حتى ظهرت الأفعى من جديد. هذه المرة في الشارع المزدحم، ليقعَ اختيارها على ضحية متواضعة، رغم أنها ضحية ليست فوق مستوى الشبهات بأيِّ حال من الأحوال. سجين سابق يُدعى سيرك، مشرَّد قليل الحظ بلا أموال، شُوهد يسقط أرضًا من خلال حارس الحديقة بالقرب من تمثال أخيل في حديقة هايد بارك. وبمجرد أن وصل إليه الحارس، كان قد تُوفِّي. لم يكن هناك أيُّ علامة على وجود

أفعى — لم يكن هناك أحدٌ بالقرب منه. هذه المرة، تركَت الأفعى لدغتها على الرُّسغ — جرحان لثقبين بالقرب بعضهما من بعض.

بعد مرور شهر، سقط الرجل الثالث ضحيةً للأفعى. كان موظفًا في بنك إنجلترا، رجل محترم شُوهد يسقط في قطار مترو الأنفاق، وعند نقله إلى المستشفى، تبيَّن أنه قد تُوفِّي أيضًا بلدغةِ أفعى.

هكذا صارت الأفعى رمزًا يوميًّا للخوف، وذاع صيتها المشئوم حتى طوَّق الآفاق ووصل إلى مزرعة هيفيتري.

قالت ميرابيل، وهي ترتجف: «سحقًا!» وتابعَت: «ألما، أتمنى لو أنك لا تحتفظين بهذه الفظائع في دفتر قُصاصات الجرائد.»

قالت ألما بنبرةٍ متَّزنة: «إنها تُمثل حقيقة الحياة»، ثم أردفت متسائلةً: «متى تُحددين موعد مقابلتك الشخصية؟» فضحكَت الفتاة.

قالت بلهجة عَملية: «سنبدأ على الفور، من خلال التقديم للوظيفة». ثم أضافت: «ولست بحاجةٍ إلى البدء في تعبئة صناديقك لوقت طويل جدًّا!»

وبعد مرور ساعة اعترضتْ طريقَ ساعي بريد القرية، وسلَّمتْه خطابًا.

وكانت هذه هي بدايةَ المغامرة التي شملت أشخاصًا وأقدارًا كثيرة، والتي كادت أن تُسطِّر نهاية رجال العدالة الثلاثة، وتُحوِّل قلب لندن ذاتَ يوم إلى ساحة معركة.

جاء الردُّ بعد يومين من إرسال الخطاب، مكتوبًا على الآلة الكاتبة، وشخصيًّا على نحوٍ مدهش، وجاءت كلماته باعثةً على الفضول في بعض المواضع. وكان هناك مبررٌ لذلك؛ إذ كانت ترويسة الصفحة مكتوبًا عليها:

أوبيرزون آند سميتس، تجار ومُصدِّرون.

وفي اليوم الثالث، نزلت ميرابيل ليستر من حافلة في سيتي رود، ومرَّت عبر بوابة المغامرة المتواضعة، تبِعها سائقٌ يتملَّكه الفضولُ رآها تدخل، ولحِق بها في الرَّدهة.

«معذرةً يا سيدتي، هل أنت السيدة كارتر؟»

لا تبدو ميرابيل بأنها سيدةُ أيِّ شخص.

ردَّت قائلةً: «كلا»، ثم ذكرت اسمها.

«ولكنك السيدة الآتية من هيرفورد، أنتِ تعيشين مع والدتك في تيلفورد بارك ... أليس كذلك؟»

كان الرجل منفعلًا جدًّا لدرجة أنها لم تتضايق من إلحاحه. فمن الواضح أن لديه تعليماتٍ بمقابلة سيدة غريبة، وكان يخشى أن يفقدها.

«لا بد أنك مخطئ؛ أنا أعيش في مزرعة هيفيتري، داينهام، مع عمَّتي.»

«هل تُدعى كارتر؟»

ضحكت.

«الآنسة ألما جودارد، الآن هل هذا يرضيك؟»

«إذن، لستِ أنت السيدة التي أنتظر اصطحابها، يا آنسة.»

انسحبَ السائق معتذرًا.

انتظرت الفتاة في غرفة الانتظار المزدانة لمدة عشر دقائق قبل أن يعود الشابُّ ذو الوجه الشاحب والشعر النافر، والمتيبس والنظارات الطبية الضخمة العديمة الإطار. كان وجهه ضخمًا، وخاليًا من التعبيرات، وخطيرًا. ولقد لاحظت ميرابيل شيئًا غريبًا وهو أن كل رجل رأته في المكتب كان من نفس النوعية. رجالٌ ذَوو أجسام ضخمة وثقيلة يُعطونها انطباعًا بأنه جرى استدعاؤهم من مهمةٍ عاجلة جدًّا للتعامل مع تفاهة استفساراتها. كانوا رجالًا انعقدَت ألسنتهم يُحدِّقون فيها بجدية عبر عدساتهم السميكة ويُومئون برءوسهم أو يهزُّونها بِناءً على مقتضيات اللحظة. توقَّعت أن تلتقيَ بأجانبَ في مقر شركة أوبيرزون آند سميتس؛ تخيلتهم ألمانًا، وتفاجأت فيما بعدُ من اكتشافها أن كلًّا من الرؤساء وطاقم العاملين كانوا بالأساس سويديين.

لم ينبس الشابُّ ذو الوجه الشاحب، ببِنت شَفة، وفقًا لتقاليد المكان؛ أومأ لها إيماءةً صغيرةً برأسه، ثم دخلت غرفةً أكبر، حيث يجلس ستة رجال على ستة مكاتب ويكتبون بنشاط، كانت أنوفهم مندسَّةً بنظارات قِصَر النظر في الدفاتر والأوراق التي تستحوذ على انتباههم. لم يرفع أحدٌ نظره إليها أثناء مرورها عبر بوابة بارتفاع الخَصر، تفصلُ الزائر عن طاقم العاملين. كانت هناك خريطةٌ لأفريقيا برُقَعٍ خضراء كبيرة معلَّقة بين نافذتين. وفي أحد أركان الغرفة، تكوَّمت عشَرةٌ من الأنياب العاجية الضخمة، كلٌّ منها يحمل ملصقًا معلَّقًا. كان هناك نموذجٌ لسفينة بخارية في صندوقِ عرض موضوع على حافة النافذة، وعلى حافة نافذة أخرى تمثال خشبي محلِّي منحوت على نحوٍ غير متقَن.

توقَّف الشابُّ أمام بابٍ خشبي ثقيل وطرَق عليه. وعندما أجابه صوتٌ عميق، فتح الباب وتنحَّى جانبًا ليسمحَ لها بالمرور. كانت غرفةً عملاقة — كانت هذه أنسبَ كلمةٍ خطرَت على بالها — أظهر مساحتَها الشاسعةَ خلوُّها شبه التام من قِطع الأثاث. طاولةٌ

كتابة صغيرة جدًّا من خشب الأبانوس، وكرسيان صغيران للغاية، وخِزانة سوداء طويلة وضيقة تتناسب مع فجوة بالجدار، كان هذا كلَّ الأثاث الذي استطاعت رؤيته. كانت الجدران العالية مغطاةً بورقةٍ ذهبية. أربع عوارض خشبية باللون الأحمر الزاهي تمرُّ عبر السقف الأسود — أما الأرضية فكانت مغطاةً بالكامل بسجادة باللون الأرجواني الغامق. ويبدو أن ثمة خريطةً ملفوفة فوق المدفأة — ينسدل من الإفريز خيطٌ طويل ورفيع، وينتهي بشُرَّابة قريبة المنال.

كانت الغرفة بمثابة مشهدٍ لم تكن الفتاة تتوقَّع رؤيته، مع قلة أثاثها؛ إذ وقفت الفتاة تُحدِّق وتُقلِّب بصرها من الجدران إلى السقف، حتى لاحظَت أن مرشدها يُصدر إشاراتٍ عاجلة، ثم تقدمَت نحو الرجل الواقف وظهره إلى جذوة النار الصغيرة المشتعلة داخل المدفأة الفضية.

كان فارعَ الطول أشيبَ الشعر؛ انطباعها الأول عنه أنه ذو جبهة مرتفعة للغاية. أما وجهه الشاحب فكان طوليًّا، وعن قربٍ أكثر، رأته مغطًّى بخطوطٍ وتجاعيد لا تُعد ولا تُحصى. قدَّرَت أن عمره خمسون عامًا حتى تحدَّث، فأدركت أنه أكبر من ذلك بكثير.

«الآنسة ميرابيل ليستر؟»

لم تكن لغته الإنجليزية ممتازةً تمامًا؛ كانت طريقةُ حديثه متأنيةً على نحوٍ غريب، وكان يتلعثم قليلًا.

«تفضلي بالجلوس. أنا الدكتور إريك أوبيرزون. لستُ ألمانيًّا. أنا معجَب بالألمان، ولكني سويدي. هل أنتِ مقتنعة؟»

ضحكت، وعندما تضحك ميرابيل ليستر، ينسى الرجال الأقلُّ حدةً من الدكتور إريك أوبيرزون جميعَ المسائل الأخرى. لم تكن فارعةَ الطول — وإنما نحافتها وتناسُق قَوامها يجعلها تبدو كذلك. كان في وجهها وعينَيها الرماديتين مَسحةٌ ريفية؛ كانت تنتمي للبساتين حيث تتساقطُ أزهار التفاح مثلما تتساقط الثلوج الكثيفة على الأغصان العارية؛ إلى جدول المياه الباردة التي تجري بصخب تحت شُجيرات الزعرور البري. انعكست أشعة شمس أبريل في عينَيها وامتدَّت أسفل قدميها المروج المخملية الناعمة الدائمة.

وبالنسبة إلى الدكتور أوبيرزون، كانت فتاة ترتدي زيًّا أزرقَ مفصلًا لدى خياط. رأى أنها ترتدي قبعة صغيرة ذات حافةٍ مستقيمة تؤطِّر وجهها فوق حدود حاجبِها المنحني. من شأن الشخص الألمانيِّ أن يرى هذه التفاصيلَ، كونه عاطفيًّا بائسًا. لم يكن الدكتور ألمانيًّا؛ بل كان يكرهُ عواطفهم.

«هلَّا تجلسين! هل خضعتِ إلى تدريبٍ علمي؟»

هزَّت ميرابيل رأسها بالنفي.

قالت بأسًى معترفة: «كلا، لم أحصل، ولكني اجتزتُ اختباراتِ المواد التي ذكَرتها في إعلانك.»

«ولكن والدكِ، ألم يكن عالِمًا؟»

أومأت برزانة.

فأردف قائلًا: «لكنه لم يكن عالِمًا عظيمًا. إنجلترا وأمريكا لا تُنجبان مثلَ هؤلاء الرجال. أه، لا تُحدثيني عن رجالٍ مثل كلفين وإديسون ونيوتن! كانوا رجالًا ناقصين، مملِّين، مثقلين ... لم تكن فيهم الحماسة.»

تفاجأت بعضَ الشيء؛ ولكنها كانت مستمتعةً كذلك. كان رفضُه الهادئ لرجالٍ يحظَون بالاحترام في الأوساط العلمية صادقًا على نحوٍ واضح جدًّا.

«الآن، حدِّثيني عن نفسك». قالها وهو يجلس على الكرسيِّ ذي الظهر المستقيم الصُّلب بجوار المكتب الصغير.

«يؤسفني أنه ليس هناك الكثيرُ لقوله، يا دكتور أوبيرزون. أنا أعيش مع عمتي في مزرعة هيفيتري في جلوستر، ولدينا شقة في داوتي كورت. أنا وعمتي لدينا دخلٌ صغير — وأظن أن هذا كل شيء.»

أمرَها قائلًا: «واصلي حديثَكِ من فضلكِ». وتابع: «أخبريني عن شعوركِ حين تسلَّمتِ خطابي — أرغب في التعرُّف على طريقة تفكيرك. هذه هي الطريقة التي أُكوِّن بها جميع الآراء؛ وهكذا صنعتُ ثروتي الطائلة. من خلال تحليل العقول.»

لقد توقعتُ الكثير من الاختبارات؛ اختبار في العلوم الأساسية، ربما اختبار على الآلة الكاتبة (كان هذا أكثر شيء تخشاه)، ولكنها لم تحلُم أبدًا للحظةٍ واحدة بأن الخطاب المنمَّق الذي يطلب منها الحضورَ إلى مقر شركة أوبيرزون آند سميتس في سيتي رود سيقودها إلى تجربة تحليل نفسي.

«لا يسَعُني إلا أن أخبرك بأنني كنت مندهشة!» قالتها وقد ضمَّت شفتيها على نحوٍ قد يُخبره بالكثير لو كان خبيرًا بالطبيعة البشرية كما يدَّعي. وأردفت قائلة: «بطبيعة الحال إن الراتب يروق لي — عشرة جنيهات أسبوعيًّا هو معدَّلٌ عالٍ للأجور، لا أعتقد أنني مؤهلة ...»

«بل مؤهَّلة.» صار صوته الأجشُّ أكثرَ حدةً حين قاطعها بهذه العبارة. واستطرد قائلًا: «أنا بحاجةٍ إلى سكرتيرة مُختبر. وأنت مؤهلة» تردَّد، ثم واصل حديثه: «بسبب النَّسب

العريق. أيضًا» ثم تردد مرة أخرى لجزء من الثانية، وأردف قائلًا: «وبسبب التعليمِ العامِّ أيضًا. ستبدَئين مباشرةَ مهامِّك قريبًا!» لوَّح بيدٍ طويلة ونحيلة ناحيةَ الباب الموجود في زاوية الغرفة. وقال: «ستتسلَّمين وظيفتك على الفور.»

بدا أنَّ قسماتِ الوجه الطويل، والجبهةَ المرتفعة على نحوٍ غريب، والأنفَ المنتفخ، والفمَ العريض، المحدَّب تتضافر معًا حين يتحدث. ففي لحظةٍ تمتلئ جبهته بالثنايا والتجاعيد — وفي لحظةٍ أخرى، تُصبح ملساءَ بصورة نسبية. طرَف أنفه يعلو ويهبِط مع كل كلمة، تظل فقط عيناه الصغيرتان، العميقتان ثابتتَين دون أن تطرِف لثانية. لقد رأت عيونًا كهذه من قبل، بُنِّية وشجية. بماذا تذكِّرها؟ كلماته الأخيرة جعلتها تصل إلى حدِّ الذعر.

قالت في انفعال: «أوه، لا يمكنني البدء اليوم.»

قال بنبرةٍ حاسمة: «اليوم، وإلا فلن تحصلي على الوظيفة أبدًا.»

اضطُرَّت إلى مواجهة أزمة. كان الراتب مغريًا جدًّا؛ بل كان ضروريًّا. كانت المزرعة متعثرةً وتشقُّ طريقها بصعوبة؛ نظرًا إلى أن ألما لم تكن تُجيد الإدارة. ويتناقص الدخل أكثرَ فأكثر. ففي العام الماضي، الشركة التي استثمرت فيها ثروتها الضئيلة لم تمنحها حصةَ ربحٍ واضطُرت إلى التخلي عن قضاء عطلتها في سويسرا.

«سأبدأ الآن.» اضطُرَّت إلى حسم أمرها واتخاذ هذا القرار.

«جيدٌ جدًّا؛ وتلك هي رغبتي.»

كان لا يزال يُخاطبها كما لو أنها في اجتماعٍ عام. قام من على كرسيِّه، وفتح بابًا صغيرًا ودخلت غرفةً أصغر. لقد رأت معاملَ من قبل، ولكن لم ترَ شيئًا متناسقًا على نحوٍ جميل للغاية كهذا — رفوف متراصَّة بعضها فوق بعض، من برطمانات البورسلين الأبيض، وقواريرَ زجاجية، منقوش أسماء محتوياتها بالحروف المصنفرة؛ وطاولة عمل بطول الغرفة، تراصت عليها أجهزةٌ من كل شكل ولون على نحوٍ مرتَّب. وفي وسط الغرفة، تمتدُّ منضدة طويلة، ذات سطحٍ زجاجي، وهنا على زجاج مقاوم للأتربة، وُضِعت أجهزة حساسة، تتنوَّع بين موازين تعرف أنها قد تتأثَّر بذرات التراب، وأجهزة كهربائية، معقَّدة جدًّا لدرجةِ أن قلبها وجِلَ عند رؤيتها.

تساءلت بنبرة محبطة: «ماذا عساي أن أفعل؟»

كان كل شيء جديدًا على نحوٍ جميل؛ كانت واثقة من أنها ستُسقط أحد هذه البرطمانات الجميلة — فجأةً طارت من ذهنها علوم المعمل الدراسي، ليبقى خاويًا على عروشه.

«ستفعلين قطْعًا.» وعلى نحوٍ ملحوظ بدرجة كافية، بدا الدكتور في هذه اللحظة في حَيرةٍ من أمره مثل الفتاة تمامًا. «أولًا الكميات. ففي كل برطمان أو قارورة توجد كمِّية. ما المقدار؟ ومَن يعرف هذا المقدار؟ السكرتيرة الأخيرة كانت مهمِلة، وغبية. لم تحتفظ بأيِّ دفاتر. أحيانًا، أبحث عن شيء — لا أجده هناك! كل شيء اختفى. هذا أمرٌ مؤسف للغاية.»

تساءلت، وقد استعادت آمالَها من جديد في بساطةِ مهمَّتها: «هل ترغبُ أن أُجري جَردًا؟»

كان هناك عددٌ كافٍ من أجهزة القياس والموازين. اصطفَّت الأخيرة في صفٍّ كفصيلة من الجنود مصنَّفة حسَب حجمها. كان كل شيء جديدًا جدًّا ومنظمًا جدًّا. كانت هناك رائحةُ طِلاء جافٍّ في الغرفة وكأن المكان قد طُلي مؤخرًا.

قال صاحب الوجه الطويل: «هذا كلُّ شيء.» ووضع يده في جيب معطفه الطويل وأخرج محفظةً كبيرة. وأخذ منها عُملتَين ورَقيتَين جديدتين.

وقال بإيجاز: «عشرة جنيهات.» ثم أردف قائلًا: «نحن ندفع مقدمًا. ثمَّة شيء واحد أودُّ أن أعرفه.» وتابع: «بخصوص العمة. هل هي في لندن؟»

هزَّت ميرابيل رأسها نافيةً.

«كلا، هي في البلدة. توقَّعت أن أعود بعد ظهر هذا اليوم، وإذا ... وفقت، كنا سنأتي إلى المدينة غدًا.»

زمَّ شفتَيه المكتنزتَين؛ حدَّقت في انبهارٍ إلى جبهته العريضة التي يعتصرها التفكير.

«ستتوتَّر هي إذا مكثتِ في لندن الليلة ... أليس كذلك؟»

ابتسمت وهزَّت رأسها.

«كلا. سأمكث في الشقة؛ لطالما مكثت وحدي هناك، ولكن هذا ليس ضروريًّا. سأرسل إليها برقية أطلب منها أن تستقلَّ أول قطار.»

«مهلًا.» رفع يدًا مختالة وعاد مسرعًا إلى غرفته. وعاد بحُزمة من نماذج البرقيات. وقال بلهجةٍ آمرة: «اكتبي برقيتك. وسيُرسلها أحد الموظفين على الفور.»

أخذت الورقة الفارغة بامتنانٍ وكتبتْ عليها مستجِدَّات موقفها والطلب.

وقالت: «شكرًا لكَ.»

انحنى الدكتور أوبيرزون، وتوجَّه إلى الباب، ثم انحنى مرة أخرى، وأغلق الباب خلفه.

ولحسن الحظ ومن أجل راحتها النفسية، لم يكن لدى ميرابيل ليستر الفرصةُ لتستشير مديرها أو تُحاول أن تفتح الباب. فلو أنها فعلت ذلك، لاكتشفت أن الباب كان موصدًا من الخارج. أما بالنسبة إلى البرقية التي كتبتها، فقد تحوَّلت إلى رمادٍ أسود في مِدفأته.

الفصل الثاني

رجال كورزون ستريت الثلاثة

كان المنزل رقم ٢٣٣ في كورزون ستريت منزلًا صغيرًا. وحتى أكثر السماسرة حماسًا، لن يصف أبعاده بأي حماس، لو أراد أن يكون صادقًا. لعله يُسهب في الحديث عن أوجُه جماله الأنيق، ويُشير بتوقير إلى تاريخه العريق، ويتحدث بصدق عن نظام التدفئة المركزية والتركيبات الكهربائية، ولكن من شأنه أن يُعطي انطباعًا، بأن المنزل رقم ٢٣٣ كان صغيرًا للغاية، هذا لو كان رجلًا أمينًا في وصفه.

كان المنزل مطوقًا بقصرين حديثين، ذوَي واجهة صخرية، وأبواب معدنية وزجاجية تعكس بريق الضوء ليلًا. وكلاهما يفوق ارتفاع السطح المتواضع للمنزل المجاور بعدة طوابق؛ يبدو المنزل رقم ٢٣٣ وكأنه رجل ضئيل الحجم محشور وسط حشد وعاجز عن الهروب، وهناك على واجهته الناعمة ثمة انطباعٌ خادع على الاستكانة الصامدة والخنوع.

أما بالنسبة إلى ذلك الجزء الذي يقع فيه هذا المنزل من كورزون ستريت، فكان المنزل في حدِّ ذاته يُعد مخالفة، وكان يُعتبر مصدرًا للإزعاج من كل النواحي ما عدا الناحية القانونية. لقد رفض قاضٍ خبيرٌ من قضاة المحكمة العليا الذي قُدِّمت إليه دعوى باسم أصحاب العقارات المجاورة، وملَّاك الأراضي وأمثالهم، إصدارَ أمرٍ قضائي «لمنع المدعو جورج مانفريد من إدارة عمل خاص، أي وكالة ذا ترايَنجل للتحقيقات الخاصة، في المنزل السالف الذكر رقم مائتين وثلاثة وثلاثين كورزون ستريت بمدينة وستمنستر في مقاطعة ميدلسيكس.»

وفي مقال رأي احتلَّ ثلث عمود بجريدة ذا تايمز، عرَض رأيه الشخصي بأن المحقِّق السري هو رجل يُمارس مهنة، وليس تاجرًا، وهو رأي كان ولا يزال محلَّ خلاف إلى الأبد.

هكذا ظل المثلث الفِضي الصغير مثبتًا على الباب وواصلَ هو مقابلة عملائه، وهم قلة؛ لأنه حريصٌ جدًّا أن يقبل فقط أولئك الذين يُفسحون المجال أمام إظهار عبقريته.

لاحظ كورزون ستريت — أو أولئك القاطنون فيه الذين يُلاحظون أبسط الأشياء — أنه رجل طويل، ووسيم على نحوٍ لافت للنظر، ذو وجه أرستقراطي وأكتافِ شخص رياضي، يرتدي ملابس أنيقة جدًّا في جميع المناسبات. كان يُعد إعلانًا متحركًا لخياطٍ عصري جدًّا في هانوفر ستريت من شأنه أن يموت رعبًا من مجرد فكرة نشر إعلان. كان أصحاب السيارات يتوقفون عند التقاطعات المزدحمة يُحدقون في سيارته الليموزين، ويشاهدون وجهه الرجولي المسمر الحادَّ الملامح ويظنون أنه واحدٌ من أطباء هارلي ستريت. بيد أن عددًا قليلًا جدًّا من الأشخاص يعرفونه على المستوى الاجتماعي. اعتاد دكتور إلفير، جراح سكوتلاند يارد، زيارة كورزون ستريت أحيانًا والإعلان عن آرائه المذهلة بخصوص الأفعى ومواقع ظهورها، وكان جورج مانفريد وصَديقاه يستمعون في صمت ولا يعرضون أيَّ مساعدة. وباستثناء إلفير ومساعد مفوض الشرطة، وهو رجل كتوم، اعتاد الزيارة في لحظات غريبة ليُدخن الغليون ويتحدثَ عن ذكريات الماضي، كان عدد الزوار الاجتماعيِّين قليلًا وعلى أوقات متباعدة.

كان سائقه — الذي هو خادمه في الوقتِ ذاتِه معروفًا أكثر منه. وفي المَرْأب الذي كان يبيت فيه سيارته، يُطلقون عليه اسم «البرق»، كان هناك اتفاقٌ عام بأن هذا الرجل ذا الوجه النحيف والعينين الشغوفتين سيلقى — عاجلًا أو آجلًا — النهايةَ المحتومة التي تنتظر جميع السائقين الذين يأخذون المنعطفات الحادة على عجلتين بسرعة ستين ميلًا في الساعة؛ كان بعض المنتقدين يشاهدون السيارة الكبيرة من طِراز سبانز على الطريق ثم يوبِّخونه فيما بعد، برفق أو بعنف، حسَب درجة ذعرهم.

كان عددٌ قليل يعرف كبير خدم السيد مانفريد، وهو شخص أجنبي كثُّ الحاجبين، قوي البِنية ومتجهم بعضَ الشيء. كان رجلًا قليلَ الكلام جدًّا حتى مع الطباخ والخادمتين اللتين تأتيان الساعة الثامنة صباحًا كلَّ يوم وتغادران المنزل في السادسة مساءً بالضبط؛ نظرًا إلى أن السيد مانفريد يتناول العشاء في الخارج معظم الليالي.

تقتصر إعلاناته على أكثر الصحف خصوصيةً، ولا يعلن باسمه الخاص؛ ولا تُجرى أي مقابلات شخصية إلا بمواعيدَ مسبقة، ومن ثَم جاءت زيارة السيد سام باربرتون مخالِفةً للقواعد بكل معنى الكلمة.

طرَق الباب في نفس اللحظة التي تُغادر فيها الخادمتان، ونظرًا إلى أنهما لا تعرفان الكثير عن عادات السيد مانفريد باستثناء أنه يحبُّ البيض المسلوق والسبانخ على الإفطار، سُمح للغريب بالدخول إلى قاعة الاستقبال، واستُدعي كبير الخدم الصموت من غرفته على الفور، لمقابلته.

كان الزائر رجلًا قصيرًا، وغليظ البنية ذا وجه أحمر قاتم ورأس أشيبَ وأصلع. وكان ملبسه وطريقة حديثه على نفس القدْر من الغِلظة. لاحظ كبير الخدم أنه لم يكن حرفيًّا عاديًّا لأن حذاءه كان من نوعٍ يُعرف باسم فيلدشونز. وهو حذاءٌ مصنوع من الجلد غير المدبوغ، أجزاء منه مبيضة باستخدام أشعة الشمس.

قال بصوتٍ عالٍ، وهو يدسُّ يده في جيب الصديري، ليخرج قصاصة جريدة ملطَّخة: «أريد مقابلة رئيس هذه الوكالة ذا ترانيجل.»

أخذها كبير الخدم منه دون أن ينبس ببنتِ شفة. كانت من جريدة كيب تايمز — كان من شأنه أن يعرفها من الخطِّ والمسافات حتى وإن لم يكن مطبوعًا على ظهرها إعلان السوق الخيرية للكنيسة في ضاحية وينبرج. لقد درس كبير الخدم مثل هذه الأشياء.

ردَّ قائلًا: «للأسف لن يُمكنك مقابلة السيد مانفريد دون موعد مسبق.» كان صوته وأسلوبه لطيفًا بالنسبة إلى رجل متجهِّم.

قال الرجل بعناد: «يجب أن أقابله، ولو جلست هنا طوال الليل.» ومَثَّلَ ثباتَه هذا بجلوسه القُرفصاء على الكرسي الموجود في القاعة.

لم تتحرَّك عضلةٌ واحدة في وجه الخادم. كان من المستحيل أن تُحدِّد ما إذا كان غاضبًا أم مستمتعًا.

«لقد اقتطعت هذه القصاصة من صحيفةٍ وجدتها على متن السفينة بنجيلا — رست في منطقة تلبري بعد ظهر اليوم — وجئتُ مباشرةً إلى هنا. ما كان لي أن أحلم بالمجيء على الإطلاق، كل ما أريده هو منافسة نزيهة لجميع الأطراف المعنيَّة. هذا الرجل البرتغالي الذي يُشبه اسمه ماركة سيجار ... فيلا، هذا هو! قال: «ما فائدة الذَّهاب إلى لندن بينما يُمكننا تسوية كل شيء على متن السفينة؟» ولكنه نصف برتغالي! يا إلهي، أنا أُفضل أن أتعامَل مع أهل قبيلة البوشمن! البوشمن متحضرون ... انظر.»

وقبل أن يُدرك الخادم ما الذي يفعله الرجل، كان قد خلع فردة حذائه القبيح. لم يكن يلبس أيَّ شراب أو جورب تحتي، ورفع أخمص قدمه العارية للفحص. كانت بشَرتُه مجعَّدة ومتغضنة على هيئة نتوءات حمراء، عرف الخادم السبب.

قال الزائر باختصار وهو يلبس حذاءه مرةً أخرى: «برتغالي.» وتابع: «لا زنجي ... نصف برتغالي ... مهجَّن، أعترف بذلك. لقد أحرَقوني ليجبروني على التحدُّث، وكانوا سيقتلونني لولا أن جاء واحدٌ من هؤلاء التجار الأمريكيين المتحمسين — تملؤه روح المقاومة والشراسة. جاء بي إلى البلدة.»

سأله الخادم: «أين حدث هذا؟»

«موسامادس: ذهبت إلى الشاطئ في جولة، كأحمق. كنت على متن سفينة ركَّاب في طريقها إلى بوما. كان قبطان السفينة من الهن، ولكنه أبيض البشرة؛ لقد حذَّرني.»

«وما الذي كانوا يريدون معرفته منك؟»

رمَق الزائر مستجوبه بنظرات مريبة.

وسأله بحدة: «هل أنت مدير الوكالة؟»

«كلا ... أنا رئيس خدم السيد مانفريد. ما اسمك حتى أبلغه؟»

«باربرتون ... السيد صامويل باربرتون. أخبِره بأنني أريد اكتشاف أشياء معينة. عُنوان فتاة تُدعى الآنسة ميرابيل ليستر. وسأخبِر مديرك بشيء آخر أيضًا. هذا البرتغالي أصبح ثملًا ذات ليلة، وأفشى السر بخصوص الحصن الذي لديهم في إنجلترا. يبدو أشبهَ ببيت ولكنه حصن، وذهب إلى هناك ...»

كلا، لم يكن ثملًا؛ انحنى رئيس الخدم ليلتقط عود ثقاب وهميًّا، فاقترب رأسه من الزائر؛ كانت هناك رائحة تبغ قويةٌ لا خمر.

سأله، ثم صعد درجات السُّلم واختفى: «هلا تتكرَّم بالانتظار؟»

لم يكن قد غاب مدةً طويلة حتى عاد إلى عتبة السُّلم وأشار إلى السيد باربرتون ليأتي. اقْتِيد الزائر إلى غرفةٍ في الجزء الأمامي من المنزل، غرفة صغيرة، وقد صارت أصغرَ بسبب الستائر الرمادية المخملية الطويلة المنسدلة وراء المكتب العتيق الذي وقف وراءه مانفريد.

«هذا هو السيد باربرتون، يا سيدي» قالها رئيس الخدم، ثم انحنى، وخرج مغلِقًا الباب وراءه.

«اجلس، يا سيد باربرتون». أشار إلى كرسيٍّ ثم جلس. واستطرد قائلًا: «أخبرني رئيس الخدم بأنك تريد أن تُخبرني بقصةٍ مثيرة جدًّا — هل أنت من مدينة كيب؟»

أجاب السيد باربرتون: «كلا، لست من هناك.» وأضاف: «لم أذهب إلى مدينة كيب في حياتي قط.»

أومأ الرجل الجالس خلف المكتب برأسه.

«الآن، هلا تخبرني ...»

جاء الرد القاطع على نحوٍ مدهش: «لن أقول لك الكثير.» وتابع: «ليس من المحتمل أن أخبِر شخصًا غريبًا بما لم أُخبِر إيليا واشنطن به — وقد أنقذ حياتي!»

لم يُظهِر مانفريد أيَّ استياء من هذا التوجُّه الحذِر. ففي تلك الغرفة، التقى بالكثير من العملاء الذين أبْدَوا القدْر نفسَه من التردد لقَبوله أمينًا على أسرارهم. ولكن ساوره شعورٌ مترسخ في ذهنه بأن هذا الرجل، على عكس البقية، ربما يظل عنيدًا حتى النهاية؛ كان لديه فضول لاكتشاف الهدف الحقيقي من الزيارة.

سحب باربرتون كرسيَّه بالقرب من طاولة الكتابة وأسند مرفقيه على الحافة.

«الأمر كالتالي، يا سيد، أيًّا كان اسمك. ثَمة سرٌّ معيَّن لا يخصُّني، وإنما له علاقة بي بطريقة أو أخرى. وتساوي قيمته الكثيرَ من المال. إن السيد إيليا واشنطن يعلم ويحاول أن يبتزَّني، وفيلا لديه عصابة من البحَّارة الأفارقة من ليبيريا الذين أحرقوا قدمي، ولكني لم أُفشِ السرَّ بعد. ما أريدك أن تفعله هو أن تبحث عن الآنسة ميرابيل ليستر، وأريد منك أن تصل إليها بسرعة؛ لأنه ليس أمامنا وقتٌ سوى أسبوعين فقط، إذا كنت تفهمني، قبل أن تنشط هذه العصابة الأخرى — من المؤكد أن فيلا أرسل إليهم برقية، وحسب كلامه فإنها عصابة عنيفة!»

أراح السيد مانفريد ظهره على كرسيِّه المبطَّن، ولاح بريقُ ابتسامةٍ مرحةٍ في عينيه الرماديتين.

«فهمتُ أن ما تريد منا القيام به هو البحث عن الآنسة ليستر؟»

هز الرجل رأسه بحماس.

«هل لديك أدنى فكرة أين يمكن العثور عليها؟ هل لديها أيُّ أقارب في إنجلترا؟»

قاطعه الرجل قائلًا: «لا أعرف.» وتابع: «كل ما أعرفه أنها تعيش هنا في مكانٍ ما، وأن والدها تُوفِّي قبل ثلاث سنوات، في التاسع والعشرين من مايو — اكتب هذه الملاحظة: تُوفِّي في إنجلترا في التاسع والعشرين من مايو.»

كانت هذه معلومةً مهمة، تسهِّل البحث، حسب اعتقاد مانفريد.

قال، وهو يرفع نظره عن دفتر ملاحظاته: «ستخبرني عن الحصن، أليس كذلك؟»

تردَّد باربرتون.

ثم قال معترفًا: «كنت لأفعل، ولكن لست واثقًا من أنني سأفعل الآن، حتى أعثر على هذه الفتاة. ولا تنسَ»، ثم ضرب على الطاولة ليؤكد كلماته «هذه العصابة عنيفة!»

سأله مانفريد بروح دعابة: «أي عصابة؟» كان يعرف «عصابات» كثيرة، وتساءل عما إذا كان زائره يتحدَّث عن عصابة تشغل تفكيره هو نفسه.

قال السيد باربرتون الذي تحدَّث بتروٍّ شديد، وكان من الواضح أنه يزنُ كل كلمة يتفوه بها خشيةَ أن يشيَ بسرِّه دون قصد: «العصابة التي أتحدث عنها.»

بدا أن هذه هي آخر مطالبه؛ إذ إنه قام ووقف على نحوٍ مرتبك قليلًا، وأخذ يُفتش جيبه الداخلي.

قال مانفريد، مخمنًا نيَّته: «لا يتوجب عليك دفعُ أي نقود». ثم أضاف: «ربما، حين نُحدد مكان الآنسة ميرابيل ليستر التي تبحث عنها، سنطلب منك أن تردَّ لنا النفقات التي أنفقناها.»

شرع الرجل يقول: «يمكنني تحمُّل النفقات ...»

«ونحن يمكننا الانتظار.» ظهر بريق التسلية مرةً أخرى في عينيه العميقتين.

بينما ظلَّ السيد باربرتون واقفًا في مكانه.

«ثمة شيء آخر أودُّ أن أطلبه منك. أنت تعرف كلَّ ما يدور في هذه البلاد، أليس كذلك؟»

قال الآخرُ بجدية تامة: «ليس كل شيء بالضبط.»

«هل سبق لك أن سمعت عن رجال العدالة الأربعة؟»

كان سؤالًا مفاجئًا. مالَ مانفريد إلى الأمام كما لو أنه أخطأ السمع.

«الأربعة؟»

«رجال العدالة الأربعة — الثلاثة، في واقع الأمر. أودُّ أن أتواصل مع هؤلاء الرجال.»

أومأ مانفريد برأسه.

ردَّ قائلًا: «أظن أنني سمعت عنهم.»

«إنهم بمكانٍ ما في إنجلترا الآن. لقد حصلوا على عفو: لقد رأيت هذا في جريدة كيب تايمز — الجريدة التي اقتطعتُ منها الإعلان.»

قال مانفريد ودار حول الطاولة وفتح الباب: «آخر شيء سمعته عنهم، أنهم كانوا في إسبانيا». ثم أضاف: «لماذا تريد أن تتواصلَ معهم؟»

قال السيد باربرتون على نحوٍ مؤثِّر: «لأن العصابة خائفةٌ منهم؛ هذا هو السبب.»

سار مانفريد مع ضيفه إلى عتبة السُّلم.

قال مبتسمًا: «لقد أغفلت معلومةً مهمة، ولكن لن أسمحَ لك بالمغادرة حتى تخبرني. ما عنوانك؟»

«فندق بيتورث، نورفولك ستريت.»

نزل باربرتون على السُّلم؛ كان الخادم ينتظر في القاعة ليقوده إلى الخارج، دسَّ السيد باربرتون الذي كان يجهل أن مثل هذه الأمور معتادةٌ في البيوت الأرستقراطية،

عملةً فِضية في يده. تمتم الرجل المتجهِّم معربًا عن شكره: زاد قليلًا في انحناءة رأسه لأسفل، كان موقفه مراعيًا أكثر قليلًا.

أغلق الباب الأمامي وأوصده وصعد السُّلم ببطء متوجهًا إلى غرفة المكتب. كان مانفريد جالسًا على المكتب العتيق، يُشعل سيجارة. جاء السائق-الخادم عبر الستائر الرمادية ليأخذ الكرسيَّ الذي جلس عليه السيد باربرتون.

قال بويكارت، كبير الخدم: «أعطاني نصف كراون؛ يا له من رجل كريم». وتابع: «لقد أعجبني، يا جورج.»

قال السائق الذي كان اسمه الحقيقي ليون جونزاليس: «تمنيت لو أني رأيت قدمَيه.» تحدَّث بنبرة نادمة. ثم قال: «هو ينحدر من مقاطعة ويست ساسكس، وفي عائلته ضرْبٌ من الجنون. الفَصُّ الأيسر متكاسلٌ قليلًا والوجه غير متماثل.»

تمتم مانفريد، وهو ينفث سحابة دخان في اتجاه السقف، قائلًا: «المسكين!» ثم أضاف: «يا لها من تجربة رائعة أن يُقدِّم المرء أصدقاءه لك، يا ليون.»

قال ليون، وهو يمد يده ويأخذ سيجارًا من العلبة الذهبية المفتوحة والموجودة على الطاولة: «لحسن الحظ، ليس لديك أصدقاء». وتابع: «حسنًا، ما رأيك في لغز السيد باربرتون؟»

هز جورج مانفريد رأسه.

«لقد كان غامضًا، وغير مرتَّب، مع رغبته في أن يصبح دِبلوماسيًّا. ماذا عن اللغز الخاص بك، يا ليون؟ لقد كنت بالخارج طوال اليوم ... هل توصلت إلى حل؟»

أومأ جونزاليس.

قال بويكارت، وهو محلِّل متأنٍّ وواثق من نفسه: «باربرتون خائفٌ من شيءٍ ما». وتابع: «إنه يحمل مسدسًا بين بنطاله والصديري — هل رأيت ذلك؟» أومأ جورج برأسه.

«السؤال هو مَن هي العصابة، أو أيَّ عصابة يقصد؟ السؤال الثاني هو أين الآنسة ميرابيل ليستر، ومَن تكون؟ والسؤال الثالث هو لماذا أحرقوا قدمَي باربرتون؟ أظن أن هذا كل شيء.»

اندفع وجه جونزاليس الذي بدا عليه الاهتمامُ عبر سحابة دخان.

قال: «سأجيب عن أغلب الأسئلة وسأطرح اثنين آخرَين». وتابع: «ميرابيل ليستر تسلَّمتْ وظيفةً اليوم في شركة أوبيرزون — سكرتيرة مختبر!»

قطَّب جورج مانفريد جبينه.

«مختبر؟ لم أكن أعرف أنَّ لديه مختبرًا.»

«لم يكن لديه قبل ثلاثة أيام مضت — لقد أُعدَّ في غضون اثنتين وسبعين ساعة على أيدي خبراء يعملون ليلًا ونهارًا؛ وكانت تكلفة تجهيزه ألفًا وسِتَّمائة جنيه — وقد خرج إلى النور ليُعطيَ أوبيرزون مبررًا من أجل توظيف ميرابيل ليستر. لقد أرسلتني لأستفسر عن ذلك الإعلان الغريب الذي أربكَنا يوم الإثنين بأكمله — ولقد استفسرت عنه بالفعل. كان مُصرًّا لجلب الآنسة ليستر إلى مؤسسة أوبيرزون. ولقد اتفقنا جميعًا حين اكتشفنا مَن صاحب الإعلان، أن أوبيرزون يعمل من أجل شيءٍ ما — راقبت مكتبه يومَين، وكانت هي المتقدمة الوحيدة للوظيفة — وكان خطابها هو الخطابَ الوحيد الذي ردُّوا عليه. تناول أوبيرزون الغداء معها في فندق ريتز كارلتون — وباتت ليلتَها في تشيستر سكوير.»

ساد الصمت ليكسره بويكارت.

فسأله بنبرةٍ لطيفة: «وما السؤال الذي ستطرحه؟»

قال مانفريد وهو يهزُّ رأسه: «أظن أنني أعرف». وتابع: «السؤال هو: كم تبقَّى من الوقت في حياة السيد سامويل باربرتون؟»

قال جونزاليس بنبرةٍ تنم عن الرضا: «بالضبط». ثم أضاف: «لقد بدأت تفهم عقلية أوبيرزون!»

الفصل الثالث

الثأر

ربما يبدو الشخصُ الذي زار مكتب الدكتور أوبيرزون هذا الصباح دون سابق إنذار وكأنه خارجٌ للتو من إحدى صفحات كتالوج أزياء الرجال. فمظهره كان عصريًّا، على نحوٍ مُبالغ فيه، بالنسبة إلى الأشخاص العاديين. فقفازاه ذوا اللون الليموني، وحذاؤه اللامع، وقبَّعته الحريرية الأنيقة، وطرَف منديله الذي يظهر بانضباطٍ شديد، كلُّها أشياء كانت كفيلةً بلفتِ الأنظار إليه حتى لو كان موجودًا وسط حلبة اسكوت لسباق الخيول في يوم السباق على الكأس. كان وسيمًا، هادئًا، وإن كان وجهه ممتلئًا قليلًا، وله شاربٌ أسمر صغير مائلٌ للصفرة، ويلبس نظارة أحادية العدسة. إن غير المعجبين بالكابتن مونتي نيوتن — وهم كُثُر — يقولون عنه إنه يطمح إلى الوصول إلى صورة البواب من وجهة نظر الخادمات. إلا أنهم لم يُصرِّحوا بذلك علانيةً؛ لأنه كان أهلًا للاسترضاء لا الإساءة. فقد كان ثريًّا، ويمتلك منزلًا في الريف، وقصرًا في تشيستر سكوير، ومجموعة متنوعة من السيارات. كان عضوًا في العديد من الأندية المتميزة، ولم تتردَّد أيٌّ من لجان تلك الأندية في التعلل بمرحلة الحرب حتى يُناقشوه في أمرِ انتخابه لرئاسة النادي. لا أحد يعلم مصدر ثروته، فإن كان وريثًا، فمن هو المورِّوث؟! وكان يحرص على إقامة حفلات فخمة، ويجيد لعب الورق، فهو يتمتَّع بحظ هائل، لا سيما إن كان هو مَن يُدير اللعبة ويتولى دور توزيع الورق والأموال، عقب إحدى حفلات العشاء الرائعة التي يُقيمها في قصره في تشيستر سكوير.

«صباح الخير، يا أوبيرزون! كيف حال سميتس؟» كانت تلك دعابته المفضلة؛ لأنه لا وجود لسميتس، ولم يكن له وجودٌ في الشركة منذ عام ١٨٩٦.

نظر الدكتور إلى أعلى، بعد أن كان محدقًا في البرقية التي يكتبها.

وقال بلهجة حاسمة: «صباح الخير، يا كابتن نيوتن.» وقف نيوتن وراءه وقرأ الرسالة التي يخُطُّها. كانت موجَّهةً إلى «السيدة ألما جودارد، مزرعة هيفيتري، داينهام، جلوستر»، وجاء فيها:

«حصلت على المركز الجيد. لا يمكنني العودة على نحوٍ متعجِّل الليلة. أنا نائمةٌ في شقتنا الجميلة في داوتي كورت. لا تأتي حتى أرسلً في طلبك. الآنسة ميرابيل ليستر.»

نظر الكابتن نيوتن إلى باب المختبر متسائلًا: «إنها هنا، أليس كذلك؟ أنت بالطبع لن تُرسل هذه البرقية، صحيح؟ «الآنسة ميرابيل ليستر!» «العودة على نحو متعجل!» سيجعلها ذلك تكشف الخدعة في لحظة. مَن هي ألما جودارد؟»

أجابه أوبيرزون قائلًا: «إنها العمة. لم أكن أنوي إرسالها حتى تراها أنت. إنجليزيتي فصيحة بشكل مُبالغ فيه.»

أفسح المجال للكابتن نيوتن الذي أمسك بورقةٍ من الرف الذي وضع عليه قبَّعته الحريرية بحرصٍ شديد، وخلع قفازيه ووضعهما داخل قبعته، وجلس على المقعد الذي نهض من فوقه الرجل الأكبر سنًّا، وشد بنطاله المهندم من عند الركبتين ليرفعه، ومزَّق ترويسة البرقية، وكتب الآتي تحت العنوان:

«حصلت على الوظيفة. يا لسعادتي! عزيزتي لا تُكلِّفي نفسك عناء المجيء، حتى تستقرَّ أموري هنا. سأبيت في الشقة كالمعتاد. سأصبح منشغلة جدًّا ولن أستطيع مراسلتك. احتفظي برسائلي. ميرابيل.»

طالع الكابتن نيوتن ما كتبه بنظرةٍ توحي برضاه التام عنه، قائلًا: «هذا لا يبدو مصطنَعًا. أرسلها.»

ونهض ومدَّد ساقَيه أمام المدفأة.

وقال: «لعل الجزء الأصعب من المهمة هو إقناع السيدة بالمجيء إلى تشيستر سكوير.»

بدأ أوبيرزون الحديث قائلًا: «بيتي الصغير ...»

ضحك نيوتن ضحكة مدوِّية، وردَّ عليه قائلًا: «سيخيفها حتى الموت. ذلك الجحر! كلا، إما تشيستر سكوير وإما لا شيء. سأطلب من جوان أو إحدى الفتيات الأخريات، الذَّهابَ إلى هناك بعد ظهر اليوم لمرافقتها. متى ستصل السفينة بنجيلا؟»

«ستصل بعد ظهر اليوم؛ لقد حجز الشخص باللاسلكي غرفةً بفندق بيتورث.»

«نورفولك ستريت ... حسنًا! دَع أحد رجالك يستقبِلْه ويُراقبه. ليزا؟ سيكون ذلك أفضلَ بكثير. سيتوق هذا الحثالة إلى الحديث مع امرأة. لا أظنه رأى امرأةً بيضاء منذ سنوات. يجب عليك فصلُ فيلا — هذا الوحش الفظ! لا شك أن الرجل يأخذ حِذْره الآن.»

صاح أوبيرزون بشراسة: «فيلا هو أفضل رجالي في الساحل الأفريقي.» إذ لا يوجد شيء يثير غروره المدهش مثل التشكيك في قدراته التنظيمية.

أخرج كابتن نيوتن مبسمَ سيجارة طويلًا من الأبنوس من جيب معطفه، وأخرج علبة رفيعة من البلاتين وأشعل سيجارةً بحركة واحدة خاطفة، وقال: «كيف أحوال التجارة؟»

أجابه بقوله: «سيئة!» ولكن أخطأ الدكتور أوبيرزون في نطقها، فهو يصعب عليه نطقُ الكلمات بطريقة صحيحة عندما يكون منزعجًا. وتابع قائلًا: «لا يوجد شيء سوى النفقات!»

ذات مرة حققت شركة أوبيرزون آند سميتس عائدًا هائلًا من بيع الكحول الاصطناعي. وكانوا يعملون، من بين أنشطة أخرى، بالتجارة في الساحل الأفريقي. ويشترون المطاط والعاج، ويُسدِّدون بالأقمشة والخمور. ويبيعون الأسلحة سرًّا، ويُخطِّطون لحروب قبَلية؛ طمعًا في تحقيق أرباح أكبر، وكانوا الممولين لثورتين على الأقل داخل البرتغال. وتوسَّعت أعمال الشركة، مع ازدياد حجم ثروتها. وأنتجت الورش البلجيكية والفرنسية المزيد والمزيد من البنادق. وكانوا يُخطِّطون إلى نقل قناعاتهم إلى مجالاتٍ أكثرَ نشاطًا، بدءًا من المتمردين الأكراد، والجنرالات الصينيين الطموحين، ووصولًا إلى رجال السياسة في أمريكا الجنوبية. فلا توجد دولة في العالم لا تضم عميلًا لأوبيرزون آند سميتس، وتكلفة العملاء قد تُصبح باهظة. أما الآن فالعالم ينعم بالسلام ولكنه سلامٌ يبعث على القلق. فقد أخفق اندلاع ثورة في فنزويلا إخفاقًا ذريعًا، ولم تتلقَّ أوبيرزون آند سميتس أموالًا مقابل شحنتين من الأسلحة الفتاكة التي طلبها أحد الجنرالات؛ إذ إنه بعد يومين من تفريغ الأسلحة، أخذه جنود الحكومة التي كان يتمرد ضدها ووضعوه أمام جدار طيني، وأمطروه بوابل من الرصاص حتى الموت. «لكن هذا لا يهم.» استبعد أوبيرزون ظروف التجارة السيئة من عوامل الحياة المعتبرة. وتابع: «ستنجح هذه المهمة، وسأصبح حرًّا لجيدًا أعاقب ...»

صحَّح له الشخصُ المحبُّ لتصحيح لغته، وهو يُمرِّر إصبعه فوق شاربه قائلًا: «لتُعاقب جيدًا». وأضاف: «قُلها هكذا، يا إيريك، هذا سخيف. هل تفكِّر في مانفريد وجونزاليس وبويكارت؟ دعهم وشأنهم. لا أهمية لهم!»

زمجر الدكتور، وتبدلت ملامحُه معلنةً عن غضبه، وقال: «لا أهمية لهم!» وتابع: «أتطلب مني أن أدعَهم وشأنهم؟ بأي حق؟ بحق أخي الشهيد القديس، في جنات الخلد!»

ثم دار، وأمسك بشُرَّابة الخيوط الحريرية المتدلية فوق المدفأة، وسحب صورة، لا خريطة. كانت مرسومة من صورةٍ رسمها فنانٌ متخصص في رسم اللافتات الصارخة التي تعلَّق أمام الأكشاك في جميع المعارض الريفية. في هذا الوضع شكَّلت الصورة الزيتية غيرُ المتقنة تناقضًا صارخًا؛ إلا أن الدكتور أوبيرزون كان يرى أن جمالها يفوق جمال روائع متحف برادو. كانت صورة بالحجم الطبيعي لرجلٍ يرتدي معطفًا طويلًا. يستند إلى قاعدة تمثال في وضعٍ جسماني يظنه المصورون المبتذلون قمةً في الجمال. بدت ملامحُ وجهه الضخم، التي حرَص الفنان على جعلها تبدو مثالية، وحشية وغبية. وكانت شفتاه القرمزيتان متباعدتَين قليلًا بابتسامة متكلَّفة. ويحمل في إحدى يديه لِفافةً من الورق، وفي اليد الأخرى قبعة ديربي مستديرة، كانت خارج إطار اللوحة إلى حدٍّ كبير.

صاح دكتور أوبيرزون بصوت مختنق قائلًا: «أخي!» وتابع: «قُتل أدولف ... القديس! على يد المدعوِّين برجال العدالة الثلاثة ... أخي!»

غمغم كابتن نيوتن، دون أن يتكلَّف عناء النظر لأعلى، قائلًا: «هذا مثيرٌ للغاية.» ونفض رماد سيجارته داخل المدفأة ولم يتفوَّه بالمزيد. لا شك أن أدولف أوبيرزون لقي حتفه على يد ليون جونزاليس؛ فهذه حقيقة لا خلاف عليها. كان أدولف، لحظةَ وفاته، يُحاول جني الأرباح الوافرة التي يحصل عليها أولئك الذين ينخرطون في أعمال التجارة الشائنة بين أوروبا ودول أمريكا الجنوبية، التي كانت أقلَّ عرضةً للتساؤل عن مصدرها. ثمة فتاة متورطة في الأمر، وتبع ليون ذلك الرجلَ إلى بورتو ريكو، والتقيا في مقهى الفضائل السبع. كان أدولف قاتلًا محترفًا وسحب مسدسه أولًا — ومات أولًا. تلك هي قصة أدولف أوبيرزون، إنها قصة فتاة أعادها ليون جونزاليس إلى أوروبا رغم انتمائها لمكانٍ آخر. ووقعت في حب منقِذها وأخافته حتى الموت.

ترك الدكتور أوبيرزون اللوحة تُطوى لأعلى سريعًا، وأطلق تنهيدةً طويلة، وانهمرت الدموع من عينيه الشاحبتين.

قال الكابتن بابتهاج: «أجل، هذا محزن، محزن جدًّا». ثم أضاف: «والآن، ماذا عن هذه الفتاة؟ لا أرغب في أي قسوة أو عنف، هل تفهم، يا إيريك؟ أريد أن تسير الأمور بسلاسة. حاوِل انتزاع رجال العدالة من تفكيرك؛ لأنهم توقَّفوا عن العمل. عندما يتنازل

المرء ويكتفي بإدارة وكالة تحقيقات خاصة فإنه يتمسَّك بأساليبَ قديمة. فإذا بادروا بفعل أيِّ شيء فسنتعامل معهم عِلميًّا، أليس كذلك؟ علميًّا!»

ابتسم لهذه المزحة الجيدة. من الواضح أن الكابتن نيوتن لم يكن معتمدًا على شركة أوبيرزون آند سميتس. فإن لم يكن هو الشريكَ المسيطر، فإنه المسيطر بالفعل على الفرع الذي عمل فيه ذات يوم في منصبٍ صغير. إنه مَدين بالكثير لوفاة أدولف — لم يأسف أبدًا على وفاة ذلك الرجل البغيض.

«سأطلب من إحدى الفتيات أن تزورها وتتفقدها بعد ظهر اليوم، أين مفكرة هاتفك — تلك التي تُدوِّن بها الرسائل التي تصِلُك؟»

فتح الدكتور دُرجًا في مكتبه، وأخرج دفتر مذكرات صغيرًا، ووجد نيوتن قلمًا فأمسك به وكتب الآتي:

> «إلى ميرابيل ليستر، عناية أوبيرزون (هاتف) لندن. آسفة لم أستطِع المجيء الليلة. لا تبيتي في الشقة بمفردك. لقد أرسلت برقية إلى جوان نيوتن لتُرافقك الليلة. ستتصل بكِ — ألما.»

«تفضَّل»، قالها الكابتن الأنيق وهو يُسلِّم الآخر دفتر المذكرات. وتابع قائلًا: «هذه الرسالة وصلت بعد ظهر اليوم. جميع البرقيات الواردة إلى أوبيرزون تصل عبر الهاتف — لا تنسَ ذلك أبدًا!»

أشاد الدكتور أوبيرزون بصنيعه وقال بلهجةٍ تُظهر التبجيل والإعجاب: «يا لذكائك!»

«اصحبها لتناول الغداء ... بعد الغداء أعطِها الرسالة. وعند الساعة الرابعة عصرًا، ستُرافقها جوان أو إحدى الفتيات الأخريات. ثم عشاء فخم. وغدًا ستكون في المكتب — هكذا بلطف، وسلاسة. إذا تعجَّلت في تنفيذ هذه المخططات فستبوء خُططك بفشل ذريع.»

نظر إلى الباب مرةً أخرى.

وأشار قائلًا: «لا أعتقد أنها ستخرج، أليس كذلك؟»

«سيصبح الأمر محرجًا إن خرجَت ورأت شقيق الآنسة نيوتن!»

أجابه الدكتور أوبيرزون بفخر: «لقد أوصدت الباب.»

تبدَّل حال الكابتن نيوتن، وامتقعَ وجهه وبدَت عليه ملامح الغضب المفاجئ.

وخاطبه قائلًا: «يا لك من ... يا لحماقتك! لا تُوصِد الباب عندما أنصرف، واحرص على ألَّا توصده! هل تريد إخافتها؟»

برَّر السويدي فعلتَه قائلًا: «رأيت ألا أُخاطر.»

«نفِّذ ما أقوله لك.»

نفض الكابتن نيوتن معطفَه النظيف بأطراف أصابعه. وأخرج قفازَيه، وضبط قبعته باستخدام مرآة صغيرة أخرجها من الجيب الداخلي لمعطفه، وأخذ عصاه الداكنة وغادر الغرفة.

غمغم الدكتور أوبيرزون مرةً أخرى قائلًا: «يا له من شخص ذكي!» وذهب إلى ميرابيل المتفاجئة ليدعوَها لتناول الغداء.

الفصل الرابع

هجمات الأفعى

نجح المطعم الرائع، بأجوائه التي تعكس الفخامة والثراء، في التخفيف قليلًا من قلق ميرابيل. فالطاولات المزدحمة، والإضاءات الخافتة، ومهارة نادلي المطعم ورِباطة جأشهم كانت مثيرةً للإعجاب. فعندما أخبرها صاحب العمل الجديد بأنه من عادته اصطحابُ سكرتيرة المختبر عند تناول الغداء، متعللًا بقوله: «إنني لا أجد وقتًا آخرَ للحديث عن شئون العمل» وافقت على دعوته على مضض. إنها لا تعرف الكثير عن روتين العمل بالمكتب، لكنها شعرت بأنه ليس مألوفًا أن يُقلَّ رؤساء العمل موظَّفيهم ممن يعملون بوظيفة السكرتارية، من سيتي رود وصولًا إلى فندق ريتز-كارلتون لتناول وجبة غداء باهظة الثمن في منتجعٍ فاخر خاص بالطبقة الراقية وذَوي الذَّوق المرهف. وزاد من توترها أن رفيقها كان محطَّ أنظارِ كلِّ من يراه. فالمجتمعون على مأدبة الغداء المبهرة نسُوا أطباقهم والتفُّوا ليُحدقوا في الرجل ذي المظهر الاستثنائي بجبهته البارزة.

لمحت ميرابيل رجلًا ذا وجهٍ مألوف بشدة جالسًا بمفرده على طاولة صغيرة. كان له وجه نحيل متوهج، وعينان تشعان بالحماس والبهجة. تساءلت أين رأته من قبل؟ ثم تذكَّرت أنَّ ملامحه تُشبه ملامح السائق، الشخص الذي تتبَّعها إلى مكتب أوبيرزون عندما وصلت ذلك الصباح. كان ذلك منافيًا للعقل بالطبع؛ لأن هذا الرجل ينتمي للطبقة المترفة، التي تعتاد تناول الغداء في فندق ريتز-كارلتون. ولكن الشبه بينهما كان استثنائيًّا.

سعدت بانتهاء وجبة الغداء. لم يتحدَّث الدكتور أوبيرزون عن «شئون العمل». بل إنه لم يتحدث مطلقًا، واكتفى بقضاء الوقت في التهام كميات هائلة من الطعام ودسِّها في فمه الواسع. كان يأكل بنهم، وصخب، وابتهجت ميرابيل لأن الفرقة كانت تعزف الموسيقى، وشعرت بالخجل لهذه الفكرة الغريبة التي راودتها وكتمتْ ضحكتها؛ لكن شعورها بالإحراج زال قليلًا.

لم يتبادلا أيَّ كلمة وهما داخل السيارة الكبيرة التي انطلقت بهما نحو المدينة. كان الدكتور منشغلًا بأفكاره وتجاهل وجودها. ولم يذكر إلا إشارةً وحيدة تخص الغداء بينما يُغادران الفندق، وذلك عندما تنازل وتحدَّث معها مُعبرًا عن سخطه الشديد بسبب سوء جودة القهوة الإنجليزية التي يُقدمونها. وسمح لها بالعودة إلى أعمال الوزن والقياس التي تؤديها دون إبداء أدنى اهتمام بسير عملها.

وفي وقتٍ ما بعد الظهيرة حان موعد المفاجأة المذهلة — التي تلَتْ وصول برقية محيِّرة من عمَّتها. كانت تزن كمية مسحوق كريه الرائحة عندما فُتح الباب، ودخلت الغرفةَ فتاةٌ نحيلة ترتدي ثيابًا أنيقة. ألقت عليها التحية وابتسمت لها بوجهها الصغير المحاط بكتلة كثيفة من خُصَل الشعر المموج ذي اللون البني المائل للذهبي. وحادثتها قائلة: «أنت ميرابيل ليستر، أليس كذلك؟ أنا جوان نيوتن — أرسلت لي عمَّتك برقيةً وطلبت مني زيارتك.»

سألتها ميرابيل في دهشة: «هل تعرفين عمتي؟» فهي لم تسمع ألما من قبلُ تتحدث عن أحدٍ باسم نيوتن، وفكَّرت بعدها في أن العمة ألما شخصٌ شديد التحفُّظ. وتوقَّعت ميرابيل أن تجد شخصًا عتيق الطراز في منتصف العمر، أدهشها أن تكون قريبتها، التي لا تحظى بقَبول اجتماعي، على صلة بإحدى فراشات المجتمع كهذه الفتاة.

أجابتها الزائرة: «أجل بالطبع، إننا نعرف ألما جيدًا». وتابعت: «صحيح أنني لم أرَها منذ صغري، ولكنها شخص عزيز.»

تفحَّصت المختبر بفضول.

وقالت باستياء: «يا له من مكانٍ كريه الرائحة!» ثم أضافت: «وما رأيك في السيد العجوز أوبيرزون؟»

اندهشت ميرابيل لهذه المصادفة، وسألتها: «هل تعرفينه؟»

فأجابتها: «أخي يعرفه؛ فأنا وأخي، نعيش معًا، وهو يعرف الجميع. لا بد للرجل الاجتماعي أن يفعل ذلك، أليس كذلك، يا عزيزتي؟»

انزعجَت ميرابيل قليلًا لسماعها مصطلح «رجل اجتماعي»؛ كما أن عبارة «عزيزتي» لم تكن معبِّرةً عن الحال. كل هذه التناقضات دفعَتها لإمعان النظر في زائرتها. كانت جوان نيوتن ترتدي ثيابًا أنيقة ولكن ليست متناسقة تمامًا. كان هناك شيءٌ مريبٌ — ولو كانت ميرابيل على درايةٍ أكبرَ بأمور الحياة، لأدركت أن الفتاة تأنَّقت بارتداء هذه الثياب لتلعب دور سيدة راقية بناءً على طلب أحد الأشخاص الذين لا يعلمون الكثيرَ عن أمور

الأناقة التي يتطلبها الدور. لم تكن تعلم شيئًا عن الكابتن نيوتن آنذاك، وإلا لكانت خمَّنَت أنه الشخص الذي تولَّى اختيار هذا الزي.

«سأُعيدك إلى تشيستر سكوير بعد أن يسمح لك السيد أوبيرزون بالانصراف — يا له من اسم مضحك! أليس كذلك؟ لقد أصرَّ مونتي على قدومي بالسيارة الرولز. مونتي هو أخي؛ إنه كلاسيكي جدًّا.»

تساءلت ميرابيل عما إذا كان قولها هذا يُشير إلى حب الشعراء اليونانيِّين أم أنه عشق لموسيقى الأوبرا القليلة التناغم. ولكن جوان (كان اسمها الحقيقي) لم تقصد إلا أنه يمتلك ذوقًا راقيًا، فكانت تلك إحدى عباراتها المفضلة؛ أما عبارتها الأخرى فهي «كئيب».

بعد مضيٍّ نصف ساعة، ضغط السائق الفضولي دواسة الوقود وانطلق بسيارته متتبعًا السيارة الرولز، متسائلًا عن القاسم المشترك بين ميرابيل ليستر وجوان أليس ميرفي، التي أحضرت العديد من الشباب الأثرياء إلى الطاولة الخضراء الخاصة بلعب الورق الموجودة في غرفة المعيشة الجميلة الخاصة بكابتن نيوتن، حيث تعلو الرهانات ويلعب كابتن نيوتن مع حظه الهائل الذي كان في صالحه.

قال جونزاليس برضًا: «إليك ما توصَّلت إليه. لقد أنجزت عملًا جيدًا اليوم. حيث عاد أوبيرزون إلى جُحره من جديد ليُخطط لثورات جديدة — أما الآنسة ميرابيل ليستر فهي موجودة في ٣٠٧، تشيستر سكوير. المهم الآن، أن نعرف ماذا سنفعل حتى ننقذَ حياة السيد سام باربرتون الثمينة؟»

بدا مانفريد قلقًا. وقال: «لا أُحبِّذ فكرة أن تقضيَ الفتاة ليلتها في منزل نيوتن.»

أجابه بويكارت بأسلوبه الفظ، متسائلًا: «ولمَ سمحت لها بالبقاء هناك؟»

أومأ ليون برأسه موافقًا: «بالضبط!»

تطلَّع جورج مانفريد إلى ساعته.

وقال: «من الواضح أن علينا رؤيةَ صديقنا باربرتون أولًا، فإن استطعنا إقناعه بالسهر برفقتنا، فسيمكننا تولِّي أمر البقية …»

رنَّ الهاتف محدِثًا صخبًا، وأمسك ليون جونزاليس بسماعة الهاتف.

«جلوستر؟ أجل.» غطَّى سماعة الهاتف بيده. وتحدَّث إلى رفيقيه قائلًا: «لقد طلبت من الآنسة ألما جودارد مهاتفتي — حيث عثرت على عُنوانها هذا الصباح: مزرعة هيفيتري، داينهام، قرب جلوستر — أجل، أجل، السيد جونسون هو المتحدث. أريد أن أطلب منك إبلاغ رسالة للآنسة ليستر، أوه، ليست موجودةً بالمنزل؟» أنصتَ ليون باهتمام، وبعد

دقائقَ قليلةٍ قال: «شكرًا جزيلًا لكِ. هل تُقيم في ساحة داوتي كورت؟ أرسلت لكِ برقية ... كلا، ليس بالأمر المهم. أنا ... إر ... أستاذ العلوم الذي كان يدرِّس لها قديمًا، ورأيت إعلانًا تقولين إنها رأته، أليس كذلك؟»

أغلق سماعة الهاتف.

وقال: «ليس لدينا ما نفعله». وتابع: «أرسلت الفتاة برقية تقول فيها إنها سعيدة بوظيفتها. لن تأتي العمة حتى تستقرَّ أمور الفتاة، وميرابيل ستبيت في داوتي كورت.»

قال مانفريد: «وفي مكان رائع جدًّا أيضًا». ثم أضاف: «بعدما رأينا السيد باربرتون فلن أُفاجأ إن لم تَبِت هناك في نهاية المطاف.»

يُعَد فندق بيتورث في نورفولك ستريت نُزلًا سَكنيًّا هادئًا، وهو المفضَّل لدى الزائرين الوافدين من جميع أنحاء العالم، لا سيما من جنوب أفريقيا. ظن موظف الاستقبال بالفندق أن السيد باربرتون كان بالخارج؛ أما الحمَّال فكان واثقًا أنه بالخارج.

قال كاتمُ أسرار العديد من الزوار: «لقد ذهب إلى الجسر، قال إنه يودُّ رؤية النهر قبل حلول الظلام.»

استقلَّ مانفريد السيارة إلى جانب ليون؛ فبويكارت كان لا يخرج إلا نادرًا، ولكنه جلس في المنزل محاولًا جمْع قِطع الأحجية بحثًا عن حلٍّ للغز النشاط الذي أربك كورزون ستريت. كان أمهرَ المحللين الاستراتيجيين؛ حتى إن سكوتلاند يارد أوكلت إليه التحقيق في بعض القضايا.

«إلى الجسر؟» قالها مانفريد وهو يتطلع إلى السماء الزرقاء الوردية. فقد غابت الشمس، ولكن لا يزال ضوء النهار موجودًا. «كنت لأقلق لو كانت أكثر ظلمة ... توقف، ها هو ذا الطبيب إلفير.»

مرَّ بهم جرَّاحُ الشرطة الضئيلُ البِنية، ولوَّح لهم بابتهاج ثم استدار عائدًا.

كان يميل لأن يُصبح دراميًّا فقال: «حسنًا، يا أبناء القانون، أيُّ مهمة انتقام مروعةٍ تقصدونها؟»

أجابه مانفريد، وهو يصافحه قائلًا: «نبحث عن رجلٍ يُدعى باربرتون لندعوَه إلى العشاء.»

«يبدو أمرًا بسيطًا؛ هل له أيُّ سمات خاصة قد تروق لي؟»

أجابه ليون على الفور قائلًا: «أجل، أقدام محترقة». وتابع: «إن كنتَ ترغب في معرفة كيف تستخلص إدارة المخابرات الساحلية المعلوماتِ من الضحايا الممتنعين عن الحديث، فلتأتِ معنا.»

تردَّد إلفير. كان رجلًا أكسبته شمسُ الهند الحارة سُمرة، وأصبح ذابلًا كالتفاحة الصفراء الجافة، وليس لديه أيُّ اهتمام في الدنيا بخلاف عمله.

قال وهو يدخل السيارة: «سأذهب معكم». وتابع: «وإن خذلَكم باربرتون، رجلكم المنشود، فيمكنكم استضافتي بدلًا منه. أودُّ سماع حديثكم. فالمرء لا يعلم الكثير عن العقل الإجرامي! والحياة أصبحت مملةً منذ توقَّفت لدغات الأفعى!»

انطلقت السيارة نحو جسر بلاكفرايارس، وأبقى مانفريد عينيه على الرصيف. لم يكن هناك أثرٌ لباربرتون، وأشار إلى ليون لينعطف عائدًا. وهكذا أصبحت السيارة تسير بجوار رصيف الجسر في الشارع العريض. لقد مروا أسفل جسر واترلو وكانوا بالقرب من مسلة كليوباترا، عندما لمح جونزاليس الرجلَ الذي يبحثون عنه.

كان متكئًا على السور، وقد وضع مرفقَيه على واجهة السور ورأسه غاطس للأمام وكأنه يتأمَّل اندفاع المد بالأسفل. توقفَت السيارة بالقرب من شرطي كان يُراقب هذا المتسكعَ بعناية. تعرَّف الشرطي على جراح الشرطة وألقى عليه التحية.

وقال: «لا أفهم هذا الشخص يا سيدي». وتابع: «إنه يقف في مكانه هذا منذ عشر دقائق. أنا أراقبه؛ لأني ظننته يفكِّر في الانتحار!»

اقترب مانفريد من الرجل، وأصابته صدمة، عندما رأى وجهه، فجأةً. كان وجهه متيبسًا — وكانت عيناه مفتوحتين على أقصى اتساعٍ لهما، وبشَرته تحوَّلت إلى لونٍ أحمرَ نُحاسي.

صاح مانفريد: «إلفير! ليون!»

عندما قفز ليون من السيارة، سقط الرجل أرضًا بمجرد أن لمس مانفريد كتفه. وفي لحظة كان الطبيب جاثيًا على ركبتيه بجوار الجثة الهامدة.

قال باقتضاب: «إنه ميت»، وبعدها صاح قائلًا: «يا إلهي!»

وأشار إلى عنقه، حيث تظهر بقعة حمراء.

سأله مانفريد بهدوء: «ما هذا؟»

قال الطبيب: «إنها الأفعى!»

الفصل الخامس

المرأة الذهبية

ثبَت أن باربرتون تعرَّض للدغة الأفعى في وسط لندن، أمام ناظرَي الشرطي.

«أجل، يا سيدي، لقد وضعتُه تحت المراقبة قرابة ربع الساعة. ورأيته يمشي على الجسر، مستمتعًا برؤية المشهد، قبل وقت طويل من توقُّفه هنا.»

تطلَّع الطبيب إلفير إلى الشرطي، وسأله: «هل اقترب أحدٌ للتحدث إليه؟»

أجاب الشرطي: «كلا، يا سيدي، كان واقفًا بمفرده. أُقسم أنه لم يكن هناك أحدٌ على بُعد ياردتين منه. بالطبع، كان هناك مارةٌ يتحركون ذَهابًا وإيابًا، ولكن نظري لم يَحِد عنه طيلة الوقت، ولم أرَ رجلًا أو امرأة على بُعد ياردات منه، ولم أُشِح ناظرَيَّ عنه قط.»

ظهر شرطيٌّ آخر في مكان الحادث، وأُرسل إلى سكوتلاند يارد في سيارة مانفريد طلبًا لسيارة الإسعاف ورجال من الشرطة الاحتياطية الضرورية لفض الحشود ومنْع التجمهر. عاد هؤلاء في وقت واحد، وشاهد الصديقان ذلك المسكينَ وهو يُحمل على نقالة، وانتظرا حتى غابت سيارة الإسعاف البيضاء بحمولتها المؤسفة، قبل أن يعودا إلى سيارتهما.

اتخذ جونزاليس مكانه خلف عجلة القيادة؛ وجلس جورج إلى جواره. لم يتفوَّها بكلمة حتى عادا إلى كورزون ستريت. دخل مانفريد بمفرده، بينما قاد رفيقه السيارة إلى المَرْأب. وعندما عاد وجد بويكارت وجورج منخرطَين في النقاش.

نزع ليون جونزاليس معطفه الخفيف وألقاه على الكرسي، وخاطب ريموند قائلًا: «لقد كنت محقًّا، يا ريموند. إن دِقَّة توقعاتك تكاد تكون محبطة. كنت أنتظر طَوال الوقت وقوعَ خطأ محتوم، وغضبت عندما لم يحدث ذلك. قلت إن الأفعى ستظهر من جديد، وهو ما حدث بالضبط. والآن أيها العرَّاف، تنبَّأْ لي بما سيحدث!»

بدا على وجه بويكارت الضخم ملامح التجهُّم؛ وكادت عيناه الداكنتان أن تختفيا تحت عبوس حاجبَيه الكثيفين.

وقال: «لا يحتاج المرء إلى أن يكون عرَّافًا ليعرف أن اتصالنا بباربرتون سيدفع الأفعى إلى الزحف نحو كورزون ستريت». ثم أضاف: «يا تُرى هل كان جيرتر أم فايفر؟»

فكَّر مانفريد.

ثم قال: «أعتقد أنه فايفر. إنه أكثرهما تعقُّلًا. أما جيرتر فيتَّسم بالانفعال وعدم الاتزان؛ فهو شخص عصبي. وسَوطك الجِلدي ذو التسعة سيور يا ليون، لم يكن ليضيف لاستقراره العقلي. بل كان فايفر، أنا واثق من ذلك.»

قال ليون: «أعتقد أن ذلك السوط جعله مضطربًا قليلًا.» لقد فكَّر في الأمر من هذا الجانب وكأنه أحد الجوانب التي تستحقُّ الدراسة. ثم أضاف: «إن جيرتر يُشبه جيكل وهايد، باستثناء أنه لا يمتلك أيَّ فضيلة على الإطلاق. أجد صعوبة في تصديق أن هذا الشاب الرائع الذي شاهدتُه يجلس بهدوء في مقعده بالأوبرا، في حياته الخاصة لا يُغيِّر قميصه الكتان أكثر من مرة في الشهر، وأنه يرتجف لسماع صوت المياه المتدفقة من صنبور حوض الاستحمام! هذا يجعله يبدو كما لو كان مدمنًا للمورفين. أتذكَّر قضية في عام ١٨٩٩ — عذرًا هل أقاطع حديثك؟»

وجَّه جورج مانفريد سؤالًا إلى ليون قائلًا: «ما الاحتياطات التي ستتَّخذها، يا ليون؟»

هزَّ ليون كتفيه بعدم اكتراث متسائلًا: «في مواجهة الأفعى؟» وتابع: «الاحتياطات العسكرية القديمة المتخَذة في مواجهة غارات منطاد زيبلن؛ والاحتياطات التي يتخذها المُزارع لمواجهة غزو الدبابير. فليس بإمكانك أن تجثوَ على صدر أحد الدبابير وتستخدم المخدِّر لاستخراج سن الوخز. كلُّ ما عليك فعله هو تدميرُ عُشِّه … وقصفُ وكْرِه. أنا شخصيًّا، لم أخشَ يومًا أيَّ شكل من أشكال الموت، ولكن لديَّ الآن رفضٌ صبياني لأن أُقتل بلدغة أفعى.»

تبدَّلَت ملامح بويكارت المتجهمة للحظة وبدت على وجهه ابتسامة. وقال على نحوٍ جافٍّ: «ولكن ليس لديك رفض لأن تسرق نظرياتي»، وانحنى الآخر للأمام ضاحكًا في صمت.

كان مانفريد يسير في الغرفة الصغيرة، واضعًا يديه وراء ظهره، وبين شفتيه سيجارة مصرية سميكة.

قال: «هناك قطار يُغادر بادينجتون متجهًا إلى جلوستر في تمام العاشرة وخمس وأربعين دقيقة». ثم أضاف: «هل يمكنك إرسال برقية إلى الآنسة جودارد، في مزرعة هيفيتري، لتطلب منها استقبال القطار بسيارة أجرة؟ بعد ذلك سأحتاج إلى رجلين للقيام بدوريات في محيط المزرعة ليلًا ونهارًا.»

فتح بويكارت دُرجًا في مكتبه، وأخرج دفترًا صغيرًا ومرَّر إصبعه عبر فِهرس للأسماء.

وقال: «يمكنني الحصول على هذه الخدمة في جلوستر». وتابع: «جوردون، وويليامز، وطومسون، وألفريد، إنهم أشخاص موثوقون وعملوا معنا من قبل.»

أومأ مانفريد برأسه موافقًا الرأي.

«أرسل لهم التعليمات المعتادة في رسالة. أتساءل مَن سيُصبح المسئولَ في قضية باربرتون هذه؟ إن كان ميدوز فيمكنني التعاون معه. أما إن كان أربوثنوت، فسيتعين علينا الحصولُ على المعلومات بطرقٍ سرية.»

أشار عليه ليون قائلًا: «هاتف إلفير»، وسحب جورج الهاتف باتجاهه.

مرَّ بعض الوقت قبل أن يتمكَّن من التواصل مع الطبيب إلفير، وعندئذٍ اطمأنَّ لما سمعه؛ فقد علم أن القضية تحت المسئولية التامة للمفتش ميدوز المهيب.

قال إلفير: «إنه قادم لمقابلتك». وتابع: «في الحقيقة كان المدير هنا عندما وصلت إلى مقر سكوتلاند يارد، وطلب من ميدوز بشكل خاص التشاورَ معك. ستحدث جلَبة كبيرة في مكتب وزير الداخلية بشأن جريمة القتل هذه. لقد أكَّدنا سابقًا لوزير الداخلية أن حالات الوفاة الغامضة لن تتكرَّر، وأن الأفعى قد ماتت للأبد.»

طرح عليه مانفريد بعض الأسئلة ثم أنهى المكالمة.

«إنهم قلقون بشأن العامة — لا يمكنك أبدًا معرفةُ ما يمكن للحشود فعْله في ظل ظروف معينة. ولكن يمكنك المراهنة أن الحشد الإنجليزي سيفعل الأمر ذاته — والحكومات تكره الحشود الذكية. فهذا قد يُكلف وزير الداخلية التضحية بمنصبه، يا للمسكين! رغم أنه يبذل قصارى جهده.»

صيحةٌ عالية آتية من الشارع جعلته يُدير رأسه بابتسامة.

«بالطبع؛ الإصدارات الأخيرة للصحف نشرت الخبر. كما لو أن الجرائم تُرتكب على أعتاب أبوابها.»

تساءل بويكارت: «ولكن لماذا؟ أيُّ جُرمٍ ارتكبه باربرتون؟»

رد ليون على الفور، دون انتظار الإجابة من مانفريد: «كانت جريمته الأولى، ذَهابه للبحث عن الآنسة ميرابيل ليستر. أما جريمته الأخرى والأكبر فهي تعاونه معنا. لقد أصبح في عِداد الموتى حين غادر المنزل.»

خرج بويكارت إلى الرَّدهة بعد سماعه رنينَ جرس الباب الخافت، ليجد رجلًا بسيطًا، في منتصف العمر، يحتمل أن يكون أيُّ شخص بخلافِ ما كان عليه بالفعل؛ فالزائر كان أحدَ أذكى متتبِّعي المجرمين الذين عرَفتْهم سكوتلاند يارد منذ ثلاثين عامًا. كان رجلًا نحيلَ الوجه، ذا شعر أشقر داكن، يلبس نظارة بلا ذراعَين، ويبدو كأنه ممثِّل، وقد زار كورزون ستريت من قبل، وها هو ذا الآن يلقى ترحيبًا حارًّا. بعد تمهيد بسيط، بدأ بالحديث عن سبب زيارته، وأخبره مانفريد بإيجاز بما حدث، وخلاصة محادثته مع باربرتون.

بدأ مانفريد الحديث قائلًا: «إن الآنسة ميرابيل ليستر ...»

وفاجأه ميدوز عندما رد قائلًا: «تعمل لدى أوبيرزون — أنا على علم بذلك». وتابع: «لقد أتت لندن صباح اليوم وتولَّت وظيفة مساعدة مختبر. لم يكن لديَّ أيُّ فكرة أن أوبيرزون آند سميتس يمتلكون مختبرًا في تلك البناية.»

قاطعه ليون قائلًا: «لم يكن لديهم مختبرٌ قبل يومين. أُعِد هذا المختبر خِصِّيصى لها.»

أومأ ميدوز برأسه، ثم التفت إلى مانفريد.

وسأله: «ألم يُخبرك بأي شيء عن سبب رغبته في لقاء الآنسة ليستر؟»

هزَّ جورج رأسه نافيًا.

وقال: «كلا، لقد كان شديدَ الغموض بشأن هذا الموضوع.»

سأل ميدوز، وهو يُدوِّن ملاحظة: «لقد وصل على متن السفينة بنجيلا، أليس كذلك؟» ثم أضاف: «لا بد أن نحصل على أي معلومة من السفينة قبل تسريح طاقِم العمل فيها. فإن الشخص الذي لا يتحدث على متن سفينة، لم يكن ليتحدث مطلقًا! وربما نجد شيئًا ضمن متعلقاته. هل ترغب في القدوم، يا مانفريد؟»

أجاب جورج بلهجة حاسمة: «سآتي بكل سرور». وتابع: «ربما يسَعُني أن أقدِّم لك القليل من العون — أنت لن تُمانع تقديم تفسيراتي الخاصة لما سنراه، أليس كذلك؟»

ابتسم ميدوز.

وقال: «لك حرية حلِّ أُحجيتك الخاصة.»

أوصلتهم سيارةُ أجرة إلى فندق بيتورث في نورفولك ستريت، وعلى الفور أُرشدوا إلى الغرفة التي استأجرها القتيل ولكنه لم تَتسنَّ له فرصة شغلها. كانت حقيبته، لا تزال مربوطة ومغلقة، وتستند على حامل خشبي صغير، وكان معطفه معلقًا خلف الباب؛ وفي أحد أركان الغرفة كانت هناك حقيبة مستطيلة ضخمة، مربوطة بإحكام، وتحوي، كما اكتشفوا لاحقًا، معطفًا طويلًا للمطر يتغير لونه بتغير الطقس، وزوجَين من البطاطين البالية، ووسادةً هوائية، بالإضافة إلى كرسي قماشي قابل للطي، وتظهر عليه أيضًا كثرةُ الاستخدام. كان ذلك محور بحثهم الأولي.

بعد تجربة المحقِّق المفتاحَ الثالث انفتح قُفل الحقيبة. وبخلاف قميصَين من الكتان وبدلتَين، إحداهما جديدة تمامًا وتحمل بطاقة متجر في سانت بول دي لوندا، لم يجدا دليلًا كافيًا لإرشادهما. ووجدا ظرفًا مليئًا بالأوراق، فرزوها واحدةً تلو الأخرى ووضعوها فوق الفراش. من الواضح أن باربرتون كان رجلًا حذِرًا؛ فقد احتفظ بفواتير الفنادق التي نزل بها، وكتب على ظهر كلٍّ منها تعليقاتٍ مختصرةً ولكنها لاذعة، يصف بها مدة إقامته بالفندق هل كانت ممتعة أم متعبة. كان هناك فندق في لوبو مليء بالحشرات؛ وآخرُ في موساميدس وصفه كالآتي: «أكلت الجرذان إحدى فردتَي الحذاء. لم يمنحني المالك أيَّ تعويض. أخذت ثلاث مناشف وغطاءَ وسادة.»

قال ميدوز بجفاء: «إنه يحمل بداخله روحَ أحد رجال العدالة الأربعة، ولكنه في مرحلته الأولية.»

ابتسم مانفريد.

على ظهر إحدى الفواتير كتب بدقَّةٍ مصفوفةً من الأرقام: «١٢٦، ١٣١٥، ١٠٧، ١٧١٢، ٢٤ تقريبًا …» كتب أمام بعض هذه الأرقام كلمة «تقريبًا»، ولاحظ مانفريد أن هذه الكلمة لازمت الأرقامَ الأكبر. وأمام الرقم ١٠٧ كانت هناك علامةُ تظليل بالقلم الرصاص.

كانت هناك عدةُ إيصالات أخرى ضمن الأوراق. في سانت بول اشترى «مسدسًا آليًّا عاليَ الدقة» وذخيرةً للمسدس ذاتِه. ولم يكن هذا «المسدس الآلي العالي الدقة» موجودًا في الحقيبة.

قال ميدوز باقتضاب: «وجدناه في جيبه». ثم تابع: «هذا الرجل كان يتوقَّع مواجهة المتاعب، وقد صدقت توقعاته، إن اتضح بالفعل أنهم عذَّبوه في موسامودس».

صحَّح له مانفريد نُطق عبارته قائلًا: «موساموديس.» وبدا أنه لا يُطيق سماع نطقٍ خاطئ لأسماء الأماكن.

كان ميدوز يقرأ خطابًا، ويقلب صفحاته ببطء.

«إنه خطاب من أخته: تعيش في برايتلينجسي، ليس ذا أهمية باستثناء ذلك الجزء …» قرأ جزءًا من الخطاب بصوتٍ عالٍ:

«شكرًا لك على الكتب. سيحبها الأطفال. لا بد أن كتابتها ذكَّرتك بالأيام السالفة — ولكني أتفهَّم أنها ساعدَتك في تمضية الوقت. جاءني السيد لي وسألني عما إذا كنت تواصلت معك. إنه رجل رائع.»

كان الخطاب مكتوبًا بخط بارع يكشف أن صاحبه نال قسطًا جيدًا من التعليم.

قال ميدوز: «لم يبدُ لي رجلًا يؤلِّف كتبًا.» ثم استكمل بحثه.

وجد بعد ذلك خريطةً متهالكة، من الواضح أنها لأنجولا. وكانت مصغَّرة للغاية، لدرجة أنها شملت جزءًا من صحراء كالاهاري في الجنوب، وأظهرت التضاريس الشمالية التي تحيط بالكونغو.

أمسك ميدوز بالخريطة ووجَّهها في اتجاه ضوء النافذة ليفحصها بعناية، قائلًا: «لا أثر لأي علامة من أي نوع». وتابع: «وهذا، في اعتقادي، كل ما لدينا … إلا إذا كان هذا شيئًا.»

كان «هذا» ملفوفًا داخل قطعة من القماش، ومثبتًا في قاع الحقيبة وفي جوانبها بأشرطة قماشية بسيطة. حاول ميدوز سحبه ولكن دون طائل.

وقال: «إنه ذهب». وتابع: «فلا شيء آخر يمكن أن يكون بهذا الثِّقل.»

نجح في النهاية في رفع الصُّرة، وإزالة الغطاء القماشي، وحدَّق في دهشة في الشيء الذي وجده أمام ناظرَيه. كان تمثالًا لمواطنة أفريقية تنتمي لقبائل البيتي، وهي عارية، تجلس القرفصاء، في هيئة غير لائقة.

هتف مانفريد وهو لا يُصدِّق ما يراه: «ذهب؟» وحاول رفعه بسبابته وإبهامه. وأحكم قبضته عليه وفحص التمثال عن كثب.

لم يكن هناك شكٌّ في أنه مصنوع من الذهب، وتحديدًا من الذهب الخالص. وتسبَّب ظفر إبهامه في خدشٍ عميق في قاعدة التمثال. واستطاع رؤية مواضع الخدش والنحت لعلامات سكين النحات الذي لا يمتلك أيَّ حسٍّ فني.

كان ميدوز على معرفة جيدة بالساحل الأفريقي؛ فقد ذهب في العديد من الرحلات إلى أفريقيا، وتوقَّف في العديد من الموانئ خلال رحلته.

قال: «لم أرَ من قبلُ شيئًا مماثلًا، وهو ليس حديثَ الصنع. عندما ترى هذا» وأشار إلى إحدى الخصائص الجسمانية للتمثال، وقال: «يمكنك المراهنة بأنك أمام تمثال يَزيد عمره عن مائتَي عام، وربما أكثر من ذلك. إن مواطني غرب ووسط أفريقيا لا يرتدون خاتَمًا في أصابع القدم، على سبيل المثال، منذ أيام القياصرة.»

حاولَ وزن التمثال بيديه.

وقال: «إنه يزنُ عشَرة أرطال تقريبًا». وتابع: «أي أن قيمة الذهب تساوي ٨٠٠ جنيه.»

أخذ يفحص القماش الذي كان ملفوفًا حول التمثال، ثم أطلق صيحة.

وقال: «انظر إلى هذا.»

كُتب في إحدى الزوايا، بقلمٍ لا يُمحى:

«الرف الثاني بالأعلى يسار رواق الآلهة السادس.»

فجأةً تذكَّر مانفريد أمرًا.

وقال: «هل يمكنك وزن هذا التمثال حالًا؟» وتابع: «أود معرفة وزنه بالضبط.»

سأله ميدوز وهو يدق الجرس: «لماذا؟»

أجاب مالكُ الفندق بنفسه، فهو يعلم بأن تحريات الشرطة لا تزال قائمة، وفورًا عقب طلب المحقِّق، ذهب إلى المطبخ وعاد بعد دقائق قليلة ومعه ميزان، ووضعه على الطاولة. كان يبدو فضوليًّا لمعرفة غرض طلب هذا الميزان، ولكن المحقِّق ميدوز لم يُطلعه على شيء، وظل متمركزًا أمام الباب حتى انصرف الرجل.

أخرجا التمثال من تحت قطعة القماش حيث أخفَوه لحين الانتهاء من وضع الميزان، ووضعوه على كفة الميزان المسطحة.

أعلن مانفريد بلهجةٍ توحي بالانتصار: «عشرة أرطال وسبع أوقيات». ثم أضاف: «أظنه هو المنشود!»

سأله ميدوز متحيرًا: «أي منشود؟»

«انظر إلى هذه القائمة.»

أمسك مانفريد بفاتورة الفندق التي كان بها مصفوفةُ الأرقام وأشار إلى الرقم الذي أمامه علامةٌ باللون الأسود.

وقال: «١٠٧». وتابع: «ها هو ذا رقمنا المنشود، والتفسير واضح جدًّا. وجد باربرتون خِزانة مملوءة بهذه التماثيل. وأخذ الأخفَّ وزنًا من بينها. انظر إلى الأرقام! لقد وزنها

بميزان زنبركي، من تلك الموازين التي لا تزن أكثر من ٢١ رطلًا. أما ما تجاوز هذا الوزن فاضطُر إلى وضع تخمينات؛ لذا كتب «٢٤ تقريبًا»، و«٢٢ تقريبًا»».

نظر ميدوز إلى رفيقه على نحوٍ يخلو من أي تعبير، ولكن مانفريد لم ينخدع. كان عقل المحقِّق الذكي يُفكر بالأمر.

«ليس بغرض السرقة؛ فالحقيبة لم تُمس. لم يلجَئوا حتى إلى إحراق قدمَيه لإيجاد التمثال أو الخِزانة: لا بد أنهم لا يعلمون شيئًا عن هذا الأمر. كان من السهل سرقته — أو لو أنهم يعلمون بشأن هذا التمثال الذهبي، فقد اعتبروه غنيمة تافهة لا تستحق العناء.»

تفقَّد أرجاء الغرفة بحرص. وفوق رف المدفأة وجد قطعةً من الورق البني التي تشبه ورق إشعال الغليون. التقطها، وتفحَّصها من الجهتين، ووجد أنها فارغة، فأعادها إلى مكانها. أخذها مانفريد وسحب الشريط لا إراديًّا بأطراف أصابعه.

قال ميدوز، وهو يُلقي نظرةً أخيرة على المكان: «ليس علينا الآن إلا العثور على الآنسة ليستر.»

أومأ مانفريد موافقًا إياه الرأي.

وقال بتمهُّل: «هذا أحد الأمور». وتابع: «أما الأمر الآخر، فهو إيجاد جوني بالطبع.»

قطَّب ميدوز جبينه متسائلًا بريبة: «جوني؟» وتابع: «مَن هو جوني؟»

أجابه جورج مانفريد مبتسمًا: «جوني هو لغزي الخاص.» ثم أضاف: «لقد وعدتني أن بإمكاني الاحتفاظَ بلغزي الخاص!»

الفصل السادس

في تشيستر سكوير

عندما ذهبت ميرابيل ليستر إلى تشيستر سكوير، انتابتها مشاعرُ مختلطة عبارة عن مزيج متنافر غريب من الدهشة والفضول والإحراج. وقد جاء الإحراج من فيض المشاعر الاستثنائية من جانب رفيقتها، التي منحت نفسها فجأةً، ودون أي مبرر، مكانةَ أعزِّ الأصدقاء وأقدم المعارف. ظنت ميرابيل أن الفتاة ممثلة؛ وهي مهنة لا تندُر فيها الصداقات المفاجئة والمفتعلة. وتساءلت عن السبب الذي منع العمَّة ألما من تكبُّد عناء المجيء إلى المدينة، واستبدَّت بها التساؤلات عن أسباب عدم معرفتها عن الصداقة التي تربط ألما وآل نيوتن. صحيح أن السيدة المسنَّة لها أسرارها، ولكن ليس هناك سببٌ يمنعها من التحدُّث عن أسرةٍ تربطها بهم علاقة صداقة قوية بما يكفي لتطلب منهم مرافقتها في المدينة.

كان لديها وقت للتفكير، نظرًا إلى أن جوان نيوتن تُثرثر طوال الوقت، فإذا طرحت سؤالًا، فإنها إما لا تنتظر الموافقة، أو تأتي الإجابة المُرضية عن السؤال قبل أن تطرحه.

تشيستر سكوير، تلك البقعة المهيبة من حي بلجرافيا، هو حي سكَني فخم. كان للمنزل الكبير، الذي استقبل فيه أحد الخدم الفتاة، طابَعُ الراحة المترفة التي كان من شأنها أن تروق لشخصيةٍ أقلَّ تأثرًا بالرقي من شخصية ميرابيل ليستر. وقد أرشدت إلى غرفة معيشة كبيرة تمتد عبر مساحة شاسعة بداية من الجزء الأمامي وحتى الجزء الخلفي من المنزل، ولا تنتهي عند ذلك وحسب، إنما يمتد مشتل زجاجي كبير، ورائع، تزينه الزهور، عبر مساحة كبيرة أيضًا.

واصلَت جوان ثرثرتها قائلة: «لم يَعُد مونتي من المدينة بعد». ثم أضافت: «عزيزي! إنه مشغول جدًّا الآن، بالأسهم والأوراق المالية وأشياء من هذا القبيل.»

تحدَّثت وكأنَّ «الأسهم والأوراق المالية والأشياء من هذا القبيل» بمثابة ظاهرة لم تَشغل بال مونتي نيوتن إلا أول أمس.

سألتها ميرابيل بابتسامة: «هل هناك حالة رَواج؟» بدا أن المصطلح أربك الفتاة.

«ن... نعم، أظن أنها كذلك. أنت تعرفين حال البورصة، يا عزيزتي، أليس كذلك؟ أي شخص له علاقة بها يُصبح ثريًّا إلى حدٍّ يفوق أحلام أكثر الناس جشعًا. فالأموال التي يَجْنونها هي أموال فاسدة بكل بساطة! وهي تُمكنهم من منح أي فتاة فرصةَ قضاء وقت طيب للغاية — بين المسارح والحفلات والفساتين واللآلئ — يا إلهي، إن مونتي لا يُلقي بالًا لإهداء فتاة عِقدًا من اللؤلؤ، إذا أعجبته!»

في الواقع، كانت جوان تسير على أرضٍ غير مستقرَّة بالمرة. كانت التعليمات الصادرة إليها بسيطةً ومباشرة. «خُذيها إلى تشيستر جاردنز، أقيمي معها صداقة، ولا تذكري حقيقة أني أعرف أوبيرزون.» لم تكن تعرف ما الهدف وراء المجيء بميرابيل ليستر إلى المنزل، ماذا وراء هذا التصرف من جانب مونتي. كانت فقط تتعامل معها على نحوٍ آمن، وكل همِّها أن تنصب الشِّراك، إذا جاز لنا التعبير، من خلال الحديث عن الأوقات الممتعة والثروات الهائلة؛ تحسبًا إذا كان هذا مطلوبًا منها. نظرًا إلى أنها، مثلها مثل عدد كبير من صديقاتها، تخشى كثيرًا سخط مونتي نيوتن، الذي يأخذ عادةً شكلًا بغيضًا للغاية.

كانت ميرابيل تضحك في هدوء.

قالت بنبرةٍ جافة: «لم أكن أعلم أن سماسرة البورصة أثرياءُ للغاية، أؤكد لك أن بعضهم ليسوا كذلك!»

تغاضت ميرابيل بلباقةٍ عن التعليق المحرِج الخاصِّ بأن مِن شأن مونتي أن يُهدي أي فتاة تعجبه عِقدًا من اللؤلؤ. وفي هذا التوقيت، استطاعت أن تُحدِّد منزلة جوان الاجتماعية؛ فقد عرَفت شيئًا عن نشأتها، وخمَّنت مدى ذكائها إلى حد كبير، وتعجَّبت قليلًا من أن رجلًا غير معروف مركزه مثل السيد نيوتن سمح لأخته أن تخرج إلى العالم دون أن تنال قسطًا جيدًا من التعليم.

قالت جوان: «اصعدي إلى غرفتكِ، يا عزيزتي. لقد أعددنا لكِ جَناحًا صغيرًا على أعلى مستوًى، وأنا واثقة من أنكِ ستشعرين بالراحة. هو في الجزء الأمامي من المنزل، وإذا كنتِ معتادةً على صيحات بائعي الحليب في الشوارع في الصباح الباكر، فسوف تستمتعين بوقت ممتاز.»

عندما تفقَّدت ميرابيل المنزل، صارت مفتونة. إذ توافق مع وصف جوان الغامض. كان المكان مترفًا بشكلٍ لم يخطر على بالها ولا حتى في أحلامها. أُعجبت بالفِراش الفضِّي

والسجادة الزرقاء السميكة، والحوائط المكسوة بالحرير، والتجهيزات الرائعة، ووقفت في حالةٍ من النشوة عند مدخل حمام صغير، بإطاراته الفضية ومرآته وأضوائه الخافتة وحوائطه الرخامية.

«سأرسل لك فنجان شاي، يا عزيزتي. أنتِ تريدين أن ترتاحي بعد يومك الفظيع في ذلك المصنع الرهيب جدًّا، إنني أتساءل كيف يتسنَّى لك تحمُّل أوبيرزون، رغم أنهم يقولون لي إنه رجل لطيف جدًّا ...»

بدَت متلهفة للرحيل، ولم تكن ميرابيل أقلَّ تلهفًا منها لكي تصبح وحدها.

قالت جوان عند رحيلها: «انزلي عندما يروق لك ذلك.» ثم هبطت السُّلم لتصل إلى الرَّدهة في الوقت المناسب، لمقابلة السيد نيوتن الذي كان يعطي قبَّعته وقفازيه إلى خادمه.

«حسنًا، هل هي موجودة هنا؟»

قالت جوان، التي لم تشعر بالإحراج بتاتًا من وجود الخادم: «إنها هنا بالفعل. مونتي، هل هي حمقاء بعض الشيء؟ إنها شخصية هادئة وخجولة للغاية. ما الخطة العامة؟»

كان يُمشِّط شعره بدقة شديدة أمام المرآة الموجودة عند مشجب الرَّدهة.

«أيَّ خُطة تقصدين؟» سألها، بعد أن انصرف الخادم، بينما كان يتجوَّل بتمهُّل أمامها قاصدًا غرفة المعيشة.

«المجيء بها إلى هنا! هل ستتعرض للعبة؟»

قال مونتي دون انفعال، وهو يجلس في مللٍ على أريكةٍ منخفضة ويضعُ وسادة حريرية وراءه: «لا تكوني غبية.» ثم أردف قائلًا: «ولا فضولية». وتابع: «أنتِ لم تُخيفيها، أليس كذلك؟»

قالت في سخط: «يعجبني ذلك!»

كانت من نوعية السيدات التي تتحدث بلباقة وبثقة أكبرَ عندما تكون هناك مِرآة في مجال الرؤية، كانت عيناها مثبتتَين على نفسها طوال الوقت الذي تتحدَّث فيه، تُرَبِّت على خُصلة شعر هنا وهناك، تُميل رأسها بهذه الطريقة أو تلك لتحصل على أفضلِ تأثير، ولم تنظر مطلقًا إلى الرجل حتى جذب الانتباه إلى نفسه.

«أخيفها! أراهن أنها لم تدخل بيتًا جميلًا كهذا في حياتها كلها! مَن تكون هي، يا مونتي؟ موظفة آلة كاتبة، أو شيء من هذا القبيل؟ أنا لا أفهمها.»

ردَّ مونتي بنبرة عدوانية: «إنها سيدة نبيلة.» ثم أضاف: «من ذلك النوع الذي يبدو دومًا كاللغة الأجنبية بالنسبة إليك.»

رفعت إحدى كتفيها برفق.

وردَّت قائلة: «أنا لا أتظاهر بكوني سيدة نبيلة، وما أنا عليه، هو صنيعتك!» كان لومُها آليًّا. لقد سمعه من قبل، ليس فقط منها، بل ممن كانوا في مكانةٍ مشابهة. واستطردت قائلة: «لا أظن أن مواجهتي بمؤهلي الدراسي أمرٌ لطيف للغاية، بالوضع في الاعتبار الأموال التي أجنيها لحسابك.»

قال متثائبًا: «ولحسابكِ أيضًا». ثم أضاف: «أحضري لي فنجان شاي.»

قالت بامتعاض: «حريٌّ بك أن تقول «من فضلكِ» من الآن فصاعدًا»، ابتسم وهو يلتقط جريدة المساء، متجاهلًا إياها، حتى قرعت الجرس بهزةٍ عصبية وجاءت الصينية الفضية ووضعت على الطاولة بجواره.

«أين ستذهبين هذا المساء؟»

كان اهتمامه بتحركاتها استثنائيًّا؛ ولذا كانت تشعر بالإطراء.

قالت بنبرةٍ بها توبيخ: «أنت تعرف جيدًا، يا مونتي، إلى أين سأذهب هذا المساء. أنت وعدت بأن تصحبني، أيضًا. أظن أنك ستبدو رائعًا في زيٍّ جندي صليبي — واحدٍ منهم — أولئك الفرسان القدامى مُرتدي الدروع.»

هزَّ رأسه موافقًا الرأي، لا استحسانًا لتعليقها.

«أتذكَّر بالطبع الحفل التنكري الراقص لكلية الفنون الجميلة.»

كانت مفاجأتُه محبوكة جدًّا لدرجة أنها خُدعت.

«مَثِّل أنك نسيت! سأذهب متنكرة في زي سندريلا، وميني جراي ستذهب متنكرة في زي مهرِّجة ...»

قال مونتي وهو يرشف من فنجان الشاي خاصته: «ميني جراي لن تذهب متنكرةً بأي شيء. لقد هاتفتُها بالفعل وأخبرتها أن الموعد أُلغي. ستذهب الآنسة ليستر معكِ.»

قالت الفتاة معترضة: «ولكن، يا مونتي ...»

قاطعها بلهجةٍ آمِرة: «لا تعترضي على «أوامر مونتي»». ثم أضاف: «أنا آمرك! اصعدي وتفقَّدي أحوال هذه الفتاة، وأخبريها أنكِ حجزتِ تذكرتَين للحفل الراقص.»

«ولكن زيها التنكري، يا مونتي! الفتاة ليس لديها فستان تنكُّري.» وتابعت: «وميني ...»

«انسي ميني، هلا تفعلين؟ ميرابيل ليستر ستذهب إلى الحفل التنكري الراقص لكلية الفنون الجميلة الليلة.» ونقر على الصينية الموجودة أمامه ليُؤكد كلَّ كلمة يقولها. وأضاف

قائلًا: «لديك تذكرة إضافية، ولا يمكنك الذَّهاب بمفردك بكل بساطة لأن لديَّ موعدًا مهمًّا للغاية خاصًّا بالعمل وصديقتكِ خذلتك. سيأتي زيُّها في غضون بضع دقائق؛ وهو عباءة فضفاضة ذات لون أخضر برَّاق بقَلنْسوة حمراء برَّاقة.»

قالت وقد نسيَت لدقيقة خيبةَ أملها في خضمِّ هذه البشاعة: «كم هذا شنيع تمامًا!» وتابعت: «أخضر برَّاق! لا أحدَ لديه بشَرة تليق مع ذلك اللون!»

ولكنه تجاهلها.

«ستشرحين للآنسة ليستر أن الرداء كان لصديقةٍ لم تستطع حضور الحفل الراقص، بسبب المرض أو لأي سبب تخترعينه — ستقتنص الفرصة. إنها إحدى المناسبات السنوية والتذاكر تُباع بسعرٍ أغلى من قيمتها العادية.»

سألته عن معنى ذلك، وشرح لها بكل صبر.

واستطرد قائلًا: «لعلها ترغب في قضاء ليلة هادئة — أو تعاني نوبةَ صداع». وتابع: «إذا حدث ذلك، فأخبريها أنه ستأتي مجموعة أصدقاء لزيارتي في المنزل الليلة، وسيتسبَّبون في الإزعاج قليلًا. هل أرادت أن تعرف شيئًا عني؟»

ردَّت جوان على الفور: «كلا، إنها لا تريد أن تعرف شيئًا». وتابعت: «لم أستطِع حمْلها على الحديث. إنها متحفظةٌ حمقاء.»

كانت ميرابيل تجلس بجوار النافذة، تتطلع إلى الميدان، حين سمعت طرقةً رقيقة على الباب ثم دخلت جوان.

قالت: «لديَّ أخبارٌ رائعة من أجلكِ.»

تساءلت ميرابيل في دهشة: «من أجلي!»

ركضت جوان عبر الغرفة، لتُعطي ما ارتأته تمثيلًا مدهشًا ومفعمًا بالحيوية لتجرِبةٍ شبابية مليئة بالبهجة البريئة.

«لديَّ تذكرة إضافية للحفل التنكري الراقص لكلية الفنون الجميلة هذه الليلة. إنها تُباع بـ... بسعر باهظ الثمن جدًّا. يا لكِ من فتاة محظوظة!»

قالت ميرابيل في دهشة: «أنا؟» ثم أضافت: «ولمَ أنا محظوظة؟»

قامت جوان من على الفراش وابتعدت عنها موبخةً إياها.

«بالتأكيد ستأتين معي، أليس كذلك؟ إن لم تفعلي، فلن أستطيع الذَّهاب مطلقًا. كنت سأذهب أنا والليدي ماري ... ولكنها الآن مريضة!»

فتحت ميرابيل عينَيها على أقصى اتساعهما.

«ولكني لا أستطيع الذَّهاب، بالتأكيد. هذا الحفل يلزمه وجود زيٍّ تنكُّري، أليس كذلك؟ قرأت شيئًا كهذا عنه في الجرائد. وأنا متعبة جدًّا الليلة.»

عبست جوان في دلال.

«عزيزتي، إذا استرحتِ لمدة ساعة، فستُصبحين على ما يُرام. بالإضافة إلى أنك لن تستطيعي النوم هنا مبكرًا الليلة: سيُقيم مونتي واحدة من حفلات الرجال، وهم أناس صاخبون جدًّا — رغم أنهم محترمون تمامًا» أضافت التعليق الأخير في عجالة.

جوان المسكينة لديها مهمة تفوق قدراتها المعتادة.

«أود أن أذهب»، كانت ميرابيل حريصةً على ألَّا تكون هادمة اللذات، وأردفت قائلةً: «لو أن لديَّ فستانًا.»

قالت الفتاة على الفور، وهي تخرج من الغرفة: «أنا لديَّ فستان.»

وعادت بسرعةٍ بالغة، وألقت بالعباءة على الفِراش.

«النظر إليها لا يسرُّ، ولكنها ذات ميزة، ألا وهي يمكنك أن ترتدي تحتها أيَّ شيء تقريبًا.»

قالت ميرابيل، وهي تدرس الأمر في ذهنها، لتجد أنها لا تكره الذَّهاب؛ فهي ذات نزعة إنسانية بالغة، وتجربة الحفل التنكري الراقص ستكون تجرِبةً جديدة، متسائلة: «متى سيبدأ الحفل؟»

أجابت جوان: «في العاشرة مساءً.» ثم أضافت: «يمكننا أن نتناول العَشاء قبل وصول أصدقاء مونتي. تودين مقابلة مونتي، أليس كذلك؟ هو بالطابق السفلي — يا له من رجل نبيل، يا عزيزتي!»

كادت الفتاة أن تضحك.

بعد مدة قصيرة، تعرَّفت إلى مونتي المهيب، ووجدت أسلوبه لطيفًا وسلسًا ونجدةً لها بعد الجهود الحمقاء من جانب الفتاة لكي تبدوَ مسلية. لقد زار مونتي أغلب دول العالم وبإمكانه الحديث عن جميع زياراته على نحوٍ مُسلٍّ. أُعجبت ميرابيل به جدًّا، وعلى الرغم من أنها ظنت أنه رجلٌ شديد التأنق بعض الشيء، فإنها لم تكن آسفةً حين علمت، أنه فضلًا عن استضافة أصدقاء على العشاء، فإنه لا يتوقع مجيء أصدقائه إلا بعد أن تُغادر هي وجوان.

جعلتها الوجبةُ تشعر بالارتياح أكثر. كان رجلًا مهذبًا واسعَ التجرِبة، مهذبًا لدرجة التباهي؛ لم يكن ليقول أو يُلمِّح إلى شيء قد يُسيء إليها؛ كانوا في منتصف وجبة العشاء،

عندما سمعوا نداءَ بائع الجرائد في الشارع. وعبر نافذة حجرة الطعام رأت الخادم ينزل درجات السُّلم ويشتري الجريدة. نظر إلى الصفحة الأخيرة وعاد ببطءٍ يصعد السُّلم وهو يقرأ. وبعد مدةٍ قصيرة دخل الغرفة، ولا بد أنه قد أشار إلى مضيفها، حيث خرج مونتي على الفور وسمعت صوتَيهما في الرَّدهة. كانت جوان متوترة.

تساءلت، وقد بدا عليها بعض الارتباك: «تُرى ما الأمر؟» وتابعت: «يا له من سلوك سيئ للغاية أن يترك سيدتَين في وسط وجبة العشاء ...»

في تلك اللحظة، عاد مونتي. هل تخيلت أنَّ وجهه شحب فجأةً، أم أن هذا قد حدث بالفعل؟ لاحظت جوان، وقطَّبت جبينها، ولكنها مِن بالغ حكمتها أنها أحجمت عن التعليق على مظهره.

جلس السيد نيوتن في مكانه معتذرًا وصبَّ كأسًا من الشمبانيا. اهتزت يده لثانية، ثم، مع ابتسامة، تمالكَ نفسَه من جديد.

«ما الخطْب، يا مونتي؟»

قال بغلظة: «أي خَطب؟ لا شيء»، وأدار دفة الحديث إلى حيثما تركها قبل أن يُغادر الغرفة.

سألته جوان وهي ترتجف: «الأمر له صلة بالأفعى القديمة، أليس كذلك؟» ثم أضافت: «يا إلهي! هذا يُثير أعصابي! أنا لا أخلد إلى الفراش ليلًا دون أن أفتِّش تحته، أو أثبت الملابس عليَّ حتى أسفل قدمي! كان يجدر بهم العثور عليها قبل بضعة أشهر لو أن الشرطة ...»

عند هذه النقطة لاحظت نظرةً باردة، ومتوعدة، وخبيثة، في عين مونتي نيوتن، وابتلعت باقيَ حديثها بين شفتَيها وصمتت.

صعدت ميرابيل لتغيير ملابسها، وكان من شأن جوان أن تتبعها، ولكن أومأ إليها الرجل.

وقال بنبرةٍ ألطف مما كانت تتوقَّع: «أنت تُبالغين في الثرثرة، يا جوان». وتابع: «ليس موضوع الأفعى هو الموضوع الذي نود مناقشته على العشاء. واسمعي!» قطع حديثه وسار إلى الممر وتفقَّد المكان حوله، ثم عاد وأغلق الباب. وقال: «أبقِ تلك الفتاة بالقرب منك.»

سألته بنبرةٍ مشاكسة: «مَن الذي سيرقص معي؟» وتابعت: «أود أن أقضيَ ليلةً نابضة بالنشاط والحيوية!»

«بنتون سيوجد هناك ليعتنيَ بك، وواحد من «الحراس القدامى» ...»

لاحظ النظرة الخائفة على وجهها وضحك. وسألها بنبرة مداعبة: «ما الخطْب، أيتها الحمقاء؟» وتابع: «سيرقص مع الفتاة.»

قالت في ارتباك: «تمنيت لو أن هؤلاء لم يحضُروا»، ولكنه واصل حديثه دون أن يُعيرها انتباهًا:

«سأصل في تمام الساعة الحادية عشرة والنصف. من الأفضل أن تُقابليني بالقرب من مدخل الحانة الأمريكية. لم يأتِ أصدقائي، كما تفهمين. ستعودين إلى هنا عند منتصف الليل.»

قالت منزعجة: «بهذه السرعة؟» وتابعت: «عجبًا، إنها لن تنتهيَ قبل ...»

قال في حسم: «ستعودين إلى هنا في منتصف الليل». وتابع: «ادخلي غرفتها، وتخلَّصي من كل شيء ربما تتركه خلفها. أتفهمين؟ لا تتركي شيئًا.»

«ولكن عندما تعود، سـ...»

قال مونتي نيوتن: «لن تعود»، مما جعل الدماء تتجمَّد في عروق الفتاة.

الفصل السابع

ضغط أخلاقي

«هناك رجلٌ يريد مقابلتك، سيدي الرئيس.»

كانت الساعة التاسعة والربع. وقبل عشر دقائق خرجت الفتاتان، كان مونتيجو نيوتن قد استقرَّ على تمضية ساعات الانتظار جالسًا قبل أن يُضطرَّ إلى ارتداء ملابسه. وضع أوراق اللعب التي كان يخلطها.

«رجل يريد مقابلتي؟ مَن هو، يا فريد؟»

«لا أعرف؛ لم أرَه من قبل. يبدو لي «مخبرًا».»

مخبر! رفع مونتي حاجبيه، لكن ليس في ذعر. لقد التقى بالكثير من المخبرين على مدار حياته المهنية المتقلبة، ولقد فقد الشعور بالرهبة ناحيتهم قبل وقت طويل.

قال بإيماءةٍ من رأسه: «أدخِله إلى هنا.»

كان الرجل النحيف الذي يرتدي بدلة سهرة والذي دخل بهدوء إلى الغرفة؛ غريبًا بالنسبة إلى مونتي الذي كان يعرف معظم الشخصيات البارزة في عالَم التحريات الجنائية. ورغم ذلك كان وجهه مألوفًا نوعًا ما.

سأله الرجل الغريب: «كابتن نيوتن؟»

«هذا اسمي.» وقف نيوتن مبتسمًا.

التفت الزائر متمهلًا نحو الباب الذي خرج منه الخادم.

سأله بنبرةٍ هادئة، ومدروسة، قائلًا: «هل خدَمُك يسترِقون السمع دومًا عبر ثقب الباب؟» امتقعَ وجه نيوتن. وفي خطوتين واسعتين وصل إلى الباب وفتحه على مِصراعيه، ليُلاحظ في التوقيت المناسب خطوات الخادم المتوارية.

«قف مكانك!» قالها مستدعيًا الرجلَ مرة أخرى، وقد ظهر على وجهه العبوس. وصاح بأعلى صوته قائلًا: «إذا كنت تريد أن تعرف شيئًا، هلا دخلت وسألتني؟ إذا أمسكت بك تسترِقُ السمع مرةً أخرى عند بابي، فسأقتلك!»

ابتعد الرجل وهو يُتمتم باعتذار.

«كيف عرَفت؟» سأله نيوتن مزمجرًا، وهو يعود إلى الغرفة ويُغلق الباب وراءه.

رد الغريب قائلًا: «لديَّ حَدْس نحو التجسس»، ثم استطرد دون توقفٍ قائلًا: «لقد جئت لزيارة الآنسة ميرابيل ليستر.»

أضاق نيوتن عينَيه.

قال بهدوء: «أوه، لديك حَدس، أليس كذلك؟» ثم أضاف: «الآنسة ليستر ليست في المنزل. لقد غادرت قبل ربع ساعةٍ مضت.»

«لم أرَها تخرج من المنزل.»

«كلا، في الواقع، خرجت عبر المَرْأب. أخ… إر» كان بصدد أن يقول «أختي» ولكنه ظن من الأفضل ألَّا يفعل، «صديقتي الشابة …»

قال الغريب: «جين سميث المزيفة. أليس كذلك؟»

بهت وجه نيوتن. كان قد وصل سريعًا إلى الحد الذي أوشك عنده أن يفقد قدرته على ضبط النفس، وهي تُمثل جزءًا كبيرًا من ميزاته الأخلاقية.

سأله: «مَن تكون، على أي حال؟»

بلَّل الغريب شفتَيه بطرَف لسانه، وهو سلوك مزعج جدًّا من جانبه، لسببٍ لا يمكن تفسيره.

قال بكل بساطة: «اسمي ليون جونزاليس.»

تراجع الرجل إلى الخلف على نحوٍ غريزي. بالطبع! الآن تذكَّر، بهت لون وجنتَيه، ليُصبح شاحبًا. وبجهد ابتسم مجبرًا.

قال: «أحد رجال العدالة الأربعة المهيبين؟ يا لكم من رجال استثنائيِّين!» ثم أضاف: «أتذكر قبل عشرة — خمسة عشر عامًا مضت، كنت أخشى مجرد ذِكر اسمك — جئت لتنفذ العقاب الذي أخفَق القانون في تنفيذه، أليس كذلك؟»

قال ليون بلطف: «يجب أن تضع ذلك في صندوق ذكرياتك. لستُ في مِزاجٍ يسمح بالحديث عن الذات في هذه اللحظة.»

ولكن لا يمكن إسكات نيوتن.

كان يتحدَّث — بتمهُّل، وبحدةٍ بعض الشيء — قائلًا: «أعرف رجلًا سيتسبَّب لك يومًا ما في قدرٍ كبير من الإزعاج، يا سيد ليون جونزاليس؛ رجلًا لا ينسى اسمك أبدًا في صلواته. لن أخبرك مَن هو.»

«ليس ضروريًّا. أنت تشير إلى الرائع أوبيرزون. ألم أقتل أخاه؟ أجل، أظن أنني محق. كان الرجل ذا الرأس المدبب والفكِّ السفلي البارز للأمام. قضية مثيرة: وددت لو أنني قد حصلت على قياساته، ولكن كنتُ في عجلة شديدة.»

تحدَّث وكأنه يعتذر عن تعجُّله.

«ولكننا ابتعدنا عن الموضوع الأساسي، يا سيد نيوتن. أنت تقول إن السيدة الشابة غادرت منزلك عبر المرأب، وكنت بصدد القول إنها غادرت في رفقة الآنسة ... لا أعرف ماذا تسميها. لماذا غادرت بتلك الطريقة؟»

كان ليون جونزاليس يملك شيئًا أكثرَ من الحدس للتجسس: كان يملك حدسًا للصدق، وعرف شيئَين على الفور؛ الأول أن نيوتن لم يكذب حين قال إن الفتاة غادرت المنزل، والثاني أنه يوجد سببٌ وجيه، ولكنه ليس بالضرورة منذرًا بالشر، للمغادرة السرية.

«إلى أين ذهبت؟»

ردَّ الآخر في إيجاز: «إلى المنزل». وتابع: «إلى أين عساها أن تذهب؟»

«لقد جاءت لتناول العشاء؛ بنية المبيت هنا هذه الليلة؟»

قاطعه مونتي نيوتن بنبرة هجومية: «اسمع، يا جونزاليس». وتابع: «لقد كنت أنت وعصابتك أناسًا رائعين قبل عشرين عامًا، ولكن حدث الكثيرُ منذ ذلك الحين — لم نَعُد نرتجف خوفًا من ذِكر اسم رجال العدالة الثلاثة. أنا لستُ طفلًا — أتفهمُ ذلك؟ وأنت عن قربٍ لستَ مخيفًا بدرجة بالغة. إذا أردت أن تشتكيَ إلى الشرطة ...»

قال ليون: «ميدوز موجودٌ بالخارج. أقنعتُه أن يسمح لي بمقابلتك أولًا»، فانتفض نيوتن.

وقال في تشكُّك: «بالخارج؟»

قطع خطوتين نحو النافذة وأزاح الستارة جانبًا. على الجهة الأخرى من الشارع، وقف رجل عند حافة الرصيف، متأملًا مجرى التصريف بإمعان. عرَفه على الفور.

قال: «حسنًا، أحضِره.»

«إلى أين ذهبت هذه السيدة الشابة؟ هذا كلُّ ما أريد معرفته.»

«قلت لك، لقد ذهبت إلى المنزل.»

توجَّه ليون إلى الباب وأشار إلى ميدوز؛ تشاورا معًا بأصوات منخفضة، ثم دخل ميدوز إلى الغرفة وحيَّاه صاحب المنزل بإيماءة غير مرحبة.

«ما الفكرة من وراء ذلك، يا ميدوز ... من إرسال هذا الرجل ليستجوبني؟»

قال ميدوز في برود: «هذا الرجل جاء من تلقاء نفسه. إذا كنت تقصد السيد جونزاليس؟ ليس لديَّ الحق لأمنع أي شخص من استجوابك. أين السيدة الشابة؟»

«أخبرتك، أنها ذهبت إلى المنزل. إذا كنت لا تُصدقني، فتِّش المنزل — فليفعل أيٌّ منكما.»

لم يكن يُخادعهما؛ كان ليون متأكدًا من ذلك. التفت إلى المحقِّق.

«أنا شخصيًّا لا أريد أن أزعج هذا الرجل أكثر من ذلك.»

كان بصدد مغادرة الغرفة، ثم التفت وقال من فوق كتفه: «تلك الأفعى نشطت مرة أخرى، يا نيوتن.»

«عن أي أفعى تتحدَّث؟»

«لقد قتلت رجلًا الليلة على جسر التايمز. أتمنى ألا تفسد أمسية ليزا ماراثون.»

لاحظ ميدوز، وهو يُراقب الرجل، أن لون وجهه تغيَّر.

وقال بصوتٍ عالٍ: «أنا لا أعرف ماذا تقصد.»

«لقد رتَّبت مع ليزا أن تتعرف على باربرتون الليلة وتستدرجه في الحديث. وها هي ذي الفتاة، المسكينة، تأنَّقت لتقتل، وتُغويَ رجلًا ميتًا — رجلًا مقتولًا وحسب.» التفَت فجأة، وصار صوته أكثرَ خشونة. وأردف قائلًا: «هذه كلمة مناسبة، أليس كذلك، يا نيوتن ... قتل عمد؟»

«لم أكن أعرف أي شيء عن الأمر.»

بينما كانت يد نيوتن تقترب من الجرس، قال ليون: «يمكننا الخروج بمفردنا.»

أغلق الباب خلفهما، وبعدها مباشرةً سمع صوت إغلاق الباب الخارجي، واتجه مونتي إلى النافذة بعد فوات الأوان ليشاهد رحيل ضيفيه غير المرحَّب بهما، وصعد إلى غرفته ليغيِّر ملابسه، كان ذهنه مشوشًا بعض الشيء.

ناداه الخادم من الرَّدهة.

«أنا آسفٌ بشأن ذلك الأمر، يا سيدي. ظننت أنه «مخبر».»

«أنت تسرف في الظن، يا فريد ...» ألقى نيوتن الكلمات على خادمه مزمجرًا. وأردف قائلًا: «عُد إلى مكانك — ألا وهو قاعة الخدم. سأَقْرَع لك الجرس إذا أردتك.»

استأنف صعوده على السُّلم واستدار الرجل متجهِّمًا.

فتح باب غرفته، وأضاء النور، وأغلق الباب وكان في منتصف الطريق متجهًا إلى تسريحته، حين أطبقت ذراعٌ فولاذية حول رقبته، ترنَّح فجأةً إلى الوراء وسقط على الأرض، نظر لأعلى إلى وجه جونزاليس الغامض.

همس صوتٌ في أذنه قائلًا: «إذا صرختَ فسأقتلك!»

رقد نيوتن في سكون.

تمتمَ قائلًا: «سأنتقم منكَ على ذلك.»

هزَّ الآخر رأسه.

«لا أظن ذلك، إذا كنت تقصد بـ «الانتقام» أنك ستشتكي للشرطة. لقد كنت تحت مراقبتي مدةً طويلة، يا مونتي نيوتن، وستندهش حين تعلم أنني قمتُ بعدة زيارات إلى منزلك. هناك خزنة صغيرة في الجدار خلف تلك الستائر» وأشار نحو زاوية الغرفة، ثم استطرد قائلًا: «هل ستُفاجَأ حين تعرف أنني فتحتها وصوَّرت جميع الوثائق التي بداخلها فوتوجرافيًّا؟»

رأى الخوف في عينَي الرجل حين وضع زوجَين من الأصفاد الألومنيوم ذات التصميم الغريب حول رُسغَي مونتي. وبمجهودٍ لا يُذكر رفعه، رغم ثِقَله، وألقى به على الفراش، وأغلق الباب وعاد، ثم جلس على الفراش، وشرع أولًا في ربط كاحِلَيه ثم خلع على مهلٍ حذاء سجينه.

سأله مونتي في انزعاج: «ما الذي ستفعله؟»

قال جونزاليس الذي خلع فردةً واحدة من الحذاء وخلع الجورب الحريري، وأخذ يفحص قدَم الرجل العاريةَ بدقة: «أنوي معرفة إلى أين أُخذت الآنسة ليستر». وتابع: «إن التحقيقات العادية والقانونية الصارمة تستغرق وقتًا وتفشل في النهاية — ولسوء الحظ بالنسبة إليك، ليس لديَّ دقيقةٌ لنُضيعها.»

«قلت لك إنها ذهبت إلى المنزل.»

لم يردَّ ليون عليه. فتح دُرج خِزانة الملابس، وبحث عن شيءٍ بعضَ الوقت، وفي النهاية وجد مبتغاه: وشاحًا حريريًّا رقيقًا. بهذا الوشاح، كمَّم فم الرجل، رغم أنه كان يُقاوم على الفراش.

ثم قال: «في موسامودس، إذا قلت هذه الكلمة أمام صديقي جورج مانفريد، احرص على نطقها نطقًا صحيحًا؛ هو سريع الغضب بخصوص هذه النقطة — بعضٌ من

أصدقائك أخذوا رجلًا يُدعى باربرتون، الذي قتلوه فيما بعد، وحاولوا إجباره على الحديث عن طريق حرق قدمَيه. كان بطلًا. سأرى إلى أيِّ مدًى تتمتَّع أنت بالبطولة.»

قال نيوتن بصوتٍ مكتوم: «بالله عليك لا تفعل!»

كان جونزاليس يمسك بعلبة معدنية مسطَّحة أخرجها من جيبه، شاهده المحتجَز، مذهولًا، وهو يفتح الغطاء ويُخرج ولاعة سجائر بالقرب من سطحها الداكن. برز لهب أزرق وتمايل مع تيار الهواء.

قال ليون: «قوات الشرطة هي مؤسسة أكثرُ من ممتازة.» ثم وجد لبِّيسة حذاء فِضية على الطاولة وأخذ يسخِّنها بلهب الولاعة في هدوء، ممسكًا الطرفَ الآخذ في التسخين سريعًا بمنديل حريري. وأردف قائلًا: «ولكن لسوء الحظ، عندما تتعامل مع جرائم العنف، فإن الضغطَ الأخلاقي والمعاملةَ اللطيفة لا يُسفِران عن شيءٍ أشدَّ تأثيرًا في صدور أعدائك من الشعور بالازدراء والسخرية. فالإنجليزي الذي صنع من القانون إلهًا، تخلَّى عن سجن المجرمين وجلْدهم، ولم يتبقَّ سوى عدد قليل من المجرمين. وعندما أتى المسلَّحون الروس إلى لندن، لم تفعل السلطات شيئًا سوى التصرُّف الذكي الوحيد؛ ألا وهو: سحبت الشرطة ونزلت بسلاح المدفعية، ابتغاءً لشيء واحد فقط، ألا وهو قتل المسلحين بأي ثمن. أهل العنف يخشون بعضهم البعض. فالمسلح يعيش في رعب من السلاح — بالمناسبة، فهمت أن الحرس القديم عاد بكامل قوَّته؟»

عندما يتحدَّث ليون في هذا الموضوع، يمكنه أن يُواصل الحديث لساعات.

تمتم مونتي قائلًا: «لا أعرف ماذا تقصد.»

«ولن تعرف.» رفع الدخيل لبِّيسةَ الحذاء المسودَّة والمنبعثَ منها الدخان، ووضعها بالقرب من وجهه بقدرِ ما يمكنه.

قال، وهو يقترب ببطءٍ من الفراش: «أجل، أظن أن هذا سيفي بالغرض.»

سحب الرجل قدمَيه لأعلى تحسُّبًا للألم، بيْد أن يدًا طويلة أمسكت كاحلَيه وبسطَتهما مرةً أخرى.

«لقد ذهبَتا إلى الحفل التنكري الراقص لكلية الفنون الجميلة.» بدا الصوت أجشَّ رغم وجود المنديل.

«الحفل التنكري الراقص؟» نظر إليه جونزاليس، ثم ألقى لبِّيسة الحذاء الساخنة في المدفأة، وأزاح الكمامة من على فمِه. وسأله: «ولماذا ذهبتا إلى الحفل التنكري الراقص؟»

«كنتُ أريدهما أن تُخليا الطريق الليلة.»

«هل من المحتمل أن يكون أوبيرزون في هذا الحفل؟»

«أوبيرزون؟» اتسعَت ابتسامة الرجل لتصير ضحكة هيسترية.

«أو جيرتر؟»

هذه المرةَ لم يضحك السيد نيوتن.

وقال: «لا أعرف مَن تقصد.»

ردَّ ليون بنبرةٍ غير مبالية، وهو يفكُّ عقدة المنديل الذي يوثِق الكاحلين قائلًا: «سنخوض في ذلك فيما بعد». وتابع: «يُمكنك أن تنهض الآن. متى تتوقَّع عودتهما؟»

«لا أعرف. قلت لجوان لا تتعجَّل؛ لأنني سأستقبل شخصًا ما هنا الليلة.»

بدا الأمر مقبولًا. تذكَّر ليون أن حفل كلية الفنون الجميلة هو حفلٌ بالملابس التنكرية، وأن ثَمة سببًا للمغادرة عبر المرأب بدلًا من البابِ الأماميِّ للمنزل. علَّق نيوتن، كما لو أنه كان يقرأ أفكاره، قائلًا:

«كانت فكرة الآنسة ليستر، الخروج من البوابة الخلفية. كانت تشعر بالخجل الشديد؛ فهي ترتدي عباءة.»

«لونها؟»

«خضراء، ذات قلَنسوة حمراء.»

رمَقه ليون بنظرة سريعة.

«مميزة جدًّا. ما الغرض؟»

تذمَّر نيوتن، وهو يجلس على حافة السرير ليلبسَ الجورب قائلًا: «لا أعرف الغرض وراء هذا». وتابع: «ولكن أعرف هذا يا جونزاليس»، قالها بغضبٍ عارم يشوبه الخوف؛ وأردف قائلًا: «ستندم على ما فعلتَه بي!»

سار ليون إلى الباب، ووضع المفتاح وفتحه.

قال وهو يرحل: «أتمنى ألا تندمَ لأنني لم أقتلك.»

انتظر مونتي نيوتن حتى رأى عبر نافذته المرتفعة الجسمَ النحيف يسير على طول الرصيف ويختفي عند الزاوية، ثم نزل للطابق السفلي بسرعة، لابسًا فردة حذاء واحدةً، ليزور المنزل ٩٣ شارع نيو كروس.

الفصل الثامن

منزل أوبيرزون

في مثلث، يُمثل ضلعان منه جسورَ السكك الحديدية المتقاربة، وتُمثِّل قاعدته المياهَ الداكنة الراكدة لقناة جراند سوري، وقفت الأطلال الموحشة لمخزنٍ كان يومًا يحوي بضائعَ شركة أوبيرزون آند سميتس. فقد أسقط منطادُ زبلين أثناء مروره قنبلةً حارقة بشكل عشوائي، أحدثت فجوةً هائلة وقبيحة في سقف المخزن. وأحدثَت النيرانُ التي تلَت الانفجار ضررًا بالأطر الحديدية للنوافذ لتتركها ملتويةً ومتشققة؛ وبمعجزةٍ ما ظل السقف كما هو باستثناء الحواف المسودَّة للفجوة التي اخترقها اللهبُ ليصل ارتفاعُه مائة قدم.

كان المخزن محاذيًا لمجرى القناة؛ حيث كانت قوارب نقل البضائع ترسو هنا، وتُفرِّغ حمولتها من بالاتِ المطَّاط، وجوزِ النخيل، وحتى النترات، ثم يُعاد تحميلها بأقمشةِ مانشستر القطنية المضلَّعة، وحقائب متراصَّة بعضها فوق بعض من حُليٍّ برمينجهام الرخيصةِ الثمن المصنوعة من النُّحاس والمطليَّةِ بالورنيش.

كان السيد أوبيرزون دومًا يشحن بضائعَه الكحوليةَ من هامبورج؛ إذ إن ألمانيا هي بلد الصناعات. وفي وسط هذا المثلث كانت هناك فيلا من الطوب الأحمر، تبدو أكثرَ بشاعةً من مبنى المصنع؛ إذ تفتقر إلى تلك الفخامةِ الفائقةِ الوصف، وتُحيط بها مشاعر الأسى والشفقة، التي يُثيرها منظر المبنى المحترق، رغم أنها ربما كانت قبيحةً بحد ذاتها.

كانت هذه الفيلا من تصميم السيد أوبيرزون؛ إذ كانت نسخةً مُقلَّدة بالضبط من المنزل الذي وُلِد فيه في السويد. وكان بها جملونات مرتفعة في أماكنَ غريبة وغير متوقَّعة. وسقفها مغطًّى بالبلاط الرمادي؛ كما كان مثبتًا في بابها المثير للفضول ألواحٌ من الزجاج، وثمة زخارفُ حديدية لطيور الكركي والكلاب كانت تحيط بالممر الضيق عبر صف من نباتات القُرَّاص والحُمَّاض المزروعة في حديقته.

هنا كان يسكن، في عزلة، لكنها ليست عزلةً تامة، حيث إن هناك رجلَين آخرَين يعيشان في المنزل، وطاهيةً سويدية بدينة، وخادمةً دنماركية بسيطة جدًّا؛ فتاة ذات وجه مجرَّد من التعبيرات، تعمل منذ طلوع الشمس حتى منتصف الليل دون شكوى، نادرًا ما تتكلم، ولا تبتسمُ أبدًا. كان الرجلان في الثلاثينيات من العمر. يَشغلان غرف البرج الصغير الموجودة على طرفَي المبنى، وكانت اهتماماتهما محدودة. فأحيانًا ما كانا يلعبان معًا بورق اللعب المتَّسخ بالشحم، لكن لم يكن أيٌّ منهما يتكلم أكثرَ من اللازم. وكانا رشيقَين، ذوَي وجهَين خاليَين من المشاعر، وملامح متشابهة تمامًا. لكلٍّ منهما شفتان نحيفتان، مستقيمتان؛ وعينان مستديرتان، محدقتان، داكنتان يملؤهما الفضول البرَّاق والمخيف في آنٍ واحد.

قال ليون جونزاليس، بينما كان يتفحَّص المكان: «يبدوان وكأنهما يُشاهدان الخنازير تُقتَل ويستمتعان بكل دقيقة من ذلك. أحدهما إيوان فايفر، والآخر سفين جيرتر. كلاهما فرَّ هاربًا من حبل المشنقة أو نَصْل المقصلة في ألمانيا؛ إذ إن هناك أحكامًا قضائية بالإدانة ضد كلٍّ منهما. فهما يُمثلان النموذج التقليدي للمجرم الألماني المتدرِّب، عديما الرحمةِ كالذئاب. ومجردان من الإنسانية.»

وضعَ «الثلاثة»، كما كان معتادًا، آليةَ القانون موضعَ التنفيذ، ووجدوا أيدي الشرطة مكبَّلة. وأدركوا أنه فقط عن طريق التحايل على القانون يمكن نفي الرجال، إلا أن التحايل على القانون أمرٌ صعب. لم يثبت عليهم أنهم قد انتهكوا القانون بأي حال من الأحوال. فقد تقدَّمَت سيدة، لم تكن الأفضل من بين جميع المواطنين، بشكوى ضدَّ واحد منهم. وأُجري تحقيق — لكن لم يكن هناك دليل؛ إذ كانت الشكوى نفسها تحول دون الإدانة، ومن ثَم أُسقِطَت القضية … من قِبَل الشرطة.

تحرَّك شخصٌ آخر بسرعة.

ذات صباح، قبل بزوغ الفجر، كان هناك شرطيٌّ دورية في ممر السحب المجاور للقناة؛ حيث سمع زمجرةً متوحشة، فنظر حوله بحثًا عن كلب. لكنه بدلًا من الكلب، وجد في أحد تلك المداخل الضيقة المؤدية إلى ضفة القناة، رجلًا. كان مقيدًا إلى السياج الخشبي الكبير، وقد اعتلَت ظهرَه علاماتُ الجَلْد بالسوط. شخصٌ ما قد أمسك به ليلًا بينما كان يجوب أنحاء الضفة بحثًا عن شيءٍ يُسلِّيه، فقيَّده وجَلَده. خمسٌ وعشرون جَلدَة: اعتقد أحد الخبراء أن السوط المُستخدَم هو السوط ذو التسعة سيور الذي تستخدمه السلطات.

انتاب الفضولُ والشك سكوتلاند يارد، فاستدعَوا رجال العدالة الثلاثة. لكن كانت حجج غيابهم قويةً ولا تدَعُ مجالًا للشك. فلم يؤخذ ثأر سفين جيرتر — لكنه بعد ذلك ابتعد عن ممر السحب.

في هذا المنزل الذي يمتلكه الدكتور أوبيرزون كانت هناك غرفٌ لا يدخلها سِواه. وقد شَكَت الخادمة الدنماركية للطاهية أنها أثناء مرورها بإحدى هذه الغرف بالتزامن مع خروجه منها، هبَّت من الداخل دَفعةٌ من الهواء الدافئ الملوَّث جعلتْها تسعل لمدة ساعة. وهناك غرفةٌ أخرى كان الدكتور يُشَغِّل فيها من حينٍ إلى آخر مجموعةً مختلفة من الأجهزة. أجهزة فلكنة، وأجهزة كهربائية (أكبر وأكثر استخدامًا مما قد رأت ميرابيل خلال مدةِ إقامتها الوجيزة في سيتي رود)، وجهاز هواء سائل، ليس على أحدث طراز، لكنه يؤدي الغرض.

لم يكن الدكتور أوبيرزون دكتورًا في الطب، وهذا ما يُثير الفضول بالقدْر الكافي. ولا حتى في الكيمياء. بل كان دكتورًا في الأدب والقانون. وكانت هذه التجارب التي يجريها هوايته — وهي هواية كان يسعى وراء إشباعها منذ طفولته.

في تلك الليلة، كان الدكتور أوبيرزون يجلس في غرفة استقباله المتكدسة يقرأ مجلدًا عن الفلسفة الألمانية من تلك المجلدات ذات السطور المتقاربة، ويُفكِّر في شيء آخر. ورغم أن الشمس كانت قد غربت لتوها، كان الشيش والستائر مغلقَين؛ والخشب يحترق مطقطقًا في المدفأة، وكان الضوء الساطع للمبات النصف وات الثلاث يصنع وهجًا في الغرفة.

قاطعته مكالمةٌ هاتفية. فأجابها، وهو يستمع ويردُّ بصوتٍ عميق.

وفي نهاية المكالمة، قال الدكتور أوبيرزون: «إذن!» متبوعةً ببضع كلمات منطوقةٍ بإنجليزيته الغريبة.

وضع كتابه جانبًا، وسار بصعوبة في خُفِّه المخملي عبر الغرفة وضغط ضغطتَين على زر الجرس الموضوع إلى جانب المدفأة. فحضر جيرتر في صمتٍ ووقف منتظرًا.

كان جيرتر قذرَ المظهر، غيرَ حليق. وكانت ذقنه المدببة وشفته العُلوية الصغيرة زرقاوَين. وكانت فتحة قميصه الظاهرة من الصديري متسخةً بحوافَّ تكاد تكون سوداء. وقد وقف يقظًا، مبتسمًا ابتسامةً بلهاء، مثبتًا عينَيه على نقطةٍ فوق رأس الدكتور.

رفع الدكتور أوبيرزون عينَيه من كتابه.

وقال: «أريدك الليلةَ أن تبدوَ في مظهر رجل محترم من مرتادي نوادي النبلاء.» وقد تحدَّث بلغة سكان شمال ألمانيا الصعبة التي تعلَّمها هذا السويديُّ بسرعة.

فقال جيرتر بالألمانية: «أجل، سيدي الدكتور!»

وغادر الرجل الغرفةَ على الفور.

كان الدكتور أوبيرزون يكره الألمانَ لسببٍ ما. ولهذا السبب، كرههم جيرتر وفايفر، والأخير بولنديُّ الجنسية وروسيُّ المولد. إلا أن جيرتر كان يكرههم لأنهم اقتحَموا السجن الصغير في بلدة ألتشتات لقتلِه بعد أن اكتشفت الكلابُ جثةَ السيدة سيدليتز. وكان سيموت آنذاك لولا رجالُ الشرطة الذين استشعَروا ثورةً شيوعية، ففرَّقوا الحشْد وأرسلوا جيرتر تحت الحراسة عبر الطريق إلى أقربِ مدينةٍ كبيرة. ولم يُرَ رجلا الشرطة اللذان رافقاه مرةً أخرى. بعدها بعامين عاود جيرتر الظهورَ في إنجلترا بشكل غامض، حاملًا جوازَ سفرٍ سليمًا. حتى إنه لم يكن هناك دليلٌ على كونه جيرتر — لكن عرَفه كلٌّ من ليون، ومانفريد، وبويكارت.

كان هناك بديلٌ للجَلد.

قال ليون: «من الممكن ببساطة أن نُمسك برأسه تحت الماء حتى يغرق.»

ناقَشوا الأمر، واتخذوا قرارًا ضده دون أي سببٍ عاطفي أو أخلاقي — لا شيء سوى الملاءمة. وتعرَّض جيرتر للجَلد، ولم يعرف أبدًا كم كان قريبًا من الإغراق في مياه القناة السوداء الملوثة بالشحم.

تابع الدكتور أوبيرزون قراءة كتابه — كان كتابًا مذهلًا يتناول الروحَ البشرية والخلود والزمن. وكان قد وصل إلى تحليل الخلود، ذلك عندما أتاه جيرتر مرة أخرى مرتديًا زيًّا يليق بـ «رجل محترم من مُرتادي نوادي النبلاء». حيث كانت سترة البدلة تُلائمه بدرجة مثالية؛ وكان القميص والصديري من مقاس مناسب تمامًا. وكانت مكوَّنةً من قميص ناصع البياض، وسروال مزيَّن بشريطة، وربطة عنق على شكل فراشة، وياقة مجنَّحة ...

فقال الدكتور أوبيرزون وهو يُعاين هيئته بتمعُّن: «هذا جيد». وتابع: «لكن يجب أن تكون الأزرارُ على شكل حباتِ لؤلؤ، لا هذه الأزرار المطلية بالمينا. وسلسلة الساعة أصبحَت غيرَ مواكبة للعصر، لم يَعُد يضعُها أحد. فهيئة الرجل المحترم الذي يرتاد نوادي النبلاء لا تسمح بارتداء الحُليِّ الظاهر. كما أعتقد أن وجود شارب ...؟»

فقال جيرتر بالألمانية: «أجل، سيدي الدكتور!»

مرةً أخرى اختفى جيرتر الذي كان مُمثِّلًا في يوم من الأيام. وعند رجوعه كانت الأزرار المطلية بالمينا قد اختفت، وحلَّت محلَّها أزرارٌ صغيرة من اللؤلؤ، ولم يَعُد الصديري

الأبيض يحمل سلسلةَ ساعة. كما ظهر شاربٌ بنيٌّ صغير فوق شفته العليا، بشكل طبيعي جدًّا حتى إن أوبيرزون الذي وقف يتفحَّصه عن كثب، لم يُلاحظ أيَّ شيء يدلُّ على كونه شاربًا مستعارًا. ثم أخرج الدكتور علبةً من جيبه، وأعطاه ثلاث عملات ورقية جديدة. قائلًا:

«يداك، من فضلك؟»

فاقترب جيرتر ثلاثَ خطوات من الرجل العجوز، وتوقَّف، ونقر بكعبَي حذائه في تحيةٍ منه للدكتور، ثم مد يدَيه لمعاينتهما.

فقال الدكتور أوبيرزون: «جيد! أتعرف ليون جونزاليس؟ سيكون في الحفل التنكري الراقص. ولن تجده يرتدي حُلَّة تنكرية. إنه الرجل الذي جَلَدك.»

فقال جيرتر دون انفعال: «الرجل الذي جَلَدني.»

ساد الصمت، بينما كان الدكتور أوبيرزون يزمُّ شفتيه.

ثم تابع قائلًا: «كما أنَّه قام بأفعال وَسَمَته بأنه قاتلٌ سيئ السمعة ... أعتقد ... نعم، أعتقد يا عزيزي جيرتر ... أنه ستكون أيضًا هناك فتاة، لكن رجالي سيكونون هناك لتدبُّر هذه المسائل. وسوف يُملي عليك بنتون التعليمات. كلُّ ما عليك هو، تولي أمر جونزاليس.»

فانحنى جيرتر بثباتٍ، وقال:

«لقد كنت أتمنى هذا الأمر»، وانحنى مرةً أخرى وانسحب من الغرفة. بعدها، سمع الدكتور أوبيرزون صوتَ السيارة الصغيرة تنطلق عبر العُشب إلى الطريق. فاستكمل قراءة كتابه؛ إذ كان موضوع الخلود هذا مذهلًا.

كان الحفل التنكريُّ الراقص المُقام في كورِينثيان هول واحدًا من فعاليات الموسم، وقد سعى، بكل حماس، أفرادُ المجتمع الذين لا تربطهم أيُّ صلة بالفنون إلا فنَّ العيش، للحصول على التذاكر التي اقتصر إصدارُها على أعضاء نوادي النبلاء الثلاثة.

عندما دخلت الفتاة إلى القاعة المزدحمة، نظرت حولها في دهشة. فقد تحوَّلت الشرفات، التي حدَّدتها الأنوارُ الخافتة وأخفَتها باقات الورود على نحو جزئي، إلى مقصورات؛ وزُيِّن السقف بالستائر الزرقاء والذهبي؛ وفي أحد طرَفَي القاعة كانت هناك تعريشةٌ حقيقية من الأزهار، حيث تعزف إحدى الفرقتَين وراءها. وكان الحضور يرتدون الأقنعةَ بكل أشكال التخفِّي الممكنة ويتراقصون مع الإيقاع على الأرضية اللامعة. وبالنسبة إلى مَن اعتاد ارتيادَ الحفلات، كان هناك فرقٌ طفيف بين الهنود، والمهرجين، والفرسان الموجودين هنا وبين أولئك الذين شاهدهم مئات المرات في مئات صالات الرقص المختلفة.

وبينما كانت الفتاة تُحدِّق حولها في تعجبٍ واستمتاع، ناسيةً كلَّ مخاوفها، اقترب منهما رجلان خرَجا من أسفل ظل الشُّرفة، أحدهما يرتدي ملابسَ سهرة، والآخر يرتدي ملابس قاطع طريق.

فقالت جوان بحيوية مفاجئة: «ها هما ذانِ شريكانا». ثم أضافت: «ميرابيل، أود أن أعرفكِ على اللورد إيفينجتون.»

داعب الرجلُ الذي يرتدي ملابسَ السهرة شاربَه الصغير، ونقر بكعبَي حذائه وانحنى إلى الأمام انحناءةً رسمية. كان ذا وجهٍ نحيف، وشاحبٍ قليلًا، وغير مبتسم. وقد تفحَّصها بعينَيه المستديرتين الداكنتين للحظة، ثم قال:

«يسرُّني لقاؤكِ، يا آنسة ليستر»، قالها بصوتٍ عالٍ، ونبرة حادة، يشوبها لكْنةٌ أجنبية.

أدهشت طريقتُه الفتاةَ بقدر ما أدهشتها القُبلة الباردة التي طبَعها على يدها، وكأنما قرأ أفكارها، فتبع قُبلتَه بسرعة بقوله:

«عِشت مدةً طويلة بالخارج حتى أصبحَت إنجلترا والطباعُ الإنجليزية غريبةً عليَّ. ألن ترقصي؟ أوَليس من الأفضل أن ترتدي القناع؟ أرجو المعذرة منكِ على ملابسي»، وهز كتفيه متابعًا: «لكن لم تكن هناك ملابسُ تنكرية متاحة.»

وضعت قناعها الأحمر، وفي ثانية أخرى انسابت بين الجمع حتى غابت عن الأنظار.

عندها قالت جوان: «لا أفهم شيئًا أبدًا، يا بنتون.»

كانت جوان قلقةً وخائفة. وقد بدأت تُدرك أن اللعبة التي شاركت فيها مختلفة — حيث كان دورها شريرًا أكثرَ من أي دور آخرَ لعبتْه. فالتسامر مع الشباب الأثرياء على طاولات القمار الخضراء التي يمتلكها الكابتن مونتي نيوتن هو شيء مختلف عما تراه الآن؛ إذ إنها لم ترَ العصابة من قبلُ تعمل ضد امرأة.

تأفَّف قاطع الطريق الذي كان يرتدي ملابسَ مناسبة، قائلًا: «لا أعرف». وتابع: «كان هناك استدعاءٌ طارئ للجميع.» ونظر حوله في قلق خشية أن يسمعه أحد. ثم قال: «كل المسدسات هنا — ديفسون، وكوتشيني، وجيوي ستابس.»

فهمستْ في ذُعر، حتى شحبَت شفتاها وراء أحمرِ شِفاهها: «المسدسات؟ أتقصد أن ...؟»

فأجابها في عناد قائلًا: «أُخرِجَت المسدسات: هذا كل ما أعرف». وتابع: «وقد بدَءوا التحركَ قبل مجيئكِ بنصف الساعة.»

صمتت جوان، وراحت ضرباتُ قلبها تتسارع بشدة. إذن، أخبرها مونتي بالحقيقة. أدركت أنه ثمَّة قوةٌ ما وراء أوبيرزون ووراء مونتي نيوتن تتعشَّق بشكل مثالي داخل الآلة، بيد أنها لم ترَ سوى ترس واحد من تروس هذه الآلة. فلقد كانت حفلاتُ القمار هذه التي يُقيمها مونتي مربحةً كفاية، لكن لوقت طويل ظلَّت تُراودها شكوك بشأن كون هذه الحفلات مجرد عملٍ إضافي. وقد أبقت المنظمةُ على جماعات نظامية من الرجال المسلحين الذين عيَّنتهم من كل حَدب وصَوْب. حيث كان مونتي نيوتن يتحدث أحيانًا في اللحظات التي يكون فيها ثملًا عن «الحرس القديم». إلا أن جوان لم تُكبِّد نفسها أبدًا عناءَ معرفة متى وُظِّفوا، وبأي عذر، ولأي غرض. وقد كانوا يأتون إلى إنجلترا ويغادرونها في أفواج. حتى إن مونتي قد أخبرها ذاتَ مرة أن رجال أوبيرزون ذهبوا إلى مدينة سميرنا، وتحدَّث في غموض عن مسابقة خادعة يُجهِّز لها تُجَّار شركة أوبيرزون آند سميتس. بعدها، قرأتْ في الجريدة عن «أحداث شَغْب ذات طابع ديني» نتج عنها تدميرُ مبنًى كبيرٍ لمقرٍّ إحدى الشركات حرقًا. ولم يذكر مونتي بعدها أيَّ مسابقات. ثم عاد الحرس القديم إلى إنجلترا فاقدين أحدَ رجالهم الذي تلقَّى رصاصة في بطنه، في سياق «أعمال الشَّغْب ذات الطابَع الديني» هذه. لكنها لم تعرف أبدًا ماذا كانت تلك القناعة التي يؤمن بها لدرجةٍ جعلتْه يحمل السلاح دفاعًا عنها. وقد عرَفَت بوفاته لأن مونتي قد راسلَ أرملته، التي كانت تعيش في حي برونكس.

عرفتْ جوان الكثيرَ عن عمل مونتي، وهذا لسببٍ وجيه. ألا وهو أنها كانت بصحبته معظمَ الوقت؛ وسواءٌ تظاهرت بأنها ابنة أخته أو ابنته، أو أخته، أو شخص مقرَّب منه، كانت بلا شك أقربَ إلى كونها كاتمةَ أسراره.

سألت جوان قائلة: «مَن يكون هذا الرجل ذو الشارب ... أهو واحدٌ منهم؟»

فأجابها بنتون قائلًا: «لا، إنه رجل أوبيرزون ... بحقِّ السماء لا تُخبري مونتي بأنني أخبرتكِ بهذا كلِّه! لديَّ أوامرُ الليلة بإبلاغهم معلوماتٍ عن الفتاة.»

فشهقَت مرتعبة، وقالت: «ماذا عنها ... ماذا سيفعلون معها؟»

فقال بنتون: «هيَّا لنرقص»، ثم قادها، وحملها تقريبًا باتجاه الجمع. وعندما وصلا إلى منتصف باحة الرقص، انطفأَت الأنوار كلها، من دون سابق إنذار.

الفصل التاسع

قبل انطفاء الأضواء

توقَّفت الفرقة، ودوَّى صوت تصفيق من الراقصين المتحمسين، وقبل أن تنطلق عبارات الإطراء بدأت الفرقة الثانية في عزف مقطوعة «كوللو».

لم تكن ميرابيل سعيدةً على نحو استثنائي. فبرغم أن شريكها كان هو الأمهرَ من بين مجموعة الراقصين، لكن ينقصهما وحدةُ الهدف، وانسجامُ الاهتمامات تلك التي تصنع كلَّ الفارق بين الراقصين المتناغمين وبين الراقصين المتنافرين.

استجْدَته ميرابيل قائلةً: «هل يمكننا الجلوس؟» وأضافت: «أشعر بالحرِّ بعض الشيء.»

فسألها قائلًا: «أتسمح السيدة الكريمة بالجلوس في القاعة الصغيرة؟ فالحرارة ألطفُ هناك، والمقاعد مريحة.»

نظرَت إليه في استغراب.

وقالت: ««السيدة الكريمة» هو تعبير ألماني — لِمَ تستخدمه يا لورد إيفينجتون؟» ثم أضافت لطمأنتِه: «أراه تعبيرًا لطيفًا جدًّا.»

فأجابها السيد جيرتر قائلًا: «عِشت في ألمانيا سنواتٍ عديدة». ثم أضاف: «لكني لا أحبُّ الألمان — إنهم شديدو الغباء.»

لو كان قد قال «الشرطة الألمانية» تحديدًا لكان أقربَ إلى الحقيقة؛ ولو أضاف أن هذا الكُره كان متبادَلًا، لربما حاز الثناء على صراحته.

في نهاية القاعة، كان هناك باب، تُخفيه نسبيًّا الورودُ التي تُزيِّن منصة الفرقة الموسيقية، يُفضي إلى قاعةٍ أصغر، يفصلها بصورة عادية عن القاعة الرئيسية بابان قابلان للطيِّ نادرًا ما يُفتحان. وكانت الغرفة المُلحَقة ستُستخدم كمشتل زجاجي تلك

الليلة. حيث كانت أشجار النخيل والزهور المصطفَّة في كلِّ مكان. وشُكِّلَت التعريشات اصطناعيًّا، ووُضِعَت المقاعد والطاولات في الأركان المنعزلة الدافئة، التي تحجبها الشُّجيرات نسبيًّا، في تصميمٍ بديع يسرُّ أنظارَ الجالسين أمامه.

وقف مُرحِّبًا عند مدخل مغارة صغيرة يُنيرها فانوس صيني ورقي ملوَّن وحيد.

قالت ميرابيل: «أرى أن نجلس في المكان المفتوح»، وسحبت كرسيًّا.

فردَّ السيد جيرتر قائلًا: «اسمحي لي.»

وفي لمح البصر صار إلى جانبها، هيَّأ الكرسي، وأتى بمسند، فارتمت على الكرسي متنهدةً بارتياح. وقد كان الوقت باكرًا بالنسبة إلى توافُد المتكاسلين، فجالت بنظرها، ورأت أنهما كانا بمفردهما، باستثناء نادلٍ وحيد كان يشد رباط مريوله مراقبًا الزبائن المُحتمل وصولهم.

سألها قائلًا: «هل ترغبين في النبيذ ... لا؟ ماذا عن عصير البرتقال الغازي؟ جيد!» فاستدعى النادل وأعطاه الطلب. ثم قال لها: «أرجو المعذرة إن كنت غريبًا بعض الشيء. فقد عِشت في ألمانيا سنواتٍ عديدةً — باستثناء وقت الحرب؛ إذ كنت في فرنسا.»

بالطبع عاش السيد جيرتر في ألمانيا عدة سنوات، لكنه لم يزُر فرنسا أبدًا. ولا سمع عيارًا ناريًّا واحدًا أُطلِق في الحرب. صحيح أنه قد انفجرت قنبلةٌ جوية على نحوٍ خطير بالقرب من السجن في ماينز حيث كان يقضي عقوبةَ السجن لمدة عشر سنوات بتهمة القتل، لكن هذه الواقعة هي كل علاقته بالحرب.

«أنتِ تعيشين في الريف، أليس كذلك؟»

«في لندن: أنا أعمل مع السيد أوبيرزون».

«هكذا: إنه رجلٌ جيد. رجل نبيل».

لم تكن شديدةَ الإعجاب بخُلُق الدكتور أوبيرزون، لكن كان شعورًا طيبًا أن تسمع غريبًا يتكلم بهذا اللُّطف عن مدير عملها الجديد. وفي هذه اللحظة، شردت بذهنها لمزرعة هيفيتري؛ حيث غرفةُ الاستقبال الجميلة بأقمشتها المزخرفة — غرفة كانت ستملؤها في هذه الساعة الأزهارُ المسائية بأريجها المتسلِّل عبر النافذة المفتوحة. والكلب جيم، من نوع فوكس تيرير، الذي يتجوَّل بائسًا من غرفةٍ إلى غرفة، يتشمَّم باب القاعة في تعاسة. فشعرتْ بغُصة في حلقها. وأحسَّتْ بأنها بعيدةٌ عن بيتها وبأنها وحيدة. أرادت أن تنهضَ من مكانها وتركض عائدةً إلى حيث تركتْ جوان وتُخبرها بأنها غيَّرتْ رأيها وأنها يجب أن تعود إلى جلوستر تلك الليلة — عندها بدأت تجول بنظرها بصبرٍ نافد بحثًا عن النادل. في

هذه الأثناء كان السيد جيرتر يعبث ببعض الشفَّاطات التي التقطها من حاويةٍ زجاجية موضوعة في منتصف الطاولة. وكان أحد طرفَي الشفَّاطات ظاهرًا من فوق حافة الطاولة، بينما كان الطرَفُ الآخر مغروسًا بعمقٍ في الفوهة الواسعة للزجاجة الصغيرة التي يُمسك بها في اليد الأخرى. وقد امتلأت الشفَّاطات المجوَّفة بارتفاع نصف إنش بالمسحوق الأحمر الذي يملأ الزجاجة.

«معذرةً!»

قالها النادل وهو يضع عصير البرتقال الغازيَّ على الطاولة وذهب ليأتيَ بالباقي. بينما كانت عينا ميرابيل مثبتتَين في حزنٍ على باب صغير في نهاية القاعة. إذ كان الباب يؤدي إلى الشارع، حيث تقف سيارات الأجرة التي يمكن أن تُقلَّها إلى بادينجتون في غضون عشر دقائق.

بينما كانت تنظر حولها، كان جيرتر يُحرِّك المحتويات الصفراء في كأسها الزجاجيةِ بملعقة. وكانت شفَّاطتان تَبرزان بشكل ممتع من الرغوة التي تعلو عصيرَ البرتقال. فابتسمت وأمسكت بالكأس بينما كان يضع سيجارةً في مبسم السجائر الأسود.

وسألها قائلًا: «أيمكنني التدخين ... أجل؟»

كانت الرشفةُ الأولى التي رشَفَتها من الشفَّاطتَين شديدة المرارة. فامتعضت وتركت الكأس قائلة:

«يا لبشاعته!»

فسألها قائلًا: «أكان سيئ المذاق ...؟» لكنها لم تُجِبه إذ كانت تصبُّ بعض الماء من زجاجة.

ثم أجابته قائلة: «الأسوأ على الإطلاق!»

فقدَّم لها كأسه قائلًا: «هلا تُجربين مشروبي، فضلًا؟» فشربتْ. وأضاف: «ربما كانت المرارة لشيء في الشفَّاطة.» لقد كان يُخبرها بالحقيقة.

«إنه ...»

كانت القاعة تلف وتدور، والأرض ترتفع وتهبط كظهر سفينة في بحر عاصف. فنهضتْ، وترنحتْ، وأمسكتْ بذراعه.

فصاح قائلًا: «افتح الباب الصغير، أيها النادل، من فضلك ... فقدَت السيدة وعيها.»

توجَّه النادل نحو الباب وفتحه على مصراعيه. بينما كان هناك رجلٌ — يقف أمام الباب مباشرة. كان يرتدي بدلة العَشاء، ومعطفًا طويلًا على الطراز الإسباني. فوقف

جيرتر محدقًا، حيث اعتَلَتْ وجهَه ملامحُ حيرة مثيرة، وكان لم يُشعل سيجارته بعد. لم يُحرِّك يديه. كان جونزاليس منتظرًا هناك، يقظًا — الموت يبتسم له — وعندئذٍ خيَّم الظلامُ الحالك على القاعة. حيث أطفأ شخصٌ ما المفتاح الرئيسي.

الفصل العاشر

عندما انطفأت الأضواء

مرَّت خمس، أو عشر دقائق قبل أن يتعثَّر حارسُ القاعة ويترنحَ ويشق طريقه باللعنات إلى القاعة الصغرى، مُتلِفًا الزهورَ المُستأجَرة، حيث سار عبر حطام الأواني الفَخَّارية والتربة المقلوبة حتى وصل إلى غرفة التحكم. مرَّت ثانيةٌ أخرى وأُضيئت القاعات كلها مرةً أخرى على نحوٍ متألق، وبدأت الفرقة الموسيقية تعزف موسيقى رقصةٍ تُنفَّذ بخطوتين، واصطحبَت السيدات الغائبات عن الوعي إلى غرفهن المظلمة المنعزلة.

هُرِع مدير القاعة إلى الغرفة المُلحقة، قائلًا:

«ماذا حدث ... هل تعطَّل المنصهر الكهربائي الأساسي؟»

فأجابه حارس القاعة بحدَّة قائلًا: «لا، شخص أحمق أطفأ المفتاح الرئيسي.»

أصرَّ النادل المُرتبك على أنه لم يَدْنُ أحدٌ من صندوق المفاتيح الكهربائية.

قال: «كان هناك سيدة ورجل هنا، ورجل آخر بالخارج.» وأشار إلى الباب المفتوح.

فسأله المدير قائلًا: «وأين هم الآن؟»

فأجابه النادل: «لا أعرف. فقدَت السيدةُ وعيها.»

اختفى الثلاثة عندما دخل المدير فِناءً صغيرًا يقع بالقرب من المبنى ومنه إلى شارع جانبي. ثم عاد في جولة تفتيشيَّة.

وقال: «فعلَها شخصٌ ما من الفِناء. هناك نافذة مفتوحة — ومنها يمكن الوصولُ إلى المفتاح الرئيسي بسهولة.»

فأغلقوا النافذة بإحكام.

وتابع المدير قائلًا: «لا يوجد سيدة أو رجل في الفِناء». وتابع: «هل أنت متأكد من أنهما لم يدخلا إلى القاعة الكبرى؟»

فأجابه النادل: «ربما ... دخلا في الظلام.»

كان توتُّر النادل مُتفهَّمًا. فلقد أعطاه السيد جيرتر ورقةً نقدية فئة خمسة جنيهات ولم يكن النادل قد أعطاه الباقيَ بعد. وبالطبع، لن يعود جيرتر أبدًا لأخذ الباقي لو أن كلَّ ما سمعه النادلُ بأذنَيه كان حقيقيًّا.

ظهر أربعة رجال في الغرفة الملحقة؛ حيث أغلق أحدهم الباب ووقف بجانبه. بينما الرجال الثلاثة الباقون اصطحبهم المدير الذي استدعى النادل فيليبس.

قال المدير مرتبكًا: «هذا الرجل خدمَهما.» فحتى أكثر الناس براءةً لا يحب تحقيقات الشرطة. ثم سأله قائلًا: «كيف بدا مظهرُ الرجل؟»

فأعطاهم فيليبس وصفًا موجزًا ودقيقًا.

فقال أحدهم: «أظنه رَجُلَك، يا سيد فلوين، أليس كذلك؟»

كان الرجل الثالث في المجموعة ملتحيًا وبدينًا؛ ويلبس قبعة ديربي وملابسَ سهرة.

أومأ بالإيجاب قائلًا: «إنه جيرتر. سيكون من دواعي سروري أن أقابله. فقد ظلَّت السفارة ثمانية أشهر تبذلُ ما في وُسعها لتسليمه. لكن رجالنا في الوطن ...!»

وهزَّ كتفَيه. هكذا يتصرَّف كل المسئولين المعيَّنين على نحوٍ لائق عند الحديث عن الحكومات.

فقال المفتش ميدوز بقلقٍ واضح: «قُلت إن السيدة قد فقدَت الوعي. فهل شربتْ أيَّ شيء؟»

فأجابه النادل قائلًا: «عصير برتقال غازي — ها هي ذي الكأس. لقد قالتْ إنه ثَمة شيء غريب كان في الشفَّاطات. ها هي ذي.»

أعطى فيليبس الشفَّاطات للمحقِّق. فبلَّل إصبعه منها، ثم تحسَّس لسانه وبصق على الفور.

وقال: «أجل»، وخرج من الباب الصغير.

إنه جونزاليس بالتأكيد، لكن إلى أين ذهب، وكيف، وبفتاة مُخدَّرة على ذراعَيه وابن الأفعى؟ لقد كان جيرتر سريعًا جدًّا في ضربته، وعديم الإحساس، ووجود امرأة لن يُنقذ ليون.

بدأ النادل يحكي قائلًا: «عندما انطفأت الأنوار ...» فاختفت الحيرة من وجه السيد ميدوز.

وقال في هدوء: «بالطبع ... نسيت ذلك. لقد انطفأَت الأنوار!»

طوال الطريق إلى سكوتلاند يارد، كان السيد ميدوز يُحاول استحضارَ شيء في ذهنه ... شيء كان هنا، طرَفه الناعم يظهر على نحوٍ محيِّر، إلا أنه يُراوغ محاولات الإمساك به.

شيء لا علاقة له بالأنوار ... ولا جونزاليس، ولا حتى الفتاة. جيرتر؟ لا. ولا مانفريد؟ ماذا كان إذن؟ اسم ذُكِر أمامه يومها ... كانت له دلالة غامضة. تمثال ذهبي! أمسك بطرَف الخيط ... جوني! لُغز مانفريد الخاص. كان هذا هو الغبار الذي يُغطي كل الأفكار. والآن بعد أن تذكَّره صار يشعر بالإحباط. فقد كانت الفكرة غيرَ مهمة بدرجة غير معقولة لكي تُحيره.

ترك رفاقه في زاوية كورزون ستريت وذهب بمفرده إلى المنزل. حيث رأى شعاعًا من النور ينبثق من بين ستائر الغرفة العلوية. كان الممرُّ مُضاءً، وردَّ بويكارت على جرسه في الحال.

«نعم، كان جورج وليون هنا قبل قليل ... الفتاة؟ لا، لم يقولا عنها شيئًا. لكن أظن، أنه كان يبدو عليهما القلق. أعتقد، الآنسة ليستر؟ ألن تدخل؟»

فأجابه قائلًا: «بلى، لا أستطيع الانتظار. ثَمة نور في غرفة مانفريد.»

أنار شبح ابتسامة وجهَه الصارم، لكنها تلاشَت فورًا.

ثم قال: «وفي غرفتي أيضًا. فالخدم يأخذون حُريتهم عن آخرِها في غياب أسيادهم. هل تُريدني أن أبلغ رسالة إلى جورج؟»

«اطلب منه أن يتصلَ بي في سكوتلاند يارد.»

أغلق بويكارت الباب؛ ووقف في الممر ليُعدِّل وضعية طبق من الفضة على الطاولة ويُعَلِّق قبعة. وقد شاهد ميدوز هذا كلَّه من خلال النافذة المُشبَّكة ومنظار أفق على شكلِ عصا مشيٍ سهل التركيب، ويمكن أن يكون ذا قيمةٍ بالغة. وما إن رأى ما رآه، حتى تلاشت شكوكه.

صعد بويكارت بتمهُّل لغرفة المكتب الصغيرة، فأزاح الستائرَ وفتح النافذةَ الموجودة بالأعلى. وفي الثانية التالية، شاهد المُحقِّق المراقب النور ينطفئ ورحل.

فقال بويكارت: «آسفٌ على تركي لك في الظلام.»

انتظر الرجلان اللذان كانا في الغرفة حتى أُغلِقَت النافذة وسُحِبَت الستائر، ثم أضاءا الغرفة. حيث كانت ميرابيل ليستر مستلقيةً على الأريكة بوجهٍ شاحب، وعينَين مُغمَضتين، وصدرٍ بالكاد يعلو ويهبط. وقد كان معطفها التنكريُّ باللونين الأخضر البراق والقرمزي مُلقًى مُكوَّمًا على الأرض، وكان ليون يمسح وجهها في رفق، بينما كان جورج مانفريد يُراقب ما يحدث من وراء الأريكة، بحاجبَين منعقدين.

وسأل بكل صراحة: «هل ستموت؟»

فأجابه ليون بدمٍ بارد: «لا أعرف؛ هذه المادة تُسبِّب الموت أحيانًا. لا بد أنه أعطاها لها في شكلها الخام. إن جيرتر لَشخصٌ فظ غليظ القلب.»

فسأله جورج قائلًا: «ما تلك المادة؟»

فبسَط جونزاليس يدَيه غيرَ المتشابكتين في إشارةٍ إلى كونه غيرَ متأكد.

وقال: «تخيَّل جرعة مورفين قوية التأثير، هذا ما تناولتْه. لستُ متأكدًا. آمُل ألَّا تموت؛ فما زالت صغيرةً جدًّا — قد يكون هذا هو سوءَ الحظ في أبشع صوره.»

تحرَّك بويكارت بتوتر. فهو الوحيد الذي كان يمتلك بداخله ما قد يُسميه ليون «لمحة» ضئيلةً من العاطفة.

فسأل في قلق: «هل يمكننا استدعاء إلفير؟» فرفع ليون عينَيه ناظرًا إليه بابتسامه صبيانية. ثم قال: «لقد جعلتْك زراعةُ البصل في سيفيلا مُرهَفًا يا عزيزي رايموندو!» إذ لم يفشل أبدًا في الاستهزاء بهذا الرجل الحازم في أحلكِ اللحظات على تجرِبته الزراعية التي استمرَّت عامَين، وكان كلاهما يعرف أن هذا الاستهزاء يتمُّ عمدًا بغرض تهدئته. وتابع: «فالبصل له دلالة عاطفية؛ إذ إنه يجعلك تبكي؛ إنه من الخضراوات اللطيفة جدًّا! هذه السيدة على قيد الحياة!»

رجف جَفْناها مرتين. عندها رفع ليون ذراعها العارية، وثبَّت سن المحقنة الصغيرة في مكانه ودفع الدواء في عروقها.

وقال بهدوء: «غدًا ستشعر بالضبط كأنها كانت ثمِلة، وسوف تستشعر في فمها مذاقَ سيجار من الدرجة العاشرة. أوه، يا آنسة، افتحي عينَيكِ الجميلتين وانظري لأصحابكِ!»

قال الجملةَ الأخيرة بالإسبانية. فسمعَتْها الفتاة؛ عندها رجف جَفْناها مرة أخرى وفَتَحَتْ عينيها.

فقال جورج: «إنكِ بعيدةٌ جدًّا عن مزرعة هيفيتري، يا آنسة ليستر.»

فنظرتْ لأعلى في وجه جورج مانفريد الطيب متسائلة، وسألتْ بنبرة وَهِنة: «أين أنا؟» ثم أغمضتْ عينيها مرةً أخرى متألمة.

فقال ليون بلهجة العرَّافين: «دائمًا ما يسألن هذا السؤال — كما في الروايات تمامًا». وتابع: «لو لم يَقُلن «أين أنا؟» فإنهن يسألنَ عن أمهاتهن. هي في مأمن عن الخطر.»

وَضَعَ ليون إحدى يديه على رُسغها، واليد الأخرى على جانب رقبتها.

ثم قال: «إن نبضها منتظمٌ بشكل ملحوظ. ربما لديها ذهنٌ يُجيد الرياضيات.»

فهمس بويكارت قائلًا: «إنها جميلة جدًّا.»

فردَّ ليون قائلًا: «كل الناس جميلون — كجمال كلِّ حَبات البصل. فما الفرق بين فتاة جميلة وأقبحِ وصيفة مُسِنَّة — ما الفرق سِوى مسألة صبغة البشَرة وحيوية الأنسجة؟ إذ إن تحت هذا الجلد، هناك تَشابه مُذهِل بين الدورة الدموية، والخلايا الداعمة، والأوعية الدموية الحركية ...»

قاطعه مانفريد قائلًا: «كم تبقَّى لدينا من وقت؟» فهزَّ ليون رأسه.

وقال: «لا أعرف ... لكن أعتقد أنه لم يتبقَّ الكثير. بالطبع، كان بإمكاننا أن نُخبر ميدوز وهو بدوره يستدعي قواتِ الشرطة الاحتياطية، لكني أُفضِّل إبعادهم عن الأمر.»

فسأله مانفريد قائلًا: «هل كان الحارس القديم هناك؟»

فأجابه ليون: «كانوا جميعًا موجودين ... أولئك الرجال القُساة! وسوف يأتون إلى هنا بمجرد أن يعرف السيد الدكتور ما سيحدثُ بعد ذلك. والآن أظن أنه بإمكانك السفر. أودُّ أن أُبعدها عن مسرح الأحداث.»

انحنى، واضعًا كلتا يدَيه تحتها وحمَلها. وقد كانت قوةُ جسده الهزيل مصدرَ تعجُّب لا ينتهي لكلا صديقَيه.

تَبعاه أثناء نزول السُّلَّم وعبر الممر القصير، ثم نزلوا طابقًا آخرَ وصولًا إلى المطبخ. حيث فتح مانفريد بابًا وخرَج إلى الفِناء المرصوف. كان هناك بابٌ أثقل في الجدار الفاصل. ففتحه ببطء واختلس النظر بالخارج. هنا يوجد المرأب. عندها أتاهم صوتُ محرِّك دائر من المرأب المجاور. يبدو أنه ثَمة مَن كان يترقَّب وصولهم. توقفتْ سيارة طويلة في هدوء ونزلَت منها سيدة. وإلى جانب السائق عند عجَلة القيادة كان هناك رجلان.

فقال لهم جونزاليس: «أظن الإثارة الحقيقية ستفوتكم.» وأعطى الممرضة بِضعة تعليمات وأغلق الباب وراءها.

ثم قال للسائق: «اسلك الطريق المباشر». وتابع: «من سويندون إلى جلوستر. طابتْ ليلتك.»

فردَّ السائق قائلًا: «طابتْ ليلتك، يا سيدي.»

وقف جونزاليس يُتابع في قلقٍ خروجَ السيارة إلى الشارع الرئيسي. ظلَّ منتظرًا، ومال رأسه. مرَّت دقيقتان، لينطلق صوتٌ خافت لبوق سيارة، دويٌّ طويل وآخر قصير، فشهق قائلًا:

«إنهم خارج منطقة الخطر.»

طاخ!

رأى جونزاليس الوميض، وسمع صوتَ ارتطام الرصاصة بالباب، فتيبسَتْ يده. ثم سمع صوتًا مكتومًا — صرخة ألم من زاوية مظلِمة للمرأب وصوت أشخاص. فعاد ليون إلى الفِناء وأغلق الباب.

ثم قال: «لقد استخدم كاتم صوت من نوع جديد. إن أوبيرزون عجوزٌ مُخضرم. لكنَّ مسدَّسي الهوائيَّ ضد بندقيته في تحدِّي كتم الصوت.»

فقال مانفريد وهو يُعيد مسدسه من طراز براونينج إلى جيبه: «لم أتوقَّع أن يأتيَ الهجوم من هذه الناحية من المرأب.»

فردَّ ليون قائلًا: «لو كانوا قد أتَوا من الناحية الأخرى لما استطاعت السيارة المرور ... أود الحصول على كاتم صوت كهذا.»

دخلوا المنزل. بعد أن أطفأ بويكارت نور الممر بالفعل.

«لقد أصبتَ الرجل الذي صوَّبت عليه ... هل تقتله هذه الإصابة؟»

«بالصدفة، نعم من الممكن أن تقتله. لقد صوَّبتُ على بطنه؛ لكني أخشى أنني أصبته في الرأس. ما كان ليصرخ لو أنه أُصيب في بطنه. أخشى أنه لا يزال حيًّا.»

تلمَّس طريقه ليصعد السُّلَّم ورفع سماعة الهاتف. وعلى الفور أتاه صوت يقول: «الرقم؟»

فأجاب قائلًا: «أعطِني ٨٨٧٧ وزارة الخِزانة.»

انتظر قليلًا ثم أتاه صوت مختلف قائلًا: «نعم ... دائرة شرطة العاصمة سكوتلاند يارد تتحدث.»

فقال: «هل يمكنني التحدث إلى السيد ميدوز؟»

كان مانفريد يُتابعه متجهمًا.

فردَّ قائلًا: «أهذا أنت، يا ميدوز؟ لقد أطلَقوا النار على ليون جونزاليس — هل يُمكنك إرسال رجال الشرطة وسيارة إسعاف؟»

فأجابه قائلًا: «في الحال.»

وضع ليون سماعة الهاتف، وعانق نفسه. وقال بويكارت: «ما الفكرة؟»

فأجابه ليون بنبرةٍ مِلؤها الإعجاب: «هؤلاء الرجال أذكياء». وتابع: «هم لم يقطعوا الأسلاك — هم ببساطة قاموا بالتجسُّس على الخط وتعطيل الاتصال على الطرف الآخر.»

فأطلق مانفريد صفيرًا، وقال: «لقد خدعتني؛ هل كنت تتحدَّث إلى أوبيرزون؟»

فأجابه قائلًا: «الكابتن مونتي وليو كوتشيني. ربما خُدِعا وربما لا، لكننا سنعرف إذا لم يُخدعا.»

توقَّف فجأة. وسمعوا طرقًا على الباب الأمامي، طرقةً قوية، وحيدة. فابتسم ليون سعيدًا.

وقال: «من المفترض الآن أن يفتحَ أحدُنا نافذةً عُلوية بحذرٍ وينظر منها، وفي الوقت نفسِه يكون مُسلَّحًا. سأُرعب هؤلاء الرجال.»

هُرِع إلى الطابق العلوي، وعلى عتبة السُّلم، وخرج من باب الغرفة العلوية المائلة، وجذب حبلًا. فنزل سُلَّم حريق كان مُعلقًا في السقف، وفي الوقت نفسِه فُتِحت كُوة صغيرة. ثم دخل ليون الغرفة، وباستخدام مصباح جيب وجد ما يُريد؛ أسطوانة صغيرة من عجين الورق، تُشبه قنبلةً تزن سبعة أرطال. حملها على ذراعه، وتسلَّق السُّلَّم قاصدًا السطح، حيث ثبَّت الأسطوانة على سطحٍ مستوٍ، وأشعل عود ثقاب، وباستخدامه أشعلَ فتيل ألعاب نارية. فأصدر الفتيلُ المشتعل صوتَ أزيز، ثم وميضًا مفاجئًا وصوتًا مدوِّيًا «بوووم!» لقد أحدث انفجارًا مكتومًا، وانطلقتْ كرةٌ بيضاء نحو السماء، لتتحركَ على شكل منحنًى في رشاقة ثم تنفجر مُمطِرة نجومًا قرمزية رائعة. وانتظر حتى تلاشت آخر النجمات؛ ثم حمل الأسطوانة الساخنة تحت ذراعه، ونزل السُّلَّم، وحرَّر الحبل الذي كان قد ثبَّته في مكانه، وعاد إلى صديقَيه.

وقال: «سيتخيَّلون أن هناك ترتيبًا سريًّا مع الشرطة لإطلاق إشارات؛ وإذا لم أكن مخطئًا بمعرفتي بطبيعتهم النفسية، فإنهم لن يُزعجونا مرةً ثانية.»

بعد مرور عشر دقائق أتتْ طَرقةٌ أخرى على الباب؛ طرقة آمرة، ذاتُ طابَع رسمي.

فقال ليون: «إنه رجل شرطة أتى لاستدعائنا على خلفية إطلاقنا ألعابًا نارية في الطريق العام!»

فهُرِع نزولًا إلى الصالة وفتح الباب من دون تردد. حيث وجد رجلًا طويلًا، يلبس خوذة، يقف على عتبة الباب، حاملًا مُفكرة في يده.

فبدأ حديثه، قائلًا: «هل أنت مَن أطلق تلك الألعاب النارية ...»

فتخطاه ليون، وجاب بنظره كورزون ستريت. لكن كما توقَّع، كان الحارس القديم قد اختفى.

الفصل الحادي عشر

جيرتر

عاد مونتي نيوتن متثاقلًا إلى بيته؛ إذ كان مُتعبًا وغاضبًا، وفتح الباب بمفتاحه. حيث وجد الخادمَ مستلقيًا على أرضية القاعة وقد غطَّ في النوم، مُغطًّى بمعطفه السميك، فهزَّه بطرَفِ حذائه ليوقظه.

وزمجرَ قائلًا: «استيقظ». ثم سأل: «هل أتى أحد؟»

فنهض فريد، مرتبكًا بعض الشيء، يفرك عينَيه.

قال: «الرجل العجوز في غرفة الاستقبال»، فمضى سيده دون أن يتفوَّه بكلمة.

فتح مونتي الباب، حيث وجد كلَّ أنوار غرفة الاستقبال مُضاءة. ووجد الدكتور أوبيرزون قد سحب طاولةً إلى جوار المدفأة، وجلس أمامها بظهرٍ مستقيم، واضعًا أمامه رقعةَ شِطْرنج، مستغرقًا في التفكير في مسألةٍ ما. نظر إلى الزاوية الجديدة للحظة واستكمل تأمُّله لرقعة الشطرنج؛ ثم حرَّك قطعة …

عندها تنهَّد في ارتياح، وقال: «آخ!» وتابع: «كان ليسكينا مُخطئًا! من المحتمل أن يموت الملك بعد خمس حركات!»

ثم دفع قِطع الشطرنج لتقع بلا ترتيب، واستدار ليُصبح مواجهًا تمامًا لنيوتن.

وقال: «حسنًا، هل أنهيت هذه الأمور على نحو مُرضٍ؟»

فأجابه مونتي، بينما كان يفتح صندوقًا على طاولةٍ جانبية ليشرب الويسكي، قائلًا: «لقد أحضر القوات الاحتياطية». وتابع: «وأصابوا كوتشيني في فكِّه. ليس هناك شيء خطير.»

فوضع الدكتور أوبيرزون يدَيه النحيلتين على ركبتيه.

وقال: «لا بد من تأديب جيرتر. فمن الواضح أنه فقد أعصابه؛ وعندما يفقد المرءُ أعصابه يفقد أيضًا إحساسه بالتوقيت. وتوقيته ... كم هو مؤسف! فالسيارة لم تصل؛ ورجال الشرطة البارعون التابعون لي لم يتخذوا مواضعهم ... مؤسف!»

فنظر نيوتن من فوق كأسه، وقال: «كما أن الشرطة تتبعه؛ أظنك تعرف هذا، أليس كذلك؟»

فأومأ الدكتور أوبيرزون بالإيجاب.

وقال: «إن عملية تسليمه التي تجنَّبناها بمهارةٍ قيد الإنجاز الآن. لكن جيرتر عضوٌ جيد في العصابة ولا يمكننا خَسارته. لهذا جهزتُ له مَخبأً. فهو مفيد من نواحٍ عديدة.»

فسأله نيوتن: «إلى أين ذهب إذن؟»

فحرَّك الدكتور أوبيرزون حاجبيه المُنعقدَين لأعلى ولأسفل.

وقال: «مَن يدري؟» وتابع: «إن السيارة الصغيرة بحوزته. ربما ذهب إلى المنزل — وسوف يُحذِّره النور الأخضر في النافذة العُلوية ومن ثَم سيتحرَّك بحذر.»

توجَّه نيوتن إلى النافذة وراقب تشيستر سكوير الذي بدا في ضوء الفجر الرماديِّ كمدينة الأشباح. ثم رأى، خلال الضباب، شخصًا يتحرَّك ويمشي ببُطء في الاتجاه الجنوبي من الميدان. فقال ضاحكًا: «إنهم يُراقبون هذا المنزل.»

فسأله أوبيرزون: «أين آنستي؟» بينما يُحدِّق بتجهُّم في نار المدفأة.

فأجابه نيوتن قائلًا: «لا أعرف ... ثَمة سيارة خرجَت من المرأب وتوقفَتْ بينما كان أحد رجالنا «يغلق» المدخل. ربما عادتْ إلى مزرعة هيفيتري، ويمكنك بيع مختبرك. فليس أمامنا الآن إلا طريقةٌ واحدة، وهي الطريقة الصعبة. ما زال أمامنا وقتٌ — وبوسعنا فعلُ الكثير في مدة ستة أسابيع. وسوف يأتي فيلا صباح اليوم — كم أتمنى لو أننا قد أخذنا ذلك التمثال من الشاحنة. فهذا قد يضع الشرطةَ على المسار الصحيح.»

فضمَّ الدكتور أوبيرزون شفتَيه وكأنه سيُطلق صافرة، لكنه لم يفعل مثل هذا العبث.

وقال بالضبط: «يُسعدني أنهم وجدوه». وتابع: «فهو بالنسبة إليهم مجرد أثر. فما الذي قد يعتقدونه، سوى أن باربرتون تعيسُ الحظ قد عثر بالصدفة على كنز مَحلي عتيق؟ لا، لا أخشى ذلك»، وهز رأسه. ثم استطرد قائلًا: «إن أكثر مَن أخشاه هو السيد جونسون لي والأمريكي، إيليا واشنطن.»

ثم وضع الدكتور أوبيرزون يده في جيب سُترته وأخرج منه رِزمةً ضئيلة من الخطابات. وقال: «بالنسبة إليَّ يصعب فَهمُ جونسون لي. فما علاقته بذلك الرجل الفظ كي يكتبَ له خطابات لطيفة؟»

فسأله مونتي: «كيف حصلت عليها؟»

فأجابه الدكتور أوبيرزون: «أخذها فيلا؛ كما كان قرارًا ذكيًّا منه أن يترِكَ التمثال.»

وأعطى واحدًا من الخطابات إلى نيوتن. كان الخطاب مرسَلًا إلى عنوان «في انتظار وصوله، باستا ريستانت، موساميدس.» وقد كان الخطاب مكتوبًا بخطٍّ صِبياني، دائري على نحوٍ غريب. كما كانت هناك حقيقةٌ أخرى لافتة للنظر؛ وهي أن الخطاب كان مثقوبًا بعرض الصفحة على مسافات منتظمة، وفوق السطور التي صنعها هذا التثقيب كتب السيد جونسون لي:

> «عزيزي بي»، ويتوالى الخِطاب: «لقد أمرتُ موظَّفي البنك أن يرسلوا إليك ٥٠٠ جنيه. آمُل أن تعينك وأن يتبقَّى ما يكفي لدفع أجرة العودة إلى الوطن. تأكَّدْ أنني لن أنطق بكلمة، وأنه لا أحد في المنزل يقرأ خطاباتك، طبعًا، سواي. قصتك رائعة وأنصحك بالعودة إلى الوطن ومقابلة الآنسة ليستر.
>
> صديقك،
>
> جونسون لي.»

وقد أرسلت الأموال إلى «راث هول، في الثالثَ عشر من يناير.»

قال الدكتور أوبيرزون: «حصلت عليها اليوم. لو رأيتها من قبل، لما جرى ما نحن فيه الآن من أحداث مؤسفة.»

ثم نظر إلى صديقه بتمعُّن. وقال: «أتوقَّع أنهم سيُمثلون عقَبة لنا»؛ وكان مونتي يعرف أنه يقصد رجال العدالة الثلاثة. وتابع قائلًا: «لكن تذكَّر، يا عزيزي نيوتن أنهم أيضًا زائلون؛ هم أيضًا زائلون.»

فقال نيوتن في حزن: «مثلما سنزول.»

فردَّ أوبيرزون: «تلك هي المسألة التي تَهُمني كثيرًا.»

لم يكن الدكتور أوبيرزون يمزح مطلقًا؛ إذ كان يتحدَّث بكل هدوء وثقة. ما جعل الرجل الآخر يُحدِّق به.

رغم كونه خافتًا، ظهر مصباحٌ أخضر واضحٌ في غرفة البرج الصغير من منزل الدكتور حين دخل في حيز مرمى البصر من المكان القبيح. لكنه، عندما رأى هذا التحذير، لم يتوقَّع أن يُقابل جيرتر في الممر. إذ كان الرجل قد بدَّل ملابسه الأنيقة وارتدى مجددًا الملابسَ الرثَّة المتسخة التي كان قد خلعها قبل ليلة واحدة.

فسأله الدكتور أوبيرزون: «هل عُدتَ، يا جيرتر؟»

فأجابه جيرتر: «نعم، سيدي الدكتور.»

فصاح الدكتور قائلًا: «إلى غرفة استقبالي!» وتقدَّمه في المسيرة.

تَبِعه جيرتر ووقف مُسنِدًا ظهره إلى الباب، مُنتصبًا رافعًا ذقنه، مُثبِّتًا عينيه البرَّاقتَين المتسائلتين فوق رأس سيده ببضعة إنشات.

فسأله الدكتور بينما بدَتِ السخافة على وجهه القبيح: «أخبرني الآن.»

فحكى جيرتر: «لقد شاهدتُ الرجل، يا سيدي الدكتور، وهاجمته، ثم انطفأت الأنوار وانبطحتُ أرضًا، متوقعًا أن يُطلق النار — أظنه قد اختطف السيدة الكريمة. لم أرَ ما حدث؛ إذ كانت هناك نخلةٌ تحول بيني وبينه. وعلى الفور عُدتُ إلى القاعة الكبرى، وسِرت في قاعة الرقص بين الناس. لقد كانوا خائفين للغاية.»

فسأله أوبيرزون: «وهل رأيتَهم؟»

فأجابه جيرتر قائلًا: «نعم، سيدي الدكتور». وتابع: «فليس من الصعب عليَّ أن أرى في الظلام. بعدها هُرِعت إلى المدخل الآخر، لكنهم كانوا قد رحلوا.»

فقال له الدكتور: «تعالَ إلى هنا.»

اتخذ الرجل خطوتين رسميتين نحو الدكتور، فصفعه أوبيرزون على وجهه براحة يده مرتين. إلا أنه لم تتحرَّك عضلة واحدة في وجه الرجل؛ وقف منتصبًا، بل وارتسمت على شفتيه نصفُ ابتسامة، وظلَّت عيناه تحدِّقان إلى الأمام دون حركة.

وقال أوبيرزون: «هاتان الصفعتان عقابٌ لك على سوء التوقيت يا جيرتر. هل رآك أحدٌ أثناء عودتك؟»

فأجابه جيرتر قائلًا: «كلا، سيدي الدكتور، لقد عُدتُ سيرًا على الأقدام.»

فسأله الدكتور: «هل رأيتَ الضوء؟»

فأجابه جيرتر: «نعم، سيدي الدكتور، وظننتُ أنه من الأفضل أن أكون هنا.»

فرد أوبيرزون قائلًا: «كنت محقًّا». وتابع: «سِر!»

دخل الغرفة الممنوعة، وأدار المفتاح، ودخل إلى أجواءٍ ذات حرارة بالغة. وقف جيرتر عند الباب مترقبًا. وسرعان ما أتى الدكتور، حاملًا تحت ذراعه صندوقًا طويلًا مُغطًّى بالجوخ الأخضر. أعطاه إلى جيرتر الذي ظلَّ منتظرًا، ودخل الغرفة، وبعد أن غاب بضع دقائق، عاد بصندوقٍ آخر، لكنه أكبر قليلًا.

وقال له: «سِر!»

فتبعه جيرتر خارج المنزل عبر «حديقة» عشبية، كريهة الرائحة باتجاه المصنع. بينما يتصاعدُ من القناة ضبابٌ أبيض يُغلف أرجاء المكان، ليغطي المصنع والأراضي.

قاد الدكتور الطريق وصولًا إلى الفجوة المستطيلة الشكل المصنوعة في الجدار حيث كان مُثبَّتًا فيها يومًا ما باب، وسلك الطريق المتعرِّج بين الدِّعامات المُسْودَّة والعوارض المُقوَّسة التي تُغطي الأرض. إذ لم تَجرِ بعد الحريق أيُّ محاولات لمحو آثاره إلا محاولةً وحيدة فاترة، كما كانت الأرض مغطَّاةً بارتفاع كاحل بقصاصاتٍ من القماش المتفحم. وبالقرب من الناحية الأخرى من المبنى، توقَّف أوبيرزون، ووضع صندوقه وأزاح الرماد بقدمه حتى أصبحت لديه رقعةٌ نظيفة مساحتها ثلاثة أقدام مربَّعة. ثم انحنى، وأمسك حَلْقة حديدية وجذبها، فظهر حجرٌ لوحي من دون مجهودٍ يُذكر؛ إذ كان متوازنًا بثقل مكافئ. ثم حمل الصندوق ثانيةً ونزل السُّلَّم الحجري، وتوقَّف لتشغيل النور.

لم تمسَّ النار سرداب المخزن. كانت هناك رفوفٌ لا تزال تحمل بالاتٍ مُغبرةً من البضائع القطنية. وقد كان أوبيرزون مُتعجِّلًا. حيث عبَر الأرضية الحجرية في خطوتَين واسعتَين، وجذب مقبض بابٍ آخر، وسار في الظلام، ثم وضع الصندوق على الأرض.

كانت الطاقة الكهربائية للمصنع، قديمًا، مُقسَّمة إلى دائرتين كهربائيتين منفصلتين، ولم يُؤثِّر الانفجار على الوصلة الكهربائية للسراديب تحديدًا.

وصل الرجلان الآن إلى غرفةٍ أصغر، مفروشةٍ بأثاث مريح. وكان جيرتر يعرف هذه الغرفة جيدًا، فلقد قضى فيها معظم الشهور الستة الأولى من مدةِ إقامته في إنجلترا. وكان الهواء يأتي إلى الغرفة من ثلاث شبكاتِ تهوية صغيرة بالقرب من السطح. كما كان هناك فرن، ومخزونٌ وفير من الوقود، مثلما يعرف جيرتر، في واحد من المخازن الثلاثة المفتوحة على السرداب.

قال أوبيرزون إلى جيرتر: «ستمكثُ هنا حتى أرسل لك». وتابع: «ربما الليلة بعد أن يكونوا قد أنهَوا بحثهم. هل معك مسدس؟»

فأجابه جيرتر: «نعم، سيدي الدكتور.»

ففتح أوبيرزون مخزنًا آخرَ وجَرَد مخزون الطعام، قائلًا: «الطعام، والماء، وأغطية النوم … كل ما يلزمك. قد آتيك الليلة — أو ربما مساءَ غد — مَن يدري؟ وسوف تشعل المدفأة على الفور.» مُشيرًا إلى الصندوقين المُغطَّيَين بالجوخ الأخضر، ثم قال: «عِمت صباحًا يا جيرتر.»

فردَّ جيرتر، قائلًا: «عِمت صباحًا، سيدي الدكتور.»

صعد أوبيرزون إلى المصنع، وأعاد الحجر اللوحي إلى مكانه ليُخفي المخبأ، وأعاد بقدمه الرمادَ الذي يُخفي أثره، وعَبَر الحديقة إلى بيته بعينَين حذِرَتين تجوبان الأرجاء. وكان قد دخل مكتبه للتوِّ، عندما أتت سيارة الشرطة الأولى ترتجُّ على طول الطريق.

الفصل الثاني عشر

نظريات ليون

بعد التحريات، اكتشف المحقِّق المفتش ميدوز أنه، في الليلة السابقة في تمام الساعة الثامنة، زار رجلان باربرتون. وُصف الأول بأنه رجلٌ طويل القامة ذو مظهر أرستقراطي نوعًا ما. كان يلبس نظارة طبية داكنة ذاتَ إطار سميك. ظن مدير الفندق أنه ربما يكون مريضًا؛ نظرًا إلى أنه كان يمشي ممسكًا بعصًا. أما الرجل الثاني فبَدا كأنه خادمٌ بشكلٍ أو آخَر؛ نظرًا إلى أنه كان يتحدث مع الزائر بكل احترام.

قال المدير: «كلا، لم يذكر أيَّ اسم، يا سيد ميدوز». وتابع: «أخبرته بالحادث الأليم الذي وقع للسيد باربرتون، كان منزعجًا جدًّا لدرجة أنني لم أرغب في الضغط عليه بالسؤال.»

كان ميدوز في طريقه المتعرِّج إلى كورزون ستريت حين سمع ذلك، ووصل في الوقت المناسب لتناولِ وجبة الإفطار. كان خدمُ مانفريد يَعُدُّون إحدى غرائب هذا الرجل النبيل العادي أنه يتناول دومًا وجبةَ الإفطار مع كبير خدَمِه وسائقه. كان هذا الموضوع مجالًا للنقاش المبتذل في قاعة الخدم الصغيرة، ولم تَعُد تُثار أي تعليقات حين أجرى مانفريد اتصالًا هاتفيًّا بالطابق السفلي وطلب طبقًا آخر.

كان الثلاثيُّ في حالةٍ مِزاجية مبتهجة. وبدا ليون جونزاليس مشرقًا وفكاهيًّا على نحوٍ استثنائيٍّ، كما هو الحال دومًا بعد تلك الليلة التي قضاها.

قال ميدوز حين وُضع الطبق: «فتَّشنا منزل أوبيرزون رأسًا على عقب من القبو وحتى الغرفة العلوية المائلة.»

«وبالطبع، لم تَجِدوا شيئًا. هل عثرتم على جيرتر المتأنق؟»

«لم يكن موجودًا هناك. سيبقى الرجل على مسافة إذا عرَف أن هناك أمرًا قضائيًّا ضده. أشك أن ثمة إشارةً من نوعٍ ما. كان هناك ضوءٌ أخضر ساطع جدًّا في واحد من تلك الأبراج القوطية السخيفة.»

ردَّ مانفريد وهو يكبت تثاؤبه قائلًا: «عاد جيرتر مباشرة بعد منتصف الليل، وظل هناك حتى عودة أوبيرزون».

سأله المحقِّق المندهش قائلًا: «هل أنت متأكد؟»

أومأ ليون برأسه، ولمعت عيناه.

ثم قال: «بعد ذلك، خيَّم ضباب النهر وحجب الرؤية؛ ولكن أتخيَّل قطعًا أن السيد جيرتر ليس بعيدًا. هل رأيت رفيقه، فايفر؟»

أومأ ميدوز. وقال: «أجل، كان يُنظف الأحذية عندما وصلت.»

قال جونزاليس: «يا له من منظر خلاب!» وتابع: «أظن أنه في المرة التالية التي يُودَع فيها بالسجن سيكون معه خادمٌ خصوصي، ما لم يتغير النظام منذ أيامك، يا جورج؟»

ابتسم جورج مانفريد الذي شغل زنزانة المدانين، في سجن تشيلمسفورد.

قال جونزاليس وهو مستغرقٌ في التفكير: «إن جيرتر رجل مثير للاهتمام». وأضاف: «ينتابني شعورٌ بأنه سيُفلت من الإعدام. إذن، عجزت عن العثور عليه؟ أنا عثرتُ عليه ليلة أمس. أما بالنسبة إلى السيدة، التي كانت بمثابة عائقًا وهدفًا على حدٍّ سواء، لعلنا قد وضعنا حدًّا لأنشطته.» التقت عينه بعين ميدوز. فأردف قائلًا: «كان ينبغي لي أن أُسلِّمه إليك، بالطبع.»

قال المحقِّق بنبرة جافة: «قطعًا!»

«رجلٌ رائع، ولكن عصبي. هل ستلتقي بالسيد جونسون لي؟»

تساءل المحقِّق مندهشًا، نظرًا إلى أنه لم يُفصح بعدُ عن نيته للرجال الثلاثة: «ما الذي جعلك تقول ذلك؟»

قال ليون: «سيُفاجئك». وتابع: «أخبرني، يا سيد ميدوز؛ عندما فتَّشت أنت وجورج بدقة وعناية بالغةٍ حقيبةَ السيد باربرتون، هل وجدتما أي شيء يوحي بأنه إسكافي، مثلًا ... أو عامل في تجليد الكتب؟»

«أظن أن في خطابه إلى شقيقته إشارةً إلى الكتب التي صنعها. لم أجد شيئًا محددًا باستثناء مثقابٍ للجلد وقطعةٍ خشبية مستطيلة مغطاة بالثقوب. في واقع الأمر، حين رأيتها، كانت أولُ فكرة خطرت على بالي، أنه يعيش نوعيةَ الحياة التي لا بد أنه اعتادها

في البرِّية، ومن المفيد نوعًا ما أن يكون قادرًا على إصلاح حذائه. أما فكرة تجليد الكتب فهي فكرة جديدة.»

علَّق مانفريد قائلًا: «في رأيي أنه لم يُجلِّد كتابًا في حياته، بالمعنى الحرفي للكلمة؛ وكما قال ليون، ستجد جونسون لي رجلًا مدهشًا جدًّا.»

«هل تعرفه؟»

هزَّ مانفريد رأسه برزانة.

ثم قال: «كنت قد تحدثتُ إليه هاتفيًّا فقط». ثم أضاف: «عليك أن تحترس من السيد لي، يا ميدوز. ربما تعترض صديقتُنا الأفعى طريقَه وتلدغُه، وستفعل، إذا شعرت بأن ثمَّة شكوكًا حول ثقة باربرتون فيه.»

وضع المحقِّق سِكِّينه وشوكته.

وقال، وجزءٌ منه يشعر بالانزعاج، وجزءٌ آخر يشعر بالتسلية: «أتمنى أن تتوقَّفا عن التصرف بغموض». وتابع: «ماذا وراء هذه المهمة؟ تتحدثان عن الأفعى وكأن باستطاعتكما أن تضعا أيديَكما عليها.»

قالا في نفَسٍ واحد: «يمكننا ذلك.»

قال المحقِّق في تحدٍّ: «ومَن تكون؟»

ابتسم جونزاليس قائلًا: «السيد الدكتور.»

«أوبيرزون؟»

أومأ ليون برأسه.

«ظننتُ أنك لا بد قد اكتشفتَ هذا من خلال الربط بين جرائم القتل الثلاث الأصلية — وهي جرائم قتل مؤكَّدة. أولًا» ثم أخذ يعدُّ الأسماء على أصابعه، ويقول: «لدينا سمسار بورصة. كان هذا الرجل مُضاربًا ثريًّا يُموِّل أحيانًا صفقاتٍ مشكوكًا فيها للغاية. وقبل ستة أشهر من وفاته، سحب مبلغًا كبيرًا جدًّا من المال نقدًا. وفي صدفة غريبة، رأى موظفُ البنك، أثناء خروجه لتناول الغداء، عميلَه وأوبيرزون يستقلَّان سيارة أجرة، وحين مرَّا من جانبه رأى ظرفًا أزرقَ كبيرًا يدخل جيب أوبيرزون. عندما سُحب المبلغ، وُضع في ظرف أزرق. لقد موَّل السمسار الدكتور، وعندما فشلت الخُطة خَسر المال، ومن الطبيعي أن يطلب ردَّ المبلغ. لم يكن يثق في أوبيرزون مطلقًا؛ كان إيصال التسلُّم في جيبه، ولم يكن يذهب إلى أي مكان إلا إذا كان مسلَّحًا … لم تظهر تلك الحقيقة أثناء التحقيق، ولكن أنت تعرف أنها صحيحة.»

أومأ ميدوز برأسه.

«هدَّد أوبيرزون بفضيحةٍ له خلال اجتماعٍ عُقد في وينشستر ستريت، في يوم وفاته. في تلك الليلة عاد من مسرح أو من ناديه، وعُثر عليه ميتًا على عتبة الباب. ولم يُعثر معه على إيصال تسلُّم. ماذا بعد؟

رجل، مبتز سيئ السمعة، مشرَّد ومعدم، كان يسير في طريق بايزووتر، يبحث على الأرجح عن مصدرٍ سهلٍ للحصول على مال، حين رأى سيارة السمسار في ميدان أورم. فذهب متتبعًا احتمالًا بعيدًا للحصول على المال من خلال تسوُّل بضع عملات معدنية. رآه السائق. ولا بد أن المشرد، من جهة أخرى، قد رأى شيئًا آخر. وقضى ليلته التالية في روتون هاوس، وأخبر صديقًا له، كان معه في السجن، بأنه وقع على فرصةٍ ستُدِرُّ عليه مليون جنيه ...»

ضحك ميدوز رغمًا عنه.

وقال: «من الواضح أن نظامَ التحقيقات الخاصَّ بكم أكثرُ دقةً من نظامنا!»

قال جورج في هدوء: «إنه تكميلي لنظامك». ثم أضاف: «أكمل، يا ليون.»

«إذن، ما الذي حدث لصديقنا اللص؟ من الواضح أنه رأى شخصًا في ميدان أورم؛ إما أنه يعرفه أو تتبَّعَه حتى وصل إلى منزله. وعلى مدار اليوم أو اليومين التاليَين، أخذ يتردد على أكشاك الهاتف العمومية، على الرغم من عدم التوصُّل إلى رقم محدَّد. وذهب إلى هايد بارك، من الواضح أنه كان تلبية لموعدٍ ما ... ثم جاءت لدغة الأفعى!

ثَمة خطرٌ آخر هدَّد العصابة. إذ ما إن علِم موظفُ البنك، بموت عميله، حتى شعر بالاضطراب. لديَّ دليل بأنه تحدَّث إلى أوبيرزون عبر الهاتف. إذا كنت تتذكَّر، عند التحقُّق من شئون السمسار وُجد أنه شبهُ مفلس. لقد سُحب مبلغٌ كبير من البنك وسُدِّد إلى «س». شعر موظفُ البنك المحترم بالقلق حيال معرفته اليقينية بمن يكون السيد «س»؛ ولذا اتصل بأوبيرزون، ليسألَه على الأرجح عن سبب عدم إدلائه بالشهادة، وذكر ذلك في تحقيقات الشرطة. وفي اليوم الذي أجرى خلاله اتصالًا هاتفيًّا بالرجل الأفعى، تُوفي.»

كان المحقِّق يستمع في تعجُّبٍ صامت. وقال: «تبدو كأنها صفحة من رواية مثيرة، ومع ذلك فهي مترابطة بشكل جيد.»

قطع بويكارت الحديثَ بصوته العميق قائلًا: «إنها مترابطةٌ لأنها حقيقية». وتابع: «هذا هو أسلوبُ أوبيرزون طَوال حياته. إنه صاحبُ منطقٍ قوي، لا يوجد تصرفٌ منطقي في الدنيا كلِّها أكثر من تدمير أولئك الذين يُهددون سلامتك وحياتك.»

أبعدَ ميدوز طبقَه، ولم يتناول سوى نصفِ وجبة إفطاره فقط. وقال باقتضاب: «والدليل.»

قال ليون بسخرية: «ما الدليل الذي يمكنك أن تحصل عليه، يا عزيزي؟»

قال ميدوز في إصرار: «الدليل هو الأفعى». ثم أضاف: «أرِني كيف يُمكنه أن يُدرِّب الأفعى المميتة كي تهجم وتلدغ، مثلما فعل، عندما تكون الضحية تحت المراقبة الدقيقة، كما في حالة باربرتون، وسأصدِّقك.»

نظر ثلاثتُهم بعضهم إلى بعض وابتسَموا في آنٍ واحد. ثم علَّق ليون قائلًا: «ذات يوم سأريك». ثم أضاف: «قَطعًا، لقد روَّضوا أفعاهم! يُمكنها أن تتحرك بسرعةٍ بالغة لدرجةِ أن العين البشرية تعجز عن تتبُّعِها. ودائمًا ما تلدغ الأجزاءَ الأكثر حيوية، وفي أنسب الأوقات. لقد هاجمَتني الليلة الماضية، ولكنها لم تُصبني. والمرة القادمة التي ستُهاجمني فيها» كان يتحدَّث ببطءٍ وينظر إلى المحقِّق عبر الشقين الدقيقين لِجَفنَيه نصف المغلقين، وتابع قائلًا: «في المرة القادمة التي ستُهاجمني فيها، لن يُنقذها من يدي، لا سكوتلاند يارد من جهة، ولا عصابتها المسلحة المتوافقة من جهة أخرى!»

نهض بويكارت فجأة. سمعت أذناه اليقظتان رنةَ جرس، ونزل السُّلم دون ضجيج.

حكَّ ميدوز ذقنه في انفعالٍ قائلًا: «يبدو الأمر كلُّه بالنسبة إليَّ كأنه قصةُ مغامرات». وتابع: «أنا أُحدِّق في غلاف الكتاب، في حين أنتما تقرآن الصفحات. أفترض أيها الشيطانان أنكما تعرفان بداية القصة ونهايتها؟» أومأ ليون برأسه. فأردف ميدوز: «إذن، لماذا لا تُخبرانني؟»

قال ليون بكل بساطة: «لأنني أُقدِّر حياتك». وتابع: «ولأنني أتمنى — نحن جميعًا نتمنى — أن نُبقي اهتمام الأفعى مُنصبًّا علينا.»

عاد بويكارت في تلك اللحظة وأدخل رأسَه من شقِّ الباب.

وسألهم: «هل تَودُّون مقابلة السيد إيليا واشنطن؟» وأدركوا من خلال البريق في عينَيه أن السيد إيليا واشنطن جديرٌ بالمقابلة.

بعد ثانية أو ثانيتين، دخل رجلٌ طويل، عريض المنكبين ذو وجهٍ يميل إلى الحُمرة. كان يلبس نظارةً بلا ذراعَين وخلف عدستَيها العديمتَي الإطار كانت عيناه نابضتَين بالحياة وبشوشتين للغاية. كان يلبس اللون الأبيض من قمةِ رأسه حتى أخمص قدمَيه؛ كان رِباط العنق المنساب فوق القميص الحريري الناعم لونه أصفر برَّاق؛ والحزام على خَصْره قرمزي برَّاق أيضًا.

وقف يُحدق في المجموعة، متأبطًا قبعتَه الخفيفة المصنوعة من القش، واضعًا كلتا يدَيه الضخمتين في جيبَي سرواله.

حيَّاهم بصوتٍ عميق قائلًا: «سعيد بالتعرُّف عليكم، يا رفاق». وتابع: «أظن أن السيد باربرتون أخبرَكم عني. ذلك الرجل المسكين الضئيل! اسمعوا: كان رجلًا قويًّا بحق؛ ولكنه غامض بطريقةٍ ما. قالوا لي إنني قد أجد رئيس الشرطة هنا؛ هل كابتن ميدوز هنا؟»

قال المحقِّق: «سيدي، أنا ذلك الرجل.»

مدَّ واشنطن يده الضخمة وأمسك بيد المحقِّق بقبضةٍ من شأنها أن تَليق بالأفعى العاصرة.

«سعيدٌ بالتعرف عليكَ! اسمي إيليا واشنطن — من جمعية التاريخ الطبيعي، شيكاغو.»

قال بويكارت وهو يدفع كرسيًّا إلى الأمام: «اجلس، يا سيد واشنطن.»

«أود أن أُخبركم، أيها السادة، أن المدعوَّ باربرتون قد قُتل. هل تظنون أن الأفعى قد قتلَته؟ اسمعوا، إن لديَّ درايةً كبيرة بالأفاعي ... لقد تربيتُ معها! وتربية الأفاعي هي هوايتي؛ فأنا أعرف أنواعها بداية من آكلات البيض وحتى أفاعي النمر — نوتيشيس سينتاتوس، والأفعى القطنية الفم، والأفعى النُحاسية الرأس، وأفعى المامبا المرجانية وأفعى الحفر — يا إلهي! الأفاعي مألوفة مثل الذباب. وسأخبركم يا سادة الآن، بأنه ليس هناك أفعى في هذا العالم أو العالم الآخر يمكنها أن تتسلقَ حاجزًا، وتلدغ رجلًا وتهرب رغم وجود شرطي في المكان يُراقبه.»

كان يُقلِّب ناظِرَيه من شخص لآخر؛ كانت طريقته أبوية تقريبًا.

قال في أسف: «أودُّ أن أُريَكم يا رفاق ما هو أسوأ من أفعى المامبا؛ ولكن حمْل الأفاعي في جيبك هو مخاطرة كبيرة؛ الأمر أشبهُ بمليونير يلبس قُرطًا من الألماس ليتباهى بأنه في إمكانه تحمُّل تكلفتِه. لقد أعجبني ذلك الرجلُ الضئيل؛ أشعر بالحزن الشديد لأنه تُوفي، ولكن إذا قال لكم أي رجل إن أفعى قد لدغته، توجَّهوا إليه، واضربوه في أنفه، وقولوا له «أيها الكاذب!»»

قرَع مانفريد الجرس قائلًا: «هلا تتناول بعض القهوة؟»

«بالتأكيد يسرُّني ذلك؛ لم أعتدْ مطلقًا على شرب الشاي. كما أنني أحاول الإقلاع عن الشراب حاليًّا؛ لقد شعرت بالخوف هناك في أعماق أنجولا ...»

سأله ليون: «ما الذي كنت تفعله هناك؟»

ردَّ عليه بإيجاز قائلًا: «الأفاعي». وتابع: «أنا أُمثِّل منظمةً توفِّر عيِّنات لحدائق الحيوان والمتاحف. كنت أبحث عن الأفعى الطائرة … ليس هناك شيء كهذا، رغم أن الأهالي يقولون إن هناك شيئًا كهذا. توصَّلت إلى كوبرا جديدة وأكثر لطفًا — وهي من نوع أفعى الحفر — ولكنها ليست ما أبحث عنه!»

حكَّ رأسه، ناشرًا جوًّا من الحيرة العِلمية في الغرفة. مال قلب ليون إليه.

لقد التقى باربرتون مصادفةً. واعترف بلا خجل أنه ذهب إلى قريةٍ داخلية بحثًا عن مُتعة العزلة الحقيقية، وبالعودة إلى هذه الدرجة من الحضارة التي تُمثِّلها موساميدس، وجد مجموعةً من القبائل البرتغالية تجلس حول النيران التي كانت تُشوى فيها قدم الرجل.

«لم أكن أعرف مَن يكون … ظننتُه مستكشفًا. كان واحدًا من أولئك الذين تُقابلهم على طول ذلك الساحل. لقد قابلت أمثاله في كل مكان تقريبًا؛ حتى أقصى الجنوب عند ميناء بورت نوتوش. في أنجولا أعداد كبيرة، يصبحون أصليين في النهاية.»

«ألا يمكنك أن تخبرنا بشيء عن باربرتون؟»

هزَّ السيد إيليا واشنطن رأسه نافيًا.

«كلا، يا سيدي، أعرفه بقدرِ معرفتي بكم. لقد أثار فضولي حين عرَفت السبب وراءَ التعذيب؛ لقد رفض الإفصاح عن مكانها.»

سأله مانفريد بسرعة: «مكان ماذا؟» فتفاجأ واشنطن.

«عجبًا! الكتابة التي أرادوا الحصول عليها. ظننت أنه ربما أخبركم. قال إنه أتى إليكم على الفور ليُفصح عن كلِّ ما يخصُّ ذلك الأمر. كان خطابًا قد وجده في صندوق صفيح … كان هذا كل ما قاله.»

نظر بعضهم إلى بعض.

أضاف السيد واشنطن، حين رأى شفتي جونزاليس تتحركان، قائلًا: «لا أعرف شيئًا أكثر من ذلك». وتابع: «إنه مجرد خطاب. لم يُخبرني قط مَن المرسل، وما السبب، وما فحواه. انطباعي الأول أنه كان يعبث مع النساء هنا، ولكن قوانين الطلاق واضحةٌ للغاية ولن يعجزوا عن التوصل إلى دليل بتلك الطريقة. لا يحتاج الرجل إلى أيِّ وثائق لكي يتخلصَ من زوجته. وفي رأيي أنكم يا رفاق تتساءلون عن سبب قدومي.» رفع السيد واشنطن فنجان قهوته الذي يتصاعد منه البخار؛ نظرًا إلى اقترابه من درجة الغليان،

وشربه في رشفةٍ واحدة. ثم أردف قائلًا: «هذا جيد، أفضل مذاق قهوة حصلت عليه منذ أن غادرت الوطن.»

مسح شفتَيه بمنديل حريري كبير وزاهٍ.

«لقد جئت، يا سيدي؛ لأن لديَّ فكرةً جدية جدًّا بأنني سأكون مفيدًا لأي شخص يصطاد أفاعيَ في هذه القرية الصغيرة.»

قال مانفريد بهدوء: «يا لها من مهنة خطيرة، أليس كذلك؟»

أومأ واشنطن برأسه.

ثم قال: «هي كذلك بالنسبة إليك، لا بالنسبة إليَّ». ثم أضاف: «أنا محصَّن ضد الأفاعي.»

شمَّر كمَّه، كان ساعده مشوَّهًا ومصابًا بجروح قديمة ناتجةٍ عن عضَّات الأفاعي.

قال باقتضاب: «الأفاعي». ثم أضاف: «هذه لدغة كوبرا»، وأشار متفاخرًا. ثم استطردَ قائلًا: «عندما لدغَتني تلك الأفعى، لم ينتظر أبنائي أيَّ شيء، بل بدَءوا في تقسيم أدواتي. وكأنهم يُعيِّنون أنفسهم كمجلسٍ للمنفذين والورثة المشتركين لعقارات الأسرة.»

قال جونزاليس: «ولكنك كنتَ مريضًا جدًّا، أليس كذلك؟»

هزَّ السيد واشنطن رأسه نافيًا.

«كلا، يا سيدي، ليس أكثرَ من لدغة نحلة، وليس أكثر من مجرد اللدغة الأولى من دبور. يستطيع بعضُ الناس تناول الزرنيخ، والبعض يُمكنهم إعداد وجبة مورفين تكفي لتدمير مقاطعة بأكملها. أنا محصَّن ضد الأفاعي ... تعرضت للَّدغ منذ أن كنتُ في الخامسة من عمري.»

مال نحوَهم، وفجأةً اكتسى وجهُه المرح بالصرامة ثم قال: «أنا الرجل الذي تريدونه.»

قال مانفريد بتروٍّ: «أظن أنك كذلك.»

«نظرًا إلى أن هذه الأفعى العتيقةَ لم تنتهِ من اللدغ. هناك ابتزازٌ في مكانٍ ما، وأريد أن أعثر عليه. ولكن أولًا، أريد أن أُبرئ الأفعى. وأيُّ شخص يقول إن الأفعى بطبيعتها وحشيةٌ لا يفهم شيئًا. الأفاعي خَجولة، وهادئة، ومحترمة، ولا ترغب في إثارة المشكلات مع أحد. إذا رأتك الأفعى قادمًا، فإنها تنسحبُ بطبيعة الحال إلى جُحرها. وحين تتجوَّل الأفعى الأمُّ مع أسرتها، فإنها تخشى بطبيعتها أن يطأَ أحدٌ صغارها، ولكنها لطيفة، وإذا أعطيتها الوقتَ، فإنها ستحملهم وتُدخلهم الجحر حيث لا يمكن لرجلٍ أبيض أن يطأ المكان بقدمه.»

نظر إليه ليون نظرةً تأملية.

قال وكأنه يتحدث إلى نفسه: «من الغريب أن تظنَّ أنك ستُصبح الوحيدَ بيننا الذي سيبقى على قيد الحياة هذا الأسبوع!»

شعر ميدوز الذي لا ينصدم بسهولة، بقُشَعريرة باردة تسري عبر عموده الفقري.

الفصل الثالث عشر

عودة ميرابيل إلى المنزل

لم تتحقَّق النبوءة، التي تنبَّأ بها ليون جونزاليس، على الرغم من أنه ساعد بنفسِه في منع وقوع الكارثة الكبرى التي توقَّعها. عندما استيقظت ميرابيل ليستر في الصباح، كان رأسها ثقيلًا ومرهقًا، وظلَّت وقتًا طويلًا مستلقية بين النوم واليقظة، في محاولةٍ لترتيب أفكارها المرتبكة، عيناها مثبتتان على السقف نحو العارضة الخشبية الغليظة التي رأتها من قبلُ في مكانٍ ما؛ وعندما استجمعَت أخيرًا الطاقةَ الكافية لترفع نفسها على مرفقها، نظرَت إلى الأجواء المحيطة المألوفة جدًّا لغرفتها الصغيرة الجميلة.

مزرعة هيفيتري! يا له من حُلم غريب رأته! حلم مليء بصورٍ عابرة لرجالٍ مسنِّين ذَوي رءوس مستطيلة، وموسيقى راقصة وقاعةِ رقص مزدحمة، ورجل مبالغ في تأنقه يتعامل معها بأدبٍ شديد أثناء تناول العشاء. أين تناولت العشاء؟ جلست في الفراش مُمسكةً برأسها المرتج.

نظرت من حولها تتفقَّد الغرفة مرةً أخرى، وأدركت ببطء من أحلامها بضعَ حقائق مادية. كانت لا تزال في حالةٍ من الارتباك حين فُتح الباب ودخلت العمة ألما، وزاد القلق من عدم جاذبية وجهِ قريبتها.

قالت ميرابيل بوهن: «أهلًا، ألما!» وتابعت: «لقد رأيت حلمًا غريبًا.»

زمَّت ألما شفتيها وهي تضع الصينية على الطاولة بجوار الفراش.

«أظن أنه بخصوص ذلك الإعلان الذي رأيته.» ثم شهقت قائلة: «كيف أتيتُ إلى هنا؟»

قالت ألما: «لقد أحضَروكِ إلى هنا». وتابعت: «الممرضة في الطابق السفلي تتناول الإفطار. إنها امرأة لطيفة تحتفظ بقُصاصات الجرائد.»

تساءلت ميرابيل في ذهول قائلة: «الممرضة؟»

«لقد جئتِ إلى هنا الساعة الثالثة صباحًا في سيارة. وكان معكِ ممرضة»، وأخذت ألما تسرد الأحداث حسَب التسلسل الزمني مستطرِدةً: «ورجلان. خرج الرجل الأول وقرع الباب. كنت قلقة حتى الموت. في الواقع، كنت قلقة طوال وقتِ ما بعد الظهيرة، منذ أن تلقيت برقيتك التي تطلبين فيها مني عدمَ المجيء إلى لندن.»

ردَّت الفتاة قائلة: «ولكني لم أرسل أيَّ برقية بهذا الطلب.»

«بعد أن نزلت، أخبرني الرجل — كان رجلًا نبيلًا بحقٍّ ولبقًا للغاية — بأنه قد أصابك المرض وأتت بك إحدى الممرضات إلى المنزل. ثم حملوكِ، الرجلان والممرضة، إلى هنا في الطابق العلوي ووضعوكِ في الفراش، وغيَّرت لكِ أنا والممرضة ملابسكِ. لم أستطِع إيقاظَكِ بكل بساطة؛ كل ما كنتِ تفعلينه أنكِ كنتِ تتحدَّثين عن عصير البرتقال الغازي.»

«تذكرتُ! كان مرًّا للغاية، سمح لي اللورد إيفينجتون أن أشرب بعضًا من مشروبه. ثم ... لا أعرف ماذا حدث بعد ذلك.» قالتها بقليلٍ من التجهم.

أوضحَت ألما قائلة: «طلب السيد جونزاليس السيارة، وأحضر الممرضة من دار رعاية.»

تساءلت في تعجُّب: «جونزاليس! أنت لا تقصدين جونزاليس الذي أعرفه ... هل تقصدين جونزاليس عضوَ فريق رجال العدالة الأربعة؟»

أضافت ألما قائلةً: «أنا متأكدة من أنه جونزاليس؛ لم يكن الأمر سرًّا. يمكنك أن تُقابلي الرجل النبيل الذي أحضركِ؛ هو موجود في مكانٍ ما بالقرب من المنزل. رأيته في طريق هيفيتري قبل خمس دقائق، يقطع الطريق ذَهابًا وإيابًا ويُدخن. يدخن غليونًا.»

نزلت الفتاة من الفراش؛ كانت رُكبتاها ضعيفتَين جدًّا تتخبَّطان من أسفلها ولا تقوَيان على حملها، ولكنها استطاعت أن تترنَّح حتى وصلت إلى النافذة، وفتحت ضلفة النافذة عن آخرها، ونظرت عبر رُقعة مختلطةٍ من الألوان. كانت براعم الزهور الصيفية تتفتَّح؛ والروائح الذكية تملأ أجواء الصباح الدافئة؛ وقفت دقيقة، تستنشق كميةً كبيرة من العطر الرائع، ثم عادت بتنهيدة، إلى ألما التي وقفَت تنتظرها.

«لا أعرف كيف حدث كل ذلك وما مَغْزاه، ولكن يا إلهي، أنا سعيدة بعودتي، يا ألما! ذلك الرجل المخيف! تناولت معه الغداء في فندق ريتز كارلتون، لا أريد أبدًا أن أرى مطعمًا أو قاعةَ رقص مرةً أخرى، أو تشيستر سكوير حتى، لا أريد سوى مزرعةِ هيفيتري العزيزة!»

أخذت فنجان الشاي من يد ألما، وشربته في نهَم، ووضعته وهي تلهث قليلًا.

«كان هذا رائعًا! أجل، الشاي كان رائعًا جدًّا، ولكنني أفكِّر في جونزاليس. لو كان هو!»

«لا أدرك السبب وراء تحمُّسكِ لرجلٍ لا أعرف عددَ جرائم القتل التي ارتكبها.»

قالت الفتاة ساخرةً: «لا تكوني سخيفة، يا ألما!» وأضافت: «لم يرتكب رجالُ العدالة جرائم قتل أبدًا، ليس سوى جريمةِ قتل قاضٍ وأحد أعضاء هيئة المحلفين.»

لا تزال الغرفة تدور بها، واستطاعت بصعوبةٍ بالغة أن تدمجَ الصورة المزدوجة لألما التي وقفَت أمامها في صورةٍ لشخص واحد ملموس.

«ثمَّة رجلٌ محترم بالطابق السفلي؛ إنه ينتظر منذ الساعة الثانية عشرة.»

وعندما سألت، عرَفَت أن الساعة الواحدة والنصف؛ الأمر الذي أزعجها.

قالت في اندفاع: «سأنزل في غضون ربع الساعة». وتابعت: «مَن هو؟»

جاءتها إجابة غير مُرضية: «لم أرَه من قبل مطلقًا، لكنه رجل نبيل». وأضافت: «لم يرغبا في السماح له بالدخول.»

«من هما؟»

«الرجلان اللذان أتيا بكِ إلى هنا في المساء.»

حدَّقت بها ميرابيل.

«هل تقصدين ... أنهما يحرسان المنزل؟»

قالت ألما في حدة: «هذا ما ظننتُه». وتابعت: «لا أعلم ما الذي يجعلهما يتدخلان في شئوننا. على أي حال، لقد سمَحا له بالدخول. السيد جونسون لي.»

عبَسَت الفتاة.

وأردفت قائلة: «لا أعرف الاسم.»

توجَّهت ألما إلى النافذة.

ثم قالت وهي تشير: «هذه هي سيارته.»

كانت بالكاد ظاهرةً للعيان، تقف على جانب الطريق خلف سِياج الحديقة الشجري المربَّع، سيارة رولز طويلة ذات لون أبيض مُترب. كان السائق يتحدث مع رجلٍ غريب، وخمَّنَت ميرابيل من حقيقة أنه كان يُدخِّن غليونًا بأن هذا هو أحد الرجلين اللذَين عيَّنا نفسَيهما حارسَين عليها.

أخذت حمَّامها، وارتدَت ملابسها بمساعدة الممرضة، ونزلت الطابق السفليَّ وهي تترنَّح. كانت ألما تنتظر في القاعة المبلطة بالحجارة.

قالت بنبرة هامسة مسموعة: «إنه يريد مقابلتك على انفراد». وتابعَت: «لا أعرف إذا كان من المفترض أن أسمح له بذلك، ولكن من الواضح أنَّ هناك خَطبًا ما. هؤلاء الرجال الذين يتجوَّلون في المنزل يُثيرون أعصابي تمامًا.»

ضحكت ميرابيل بعذوبةٍ وهي تفتح الباب وتدخل الغرفة. وعند سماع صوتِ إغلاق الباب، وقف الرجل الجالس في جمودٍ على الأريكة المنخفضة بجوار إطار النافذة. كان طويلًا ومحنيَّ القامة، ووجهه الأسمر محدَّد الملامح. لم تستطِع أن ترى عينَيه؛ كانتا مختبئتَين خلف نظارة خضراء داكنة، تحولت في اتجاهها حين عبَرت الغرفة لتحيَّته.

تساءل بنبرةٍ هادئة، ومعتدلة لرجل مثقف: «هل أنت الآنسة ميرابيل ليستر؟» وصافحها.

«هلَّا تجلس؟» قالتها لأنه ظل واقفًا بعد أن جلسَت هي.

«شكرًا لكِ.» جلس بحذرٍ شديد، ممسكًا بين ركبتَيه بمقبض الشمسية التي دخل بها إلى غرفة المعيشة. واستطرد قائلًا: «أخشى أن تكون زيارتي غيرَ مناسبة، يا آنسة ليستر؟» وتابع: «هل سمعتِ عن السيد باربرتون ولو مصادفةً؟»

قطبَت جبينها مستغرقةً في التفكير. وأردفت قائلة: «باربرتون؟ يبدو أنني سمعت الاسم.»

«قُتل أمسِ على جسر التايمز.»

حينئذٍ تذكَّرَت. وتساءلتْ في ذعر: «الرجل الذي لدغَته الأفعى؟»

أومأ الزائر برأسه.

«كانت وفاته صدمةً كبيرة بالنسبة إليَّ؛ لأنني كنتُ صديقَه على مدار عدة سنوات، وقد كنت أنوي زيارة الفندق الذي نزل به في ليلة وفاته.» ثم فجأةً حوَّل الحديثَ في اتجاه آخر ومفاجئ. وقال: «كان والدكِ عالمًا، أليس كذلك يا آنسة ليستر؟»

أومأت برأسها بالإيجاب.

«أجل، كان عالِمَ فلَك، خبيرًا في مجال دراسة الشهب.»

«بالضبط. ظننت أنه كان كذلك بالفعل. لم يُقرأ كتابه لي إلا مؤخرًا. قضى بعض السنوات في أفريقيا، أليس كذلك؟»

قالت في هدوء: «أجل، كان يدرس الشهب لمدة ثلاث سنوات في أنجولا. ربما تعرف أن عددًا كبيرًا جدًّا من الشهب تتساقط في تلك الدولة. كانت نظرية أبي أن السبب وراء ذلك هو جبالُ الحجَر الحديدي التي تجتذبها؛ ولذا أنشأ مرصدًا صغيرًا في المناطق الداخلية.»

ارتعشَت شفتاها لثانية. وهي تقول: «قُتل أثناء ثورة محلِّية.»

«هل تعرفين أين يقع مرصده في أنجولا؟»

هزَّت رأسها بالنفي.

قائلة: «لا أدري. لم أذهب إلى أفريقيا مطلقًا، ولكن ربما العمَّة ألما تعرف.»

خرجَت لتجدَ العمة ألما تقف في الرواق، في حوارٍ مع صاحب الغليون. انسحب الرجل بسرعة عند رؤيتها.

سألتها قائلة: «ألما، هل تتذكرين أين كان مرصد أبي في أنجولا؟»

لم تكن ألما تعرف مستعينةً بذاكرتها وحدها؛ ولكن أحد دفاترها الثمينة لقصاصات الجرائد كان يحتوي على جميع المعلومات التي تريدها الفتاة، وأتت بالدفتر إلى السيد لي.

قالت وهي تفتح الدفتر وتضعُه أمامهما: «إليك التفاصيل.»

طلب منها في رفقٍ: «هلا تقرئين لي؟» فقرأت له الفقرات الثلاث القصيرة التي ذكَرت أن البروفسير ليستر اتخذ مقرَّ إقامته في بيشاكا.

قاطعها الزائر قائلًا: «هذا هو المكان». وتابع: «بيشاكا! هل أنتِ واثقة من أن السيد باربرتون لم يتواصل معكِ؟»

قالت في دهشة: «معي أنا؟ كلا ... ولمَ قد يفعل؟»

لم يُجِب، ولكنه جلس مستغرقًا وقتًا طويلًا، ليُقلب الأمر في ذهنه.

«هل أنتِ واثقة تمامًا من أنَّ أحدًا لم يرسل لكِ وثيقة، ربما باللغةِ البرتغالية، بخصوص ...» تردَّد قبل أن يقول: «بخصوص بيشاكا؟»

هزَّت رأسها بالنفي، ثم بدا كأنه لم يُلاحظ الإيماءة، فكرَّر السؤال مرةً أخرى.

قالت: «أنا متأكدة». وتابعت: «يأتي إلى مزرعتنا عددٌ قليل جدًّا من المراسلات، ولا يمكن أن أتغاضى عن أي شيء لافتٍ جدًّا للنظر.»

قلَّب المسألة في ذهنه مرة أخرى.

«هل لديك أيُّ وثائق باللغة البرتغالية أو الإنجليزية ... أي خطابات من والدكِ بخصوص أنجولا؟»

أجابت قائلة: «لا شيء!» ثم أضافت: «الإشارة الوحيدة التي أوردَها أبي عن بيشاكا كانت بخصوص حصوله على الكثير من المعلومات التي كان يعتقد بأنها ذاتُ قيمة، وأنه منزعج قليلًا لأنَّ الكاميرات الخاصةَ به، التي ثبَّتها في أنحاء متفرقة من البلاد لتغطية كل جزء من السماء، تعرَّضتْ للتشويش بسبب المستكشفين المتجولين.»

سأل السيد لي في حماس: «قال هذا، أليس كذلك؟ هكذا إذن، هذا يُفسر الكثير من الأمور!»

ضحكت رغمًا عنها. ثم قالت بصراحة: «هذا لا يُفسِّر شيئًا بالنسبة إليَّ، يا سيد لي.» ثم أردفت بنبرةٍ أكثرَ جدية قائلة: «هل جاء باربرتون من أنجولا؟»

خفَض صوته قائلًا: «أجل، باربرتون جاء من تلك الدولة». وتابع: «وأودُّ أن أخبرك ...» تردد قبل أن يقول: «ولكني أخشى كثيرًا.»

«تخشى أن تُخبرني؟ لماذا؟»

هز رأسه.

«وقع الكثيرُ من الأمور المروعة مؤخرًا لباربرتون المسكين وآخرين، تبدو معرفة تلك المعلومات أمرًا خطيرًا للغاية. أتمنى لو أنني أُصدِّق بأنها ليست خطيرةً بالنسبة إليك»، وأضاف بلطف قائلًا: «حينئذٍ سيُصبح في استطاعتي التحدثُ بما يدور في ذهني وأريح نفسي من القلق الشديد.» ثم نهض ببطء. وقال: «أظن أنَّ أفضل شيء يمكنني القيامُ به هو استشارة المحامي الخاص بي. لقد كان من الحماقة ألا أُطلِعَه عليه مدةً طويلة جدًّا. هو الرجل الوحيد الذي أستطيع أن أثقَ فيه ليبحث في وثائقي.»

لم يسَعْها سوى التحديق فيه بذهول.

ثم قالت بأسلوبٍ فكاهي: «ولكن يمكنك بالتأكيد البحث في وثائقك الخاصة، أليس كذلك؟»

«نعم. للأسف لا يمكنني ذلك. لأن ...» وأردف بعفوية الأطفال قائلًا: «لأنني كفيف.»

شهقَت ميرابيل قائلة: «كفيف؟» فضحك الرجل بهدوء.

«قدراتي تفوق قدرةَ رجل كفيف، أليس كذلك؟ يمكنني السير عبر غرفة وتفادي الاصطدام بقِطَع الأثاث. الشيء الوحيد الذي لا يمكنني القيامُ به هو القراءة ... على الأقل، قراءة النصوص المطبوعة بالطريقة التقليدية. أستطيع أن أقرأ بطريقة برايل؛ لقد علَّمَني باربرتون المسكين. لقد كان مدير مدرسة»، وأوضح قائلًا: «مدرسةٍ للمكفوفين بالقرب من مدينة برايتلينجسي. لم يكن رجلًا متعلمًا على نحوٍ استثنائي، وإنما كاتبٌ سريع جدًّا بطريقة برايل. كنَّا نتواصل سنواتٍ بتلك الوسيلة. كان يستطيع الكتابةَ بحروف برايل بنفس سرعة كتابتك باستخدام القلمِ والحبر تقريبًا.»

امتلأ قلبُها بالشفقة تجاه الرجل؛ كان مبتهجًا للغاية، وواثقًا من نفسه، وكذلك فخورًا جدًّا بإنجازاته، لدرجةِ أن الشفقة تحولَت إلى إعجاب. كان يتصف بمسحةٍ من العناد الشديد التي يتصف بها الكثيرُ من الرجال الذين يواجهون المصير نفسَه، وبدأتْ

تُدرك أن الإشفاق على الذات، وهي أعظم مصيبة من جميع المصائب التي تُصاحب العمى، بعيدةٌ كلَّ البعد عن فلسفته في الحياة.

قال، وهو يمدُّ يده: «أود أن أخبرك بالمزيد». وتابع: «على الأرجح سأُملي على أحدهم خطابًا طويلًا من أجلك غدًا، أو سيفعل المحامي الخاص بي ذلك؛ لأضع جميع الحقائق أمامك. أما الآن، فيجب أن أتأكد من دوافعي. ليس لدي أدنى رغبةٍ في أن أثير داخلك الخوف أو … الأمل. هل تعرفين السيد مانفريد؟»

ردَّت على الفور قائلة: «لا أعرفه بصورة شخصية». وتابعت: «أتقصد جورج مانفريد؟»

أومأ برأسه.

سألته بحماس: «هل التقيتَ به؟» وأضافت: «والسيد بويكارت، الفرنسي؟»

أجاب قائلًا: «كلا، لا أعرف السيد بويكارت. لقد تحدثَ السيد مانفريد معي على الهاتف في وقت مبكرٍ جدًّا من هذا الصباح. يبدو أنه يعرف كلَّ شيء عن علاقتي بصديقي المسكين. كما أنه يعرف أنني كفيف. رجل استثنائي، نبيل جدًّا ومهذب. إنه هو مَن أعطاني عنوانك. وربما»، ثم نهض وهو يقول: «من المستحسَن أن أستشيره أولًا.»

قالت في حماس: «أنا واثقةٌ من ذلك!» وتابعت: «إنهم رائعون. لقد سمعتَ عنهم، بالتأكيد، يا سيد لي؛ أقصد رجال العدالة الأربعة؟»

ابتسم.

وعلَّق قائلًا: «يبدو أنكِ معجبة بهم». وأضاف: «أجل، لقد سمعتُ عنهم. إنهم الرجال الذين، منذ سنوات عديدة مضَت، قد أخذوا على عاتقهم تسويةَ تناقضات القانون الإنجليزي، بمعنى أن يُطبِّقوا العقوبة في الموضع الذي لا ينصُّ فيه القانون على عقوبة. من الغريب أنني لم أتعامل معهم من قبل …»

استغرق وقتًا طويلًا ليتأمل الأمر، ثم أردف قائلًا: «لا أدري»، ولكنه لم يُخبرها عما لا يَدريه.

سارت معه عبر طريق الحديقة، ومنه إلى الطريق، ووقفت تتحدثُ عن الريف والزهور التي لم يرَها مطلقًا، والطقس وتلك الأمور التافهة التي يتحدث عنها الناس حين تكون أذهانهم منشغلةً بأفكارٍ أكثرَ جدية لا يمكنهم مشاركتُها مع أحد، حتى توقفت السيارة الليموزين الكبيرة وصعد إلى كابينتها الرائعة. كان يتَّسم بالاستقلالية التي يتميَّز بها الكفيف المتعلم، ورفض بلطفٍ عرْضها للمساعدة، وهو عرضٌ لم تُحاول أن تُكرِّره،

مستشعرةً الرضا الذي ينتابُه حتمًا حين يشق طريقه دون مساعدة. لوَّحت بيدها للسيارة أثناء مغادرتها، ورفع هو يدَه بتلقائية ليُحيِّيَها، وللحظة ظنت أنه يراها.

ابتعدَ عن مجال رؤيتها، ولعله كان من المقرَّر أن يبتعدَ عن حياتها كلها؛ إذ إن السيد أوبيرزون قد أصدر قرارًا بأن تُصبح الساعات الباقية من عمر جونسون لي الكفيف قليلةً جدًّا.

ولكن من قبيل الصدفة أن الرجال الثلاثة توصَّلوا إلى القرارِ نفسِه بخصوص السيد أوبيرزون، بيدَ أنهم احتاروا في طريقة وفاته. وطرح ليون جونزاليس آراءً مبتكرة.

الفصل الرابع عشر

البائع المتجول

كان الرجل ذو الغليون يقف على بُعد بِضع خطوات منها. وهي عائدة عبر البوابة، حين تذكَّرت آراء العمَّة ألما عن الحراسة.

فسألته: «هل ستنتظر هنا طوال اليوم؟»

«حتى المساء، يا آنسة. سيحلُّ محلَّنا بعضُ الرجال من جلوستر ... جئنا من المدينة، وسنعود مع الممرضة، إذا أمكنكِ الاستغناء عنها؟»

سألته: «مَن الذي كلَّفك بحراسة المكان؟»

«السيد جونزاليس. ظن أنه من الحكمة أن يكون هناك شخصٌ ما بالجوار.»

«ولكن ما السبب؟»

ابتسم الرجل الضخم ابتسامةً عريضة.

وردَّ قائلًا: «أعرف السيد جونزاليس منذ عدة سنوات». وتابع: «أنا شرطيٌّ متقاعد، وأستطيع أن أتذكَّر المرات التي أُعطيتُ فيها مبالغَ كبيرة لكي أمسك به، ولكني لم أسأله عن السبب قط، يا آنسة. بوجهٍ عام، هناك سببٌ وجيه لكل شيء يفعله.»

عادت ميرابيل إلى منزل المزرعة، منشغلةً بالتفكير. ولحسن الحظ، أن ألما لم تكن فضولية؛ تركتْها بمفردها في غرفة الاستقبال تستجمع ذكرياتها عن الأمس المثير للقلق.

كان لدى ميرابيل عددٌ قليل جدًّا من الذكريات المشوَّشة. لقد قرأت كثيرًا، وخمَّنت كثيرًا، وفي مرحلة طفولتها كان لديها عادةُ الربط بين السبب والنتيجة. لقد كان الإعلان مصمَّمًا خِصِّيصى من أجلها؛ كان هذا هو أولَ استنتاجاتها. كان مصمَّمًا ليأتيَ بها تحت سيطرة أوبيرزون. إذ إنها أدركت الآن هذه الحقيقة المهمة؛ منذ أن دخلت مكتب شركة أوبيرزون آند سميتس، لم يكن لها حريةُ التحرك كما تشاء، ولو مرة واحدة. لقد أخذها

لتناول الغداء، وعاد بها؛ كانت جوان نيوتن تُرافقها في رحلة العودة إلى المنزل، ومن المنزل إلى القاعة؛ ومنذ ذلك الحينِ لا تشكُّ أن مراقبة أوبيرزون لها استمرت، حتى …

تذكَّرت على نحوٍ غامضٍ الرجلَ الذي كان يرتدي العباءةَ، الواقفَ على مدخل الباب المتأرجح. أكان هذا جونزاليس؟ ظنَّت بطريقةٍ ما أنه لا بد أن يكون هو. جونزاليس، اليقظ، المنتبه … ولكن لماذا؟ لأنها كانت — ولا تزال — في خطر. ولكن اللغز الأكبر هو سببُ اختيار شخصية عديمة الأهمية مثلها.

وبطريقةٍ لا يمكن تفسيرها، كانت وفاة باربرتون مرتبطةً بالإعلان وبالاهتمام الذي حَظِيَت به من جانب الدكتور أوبيرزون وعصابته. مَن هو اللورد إيفينجتون؟ تذكَّرَت لهجته الألمانية وكلمته الشهيرة «السيدة الكريمة»، والطقطقة الغريبة لنعلَيه وانحناءته الرسمية المتيبِّسة. هذه هي الحيلة الخرقاء التي كان يجب عليها أن تُلاحظها من الوهلة الأولى. كان هذا الرجل أحدَ مُراقبيها. وكانت مهمَّته تقديمَ عصيرِ برتقالٍ مذاب فيه مخدِّر. حين أدركَت ذلك ارتجفت. لنفترضْ أن ليون جونزاليس، أو أيًّا مَن يكون، لم يتدخل بفضل العناية الإلهية، فماذا كان من الممكن أن يحدث لها؟

سارت إلى النافذة، وتطلَّعتْ خارجها، وشعرت بالارتياح والهدوء الشديدين حين رأت الرجلَين داخل البوابة، وفرحَت لمعرفة أنها، لسببٍ ما، تحت رعاية وحماية هذه المنظمة الغريبة التي لطالما قرأتْ عنها.

دخلَت إلى المطبخ المقبَّب، لتجد طاولة المطبخ مغطَّاةً بمجلَّدات ضخمة، والعمة ألما تشرح للممرضة المهتمة نظامَها لحفظ الملفات. كان اهتمامُ تلك السيدة صاحبةِ الملامح الجامدة منصبًّا على موضوعَين؛ ألا وهما: الجريمة، وسجلَّات العائلة. كان لديها دفتران ممتلئان بقصاصات الصحف المحلية بخصوص أسرة أحدِ أبناء العمومة البعيدين الذي تربَّى ليكونَ من طبقة النبلاء أثناء الحرب. كان لديها دفترٌ آخرُ مخصَّص للانتصارات الاجتماعية لإحدى القريبات البعيدات، جودارد، التي ظهرت أخيرًا بمظهرٍ مثير للاهتمام كمدَّعية في دعوى الطلاق الأكثر شهرةً في هذا العصر. ولكن، كانت الجريمة، بوجهٍ عام، الشغلَ الشاغلَ للعمة ألما. ومن منطلق هذه القصاصات الضخمة اكتسبَت ميرابيل معرفتها الكاملة برجال العدالة الأربعة وعملياتهم. كان ثَمة كتب تزخر بقصة مقتل ريمون، رتَّبت باهتمام وعناية ترتيبًا زمنيًّا، نظرًا إلى أن التسلسل الزمني يكاد يكون عيبَ ألما جودارد الخطيرَ. ولكن ثَمة موضوع رأي عام ينقص مجموعتها، وكانت تشرح السبب للمُمرضة حين دخلت ميرابيل المطبخ.

كانت تقول: «كلا، يا عزيزتي، لا يوجد شيءٌ عن الأفعى. لا أريد أيَّ شيء ذي صلة بها؛ إنها تُثير أعصابي. في الواقع، لم أقرأ أيَّ شيء به أدنى إشارة إليها.»

قالت الممرضة بحماس: «أنا أحتفظ بكلِّ سطر كُتب عنها». ثم أضافت: «أخي مُراسل صحفي في مجلة ميجافون، ويقول إنها أفضل قصة إخبارية لديهم منذ سنوات ...»

قاطعت ميرابيل هذا الحوارَ البشع نوعًا ما لتطرحَ بعض الاستفسارات عن وجبة الغداء. فقد استعادت اتِّزانها الآن وصار لديها شهيةٌ للطعام.

كان الباب الأمامي مفتوحًا، وبينما هي في طريقها إلى غُرفة الطعام لإحضار المواد الكتابية الخاصة بها، سمعت مشاحنةً عند البوابة. ظهر رجلٌ ثالث؛ بائع متجول ذو مظهرٍ رثٍّ يحمل أمامه صينيةً، تزخر بجميع أنواع الأزرار والأشرطة الرخيصة. كان رجلًا في منتصف العمر ذا لحيةٍ شَعْثاء، ورغم أنه كان يومًا دافئًا، فهو يرتدي معطفًا طويلًا يكاد يصل إلى كعبَيه.

كان صاحب الغليون يقول: «ربما تكون أو لا تكون، ولكن لن تدخل.»

صاح البائعُ المتجول قائلًا: «لقد خدمت في هذا المنزل سنواتٍ، ماذا تقصد بمنعي؟ أنت لست رجلَ شرطة.»

قال الحارس المتحلي بالصبر: «سواءٌ أكنتُ رجل شرطة أم عاملَ نظافة أم ساعيَ بريد، لن تمر عبر هذه البوابة، هل تفهم ذلك؟»

في تلك اللحظة، لمح البائعُ المتجول الفتاةَ عند الباب ورفع قبَّعته المهترئة بابتسامةٍ واسعة. لم تكن الفتاة تعرفه؛ لم تتذكَّر أنها رأتْه في المنزل من قبل. ولم ترَه ألما كذلك، التي خرجَت في تلك اللحظة.

قالت: «هو شخصٌ غريب هنا، ولكننا نستقبل دومًا أشخاصًا جددًا من جلوستر». وتابعت: «ما الذي يبيعه؟»

خرجَت إلى الحديقة، وبمجرد رؤيتها اختفَت الابتسامة العريضة من على وجه البائع المتجول.

قال: «لديَّ بعض الأشياء أودُّ بيعها للآنسة الصغيرة، يا سيدتي.»

ردَّت ألما بحدةٍ قائلة: «لست كبيرةً في السن لهذه الدرجة، أنا آنسة». وتابعت: «منذ متى وأنت تختار وتنتقي زبائنك؟»

تذمَّر الرجل وقال شيئًا بصوتٍ غير مسموع، وقبل حتى أن يعرض بضاعته، جرَّ قدمَيه على طول الطريق الترابي، وراقَبوه حتى اختفى عن الأنظار.

كانت مزرعة هيفيتري اسمًا فخمًا للغاية على مكانٍ صغير جدًّا. حيث تتبع المزرعة الصغيرة الطريق المؤدي إلى هيفيتري لان، الذي يشكِّل الحدود الجنوبية للمزرعة. والطريق نفسُه يسير بزاويةٍ ليصل إلى خلف المنزل، ويُشكِّل سورٌ شجري الحدَّ الثالثَ الذي يفصل المزرعة عن بيتٍ ريفي ذي مظهر متفاخر تابع لشخصية محلية غنية. وفي هذا الطريق، اختفى البائع المتجول.

قال رفيق الحارس المدخن للغليون: «معذرة، يا سيدتي.»

فتح البوابة، ودخل، وأجرى جولةً تفقُّدية حول المنزل، ووصل إلى البستان الموجود في الخلفية. كان هناك بضعة مبانٍ متفرقة، وباجتيازها وصل إلى المروج، حيث تجلس بقرة ميرابيل الوحيدة في كسلٍ مثل بناتِ جِنسها. انتظر الحارس، وهو يختبئ جزئيًّا خلف جِذعٍ سميك لشجرة تفاح، وفي الحال، كما توقَّع، رأى رأسًا يظهر من بين السِّياج الحدودية. وفي ظل المراقبة، قفز البائعُ المتجول إلى المروج ثم وقف، متفقدًا الأرض. كان قد ترك صينيته وحقيبته، وركَض بسرعةٍ مذهلة لرجلٍ في مثلِ سنِّه، ووصل إلى حظيرة خشبية صغيرة، وفتح الباب واختفى داخلها. في هذا الوقت، انضمَّ إلى الحارسِ رفيقُه وتشاورا معًا، فعاد صاحب الغليون إلى موقعِه أمام المنزل، في حين سار الآخرُ بتمهُّل عبر المروج حتى وصل إلى باب الحظيرة المغلق.

وبحكمةِ مَن هم في موضعه، أجرى جولةً تفقُّدية حول المبنى أولًا، واكتشف أنه لا توجد مخارجُ عبر البوابات المسودة. ثم فتح الباب على مِصراعَيه:

وقال: «اخرج، يا فتى!»

كانت الحظيرة فارغةً، باستثناء كومةٍ من القش الموجودة في إحدى الزوايا وبعض عربات المزرعة القديمة بلا عجلٍ مثبَّتة على ثلاث دعامات في انتظار عناية صانع العجلات.

كان هناك سُلَّم يُؤدي إلى مخزن التبن، تسلَّقه الحارس بتمهُّل. كان رأسه عند مستوى الفتحة المظلمة، حين سمع صوتًا يقول: «ارفع يديكَ!»

كان ينظر إلى فوهة المسدس الأتوماتيكي الموجهة إليه.

«انزل، يا فتى!»

همس الصوت في الظلام قائلًا: «ارفع يديكَ وإلا ستكون في عِداد الموتى!»

أطاع الحارسُ الأوامر، وهو يلعن غباءه لأنه أتى بمفرده.

«الآن، اصعد.»

وبقدرٍ من الصعوبة، صعد الحارس بنفسه إلى مستوى الأرضية.

قال البائع المتجول: «سِرْ في هذا الاتجاه، أسرِع.» وأضاف: «أبقِ يدَيك مرفوعتَين لأعلى.»

شعر بملمس الفولاذ البارد على معصمه، وسمع صوت تكة.

«الآن، اليد الأخرى.»

وبمجرد أن كبَّله، بدأ البائع المتجول تفتيشَه سريعًا.

قال هازئًا وهو يسحب مسدسًا من الجيب الخلفي للحارس: «تحمل مسدسًا، أليس كذلك؟» وتابع: «الآن، اجلس.»

وفي بضع ثوانٍ، كان الحارس المرتبك مقيَّدًا ومكمَّمًا. نظر البائع المتجول، بعد أن زحف إلى مدخل مخزن التبن، عبر شقٍّ بين ألواح الخشب. كان يُراقب السورَ الشجريَّ الذي تسلَّقه، لا المنزل. ظهر رجلان آخَران هناك، وشعر بالارتياح. نزل إلى الحظيرة، وسحب السلَّم ليسقط على الأرض، قبل أن يخرج من الحظيرة ويُعطي إشارة.

عاد الحارس الثاني بطريق مختصر إلى الجزء الأمامي من المنزل، ومرَّ عبر الحديقة ومنها إلى باب المطبخ. وقف ليُغلق المزلاج، رأته الفتاة، وهي تدخل المطبخ.

سألته في انزعاج: «هل هناك مشكلة؟»

قال وهو ينظر عبر نوافذ المطبخ المؤمنة بقضبان حديدية: «لا أعلم، يا آنسة». وتابع: «زميلي رأى ذلك البائع يدخل الحظيرة.»

تبعتْه إلى الباب الأمامي. استدار ليذهب ولكنه غيَّر رأيه وعاد، ورأته وهو يضع يدَه في جيبه الخلفي، وذُهلَت حين رأته يُخرِج مسدسًا ذا ماسورة طويلة طراز براونينج.

«هل يمكنكِ استخدام المسدس، يا آنسة؟»

أومأت برأسها، وقد منعتْها المفاجأة من الكلام، ورأته وهو يُزيح السترة ويسحب قفل الأمان.

«أريد أن أكون على الجانب الآمن، وستزيد سعادتي لو تسلَّحتِ.»

كان هناك مسدسٌ مُعلَّق على الحائط فأنزله.

سألها: «هل لديك أيُّ طلقات لهذا المسدس؟»

فتحت دُرج الخِزانة الموجودة في الرَّدهة وأخرجت كرتونة من الورق المقوَّى.

علَّق قائلًا: «قد تكون مفيدة.»

«ولكن بالتأكيد، يا سيد ...»

قدَّم اسمه قائلًا: «ديجبي.»

«بالتأكيد أنت تُبالغ، أليس كذلك؟ لا أعني أنك تفعل ذلك بنيَّة إخافتي، ولكن ليس هناك أي خطر يُحدق بنا؟»

«لا أعرف. ينتابني شعورٌ غريب … ينتابني طوال الصباح. كم يبعد أقربُ منزل من هنا؟»

ردَّت قائلة: «أقل من نصف ميل.»

«هل لديك هاتف؟»

أومأت برأسها.

أضاف بنبرةٍ متوترة قائلًا: «ربما أكون خائفًا. سأخرج إلى الطريق وأُلقي نظرة. أتمنى أن يعود زميلي.»

سار بخطًى وئيدة في ممر الحديقة ووقف دقيقةً مائلًا فوق البوابة. وبينما هو كذلك، سمع أزيزًا وصوتًا محشرجًا لسيارةٍ قديمة، ورأى شاحنة خاصة بأحد التجار تلتف عند منعطف طريق هيفيتري لان. تباطأت سرعتها مع اقترابها من المنزل، وتوقَّفت تمامًا أمام البوابة. بوابلٍ من اللعنات، نزل السائق ورفع غطاء السيارة الصفيح البالي، وتحسَّس أسفل المقعد ليُخرِج مِفتاحًا طويلًا للمسامير. ثم، بسرعة خاطفة، استدار نصف استدارة وهجم على رأس ديجبي. سمعت الفتاةُ صوت الارتطام البغيض، ورأت الحارس يسقط في وهنٍ على الطريق، وفي ثانية، أغلقت الباب بقوة وسحبت مزلاج المنزل.

كانت تتصرف بهدوء؛ لم ترتجفْ يدُها وهي تسحب المسدس من على طاولة الرَّدهة. ونادت: «ألما!» فنزلت ألما تركض على السُّلم.

هتفت قائلة: «ماذا بحق السماء …؟» ثم قطعت جملتها حين رأت المسدس في يد ميرابيل.

قالت الفتاة بسرعة: «إنهم يُهاجمون المنزل». وتابعت: «لا أعرف مَن «هم»، ولكنهم طرَحوا أحد الرجال الذين يحرسوننا أرضًا. خُذي المسدس، يا ألما.»

لوت ألما وجهها، ربما تعبيرًا عن الخوف أو الغضب أو كِلَيهما. فيما بعد، علمَت ميرابيل أن الشعور السائد كان شعورَها بالرضا أن تجد نفسها في أجواء شبيهة بالحرب.

ركضت الفتاةُ إلى غرفة الاستقبال، وفتحت النافذةَ التي تُطل على الشارع. كانت البوابة مفتوحةً وحمَل رجلان، من الواضح أنهما مختبئان داخل الشاحنة، الرجل الذي فقَد وعيه، ورأتهما، بهدوءٍ عجزت أن تفهَمه في قرارةِ نفسِها، يطرحانه بالداخل ويُثبتان الباب الخلفي للشاحنة. أحصتهم أربعةَ رجال، بمن فيهم السائق الذي عاد إلى مقعده.

أشار أحد الوافدين، من الواضح أنه قائدهم، إلى الشارع الذي يؤدِّي إلى الطريق، وخمَّنَت أنه يُعطيهم الاتجاهات بخصوص المكان الذي ينبغي أن تنتظر فيه السيارة، التي بدأت تتراجعُ على الفور تقريبًا وبسلاسةٍ مذهلة، متذكرةً المظهر الرثَّ الذي بدَت عليه قبل بضع دقائق.

عاد الرجل الذي كان يُعطي الأوامر سريعًا إلى الممر المؤدي إلى الباب.

«توقف!»

نظر حوله منتفضًا نحو فوهة مسدسٍ طراز براونينج مصوَّبة تجاهه، كان من شأن المفاجأة التي بدَت عليه، أن تكون مضحكة، في أي ظرف آخر غير هذا.

قال: «لا بأس، يا آنسة ...»

قالت في برود: «اخرج من تلك البوابة.»

«أريد مقابلتك ... لأمرٍ غاية في الأهمية.»

بانج!

أطلقت ميرابيل رصاصة، استهدفت فوق رأسه مباشرة، نحو شجرة الحور العتيقة. انحنى الرجل وركض. وما أن ابتعدَ عن البوابة حتى سقط على السياج، حيث وقف رجاله، وسمعَت صوت همهمةِ أصواتهم بوضوح؛ إذ كانت الأجواء هادئةً، وبدا صوتُ محرك الشاحنة على مقربة. وفي التو، رأت رأسًا يختلسُ النظر عبر السياج.

سألها القائدُ بصوتٍ عالٍ: «هل يمكنني التحدثُ معك لمدة خمس دقائق؟»

كان رجلًا ضخم الجثَّة، أسمرَ البشرة، لصقت على وجهه ضمادة طبية، ولاحظت دون وعيٍ منها أنه يلبس حَلقًا ذهبيًّا.

قال، وهو يفتح البوابة أثناء حديثه: «نحن لن نُسبِّب لك أيَّ مشكلة». وتابع: «لم يكن هناك داعٍ لأن تُطلقي النار، بأي حال من الأحوال. لن يؤذيَكِ أحد.»

اقترب مسافةَ ياردة إلى داخل الحديقة أثناء حديثه.

بانج، بانج!

وعلى عجلةٍ من أمرها، أطالت الضغطَ على العَقِب والزِّناد فقط لجزء من الثانية، وانتفضَت حين أدركتْ أن طلقةً أخرى خرجت، واهتزَّت يدُها، وأخفقت الطلقة الثانية في إصابة رأسه بجزءٍ من البوصة. اختفى في لمح البصر، وبعد مرور ثانيةٍ رأت قبعاتهم تتحرَّك بسرعة فوق الصندوق. كانوا يركضون ناحية السيارة المنتظرة.

«ابقي هنا، يا ألما!»

أومأت ألما برأسها في تجهُّم، وركضت الفتاة لتصعد إلى غرفتها بالطابق العلوي. ومن هذا الارتفاع، حَظِيَت برؤيةٍ أفضل. رأتهم يصعدون إلى الشاحنة، وفي الثانية التالية، أُلقي بالجسد المتراخي للحارس على السياج؛ وبعد برهة قصيرة، بدأت الشاحنة تتحرك، وبسرعة تدريجية، اختفت وسطَ سحابةٍ من الغبار على طريق هايكومب رود.

نزلت ميرابيل دَرج السلَّم ركضًا، وفتحت المزلاج وخرجت مسرعة على طول الطريق نحو جثة المحقِّق الهامدة. كان يرقد إلى جانب الخندق، ورأسه عبارة عن كتلةِ دماء، ولاحظت أنه لا يزال يتنفَّس. حاولت أن ترفعه، ولكنها كانت مهمةً بالغة المشقَّة بالنسبة إليها. فعادت ركضًا إلى المنزل. كان الهاتف في الرَّدهة؛ كان الجهاز قديم الطراز ذا ذراع لا بد من إدارتها، ولم تكن قد أدارَتْها مرتين قبل أن تُدرك أن السلك مقطوع.

كانت ألما لا تزال في غرفة الاستقبال، تُمسك المسدس بإحكام، وعلى وجهها نظرةُ إصرارٍ قاسية.

قالت: «يجب أن تُساعديني في إدخال ديجبي إلى المنزل.» «أين هو؟»

أشارت ميرابيل، فعادت السيدتان إلى الرجل، ثم جرَّتاه طوال الطريق إلى الرَّدهة. وبعد أن وضعتاه على الأرضية المرصوفة بالطوب، ذهبت الفتاةُ لتبحث عن قطعة قماش نظيفة. وجدت كلَّ ما تحتاج إليه في المطبخ، حيث تُجفِّف ألما الغسيل الخاص جدًّا. بينما وقفت ألما تُشاهد بثباتٍ ثوبَها يتمزَّق، غسلت الفتاة الجرحَ ووضعت المرضة المرتعدة (التي اختفت مع أول طلقة) ضمادةً خشنة. كان الجرح بحالة سيئة، ولم يظهر على الرجل أيُّ علامات تدل على استعادة الوعي.

قالت ميرابيل: «يجب أن نُرسل ماري إلى جلوستر طلبًا لعربة إسعاف». وتابعت: «لا يمكننا إرسال المرضة؛ إنها لا تعرف الطريق.»

قالت ألما بهدوء: «ماري تُعاني حاليًّا نوبةً هيسترية في غرفة حفظ المؤن. سآخذ عربةً بحصان وأذهب بنفسي. ولكن أين الرجل الآخر؟»

هزَّت ميرابيل رأسها.

وقالت: «لا أودُّ أن أفكِّر فيما حدث له». وتابعت: «الآن، يا ألما، أتظنِّين أن بإمكاننا أن نأخذه إلى غرفة المعيشة؟»

تعاونتا معًا على حمْل الجسد الثقيل وترنَّحتا به إلى الغرفة الصغيرة الجميلة، وترَكتاه في النهاية على الأريكة أسفل النافذة.

قالت ميرابيل: «ليرتَحْ هنا حتى نأتي بسيارة الإسعاف»، ثم جاءت ضحكةٌ من ورائها جعلتها تلتفت بشهقة.

كان هذا البائع المتجول، وفي يده المسدس الذي ترَكَته.

أومأ إلى الفتاة قائلًا: «لا أريد سِواكِ. أما السيدتان الأخريان فيُمكنهما الخروج من هنا.» وهزَّ رأسه نحو الرَّدهة. تحت درجات السلَّم كانت هناك خِزانة كبيرة وفتح الباب على نحوٍ ترحيبي. قائلًا: «ادخلا هنا. وإذا أصدرتما أيَّ ضوضاء، ستندمان على ذلك.»

نظرت ألما بلهفةٍ إلى المسدس الذي ترَكَته في الزاوية، ولكن قبل أن تتمكَّن من فعل أي حركة وضع نفسَه بينها وبين السلاح.

قال البائع: «إلى الداخل». ولم تُفاجَأ ميرابيل كثيرًا حين أطاعته العمة ألما بخنوع.

أغلق الباب على السيدتين وثبَّت المزلاج.

«الآن، أيتها الآنسة، ارتدِي قبَّعتَك وتحرَّكي بنشاط!»

تبِعها إلى غرفتها بالطابق العلوي وراقبها وهي تبحثُ عن قبعة وعباءة. كانت تعرف أن هذا التصرف ما هو إلا تضييعُ وقتٍ حتى تتأقلمَ معه. أما هو، من جانبه، فكان فرِحًا جدًّا بنجاحه في المهمة، لدرجةٍ أنه تحوَّل إلى شخصٍ ثرثار تقريبًا.

«أظن أنكِ رأيتِ الرجالَ يبتعدون، ولكنكِ نسيتِ أنني كنت في مكانٍ ما بالجوار. هل أنتِ مَن أطلق الرصاص؟»

لم تُجب.

قال: «لا يمكن أن يكون ليو، وإلا كنتِ في عِداد الموتى.» كان يختبر فوهة المسدس. واستطرد قائلًا: «حسنًا، أنتِ مَن أطلقَ الرصاص.» وضحك. ثم قال: «ألستِ أنت الشجاعة! أختاه، يجب أن ...»

تجمَّد في مكانه، مُحدِّقًا عبر النافذة. أعجزته الدهشة عن الحركة حين رأى العمةَ ألما برأسها المكشوفِ تركض على طول طريق جلوستر. فالتفتَ إلى الفتاة وهو يصبُّ لعناته.

«كيف خرجت؟ هل يوجد أحدٌ هنا؟ اعترفي الآن.»

قالت ميرابيل في برود: «الخزانة الموجودة أسفل درجات السُّلم تقود إلى قبو النبيذ، وهناك طريقان إلى خارج قبو النبيذ، أظن أن العمة ألما شقَّت طريقها عبر أحدهما.»

اتخذ خطوةً نحوها، وهو يصبُّ لعناته، وأمسكها من ذراعها ودفعها نحو الباب.

«بسرعة!» قالها، وهو يسحبها وينزل السُّلم عبر الرَّدهة، ثم إلى المطبخ.

سحب المزلاج، ولكن قُفل باب المطبخ كان مغلَقًا.

«من هذا الاتجاه.» أقسمَ بدمٍ بارد، بينما ذراعها لا تزال في قبضته القوية، وأسرع عبر الرَّدهة وفتح الباب.

كانت لحظةً مشئومة. حيث وجد رجلًا يسير على مسار المدخل، وعلى وجهه شبه ابتسامة كما لو أنه تذكَّر نكتة. وعندما رآه البائع المتجول ترك ذراعَ الفتاة واتجهت يده بسرعة البرق نحو جيبه.

قال ليون جونزاليس في رفق: «متى ستموت؟» وتابع: «خذ قرارًا، وليكن بسرعة!»

بدا المسدس الذي في يده كأنه يهتزُّ بحماس استعدادًا للقتل.

الفصل الخامس عشر

«حادثتان»

رفع البائع المتجول يدَيه المرتعشتين، وقد تقلَّص وجهه.

توجَّه ليون إليه، وأخذ المسدس طراز براونينج من قبضته الرطبة وأدخله في جيبه.

قال بلطفٍ: «أصدقاؤك ينتظرون، أليس كذلك؟»

لم يُجب البائع.

«كوتشيني أيضًا أليس كذلك؟ ظننت أنني أعجزتُه عن الحركة لوقت طويل.»

قال البائع متذمرًا: «لقد رحلوا.»

تلفَّت جونزاليس حوله في ارتباك.

قال: «لا أريد أن أدخلك إلى المنزل. وفي الوقت نفسه، لا أريد أن أتركك هنا.» وأضاف في أسف قائلًا: «أتمنى لو أنك قد سحبت مسدسك. كان هذا من شأنه أن يحل الكثير من المشكلات العاجلة.»

حُلَّت هذه المشكلة في حدٍّ ذاتها بعودة ألما الشعثاء واستعادتها مسدسها.

قال ليون في حماس: «أفضِّل أن تُطلِقي أنت الرصاصَ عليه لا أن أطلقه أنا». ثم أضاف: «إن الشرطة متشكِّكة جدًّا حيال حالات إطلاق الرصاص التي أفعلها أنا، ولم يُصدقوا مطلقًا أنها حدثَت دفاعًا عن النفس.»

أوثقَ الرجلَ بحبل، وثبَّتَه على نحوٍ غير مريح، حيث أوثقَ المعصمَين بالكاحلَين. وما إن فعل ذلك، حتى استجوب الرجل ثم ذهب بسرعة إلى الحظيرة؛ ثم عاد بعد بِضع دقائق بالحارس التعس.

قال ليون، مقاطعًا اعتذاراتِ الرجل: «ما باليد حيلة». وتابع: «السؤال هو، أين باقي الإخوة؟»

انطلق شيءٌ أمامه، كان له صوتُ أزيزٍ حادٍّ كصوت دبور غاضب، وبعد ثانية، سمع صوت «بلوب!» مكتومًا. وفي الحال، كان مستلقيًا على الأرض، ومسدسه طراز براونينج يُغطي السياج الذي يُخفي طريق هيفيتري لان.

صاح على الفور قائلًا: «أسرِع إلى المنزل». وتابع: «لن يهتمُّوا لأمرك.» فركض الحارس، طواعية، كي يحتميَ بالمنزل.

وفي الحال، حدَّد ليون موقعَ العدو، وعلى بُعد مسافةٍ قصيرة رأى الجزء العلويَّ المسطَّح من العربة المغطاة. سار أحد الرجال عبر الفجوة الموجودة في السياج، وأصبح في موضعٍ مُغرٍ لإطلاق الرصاص عليه، ولكن جونزاليس لم يُطلق عليه الرصاص، وفي الحال تكررت المناورة. من الواضح أنهم كانوا يُحاولون تركيز انتباهه على الفجوة أثناء تحركهم إلى مكان آخر. تفحصت عيناه حدودَ المرج العشبي … وظن أن ثمة جدولًا أو خندقًا يمتد بالتوازي من شأنه أن يصبح ستارًا ممتازًا.

مرة أخرى، مرَّ الرجل على مهلٍ عبر الفجوة. ثبَّت ليون مرفقه، وألقى نظرة خاطفة على المشهد. وبينما كان يفعل ذلك، ظهر الرجل مرة أخرى.

كراك!

حيث أطلق جونزاليس الرصاصَ على بُعد قدمٍ وراءه. رأى الرجل الوميض وقفز للخلف، كما توقَّع. وفي الثانية التالية، كان يتلوَّى على الأرض بسبب اختراق رصاصةٍ ساقَه.

برزَت أسنان ليون حين ابتسم والتفَّ بجسده ليُواجه نقطة الهجوم الجديدة. جاء الهجوم من المنطقة التي توقَّعها؛ ربوة لها أفضلية على موقعه.

اخترقت الرصاصةُ الأولى العشبَ الموجود على يمينه بأزيزٍ غاضب، لتطيرَ كتلةُ عشب نحو السماء، وارتدَّت لتصطدمَ بشجرة. وقبل أن يتمكن من خفض رأسه المرفوع ليحتميَ بساتر، أطلق جونزاليس الرصاص؛ وأطلق رصاصة أخرى إلى اليسار ثم إلى اليمين، وبعد ذلك نهض، وأسرع للاحتماء وراء الشجرة، ووصل إليها في الوقت المناسب ليرى ثلاثة رءوس تتمايلُ عائدةً إلى الطريق. فانتظر، ليُغطي الفجوة، بيد أن الرجال الذين سحَبوا الرجل الجريح بعيدًا عن مجال الرؤية اختفَوا، وبعد مرور دقيقة رأى العربة تتحرَّك بسرعة على طول الطريق الجانبي، فأدرك أن الخطر قد زال.

لفَت إطلاقُ النار الانتباه. ولم يَعُد إلى المنزل إلا قبل بضع دقائق من مجيء شرطيٍّ يمتطي حِصانه، كان في حالةٍ من الاهتياج، وهو يركض متجهًا إلى البوابة ونزل من على

حصانه. لقد سمع أصحابُ مزرعةٍ مجاورة طلقاتِ الرصاص واتصلوا بمقرِّ الشرطة. ولمدة نصف الساعة، أخذ الشرطي ذو الحصان يُدوِّن ملاحظاته، وفي هذه الأثناء اجتمع نصفُ المزارعين في الحي، يتأبَّطون أسلحتهم، في رَدهة منزل ميرابيل.

لم تحظَ بقضاء وقتٍ كافٍ مع ليون المهيب بقدرِ ما كانت تتمنى، وحين حَظِيا ببضع دقائق بمفردهما انتهزَت الفرصة لتُخبره عن زيارة لي لها هذا الصباح. من الواضح أنه كان يعرف كلَّ شيء عنها؛ إذ لم تظهر عليه أيُّ مفاجأة، وإنما شعر بالإحراج عندما أبدت اهتمامًا شخصيًّا به وبصديقَيه.

لم تكن تجرِبةً مألوفة بالنسبة إليه، بل كان يتضايق من نفسه بسبب هذه النزعة الحماسية غير المتوقَّعة لتقديس الأبطال، ورغم أنها مقبولة، إلا أنه أدرك أنها نابعةٌ من شعورها القوي بالعدالة.

علَّق قائلًا: «لست واثقًا من أننا مثيرون للإعجاب حقًّا». وتابع: «ولكن تكمن الصعوبةُ في إصدار حكمٍ لحظي في حين لا ينبغي إصداره إلا بعد مرور سنوات. لقد ضحَّينا بكل شيء من شأنه أن يجعل الحياة جديرةً بالعيش بالنسبة إلى معظم الرجال، رغبةً منَّا في رؤية ميزان العدالة في وضعه الصحيح.»

«أنت لست متزوجًا، يا سيد جونزاليس، أليس كذلك؟»

حدَّق في العينَين الصادقتين. ثم قال: «متزوِّج! يا إلهي، كلا»، فضحكت.

«تتحدَّث وكأن هذا احتمال لم يخطر ببالك قط.»

قال معترفًا: «لم يخطر ببالي فعلًا». ثم أضاف: «بحكم طبيعة عملنا فإننا محرومون من تلك التجرِبة. ولكن هل من المهين قولُ إنني لم أشعر قط بأن عزوبيتي في حدِّ ذاتها حرمان؟»

قالت بصرامة: «إنها وقاحةٌ بالغة»، وظل ليون يضحك في سرِّه طوال طريق عودته إلى المدينة على النكتة الرائعة التي تحسنَت مع التَّكرار.

عند عودته إلى كورزون ستريت، أعلن: «أظن أنَّ بإمكاننا أن نتركَها في أمانٍ لمدة أسبوع». وتابع: «كلا، لم يحدث شيء. كنت محتجزًا في كمينٍ للشرطة بالقرب من نيوبري لتجاوز حدِّ السرعة. يقولون إنني كنت أقود على سرعة خمسين، ولكن في رأيي لقد كنت أقربَ إلى ثمانين. سيُخرجني ميدوز من تلك المشكلة. وإلا، فيجب أن أرسل الخطاب المحتوم إلى المأمور وأدفع الغرامة الحتمية. هل فعلت أيَّ شيء بخصوص جونسون لي؟»

أومأ مانفريد برأسه. وقال: «ذهب ميدوز والسيد واشنطن المتحمس لمقابلته. لقد طلبت من واشنطن أن يذهب لأن …» تردَّد قبل أن يُواصل، ثم قال: «الأفعى خطرٌ حقيقي،

بقدرِ ما يعرف. ويَعِدُ إيليا واشنطن أن يكون عونًا حقيقيًّا. إنه لا يخشى شيئًا، ولقد تعهَّد أن يبقى مع لي وأن يوفِّر تلك العلاجات الخاصة بلدغة الأفاعي حسب معرفته.»

كان يلبس قفازيه أثناء الحديث، بينما ينظر ليون جونزاليس إليه بإعجاب ناقد.

«هل ستذهب إلى بلاط أحد النبلاء، أم ستحتسي الشاي مع إحدى الدوقات؟»

«لا هذا ولا ذاك. سأذهب لزيارة صديقنا أوبيرزون.»

قال ليون، وقد رفع حاجبَيه: «إنها مهمة محفوفة بالمخاطر!»

ردَّ مانفريد قائلًا: «لقد اتخذت الاحتياطات وأرسلت إليه رسالة موجزة، أطلب منه أن يحبسَ أفاعيَه، وقد أرسلت نسخة كربونية لأؤكد حقيقةَ أن هناك نسخةً أخرى موجودة وربما تخرج كدليلٍ ضده، أظن أنني سوف أغادر المكتب الرئيسي لشركة أوبيرزون آند سميثس دون أن يلحق بي أذًى. إن لم تكن مرهقًا جدًّا، يا ليون، فأنا أُفضِّل السيارة البويك على السيارة السبانز.»

قال ليون: «أعطني ربع الساعة»، وصعد إلى غرفته ليُهندم نفسه.

وبعد خمس عشرة دقيقةً بالضبط كانت السيارة البويك تقف عند الباب، وركب مانفريد بالخلف. لم يكن هناك فاصلٌ بين السائق والراكب، وكانت المحادثة ممكنة.

اقترح قائلًا: «كان من المستحسَن لو أن نيوتن موجود هناك.»

رد مانفريد قائلًا: «سيكون نيوتن في المكان المحدَّد؛ لقد اتخذت الاحتياطات وأرسلت إليه الرسالة نفسَها». وتابع: «لا أعتقد أنهما سيُخرِجان رجالهم المسلحين.»

قال جونزاليس وهو يبتسم إلى شرطي المرور الذي أشار إليه وهو يتَّجه نحو أوكسفورد ستريت: «أعرف اثنين منهم، وربما ثلاثة، لن يُخرجوهم. مسدسي طراز براوننج يُصوَّب لأعلى، يا مانفريد، لطالما كان يُساورني شك بخصوص ذلك. المسدسات أشياء غريبة، ولكن ربما يبلى هذا في يدي.» ظل يتحدث عن الأسلحة والذخيرة حتى ظهر في الأفق مبنى شركة أوبيرزون آند سميثس. «صيد موفَّق!» قالها، وهو ينزل من السيارة، ويفتح البابَ الخلفيَّ ويلمس قبعته تحيةً لمانفريد وهو ينزل من السيارة.

وعاد إلى مقعده، ودار بالسيارة الصغيرة في دائرة، وانتظر على الجهة المقابلة من الطريق، يُقلب عينَيه بين المدخل والمرآة التي تعكس له حركة المرور التي تأتي من الخلف.

لم ينتظر مانفريد في غرفة الانتظار أكثرَ من دقيقتين. وفي نهاية تلك المدة القصيرة، جاء شاب وَقور يلبس نظارةً طبية وربطةَ عنق صغيرةً على شكل فراشة، ليقوده عبر المكتب غير اللافت للانتباه إلى مكان الدكتور الشهير.

كان الرجل العجوز يجلس على مكتبه. ومن ورائه، وقف رَجله المبتهج، مونتي نيوتن، وعلى وجهه ابتسامة، وزهرة صفراء كبيرة في عُروة سُترته. وقف أوبيرزون وكأنه رجل يؤدي تحية عسكرية.

وقال، بينما يصافحه بقوة: «مرحبًا يا سيد مانفريد، هذا شرف كبير».

كان ثمة كرسي إضافي وُضع من أجل الزائر، وهو كرسيٌّ فَخم مغطًّى بقماش مزركَش، فأشار إليه الدكتور باليد التي لم يُصافحها مانفريد.

قال نيوتن وهو يُبعد سيجارته ويومئ برأسه في لطف: «صباح الخير، يا مانفريد». وتابع: «هل كنت في الحفل الراقص ليلة أمس؟»

قال مانفريد وهو يجلس: «كنت هناك، ولكني لم أدخل». وأضاف: «قالوا لي إنك لم تحضر حتى وقتٍ متأخر، أليس كذلك؟»

قال دكتور أوبيرزون: «كان حدثًا مؤسفًا للغاية من بين كلِّ الأحداث»، فضحك نيوتن.

قال بنبرةٍ يشوبها المرح: «لقد فقدت سكرتيرة مختبره ولم يُسامحني على هذه الفعلة». وتابع: «تلك الفتاة التي استقبلها أمس. كان مظهرها بديعًا للغاية. لم ترغب في العودة إلى البلدة التي جاءت منها؛ ولذا عرَضَت عليها أختي أن تسهرَ معها تلك الليلةَ في تشيستر سكوير. لولا أنها فقدت وعيَها في الحفل الراقص لكنتُ محظوظًا؛ إذ لم نرَها منذ ذلك الحين!»

قال أوبيرزون بنبرة حزينة: «كان أمرًا محزنًا». وتابع: «أنا أعتبرها مسئوليتي. أنا مسئول عن سلامتها. أثق بأنك، يا سيد نيوتن ...»

قال مانفريد ببساطة: «لو كنتُ في موقفك، يا دكتور، لا أظن أنه ينبغي عليَّ قضاءُ لحظة عَصيبة أخرى». لقد عادت الآنسة إلى مزرعة هيفيتري. أظن أن هذا سيُفاجئك. وهي لا تزال هناك، وهذا سيُفاجئك أكثر، ما لم تكن عرَفت عبر الهاتف أن حارسك القديم فَشِل فشلًا ذريعًا في ... إمم ... إعادتها إلى مقرِّ العمل. أفترض أن هذا كان هدفَهم، أليس كذلك؟»

هزَّ أوبيرزون رأسه في ارتباكٍ قائلًا: «ماذا تقصد بعبارة حارسي القديم، يا سيد مانفريد؟» وتابع: «هذا خارج نطاق فهمي.»

تساءل مانفريد بلطفٍ قائلًا: «هل أختكَ بخير؟» فهزَّ نيوتن كتفَيه.

«إنها مستاءةٌ بطبيعة الحال. ومَن منَّا لن يُصبح كذلك؟ جوان فتاة رقيقة القلب جدًّا.»

قال مانفريد بنبرةٍ هجومية: «هذا هو حالها منذ سنوات.» ثم أردف قائلًا: «هل لي أن أدخن؟»

«هلا تأخذ إحدى سجائري؟» حدَقَت عينا مانفريد الحادَّتان الدكتورَ بنظرةٍ ثبَّتته في مكانه رغمًا عنه.

فردَّ عليه قائلًا: «لقد حظيتُ بواحدة من سجائرك الكثيرة.» كان وقْع كلماته كالرياح الباردة. وأردف قائلًا: «لا أريد المزيد، سيدي الدكتور، وإلا ستصبح هناك أماكنُ شاغرة في دائرتك الأُسرية. مَن يدري، لعلك قبل وقتٍ طويل من إنتاج إكسيرك الناجح، قد تحظى بالخلود المعتاد؟»

تحوَّل وجه أوبيرزون الأصفر إلى الأحمر الباهت.

عقَّب بصوتٍ هامسٍ أجشَّ قائلًا: «يبدو أنك تعرف الكثير عني، يا سيد مانفريد، بقدرِ ما أعرف عن نفسي.»

أومأ مانفريد برأسه.

«بل وأكثر. ففي حينِ أنك تُسابق الزمن لتتجنَّبَ نهايةَ حياةٍ تبدو غيرَ جديرة بالحفاظ عليها بصفة خاصة، وبينما أنت لا تعرف اليوم أو الساعة التي ربما تأتي فيها النهاية، فبإمكاني أن أخبرَك بالدقيقة.» وأشار مهددًا بإصبع يده التي ترتدي القفاز.

اختفَت آثار الابتسامة من على وجه مونتي نيوتن. لم تكفَّ عيناه عن التحديق بعينَي الزائر.

قال أوبيرزون: «ربما ينبغي أن تُخبرني.» كان يواجه صعوبةً في الحديث. واستحوذَ عليه الغضب الشديد، ولن يختفيَ لهيبُ الغضب من المشهد إلا بمسدسه.

«اليوم الذي يُلحق فيه الأذى بميرابيل ليستر، في ذلك اليوم ستنتهي أنت … أنت ومَن هم معك!»

قال مونتي نيوتن في غضب: «اسمع، يا مانفريد، ثمة قانونٌ في هذه الدولة …»

«أنا القانون.» رنَّت العبارة كجرسٍ قرَعَه القدَر. وأردف قائلًا بهدوء: «في هذا الصدد، أنا القاضي، وهيئة المحلَّفين، والجلاد. لن أستثنيَ أحدًا، كبيرًا أو صغيرًا.»

قال مونتي هازئًا: «هل كُتب لك الخلود أيضًا؟»

ولبضع ثوانٍ، أشاح مانفريد بعينيه عن وجه الرجل العجوز.

وقال: «القانون مكتوبٌ له الخلود». وتابع: «وإن كنت تحلم بأنه يمكنك أن تمحوَني من طريقك قبل أن أصبح خطيرًا، بانقلابٍ مدبَّر بذكاء، تأكَّد من أنني سأمحوك قبل أن تفعل.»

سأله نيوتن: «لمْ تطلب مني المجيءَ إلى هنا لأستمع إلى هذه الأمور، أليس كذلك؟» وعلى الرغم من أن كلماته كانت جريئة، وسلوكه كان عدوانيًّا، إلا أنه انعكست على وجهه ظلالٌ لم تكن موجودة قبل أن يدخل مانفريد الغرفة — ظلال تحت عينَيه وعلى وجنتيه الممتلئتين.

«لقد جئتُ إلى هنا لآمُرَكما أن تتركا الآنسة ليستر وشأنها. أنتما تسعَيان وراء شيء لا يمكنكما الحصولُ عليه، ولا أحد في وضعٍ يسمح له بإعطائكما إياه. لا أعرف ماهيَّته ... سأُقدم لكما هديةً بتلك المعلومة. ولكنها كبيرة ... أكبر من أي جائزة تسعيان إليها في حياتَيكما الخبيثة. ولكي تحصلا على ذلك، أنتما على استعدادٍ للتضحية بأرواح الأبرياء بتهوُّر السفهاء الذين يظنون أن خزائنهم لا تنفَد. النهاية وشيكة!»

نهض ببطءٍ ووقف إلى جوار الطاولة، ونظر من أعلى نحو الطبيب الجالس بظهرٍ منتصب.

«لا يُمكنني التكهُّن بالتصرف الذي ستأخذه الشرطةُ حيال لدغةِ هذه الأفعى التي تدخلَت فيها العنايةُ الإلهية، يا أوبيرزون، ولكني سأقدم لك هذا العرض؛ سننسحب أنا وصديقاي من اللعبة ونترك ميدوز ينالُ منك بطريقته الخاصة. أتظن أن هذا يعني أنك ستنجو من العقاب؟ بيد أنه لا يعني ذلك. رجال الشرطة هؤلاء أشبهُ بكلاب البولدوج؛ مجرد أن يُمسكوا بك، لن يتركوك أبدًا.»

«ما الثَّمنُ الذي تطلبه مقابلَ هذه الخدمة المثيرة؟» سأله نيوتن وهو ينفث دخان سيجارته بثبات، ويداه معقودتان وراء ظهره، وقدماه متباعدتان، وكأنه صورةٌ تعكس مفهوم الراحة والرفاهية.

«اتركا الآنسة ليستر وشأنها. وابحَثا عن طريقةٍ جديدة لتحصلا على المال الذي أنتما في أمسِّ الحاجة إليه.»

ضحك نيوتن.

«يا عزيزي، هذه مقولةٌ حمقاء. لا أنا ولا أوبيرزون نُعاني الفقرَ بالضبط.»

قال مانفريد بهدوء: «كلاكما مفلِس». وتابع: «أنتما في موضع المقامر الذي انقلبَت أوراق اللعب ضده منذ مدة طويلة. ليس لديكما احتياطيٌّ، ومصروفاتكما هائلة. ابحث عن طريقةٍ أخرى، يا نيوتن ... وأخبر أختك» ثم سكت عن الحديث وهو يقف بجوار الباب، ينظر إلى البطانة البيضاء لقبعته الحريرية، ثم استطردَ قائلًا: «أودُّ أن أقابلها في كورزون ستريت غدًا في العاشرة صباحًا.»

تساءل نيوتن بنبرةٍ ساخرة قائلًا: «هل هذا أمر؟»

أومأ مانفريد برأسه.

فصاح الرجل بحماس: «إذن، دعني أقُل لك إنني لا أتلقَّى أوامرَ لنفسي أو بالنيابة عنها. لقد صرت متعجرفًا منذ أن حصلت على العفو، أليس كذلك؟ احذرني يا مانفريد. أنا على أي حال لست عديمَ الضرر.»

شعر بضغطةِ قدمِ الطبيب على قدمه، فكبتَ غضبه.

ودمدمَ قائلًا: «حسنًا، ولكن لا تتوقَّع أن تُقابل جوان.»

وضحك ضحكة فظَّة، فرفع مانفريد عينيه ببطءٍ لتلتقيَ بعينيه.

وقال له بكلِّ بساطة: «ستُعدمك الدولة أو تُقتل على يد أوبيرزون ... لستُ موقنًا أيُّهما سيحدث»، كان يتحدَّث بثقةٍ مثالية لدرجةِ أن قلب مونتي نيوتن ارتعد.

وقف مانفريد على الرصيف وأشار بيده، فجاءت السيارة الصغيرة بسرعة وبدون جلبة. كانت عينا ليون مثبتتَين على المدخل. حيث وقف رجلٌ طويل في عتمة الرَّدهة يُراقب المشهد. وهو يستند إلى الجدار في تراخٍ، فارتجف ليون لثانية.

«اركب بسرعة!»

قال ليون عبارته بصرخة تقريبًا، فقفز مانفريد إلى السيارة، فانطلق السائق بالسيارة، بدفعةٍ اعتصرت كلَّ ترس في السيارة.

شرع مانفريد يقول: «ماذا بحق ...؟» ولكن اقتُطِعت باقي الجملة وسط الاصطدام المروع الذي تبع ذلك.

تمزَّق الغطاء الجلدي للسيارة من الخلف، واصطدمت شظيةٌ من الزجاج بقبعة ليون وشطرتها إلى نصف دائرة بالتمام. فضغط على الفرامل بسرعة، وفتح باب السيارة وقفز إلى الخارج. كانت هناك كتلة حطام خلف السيارة؛ قطعة حديدية كبيرة منقسمة إلى ثلاث قطع وسط حاوية كبيرة مكسورة. نظر ليون إلى أعلى؛ وفوق مدخل شركة أوبيرزون آند سميتس مباشرة كان هناك ونش، تترنَّح رافعتُه بحمولة ثقيلة قبل خروج مانفريد مباشرة. كان السلك الفولاذي يتدلَّى من الرافعة على نحوٍ غير محكَم. سمع أصواتًا منفعلة تتحدَّث آتيةً من المدخل المفتوح على ارتفاع ثلاثة طوابق، كان هناك رجلان بنظَّارات ضخمة ينظرون إلى أسفل ويُثرثرون بلغةٍ لم يفهمها.

«حادث فظيع للغاية. لو لم نتحرك، لربما خُصِّص لنا نصف عمود من جرائد المساء.»

«والرجل الموجود في الرَّدهة ... ما الذي كان يفعله؟»

سار ليون عبر المدخل، إلا أنه رأى أن الرجلَ قد اختفى، ولكن بالقرب من المكان الذي كان يقفُ فيه كان هناك زرٌّ جرس صغير، كان من الواضح أنه ثُبِّت مؤخرًا؛ إذ إن السلوك كانت غيرَ مثبتةٍ على سطح الجدار وكانت جديدة.

عاد في الوقت المناسب ليرى رجلَ شرطة يعبر الطريق.

قال: «أودُّ أن أعرف كيف وقع هذا الحادث، أيها الشرطي. كاد سيدي أن يُقتل.»

فحص الشرطيُّ كومةً ضخمة من الحطام نصفها مُلقًى على الرصيف والنصف الآخر على الطريق، ثم نظر إلى الحبل المتراخي.

«أظن أن السلك قد أفلتَ من الأسطوانة.»

قال ليون بجدية: «وأنا أظن ذلك أيضًا.»

لم ينتظر ليون الشرطي حتى ينتهيَ من تحقيقاته، وإنما ذهب إلى المنزل بخطًى ثابتة، ولم يُشِر إلى «الحادث» حتى وضع سيارته بعيدًا وعاد إلى كورزون ستريت.

عقَّب قائلًا: «لقد وضع ذلك الرجل في الرَّدهة ليُرسل إشارةً حين تمر أسفل الحمولة ... هناك أمور ينبغي ألا تحدث.» وتابع: «سأخرج لإجراء بِضعة تحرِّيات.»

كان جونزاليس يعرف واحدًا في طاقم العاملين لدى أوبيرزون؛ شابًّا سويديًّا نقيَّ السريرة، لديه معرفةٌ باللغة الإنجليزية وهو أمرٌ طبيعي في الدول الاسكندنافية، وفي الساعة التاسعة من تلك الليلة انطلق إلى مطعمٍ سويدي في دين ستريت، ووجد الشابَّ ينتهي من وجبته. كان أحدَ المعارف — واحدًا من الكثيرين — الذين تعرَّف عليهم ليون باجتهاد. ابتهج الشاب الذي كان يعرفه باسم السيد هاينز — إذ إن ليون يتحدَّث الألمانيةَ بطلاقةٍ ملحوظة — لوجود رفيقٍ بإمكانه أن يُناقش معه الحادثَ الذي لا يمكن تفسيره، والذي وقع بعد الظهيرة.

قال: «لم يكن السلك مثبتًا في الأسطوانة». وتابع: «كان من الممكن أن يحدث شيء فظيع؛ حيث كان هناك رجلٌ نبيل في سيارةٍ تنتظر بالخارج، وكان قد تحرَّك للتو بِضعَ بوصات حين سقطت الحاوية. الحظ السيئ يُخيم على هذا المبنى. يُسعدني أنني سأرحل في نهاية الأسبوع.»

كان لدى ليون بعضُ الأسئلة المهمة، ولكنه لم يستعجل في طرحها؛ إذ إنه كان يتحلَّى بموهبة الصبر بدرجةٍ ملحوظة. كانت الساعة تقترب من العاشرة أثناء مغادرتهما، وعاد جونزاليس إلى مرأبه، حيث قضى نحو ربع الساعة.

وعند منتصف الليل، كان مانفريد قد انتهى توًّا من محادَثة طويلة مع رجلِ شرطة سكوتلاند يارد الذي كان لا يزال في مدينة برايتلينجسي، حين دخل ليون، وبدا مختالًا بنفسه. كان بويكارت قد أوى إلى الفراش، ومانفريد قد فصَل الكهرباء عن دائرةٍ واحدة من الأضواء حين وصل صديقه.

قال جونزاليس في نشاط: «شكرًا لك، عزيزي جورج». وتابع: «كانت هذه لفتةً طيبة جدًّا منك، فأنا لا أحب أن أزعجك، ولكن ...»

ردَّ مانفريد بابتسامةٍ قائلًا: «إنه أمرٌ يسير، ولم يستلزم سوى تغيير حذائي. ولكن لماذا؟ أنا لستُ فضوليًّا، ولكن لماذا أردت مني أن أتصلَ بحارس الفترة المسائية بشركة أوبيرزون لينتظرَ عند الباب في الساعة الحادية عشرة ليستقبل رسالةً من الدكتور؟»

قال ليون بنبرةٍ مبتهجة وهو يفرك يدَيه: «لأن حارس الفترة المسائية هو رجل أمين؛ ولديه زوجة وستةُ أبناء، ولا أتمنى أن أؤذيَ أحدًا على وجه الخصوص. المبنى لا أهمية له؛ فهو قائم، أو كان كذلك، في معزلٍ عن جميع المباني الأخرى. ما كان يَشغل ذهني هو حارس الفترة المسائية. كان يقف عند الباب ... لقد رأيته.»

لم يطرح مانفريد أيَّ أسئلةٍ أخرى. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، أمسك بالجريدة وفتَحها عند الصفحة الوسطى، وقرأ الخبر بعنوان «حريق هائل في طريق سيتي رود» ابتلع تمامًا مبنى شركةِ السادة أوبيرزون وسميتس؛ والأدهى من ذلك أنه كان يتوقَّع أن يقرأه قبل أن يفتحَ الجريدة.

قال ليون الفيلسوف في ذلك الصباحِ على وجبة الإفطار: «الحوادث تقع». وتابع: «لقد استشفَفْتُ الكثيرَ من واقع حديثي مع الموظف ليلة أمس؛ لقد أوقف أوبيرزون بوليصة التأمين ضد الحرائق!»

الفصل السادس عشر

راث هول

في إحدى الغرف المحظورة الممتلئة بالأجهزة التي جمعَها دكتور أوبيرزون بغرض متعته ومنفعته، كان هناك فرنٌ كهربائي صغير يُجري من خلاله العديدَ من تجارِبه المثيرة. وكان هناك بعضُ مكونات الأدوية المعروفة، التي يرغب في التخلُّص منها. كان الدكتور أوبيرزون شديدَ الإيمان بالكثير من الأمور التي قد يرفضها أيُّ كيميائي معاصر لكونها أمورًا خيالية.

فكان يؤمن بحجَر الفلاسفة، وبتحويل المعادن الرخيصة إلى أخرى نفيسة؛ صحيحٌ أنه صنع ماسات، عديمة القيمة من الناحية التِّجارية؛ ولكن كان أمَلُه الأسمى هو العثورَ على أحد العقاقير التي تصلح لتكون إكسيرًا ناجعًا يُطيل الحياة لتتجاوز المتوسط الطبيعي لعمر الإنسان. وتُشبه إمكانيةُ العثور عليه إمكانيةَ العثور على عنصر الراديوم في تركيبة المعدن الأسود البيتشبليند. وهو ما لا يمكن اكتشافُه إلا على يدِ أحد علماء الماورائيات، ولا يستطيع تحقيقه سوى كيميائيٍّ يتحلى بالصبر. فقد حرَص على تكريس جُلِّ أوقات فراغه للعمل على المهمة التي أصبحت مصدرَ شغفٍ له؛ وكان منشغلًا في إحدى تَجاربه حينما دقَّ جرس الهاتف وأعاده إلى غرفة مكتبه. وأنصت للمتحدث، وظهر على وجهه ملامحُ التأثر الشديد، على وقع الكارثة التي أخبرَه بها مونتي نيوتن. «هل لا يزال الحريقُ مستمرًّا؟ ألا يوجد في لندن سياراتٌ لإطفاء الحرائق؟»

سأل مونتي للمرة الثانية: «هل هناك تأمينٌ على المبنى أم لا؟»

صمتَ الدكتور أوبيرزون متأملًا. وقال: «ليس هناك تأمين». وتابع: «ولكن ليس هذا بالأمر المهمِّ الآن مقارنةً بالأمر الجلَل الذي ينتظرنا، ولن أنشغلَ بالتفكير فيه.»

قال نيوتن بغضب: «كان الحريقُ متعمدًا». وأضاف: «رجال الإطفاء يؤكِّدون ذلك. هؤلاء الأوباش الملاعين ينتقمون منَّا بسببِ ما حدث عصْرَ ذلك اليوم.»

أجاب الدكتور أوبيرزون ببرود: «أنا لا أعلم شيئًا عمَّا حدث عصرَ هذا اليوم. وأنت أيضًا لا تعلم شيئًا. كانت حادثةً استهجنَّاها جميعًا. أما بالنسبة إلى هذا الرجل فسنرى.»

أغلق سماعة الهاتف بحذرٍ شديد، وعبَر الممر، وهبط السلالمَ المظلمةَ الشديدةَ الانحدار، ثم توجَّه إلى مطبخ الطابَق السفلي. وقبل أن يفتح الباب سمع أصواتًا غاضبة، ووقف لحظةً ليستبينَ المشهد، وهو يشعر بالرضا التام. كانت الغرفة فارغة تمامًا إلا من رجلَين. كان الخدم يستخدمون المطبخَ الفعلي الموجودَ في الجزء الأمامي من المنزل، أما هذا المكان فلم يزِد عن كونه غرفةً لغسيل الأطباق. كان جيرتر يقف عند أحد طرَفَي طاولة اللعب، بوجهٍ شاحب كالموتى، وعينَين مستديرتين تُشِعَّان غضبًا. وعلى الطرَف الآخر، وقف البولندي الروسي، البدينُ القصير القامة، بوجهٍ شديد الشحوب، وعينَين منتفختين؛ وبدَت على ملامحه وشاربه الصغير ولحيته ملامحُ الغضب. وقد تناثرت أوراق اللعب فوق الأرض والطاولة، ففهم السيد الدكتور أن هذا هو الشجار المتكرر المعتادُ بينهما.

قال جيرتر بلهجة غاضبة: «أيها الكلب اللعين!» وتابع: «رأيتك وأنت تُخفي المَلك بكفِّك في أثناء اللعب. أيها اللص السارق للأعمى ...»

«أيها الكلب الألماني! إنك ...»

تحدَّث كلاهما بالألمانية. ثم لمح الدكتور يد جيرتر وهي تتخفَّى وتلتقط شيئًا.

فناداه قائلًا: «جيرتر، اذهب إلى غرفتي ... بالخطوة السريعة!» واستدار الآخر لينظر نحوه.

ودون أن يتفوَّه بكلمة، تحرَّكَ الرجل أمامه، وبقي الدكتور مع الروسيِّ الذي يلهث غاضبًا.

وخاطب الدكتور بصوتٍ يرتعد غضبًا: «سيدي الدكتور، لا يمكنني تحمُّلُ جيرتر هذا!» وتابع: «أُفضِّل العيش برفقة خنزير على العيش مع هذا الرجل؛ فهو لا يُصبح في حالته الطبيعية إلا وهو تحت تأثير المخدرات.»

صاح أوبيرزون قائلًا: «كفى!» وأشار إلى الكرسي. وأضاف: «فلتنتظرني حتى أعود.»

وعندما عاد إلى غرفته، وجد جيرتر يقف في انتباه.

تحدَّث إلى جيرتر بلطف وهو يربِّت على كتفه، قائلًا: «الآن، يا جيرتر، لا بد أن تنتهيَ من أمر المدعو جونزاليس. هل يسعني أن أترك رجلي المفضَّل جيرتر مختبئًا هكذا مثلما تختبئ الديدان تحت الأرض؟ كلا، لن أسمح بحدوث ذلك. سأُرسلك الليلةَ إلى هذا الرجل، وأنا أعلم مدى مهارتك فلا يُمكنك أن تفشل في هذه المهمة. لقد ضربَك بالسوط، يا جيرتر ...

قيَّدك وضربك بقسوة ... لا تنسَ ذلك أيها الشجاع ... لقد ضربَك حتى أدماك. والآن ستُقابل الرجل مرةً أخرى. سترتدي ثيابًا ملائمة». وتابع: «كالتي يرتديها موظَّفو المدينة. وستُراقبه بطريقتك البارعة، وستقتله، لقد منحتُك الإذن بفعل ذلك.»

«أجل، سيدي الدكتور.»

واستدار بخطوةٍ عسكرية وغادر الغرفة. انتظر الدكتور حتى سمعه يصعد السلَّم ثم استدعى فايفر. أتى الرجل متجهِّمًا. صحيحٌ أنه يفتقر إلى الانضباط العسكري الذي يتمتع به جيرتر؛ ولكن كان أوبيرزون يعلم أنه أكثر الرجلين دهاءً ويقظة.

قال: «فايفر، لقد علمت أنك مُعرَّض لخطرٍ ما. الشرطة ترغب في إعادتك إلى وارسو، حيث وقعَت بعض الأمور الشنيعة، كما تعلم جيدًا.» وخفَّض صوته، وتابع قائلًا: «ولقد أخبَروني أن أحد الأصدقاء سيَسعَد لرؤيتك تذهبُ إلى هناك، ألا تُوافقني؟»

لم يرفع الرجل عينَيه العابستَين عن الأرض، ولم يَرُد، ولو بإيماءةٍ أو إشارةٍ توحي بأنه سمِع ما قاله الرجل العجوز.

«سيرحل جيرتر غدًا؛ إما لإنجاز مهمتنا، وإما للتحدث سرًّا إلى أصدقائه في الشرطة ... مَن يدري؟ لديه مهمةٌ ليُنجزها؛ دعه يُنجزها، يا فايفر. سيكون جميع رجالي موجودين في مكانٍ يُدعى برايتلينجسي. أنت أيضًا ستذهب. ألن يسرقَ جيرتر رجلًا أعمى؟ حسنًا! ستفعل أنت أيضًا. أما بالنسبة إلى جيرتر، فأنا لا أتمنى عودته. لقد سئمته؛ إنه مجنون. جميع الرجال الذين يستنشقون ذلك المسحوقَ الأبيض ليسوا إلا مجانينَ ... أليس كذلك، يا فايفر؟»

ظلَّ الرجل المرتبك على صمته.

«اتركه ليُنهيَ عمله، ولا تتدخَّل، إلى أن ... يُنجز مهمته.»

نظر إليه فايفر الآن، وبدَت ملامح السخرية على وجهه.

وقال: «إن عاد هو، فلن أعود أنا». وتابع: «هذا الرجل يُخيفني. أتت الشرطةُ إلى هنا مرتين، لا بل ثلاث مرات ... تذكَّر تلك المرأة. إنه رجل خطير، يا سيدي الدكتور. لقد أخبرتك بذلك منذ اليوم الذي أحضرته فيه إلى هنا.»

قال الدكتور بلُطف: «بإمكانه أن يتنكَّر ويتظاهر بكونه رجلًا نبيلًا من رواد نوادي النبلاء.»

تأفَّف الآخر بازدراء قائلًا: «أف!» وأضاف: «أليس ممثلًا يُجيد التلونَ والتصنُّع وفعل أي شيء مقابل حصد الكثير من الأموال كلَّ أسبوع؟»

غمغمَ الدكتور قائلًا: «سأرتاح إن لم يَعُد». وتابع: «ولكن مِن الخطأ أن نتركَه ونسمحَ لهؤلاء الرجال الماكرين بالتدخل في شئوننا.»

لم يقُل فايفر شيئًا؛ لقد فهم تعليماته؛ ولم يكن هناك ما يُقال. ثم تساءل قائلًا: «متى سيذهب؟»

«صباح الغد، قبل طلوع ضوء النهار. ستراه، بالتأكيد.»

قال شيئًا بنبرةٍ خافتة، لم يسمعه إلا فايفر. ولم يستطِع الرجلُ الواقفُ على الباب ليسترقَ السمع، مرتديًا جوربه فقط دون حذائه، أن يسمع إلا كلمتين فقط. ابتسم جيرتر ابتسامةً واسعة في هذا الظلام، وأشرقت عيناه ببريقٍ لامع. وسمع رفيقه يتحرك نحو الباب، فأسرع يصعد السلَّم بلا صوت.

كانت راث هول مبنًى أبيضَ ضخمًا كثيرَ الممرات، ذا طابَقَين، يقع وسط حديقةٍ صغيرة، كثيفةِ الأشجار للحد الذي جعله يبدو غيرَ مرئي من الطريق؛ ونظرًا إلى أن المدخلَ الرئيسيَّ للمكان كان بوابةً عادية الشكل جدًّا، دون وجود بيت حراسة أو مَن يقف خلف البوابة، كاد جونزاليس يتخطَّى المكان، لولا أن تعرَّف على الرجل الجالس فوق الجدار المتحطم الذي نمَتْ فوقه الطحالب، والذي قفز لأسفل بينما يوقف ليون سيارته.

«السيد ميدوز في المنزل، يا سيدي، وقال إنه في انتظارك.»

سأله جونزاليس، وهو يتراجع للخلف: «وأين هذا المنزل بحق السماء؟»

فتح المحقِّق البوابة على مِصراعَيها إجابةً عن السؤال، وانطلق ليون بالسيارة في طريق متعرج وسط الأشجار، وعندما اقترب تعرَّف على الطريقِ غيرِ الممهَّد المفروش بالحصى الذي قطعه من قبل، ورأى أيضًا آثارَ السيارات على الأرض الناعمة. وصل في اللحظة التي كان السيد جونسون لي يصطحب ضيفَيه لتناول العشاء، وبدا ميدوز سعيدًا برؤيته. استأذن، وأخذ ليون جانبًا إلى الرَّدهة، حيث لا يستطيع أحد سماعهما.

وقال: «لقد تلقَّيت رسالتك». وتابع: «لم يحدث أيُّ شيء غير مألوفٍ بخلاف تلقِّي الخدم دعوةً لحضور حفلٍ موسيقيٍّ كبير في برايتلينجسي. هل توقعتَ ذلك؟»

أومأ ليون برأسه.

«أجل؛ آمُل أن يدعَهم السيد لي يذهبون. من الأفضل أن يظَلُّوا بعيدًا عن الأمر. خطة بسيطة ... ولكن أوبيرزون يفعل هذه الأمور. هل حدث شيء آخر؟»

«لا شيء. سوى وجود شخصَين غريبين.»

«هل أطلعك على الرسائل التي تلقَّاها من باربرتون؟»

واندهش عندما أجابه المفتش بالإيجاب.

«أجل، ولكني أراها أصعبَ من اليونانية. فهي ليست إلا نقوشًا صغيرة على ورقٍ بُني سميك. إنه يحتفظ بها في خِزانته، قرأ لي بعضها، ولم أجد فيها شيئًا مفيدًا.»

سأل ليون بقلق: «ولكن ماذا عن الحروف التي كُتبت بها الرسائل؟» وتابع: «تلك التي كان يُرسلها السيد لي ردًّا على رسائله، ولكن بالمناسبة هل تعلم أن السيد لي كتب جميعَ رسائله بطريقة الحروف البارزة؟»

أومأ المحقِّق برأسه قائلًا: «لقد رأيت الورقة». وأضاف: «إلا أنني حينما سألته عن ذلك، بدا حريصًا ألَّا يتحدث إلا في حضور محاميه الذي سيأتي مساءً. في الحقيقة، كان من المفترض به أن يكون هنا، بحلول وقت العشاء.»

اتجها معًا إلى غرفة الطعام. كان الرجل الأعمى ينتظر بصبرٍ على رأس الطاولة، واعتذر ليون وجلس في المكان المخصَّص له. جلس وظهره إلى الحائط، في مواجهة إحدى النوافذ الثلاث الطويلة المطلَّة على الحديقة. كانت ليلةً دافئة، والستائر مفتوحة، وكذلك النافذة الوسطى التي كانت في مواجهته. فأشار إلى السيد واشنطن الجالسِ أمامه ليتنحَّى قليلًا، وأدرك الأمريكي أن الآخر يودُّ مشاهدة الحديقة دون حائل.

مال السيد لي إلى الأمام، مخاطبًا جميع الجلوس على الطاولة، وقال بابتسامة بسيطة: «هل ترغبون في إغلاق النافذة؟» وتابع: «أعرف أنها مفتوحة لأنني مَن فتحَها؛ فأنا أعشق الهواء الطلق.»

تمتموا معلِنين موافقتهم على تركها، ثم واصلوا تناول الوجبة دون وقوع أي حدث عارض. كان السيد واشنطن واحدًا من أولئك الأشخاص الذين يُجيدون التكيُّف مع أي بيئة يجدون أنفسهم فيها. بدا وكأنه في منزله تمامًا لا في راث هول وأنه وُلد وترعرع في هذا الحي. ولكنه، امتلك دافعًا آخرَ جعله مبتهجًا، وهو عثوره هذا الصباحَ على أفعى نادرةٍ وهو يتجول في الغابة، وقضى عشر دقائق في شرح أوجُه الاختلاف بينها وبين أي أفعى إنجليزية أخرى.

سأل ميدوز بعصبية: «هل ماتت؟»

أجابه السيد واشنطن بلهجة ساخطة: «أقتلها؟» وأضاف: «ولِمَ أفعل ذلك؟ لقد رأيت الكثير من اليَمام في الحديقة هذا الصباح، هل كان يجدر بي قتلهم؟ بالطبع، لا يا سيدي! فأنا لا أُكِنُّ مثل هذه المشاعر البغيضة تجاه الأفاعي. أنا مؤمنٌ بأن الله أرسل الأفاعي إلى هذ العالم لسببٍ آخر غير ملاحقتها وقتلها على يد كلِّ مَن يراها. لقد أرسلتها اليوم

بالقطار إلى صديق لي يعمل في حدائق الحيوان. سيرعاها حتى أصبح مستعدًّا لإعادتها إلى المنزل.»

تنهَّد ميدوز طويلًا بارتياح.

وقال: «جيد، ما دامت ليست في جيبك.»

«هل تُمانع ذلك؟»

على الفور، علا صوتُ ليون وهو يشير إلى السيد واشنطن للتنحِّي قليلًا جهةَ اليسار، وعندما حرَّك الرجلُ الضخم كرسيَّه، أومأ ليون برأسه ليشكره. كانت عيناه مثبتةً على النافذة والعشب المظلم. ولم يبعد ناظرَيه ولو للحظة.

قال السيد لي: «هذا أمرٌ غير معتاد بالنسبة إلى السيد بول، محاميَّ». وأضاف: «لقد وعد بكل تأكيد أنه سيأتي إلى راث هول بحلول الساعة السابعة، كم الساعة الآن؟»

نظر ميدوز في ساعته.

وقال: «إنها الثامنة والنصف.» ولاحظ امتقاع وجه الأعمى مالك راث هول.

«هذا غريب! هل تأذنون لي …»

لامستْ قدمُه جرسًا أسفلَ الطاولة، ودخل خادمه الشخصي.

«هل يمكنك الاتصالُ بمنزل السيد بول لترى ما إذا كان قد غادر أم لا؟»

عاد الخادم بعد قليل.

«أجل يا سيدي، لقد غادر السيد بول منزله بالسيارة في السادسة والنصف.»

تراجع السيد جونسون لي في مقعده.

«السادسة والنصف؟! كان من المفترض به أن يصل الآن.»

«كم يبعد منزلُه عن هنا؟»

«حوالي خمسة عشر ميلًا. أظن أنه وصل من لندن متأخرًا قليلًا. هذا غيرُ معتاد.»

قال ليون، دون أن يُغيِّر موضع نظره الثابت على النافذة: «ربما واجه مشكلةً مع إطار سيارته».

«كان بإمكانه الاتصالُ هاتفيًّا.»

سأله جونزاليس: «هل هناك مَن علم بقدومه — أي شخص بخلاف أفراد منزلك؟»

تردَّد الرجل الضرير.

«نعم، لقد ذكرتُ الأمر في مكتب البريد هذا الصباح. ذهبتُ لتسلُّم رسائلي، ووجدت أن الرسالة التي كتبتها إلى السيد بول عادت بسبب خطأٍ مني. أخبرتُ مدير مكتب البريد أنه قادمٌ هذا المساء، وأنه لم يَعُد هناك حاجةٌ إلى إرسالها.»

«هل كنتَ موجودًا في الجزء العمومي لمكتب البريد؟»

«أعتقد ذلك.»

«ألم تقُل شيئًا آخرَ يا سيد لي ... أي شيء يخصُّ الغرضَ من الزيارة؟»

تردَّد مضيفه مرةً أخرى. وقال: «لا أدري. أخشى أنني فعلتُ ذلك.» ثم اعترف قائلًا: «أتذكَّر أنني أخبرتُ مدير مكتب البريد بأنني سوف أتحدَّث مع السيد بول عن باربرتون المسكين؛ فالسيد باربرتون كان مشهورًا في هذا الحي.»

قال ليون: «هذا لا يُبشِّر بخير بتاتًا.»

كان يُفكِّر في أمرَين في الوقتِ ذاتِه: الأول هو مكان المحامي المفقود، وأما الأمر الثاني فكان الساترَ الرائع الذي يُوفِّره الجدار بين النافذة والأرضية لأي شخص قد يتسلل بعيدًا عن الأنظار لحين عودته فجأةً لإرسال الأفعى في مهمتها المميتة.

«بالمناسبة، كم عدد الرجال الذين أحضرتهم لحراسة الأرض المحيطة بالمنزل، يا ميدوز؟»

«رجلٌ واحد، ولكنه لا يحرس الأرضَ حول المنزل، وإنما في الخارج على الطريق. وأدخله في الليل، أو وقتَ المغيب، للقيام بدوريات داخل الأرض المحيطة بالمنزل، وهو مسلَّح.» ذكر ذلك بطريقةٍ ذاتِ مغزًى مهم. فالشرطي الإنجليزي المسلح يُعد ظاهرةً نادرة الحدوث لم يشهَدْها سوى قلة.

قال ليون: «هذا يعني امتلاكه مسدسًا لم يُطلقه إلا عند التدرُّب على هدف». وتابع: «معذرة ... أعتقد أنني سمعت صوت سيارة.»

نهض من على الطاولة في هدوء، وذهب خلف السيد لي، واندفع نحو النافذة، ونظر إلى الخارج. كان هناك حوضٌ من الزهور بالقرب من الجدار، وخلفه ممرٌّ عريض من الحصى. وبين الحصى والزهور كان هناك شريطٌ عُشبي عريض. يمتد الممرُّ نحو خمسين قدمًا يمينًا، قبل أن يتغير مساره أسفلَ مجموعة من الورود المتسلِّقة. إلى اليسار، امتد لأقلَّ من عشرة أقدام، ومن هذه النقطة كان هناك مسارٌ مُوازٍ إلى جانب المنزل يقطع الممر.

سأله لي: «هل سمعتها؟»

«كلا، يا سيدي، كنت مخطئًا.»

أدخل ليون يده في جيبه الجانبي، وأخرج حَفنةً مما يُشبه الشموع الصغيرة ملفوفة في ورق ملون. ولم يُلاحظه أحد وهو يُبعثرها يمينًا ويسارًا باستثناءِ ميدوز، ولكنه كان

شديدَ الحذر فلم يسأله عن السبب، لاحظ ليون علاماتِ التساؤل على ملامحه وهو يعود إلى مقعده، ولكنه تعمَّد ألا يُفصح عن شيء. وبعد ذلك، تابع تناوُل عشائه ولم يُلقِ إلا نظرةً عارضة على النافذة.

قال السيد لي: «أنا لا أعتمد كليًّا على مشورة محامِيَّ». وأضاف: «لقد أرسلت برقية إلى لشبونة لأطلب من الدكتور بينتو كايو المجيءَ إلى إنجلترا، ولعله أيضًا أفضل من بول، على الرغم من …» قاطعه دخول الخادم الشخصي في هذه اللحظة.

«سيدي، اتصلت السيدة بول للتو. تعرَّض زوجها لحادث سيئ؛ اصطدمَت سيارته بجذع شجرة كان ملقًى على الطريق قُرب لاولي. كان على الجانب الآخر من المنعطف، ولم يرَه إلا بعد فوات الأوان.»

«هل إصابته خطيرة؟»

«كلا، يا سيدي، لكنه في مستشفى الكوخ. تقول السيدة بول إنه يستطيع العودة إلى المنزل.»

جلس الرجل الأعمى مشدوهًا. وكان أولَ المتحدثين فقال: «يا له من حدث مروع!»

قال ليون بابتهاج: «السيد بول محظوظ. خشيتُ أن يُواجه مصيرًا أسوأ من ذلك …»

ومن مكانٍ خارج النافذة أتى صوت «فرقعة!» هذا الصوت الذي تُصدره مفرقعات الكريسماس. نهض ليون من على الطاولة، وسار سريعًا باتجاه النافذة وقفز إلى الخارج. وعندما اصطدَم بالأرض، داس إحدى حلوى البونبون الصغيرة التي نثَرها فانسحقَت تحت قدمَيه.

لم يلمح أحدًا. ركض سريعًا فوق الأرض العُشبية، وأبطأَ في سيره عندما وصل إلى نهاية الجدار، ثم استدار عائدًا، وشهَر سلاحه بقوة. ولكن لم يجد أحدًا. كان أمامه سياجٌ مربعٌ من النباتات، به فتحة. وسمع صوت طقطقة صادرةٍ من الخلف، وخمَّن أنه ميدوز، وانضم إليه المحقِّقُ في الحال. وضع ليون إصبعه فوق شفتيه مشيرًا إليه بالتزام الصمت، وقفز عبر الطريق نحو العشب على الجانب الآخَر، واختبأ خلف شجرةٍ حتى يتمكنَ من الرؤية عبر الفتحة في السياج المربَّع. وخلفه كان هناك حديقةُ ورود، تنمو فيها مجموعةٌ من الزهور الوردية والحمراء والذهبية اللون.

أدخل ليون يده في جيبه وأخرج أسطوانةً سوداء، ووضعها على فوهة مسدسه، دون أن يرفع عينَيه عن فتحة السياج. سمع ميدوز دويَّ انفجار خافتًا قبل أن يراه شاهرًا مسدسه. تناثرت وُريقات الأشجار والأغصان، وعلا وقعُ خُطًى متسارعة. اندفع ليون عبر الفتحة في الوقت المناسب ليرى رجلًا ينسلُّ بين الزروع.

«طاخ!»

أصابت الرصاصة الشجرة على بُعدٍ لا يتجاوز مسافة قدم من الهارب.

قال ليون: «هكذا تم الأمر!» ونزع كاتم الصوت. وقال: «أتمنَّى ألا يكون أحدُ الخدم قد سمعها، بل الأهمُّ ألا يكون سمعها السيد لي؛ فلسوء الحظ أنه يمتلك حاسةَ سمعٍ حادةً، ولعله ظن أن الرصاصة كانت لشيءٍ آخر.»

عاد إلى النافذة، وتوقَّف لالتقاط تلك المفرقعات التي لم تنفجر.

قال بابتهاج: «إنها أشياءُ مفيدة، احرِصْ على نثرها في أرضية غرفتك إذا كنتَ تتوقعُ مجيء أحدهم لقتلك في منتصف الليل. وتابع: «لا تزيد تكلفتها عن دولارين مقابل المائة، وقد أنقذَت حياتي مراتٍ لا أحصيها. هل سبق لك أن وقفتَ في الظلام في انتظار أن تلقى حتفك وتُقطَع رقبتك؟» وأضاف: «لقد شهدت ذلك ثلاثَ مرات، وأعترف أنها ليست بالتجرِبة التي أتوق إلى تَكرارها. مرةً في بوهيميا، في مدينة براغ؛ والثانية في نيو أورليانز، وكانت الثالثة في أورتونا.»

سأله ميدوز بقُشَعريرة: «وماذا حدث للقتَلة؟»

أجابه ليون قائلًا: «هذا سؤال يُجيبك عنه أحدُ رجال الدين، سامحني على هذه المزحة المبتذَلة». وتابع: «أظن أنهم قابعون في جهنم، لكن ربما أنا متحامل.»

كان السيد لي قد غادرَ مائدة الطعام، ووقف عند الباب الأمامي متكئًا على عصاه؛ وبرفقته السيد واشنطن الذي بدَت عليه ملامح القلق.

سأل الرجل العجوز بصوت قَلِق: «ما الخطْب؟» وتابع: «صحيحٌ أن عجزي عن رؤية الأشياء هو معوق كبير. ولكنني أعتقد أنني سمعتُ صوت طلق ناري.»

أجابه ليون على الفور: «بل اثنان». وأضاف: «كنتُ آمُل ألا تسمعهما. لا أعرف مَن كان هذا الرجل يا سيد لي، لكنه بالتأكيد لا يمتلك الحقَّ لدخول هذه الأراضي، وقد حاولت إخافته.»

«لا بد أنك استخدمت كاتمًا للصوت؛ فأنا لم أسمع دويَّ الطلقات بالكامل. هل رأيت وجه الرجل؟»

أجابه قائلًا: «كلا، لقد رأيت ظهره.» ظن ليون أنه ليس ضروريًّا الإفصاحُ عن أنَّ ظهر رجلٍ ووجهه يُصبحان مألوفَين له بالقدرِ ذاتِه. لأنه عندما درَس أعداءه، كانت دراسته شاملة ووافية جدًّا. بالإضافة إلى أنَّ كتف جيرتر تتمايل بشكل غريب عندما يركض.

توجَّه فجأةً نحو السيد مالك راث هول. وسأله: «هل يُمكنني التحدُّث معك على انفراد بضعَ دقائق يا سيد لي؟» لقد توصَّل إلى قرارٍ مفاجئ.

أجابه الآخر بأدبٍ: «بالطبع!» واتجه إلى الرَّدهة، ودخل غرفة مكتبه الخاصة.

انفرد ليون بصحبته داخل المكتب عشر دقائق. وعندما خرج، كان ميدوز قد خرج للقاء رَجُله عند البوابة، أما واشنطن فكان يقف متجهمًا بمفرده. فجذبه ليون من ذراعه وقاده إلى الحديقة.

قال: «ستقعُ مشكلة حقيقية هنا الليلة»، وأطلعَه على الاستعدادات التي اتفق عليها مع السيد جونسون لي. واستطرد قائلًا: «لقد حاولتُ إقناعه بالسماح لي برؤية الرسالة الموجودة في خِزانته، لكنه عنيدٌ بشدة بصدد هذا الشأن، وأنا أكرهُ السطو على خِزانة صديق. أنصِت.»

أنصَتَ إيليا واشنطن وأطلقَ صفير اندهاش.

وتابع جونزاليس حديثه: «لقد منعوا المحاميَ من الحضور، وهم الآن خائفون بشدة أن يُخبرنا العجوز، في غياب محاميه، بما كان ينوي الإفصاحَ عنه لمحاميه.»

«سيذهب ميدوز إلى لندن، أليس كذلك؟»

أومأ ليون برأسه برفق.

«أجل، سيذهب إلى لندن ... بالسيارة. هل علمتَ أن جميع الخَدَم سيخرجون الليلة؟»

حدَّق فيه السيد واشنطن.

«هل تقصد النساء؟»

قال ليون بهدوء: «أقصد النساءَ والرجال». وتابع: «سيُقام الليلةَ حفلٌ موسيقي رائع في برايتلينجسي، ولكنهم سيتأخرون عن النصف الأول من العرض، وسيستمتعون جدًّا بالجزء الأخير من البرنامج. لستُ أنا صاحبَ الدعوة، ولكنني أوافق عليها تمامًا.»

«ولكن هل سيوافق ميدوز على الانصراف وقد بدأ وقت المرح؟»

يبدو أن المحقِّق ميدوز لم يكن كارهًا للمغادرة في هذه اللحظة الحرجة. الحقيقة أنه بدا سعيدًا جدًّا بالرحيل. وتبدَّل رأي السيد واشنطن فيما يخص ذكاء رجال الشرطة إلى الأسوأ.

قال الأمريكي: «ولكن لا شك في أن بقاءه أفضل، أليس كذلك؟» وأضاف: «فإذا كنت تتوقع هجومًا، فمن المؤكد أنهم سيحشدون كل قواتهم؟»

قال جونزاليس بهدوء: «أجل بالتأكيد، ها هي ذي السيارة.»

خرجت السيارة الرولز في تلك اللحظة من الجزء الخلفي للمنزل وتوقفتْ أمام الباب.

قال ميدوز وهو يسترخي في مقعده بجانب السائق ويضع حقيبته على المقعد: «لا أودُّ أن أترككم.»

قال ليون: «أخبِر السائق أن يتفادى لاولي كتفاديه الموتَ بالطاعون. فهناك شجرةٌ قد وقعت، لعل السلطات المحلية تولَّت إزالتها … ولكنه أمرٌ مستبعَد للغاية.»

انتظر حتى توارت الأضواء الخلفية للسيارة في الظلام، ثم عاد إلى الرَّدهة.

قال كبير الخدم، وهو يُحاول ارتداء معطفه الضخم: «معذرة، يا سيدي. هل ستكونون على ما يُرام؟ فلم يتبقَّ أحد في المنزل لرعاية السيد لي. يمكنني البقاء …»

أجابه جونزاليس سريعًا: «السيد لي هو مَن اقترح انصرافكم جميعًا». وتابع: «كل ما عليك فِعله هو الانتظار بالخارج، وأخبِرني عندما تَلمح أضواء الحافلة المكشوفة. فأنا أرغب في التحدث إلى السيد لي قبل انصرافكم.»

ذهب إلى المكتبة وأغلق الباب خلفه. وبينما كان كبيرُ الخدم ينتظر، سمع هَمهمة صوتِه وشعر بوخزة ضمير. التذاكر صادرة من وكالة محلية؛ إنه لم يتخيَّل أبدًا أن يسمح المالك بانصراف الموظفين بالكامل، رغم وجود ضيوف في المنزل.

لم تكن حافلة مكشوفة، بل حافلة كبيرة مغلقة وصلَت متأخرةً واعتذر سائقها بسبب الطريق، ودارت الحافلة حول الجزء الخلفي للمنزل، مما أثار انزعاجَ الخدم الذين تجمَّعوا في الرَّدهة.

خاطبَهم ليون قائلًا: «لا تنزعجوا، سأُخبره.» بدا أنه تولَّى زِمام أمور المنزل بالكامل، وهي جريمة لا تُغتفر في نظر خدَمٍ شديدي الانضباط مثلهم.

غاب عن الأنظار عبر ممر طويل يؤدِّي إلى الأجزاء الداخلية الغامضة، وعاد ليُعلن أن السائق قد صحَّح خطأه وأنه قادمٌ إلى المدخل الأمامي، وهو تفسيرٌ لا طائل منه؛ فبينما يتحدث إلى الرفاق ظهرَت العربة الكبيرة أمامهم.

قال، بينما عَلا صرير مكابح السيارة وهي تتَّجه نحو المنحدر المؤدِّي إلى البوابة المستترة: «ها قد غادرَت مجموعةٌ من الشخصيات الاحتفالية الأكثرِ قلقًا بين مَن رأيتُهم في حياتي». وتابع: «على الرغم من أنهم سيقضون أجملَ وقت في حياتهم. لقد رتَّبت لهم ليتناولوا العشاء في فندق بيتش، إنهم يجهلون ذلك، ولكنني نقلتُهم إلى مكانٍ كانوا سيَدفعون أموالًا طائلة في مقابل دخوله — لو لم يذهبوا!»

قال السيد واشنطن بوجهٍ متجهِّم: «هكذا لم يتبقَّ أحدٌ سوانا»، ولكن تهلل وجهه على الفور. وقال: «ولكن هذا لا يعني أنني أُمانع وجودَ اشتباكٍ عنيف، سواءٌ في وجود أسلحة أو من دونها.» تفحَّص أرجاء الرَّدهة المظلمة بنظرة يشوبها القلق. وقال: «ماذا عن غلق الأبواب الخلفية؟»

قال ليون: «فلتتركْها على حالها». وتابع: «فالخطر لن يأتيَنا من الخلف. اخرج واستمتع بنسيم الليل؛ لا يزال الوقت مبكرًا جدًّا على المتاعب الحقيقية.»

ولكنه في هذا الأمر، وللمرة الأولى، كان مخطئًا.

تبِعه إيليا واشنطن إلى الحديقة، وسار خطوتَين، ثم فجأةً رآه ليون يترنَّح. وفي لحظةٍ كان مَلقيًّا إلى جانب الرجل، منحنيًا ومحدقًا، ونظارته مُلقاة على العشب.

قال واشنطن: «أدخِلني إلى المنزل.» وكان يتَّكئ بقوة على صاحبه.

أحاطت ذراعُ ليون بخَصره، وهو يكاد يحمله، واتَّجه بالرجل إلى الرَّدهة ولكنه لم يُغلق الباب. فبدلًا من ذلك، بينما جلس الأمريكيُّ على مقعدٍ في الرَّدهة وهو يُصدر أنينًا مكتومًا، وجلس ليون على الأرض، وأطلَّ على خطِّ الأفق المتخيَّل الذي صنعه. لم يكن هناك وجودٌ لأي حركة، ولا علامةٌ على وجود أي مهاجم. عندئذٍ، وعندئذٍ فقط، أغلق الباب وأسقط المزلاج، ودفع باب غرفة المكتب ليفتحه على مِصراعَيه، وحمل الرجل إلى الغرفة وأضاء الأنوار.

تمتم واشنطن قائلًا: «أعتقد أنَّ شيئًا ما قد أصابني إذن.»

كان خدُّه الأيمن أحمرَ اللون ومتورمًا، ورأى ليون اللدغة المنذرة، ورأى شيئًا آخر. وضع يده على خدِّه وفحصه بأطراف أصابعه.

«أحضر لي بعض الويسكي، هل يمكنك ذلك؟ أريد جالونًا منه.»

كان واضحًا أنه يُعاني ألمًا شديدًا وبدأ يتمايل للأمام وللخلف.

تأوَّه قائلًا: «يا إلهي! هذا مروِّع!» وتابع: «أنا لم أُعانِ لدغةَ أفعى كهذه من قبل!»

«أنت لا تزال على قيد الحياة، يا صديقي، لم أُصدِّقك عندما قلتَ بأنك محصَّن ضد الأفاعي.»

سكب ليون كأسًا من الويسكي الصافي، ووجَّهه إلى شفتَي صديقه الأمريكي.

غمغم واشنطن قائلًا: «أخفِض يدك بالكأس!» ولم يرفع شفتَيه عن الكأس إلا وهي فارغة. وقال: «أحضر لي كأسًا أخرى؛ فأنا لن أثمل.»

وضع يدَه على وجهه، ولمس الجرح الصغير بحذر شديد، وقال في دهشة: «إنه مبتلٌّ.»

«بمَ شعرت؟»

اعترف الخبيرُ قائلًا: «لا شيء سوى لدغة أفعى.»

انتفخ وجهه خاصةً الجزء الموجود تحت عينَيه، وامتُقع لون جلده وتبدَّل للأسود والأزرق.

اتجه ليون إلى المدفأة وقرع الجرس، وكان واشنطن يُراقبه في دهشة.

«أخبِرني، ما فائدة قَرعِك الجرسَ؟ لقد انصرف الخَدَم.»

كانت هناك أصواتُ طقطقة أقدام في الرَّدهة، وفُتح الباب ودخل جورج مانفريد، واندهش الزائر عندما رأى خلفه ميدوز وعشَرةً من الرجال.

وقال بصوتٍ غالَبَه النعاس: «يا إلهي!»

أوضح ليون قائلًا: «لقد جاءوا في تلك الحافلة، مستَلْقين على الأرض، وكان العذر الوحيد لإحضار الحافلة إلى هنا هو إرسالَ الخدم إلى ذلك الحفل الموسيقي.»

سأل مانفريد: «هل أبعدتَ السيد لي عن هنا؟»

أومأ ليون برأسه.

«كان في السيارة التي أقلَّت صديقنا ميدوز، الذي انتقل إلى الحافلة في مكانٍ بعيد عن المنزل.»

أخرج واشنطن من جيبه علبةً صغيرة من الورق المقوَّى، وفرك بحذرٍ مسحوقًا أحمرَ اللون فوق العلامتين ذواتَيِ الحواف البيضاء، وهو يئنُّ.

وقال: «من المؤكد أنها أفعى يُمكنها التسببُ في موت الكوبرا سلخًا، ولدغة الأفعى الجرسية ليست أسوأَ من عضة الكلب. إنها ليست المامبا، أنا أعرف المامبا؛ إنها قاتلٌ شرس، لكن ليس بهذا السوء.»

نظر مانفريد إلى ليون.

وسأل ببساطة: «جيرتر؟» فأومأ جونزاليس بالإيجاب.

«من الواضح أنني كنت الشخص المقصود، ولكن، كما قلت من قبل، جيرتر يشعر بالتوتر. لذلك لم يُفلح في إطلاق النار.»

«هلا تحرصون، أيها الرفاق، على ألا تتحدَّثوا بصوتٍ صاخب؟» نظر إلى الستائر الثقيلة التي تُغطي النوافذ. هناك مصاريعُ خلف هذه الستائر، ولكن الدكتور أوبيرزون رجل ماكر.

فحص ليون سريعًا آثارَ قدم الزائر؛ ووجد أنه لبس نعلًا من الصوف.

وقال: «لا أعتقد أنه بإمكاني التفوقُ على خطط الآنسة ليستر الرائعة»، وصعد إلى غرفة نوم السيد لي، التي تتوسط المنزل ولها شُرفة صغيرة، كانت أرضيتها عبارةً عن الجزء العلوي من المدخل.

كانت النوافذ الطويلة ذات الطراز الفرنسي مفتوحة، فزحف ليون في الظلام، وبدأ بالمراقبة من خلف أعمدة الدرابزين. أصبحوا الآن مكشوفين، ولم يُحاولوا الاختباء. وقد أحصى سبعةً منهم، إلى أن لمح آخرَ يُدخن سيجارة بالقرب من نهاية الممر. تساءل ما الذي ينتظرونه؟ لم يتحرك أيٌّ منهم؛ ولم يُطوقوا المنزل. حيَّره هذا السكون. بدا وكأنهم ينتظرون إشارة. ولكنْ أيُّ إشارة؟ ومِن أين تأتي؟

رأى رجلًا يتسلل خِلسة عبر العشب ... خدعه بصره؛ هل هو واحد أم اثنان؟ إذا كانا شخصَين فلا بد أن أحدهما هو جيرتر. لم يكن ليُخطئه. وللحظةٍ غاب عن الأنظار خلف أحد عمدان الشرفة. حرك ليون رأسه، فرأى جيرتر يسقط! رآه يجثو على ركبتَيه ويتمدَّد على الأرض. ماذا يعني ذلك؟

كان لا يزال متحيرًا حتى سمع صوت كشطٍ هامس، وأنفاس لاهثة، وحاول تحديدَ مصدر الصوت. وفجأةً، وعلى بُعد بوصات من وجهه، خرجت يدٌ في هذا الظلام الدامس، وأمسكت بالحافة السفلية للشرفة.

تراجع جونزاليس، سريعًا، إلى داخل الغرفة، في صمتٍ، ووقف منتصبًا تحت غطاء الستائر وانتظر. لامسَت يدُه شيئًا، تبيَّن أنه حبلٌ طويل لجذب الستائر. وصنع حلقة شنق محكمة.

صعد الدخيل بالاستعانة بالدرابزين، وخطا للداخل بهدوء، حتى اقترب من النافذة المفتوحة. لم يشكَّ في شيء؛ لأن النوافذ الفرنسية كانت مفتوحةً طوال المساء. ودون صوت، صعد إلى الغرفة وانعكس ظلُّه على النافذة عندما سقط عليه ضوء النجوم.

قال ليون في نفسه: «إنه لا يلبس قبعته». جعل هذا الأمورَ أسهل. فعندما خطا الرجلُ خطوةً أخرى خِلسة، التفَّت حلقة الشنق حول عنقه، واجتذبه ليون بقوة، واختنقت الصرخةُ في حلقه. وفي غضون لحظةٍ كان مستلقيًا على الأرض، وركبة ليون تجثو فوق ظهره. كافح لينهض، لكن قبضة ليون كانت حديدية، وهدأ فجأة.

أرخى جونزاليس العقدة، ورفع الرجلَ فوق كتفه، وحمله خارج الغرفة، وهبط به السلالم. خمَّن أنه سيكون الدخيل الوحيد، ولكنه لم يترك شيئًا للصدفة، فبعد أن سلَّم سجينه إلى الرجال المنتظرين في الرَّدهة، ركض عائدًا إلى الغرفة، ووجد ما توقعه، لم

يجرؤ أحدُهم على المغامرة ليحذوَ حذوه. كانوا لا يزالون يقفون على مسافاتٍ غير منتظمة حيث شاهدهم آخرَ مرة. كانت الإشارة ستأتيهم من المنزل. لكنه تساءل ما هي يا تُرى؟

ترك أحدَ رجاله لحراسة الغرفة، وعاد إلى المكتب ليجد أن اللصَّ المرتجف كان صديقًا قديمًا. أخذ ليو كوتشيني يجول بناظِرَيه بين محتجِزيه باستياءٍ وذهول. ولكنَّ الأمرَ الأكثرَ غرابة الذي اكتشفه ليون عند عودته إلى غرفة المكتب، كان عودةَ مروِّض الأفاعي الأمريكي إلى حالته الطبيعية وابتهاجه القديم، وباستثناء مظهره البشع، بدا أن حالته جيدة بالنسبة إلى رجل تعرَّض لتجرِبة رهيبة كانت لتُنهي حياةَ تسعةٍ وتسعين رجلًا من أصل مائة إذا تعرَّضوا لها. «أنا مُحصَّن ضد الأفاعي. هل هذا مَن فعلها؟» قالها وهو يشير إلى كوتشيني.

سأل مانفريد: «أين جيرتر؟»

ابتسم له كوتشيني ابتسامةً عريضة.

وقال: «من الأفضل لك أن تكتشف ذلك بنفسك أيها الزعيم». وتابع: «لأنه سيأتي للانتقام منك. بمجرد أن أصرخ ...»

قال ليون بصوت هادئ: «كوتشيني ...» ولا شكَّ أن سنَّ السكين ذاتَ النصل الطويل التي يُوجِّهها إلى عُنق الرجل كانت حادةً. إذ تراجع كوتشيني للخلف. وأردف ليون قائلًا: «أنت لن تصرخ. وإن فعلتَ فسأنحَرُ عنقك، وأُفسد كلَّ هذا السجاد الجميل، إنه سجاد بخاري حريري فاخرٌ يا جورج. أنا لم أرَ مثله منذ عشر سنوات». وأشار برأسه إلى السجادة الناعمة التي يقف عليها جورج مانفريد. ثم تحوَّل انتباهه مرةً أخرى إلى الأسير وسأله: «ما الإشارة، يا كوتشيني؟» وأضاف: «وماذا سيحدث عندما تُطلق هذه الإشارة؟»

قال كوتشيني: «انظر، تلك التهديدات بقطْع عنقي لا تعني لي شيئًا. فهذا البلد لا يعرف تعذيب الدرجة الثالثة الوحشي، فلا تنسَ ذلك.»

ابتسم ليون ابتسامة صِبيانية مبتهجة. وقال: «أنت لم ترَ من قبل درجتي التاسعةَ والتسعين. هل يمكن أن تضع قطعةً من القماش في فمه، من فضلك؟»

لفَّ أحد الرجال وشاحًا من الصوف حول رأس كوتشيني.

«أرقده على الأريكة.»

كان بالفعل مقيدَ اليدَين والقدَمين، لا حول له ولا قوة.

«هل لديكم أعوادُ ثقاب شمعيَّة؟ أجل، ها هو بعضٌ منها» أفرغَ ليون وعاءً زجاجيًّا في راحة يده، ونظر حوله إلى الرفاق الحائرين. «والآن، يا سادة، هلا تسمحون أن تتركوني

وحدي خمسَ دقائق بالضبط، سأُقدم للسيد كوتشيني محاكاة ممتازة لأساليب جيان فيسكونتي للإقناع، وهو أحدُ مواطني بلده، ومخترع النظام الذي أنا بصدد تجرِبته.»

كان كوتشيني يهزُّ رأسه بشراسة. وغمغمَ من خلف الوشاح بأصوات غير مفهومة.

قال ليون: «صديقنا ليس غبيًّا. من يقول منكم إن ساينر كوتشيني هو شخصٌ غبي سيُثير استيائي الشديد.»

أجلسا الرجلَ وتحدث مترددًا، بانكسار. وعندما أنهى حديثه، قال ليون: «رائع». وتابع: «خُذه إلى المطبخ، وقدِّم له مشروبًا ... ستجد الصنبور أعلى حوض المطبخ.»

قال جورج، مخاطبًا ليون عندما أصبحا بمفردهما: «لقد تساءلتُ كثيرًا، يا ليون، هل كنتَ تنوي بالفعل تنفيذ تلك التهديدات المرعبة بالتعذيب والوحشية الخطرة؟»

قال ليون ببساطة، وهو يُشعل سيجارة مستعينًا بأحد أعواد الثقاب الموجودة على الطاولة، ويُعيد الباقيَ إلى الوعاء الزجاجي بحرص: «نصف التعذيب يكمن في ترقُّب التعذيب». وتابع: «يستطيع أيُّ متمرس في فن الأوصاف الموحية الاستغناءَ عن البراغي اللولبية وكاويات الوسم، والمقاصل الصغيرة، وجميع أدوات العدالة الجنائية المروعة التي استخدمها أسلافنا. أنا أيضًا تساءلت» كان يتأمَّل وهو ينفث حَلْقةً من الدخان تتصاعد باتجاه السقف، وتابع قائلًا: «ما إذا كان بإمكاني تنفيذُ تهديداتي؟ يجب أن أُحاول يومًا ما.» وأومأ برأسه في ابتهاج، وكأنه يَعِدُ نفسه بهدية رائعة.

نظر مانفريد في ساعته.

«ماذا تنوي أن تفعل؛ إعطاء الإشارة؟» أومأ جونزاليس برأسه إيجابًا. «ثم ماذا؟»

«سنسمحُ لهم بالدخول. ربما نلجأ للاختباء في المطبخ. أظن أن ذلك سيكون أكثرَ حكمة.»

أومأ جورج مانفريد برأسه. وقال: «هل ستسمح لهم بفتح الخزينة؟»

قال ليون: «بالضبط». ثم أضاف: «هذا ما أتمنَّاه تحديدًا؛ أن يفتحوا هذه الخزينة، فبالنظر إلى اعتراض السيد لي على فتحها، ستُصبح هذه أفضلَ طريقة. شغلني هذا الأمر طَوالَ الوقت. هل رأيت الخزينة، يا جورج؟ أنا رأيتها. لا أحد يستطيع تحطيمها سوى خبير. وأنا لا أملك أدوات. ولست مستعدًّا لمواجهةِ احتمالٍ كهذا، وأتحرَّج من فعْل ذلك. أما أصدقاؤنا فيمتلكون الأدوات — ولا يمنعهم أيُّ وازع!»

«والأفعى ... هل هناك أي خطر منها؟»

نقر ليون بإصبعه.

«الأفعى قد هاجمَت هذه الليلة، ولن تُجريَ المزيد من الهجمات خلالها! أما بالنسبة إلى جيرتر ...»

«إنه مَدينٌ لك بشيء.»

ألقى ليون بحَلْقة معدنية ولم يتحدث حتى ارتطمت بالسقف.

وقال ببساطة: «لقد مات جيرتر». ثم أضاف: «لقد ظلَّ مستلقيًا على العشب أمام المنزل طوال الدقائق العشر الماضية.»

الفصل السابع عشر

خطاب مكتوب بطريقة برايل

حكى ليون بإيجازٍ المشهدَ الذي رآه من الشرفة.

وقال: «كان ذلك جيرتر بلا شك». وتابع: «لا يمكن أن أُخطئ في التعرف عليه. لقد غاب عن النظر لثانيةٍ بالوقوف خلف أحد الأعمدة، وعندما نظرت حول المكان وجدته مستلقيًا على الأرض.»

ألقى سيجارته في نيران المدفأة.

وأضاف قائلًا: «أظن حان الوقت.» انتظر حتى ذهب مانفريد، وتوجَّه نحو الباب، فأزال العارضة وفتح البابَ عن آخره.

انحنى ليون لأسفل، ووجد أن مدخل الباب كان مُراقَبًا؛ إذ كان أحد الرجال يتحرك عبر المساحة العُشبية باتجاه المنزل. فأخرج من جيبه مِصباحًا كهربيًّا صغيرًا، وأرسل ثلاث ومضات في الظلام. ولعل ما أدهشه أن رجلَين فقط هما مَن تحرَّكا باتجاه المنزل. فمن الواضح أنه كان من المُنتظر أن يتعامل كوتشيني مع أي مقاومة قبل وقوع المداهمة.

بُني المنزل في القرن الخامس عشر، وكانت صالة الدخول عبارةً عن مكانٍ أشبه بحوش فسيح ومرتفع. حيث بنى مهندسٌ معماري من العصر الجورجي، على الطراز الفريد الذي يشتهر به أمثاله، شرفةً صغيرة يقف فيها المطرب أثناء الحفلات، وهي تقعُ فوق مدخل غرفة الطعام وفي مواجهة غرفة المكتب مباشرة. وقد استكشف ليون المنزل بالفعل ووجد السُّلَّم الصغير جدًّا المؤديَ إلى هذا البناء المعماري. وبمجرد أن أعطى الإشارة دخل غرفة الطعام، عبر الباب الطويل، واختبأ وراء الستائر الثقيلة في خلفية الشرفة الضيقة، عندما دخل الرجلان الأوَّلان. حيث رآهما يدخلان إلى غرفة المكتب مباشرة ويدفعان الباب لفتحه. وفي الوقت نفسِه، ظهر رجلٌ ثالث أسفل الرواق، إلا أنه لم يُحاول دخول الصالة الكبيرة.

بعد وقت قصير خرج أحدُ الرجلين اللذين دخلا غرفة المكتب ونادى كوتشيني باسمه. وعندما لم يأتِه ردٌّ، عاد مُتبرِّمًا لاستكمال مهمته. واستطاع ليون أن يُخمِّن تلك المهمة، قبل أن يشَمَّ بأنفه الحساس الرائحةَ المميزة القوية للمعدن الساخن.

جثا ليون على ركبتَيه واستطاع أن يرى أرجُلَ الرجلَين اللذين كانا يفتحان الخزينة. حيث أضاءا الأنوارَ كلها، وكان واضحًا أنهما لم يتوقعا أن يُقاطعهما أحد. ثم انضم رجلٌ آخر إلى الرجل الواقف عند الباب. فسأل الرجلُ الثاني قائلًا:

«أين ليو؟»

في ظل سكون المنزل، كانت الكلماتُ مسموعة، رغم نطقها بصوت خافت.

فأجابه الرجل الأول قائلًا: «لا أعرف ... في مكانٍ ما بالداخل. عليه تدبُّر أمر ذلك الإسباني.»

ابتسم ليون. فلم يفشل وصفُه هكذا أبدًا في إضحاكه.

في تلك اللحظة خرج أحدُ الرجلين الموجودَين بالمكتبة. فسأل قائلًا:

«هل رأيت كوتشيني؟»

فأجابه الرجل الواقف عند الباب: «لا.»

فقال: «ادخل وابحث عنه. فهو هنا بالتأكيد.»

كان غياب كوتشيني يُشعره بعدم ارتياح واضح؛ لأنه عندما عاد إلى الغرفة خرج مرةً أخرى بعدها بدقيقة، ليسأل إذا كان الرجل الذي أرسله للبحث قد عاد. بعدها، أتى صوتُ الرجل من نهاية الممر، قائلًا: «المطبخ مغلق.»

فعبَّر الرجل الذي كان يكسر الخزينة عن دهشته.

فعلَّق قائلًا: «مغلق؟ وما الغرض من ذلك؟»

فأتى عند طرف السُّلم وصاح مناديًا: «كوتشيني!»

لكن لم يُجِبه سوى صدى صوتِه.

وأقحم رأسه عبر باب غرفة المكتب. وقال: «هذا غريب». وتابع: «أنجِز عملك بسرعة يا مايك. فلا تزال أمامنا مهمة ممتعة هنا.» ومن فوق كتفه، أضاف قائلًا: «بلِّغ الرجال بأن يستعدوا للقفز.»

فخرج الرجل في ظلام الليل وغاب بضع دقائق، ثم عاد بخبرٍ مخيف.

فقال: «لقد رحلوا يا زعيم. لا أجد أيًّا منهم.»

فسبَّه «الزعيم»، وخرج إلى الحديقة للتفتيش. ثم عاد متعجِّلًا، وهُرِع إلى غرفة المكتب، حيث سمع ليون صوته وهو يقول: «استعدوا للمغادرة.»

فسأله مايك قائلًا: «وماذا عن كوتشيني؟»

فأجابه: «فليعتنِ بنفسه! هل تفهم ذلك، يا مايك؟»

قال الصوت الأجشُّ شيئًا ما. تلا ذلك صوتُ تحطُّم، وكأن شيئًا من حديد قد انكسر. كانت تلك هي اللحظة المناسبة. حيث أبعد ليون الستائرَ وانبطح على الأرض برفق.

عند سماعه صوتَ الحركة، استدار الرجل الواقف عند الباب في لحظة واحدة.

وقال في حدة: «ارفع يدَيك عاليًا!»

فقال ليون بنبرةٍ حوارية هادئة: «لا تُطلق النار». وتابع: «إن الشرطة تحاصر المنزل.»

خرج الرجل من الباب مندفعًا بينما يُطلق السِّباب، وفي تلك اللحظة أتى صوتُ الرصاصة الأولى، متبوعًا بصوت إطلاق نارٍ عشوائيٍّ آتٍ من ناحية الطريق. فرحل الحارس الثاني أولًا. وهُرِع ليون إلى الباب، وأغلقه بعنفٍ وأضاء الأنوار بينما أتى الرجلان من غرفة المكتب. وكان أحدهما يضعُ تحت ذراعه رِزمةً سميكة من أوراقٍ بُنِّية مربعة. فأسقطها ورفع يدَيه في مواجهة المسدس؛ إلا أن رفيقه كان أكثرَ شجاعةً منه، فقفز صائحًا، ليهجم على الرجل الذي يحول بينه وبين الحرية. فالتوى ليون بجسده جانبًا، وحرَّك كتفه إلى الأمام ليتلقى اللكمة القوية التي سددها له الرجل بقبضته؛ وبعد أن سقط مسدسه، انحنى بسرعة وضرب الرجل الآخر أسفلَ ركبتيه. فترنَّح الرجل، وحاول استعادة توازنه لكنه سقط مرتطمًا بالأرضية الحجرية. بينما كان رفيقه طَوال هذه المدة يقف مترنحًا ومحدِّقًا، ملوِّحًا بيدَيه في الهواء.

في تلك الأثناء أتى صوتُ طرقةٍ على الباب الخارجي. ومن دون أن يُدير ليون ظهره لسجينَيه، أمسك بعارضة الباب وجذَبها لأعلى. فدخل مانفريد.

وقال: «لقد أخافهم الرجلُ الذي نادى «كوتشيني». أظنهم قد رحَلوا. فلقد كانت هناك سيارتان متوقفتان على الطريق.»

ثم وقعَت عيناه على الأوراق البُنية المبعثرة على الأرض، فأومأ برأسه.

وقال: «أظن أنَّ لديك كلَّ ما تريد، يا ليون.»

في تلك اللحظة دخل المحقِّقون محتشدين، ووضعوا الأغلال في أيدي سَجينَيهم، بينما خرج ليون جونزاليس وصديقه إلى الساحة العشبية بحثًا عن جيرتر.

كان الرجل منبطحًا، حيث سقط منكبًّا على وجهه، وعندما أضاء ليون مِصباحه فوق الجثة، وجد الأفعى قد لدغته خلف الأذن.

فقال ليون عاقدًا حاجبَيه: «جيرتر؟»

أدار الجثة على ظهرها وشهق في دهشة، حيث وجد وجه فايفر الصارمَ ناظرًا إلى السماء المرصعة بالنجوم.

فقال ليون: «فايفر! كنت متأكدًا تمامًا أنه الآخر! هناك خدعةٌ بالأمر. دعني أفكِّر.» ووقف دقيقةً كاملة، واضعًا يده على ذقنه. ثم قال: «كان بإمكاني أن أفهم جيرتر؛ فقد أصبح يُشكِّل مصدر إزعاج وخطرٍ للرجل العجوز. لقد كرهه فايفر، وهو الأكثرُ موثوقيةً بين الاثنين. كانت نظريتي الأولى أن جيرتر قد أُبعِدَ بأمرٍ من أوبيرزون.»

فسأله مانفريد بهدوء قائلًا: «تخيَّلْ لو أن جيرتر قد سمع الأمر، أو علم به؟»

ففرقعَ ليون أصابعه. وقال:

«هذا هو مَربِط الفرَس! كانت لدينا قضية مشابهة قبل بِضع سنوات، هل تتذكرها، يا جورج؟ لقد أعطى الرجل العجوز أمرَ «الإبعاد» إلى فايفر، وضرب جيرتر ضَرْبتَه أولًا. يا له من داهية!»

ولَمَّا عادا إلى المنزل، جلس الثلاثة مصطفِّين في غرفة مكتبة جونسون لي. بالطبع، كان كوتشيني معرفةً قديمة. ومن بين الرجلَين الآخَرين، تعرَّف ليون على أحدهما؛ مجرمٌ مُسلَّح سيئ السمعة، ظلت صوره تملأ عمود «ابحث مع الشرطة» على صفحات الجرائد شهورًا.

أما الرجل الثالث الذي كان واضحًا أنه الحِرفي الماهر بينهم، والذي كانوا يُنادونه باسم «مايك» والذي أحرَق قُفل خزينة لي؛ فقد تعرَّف عليه ميدوز وعرَف أنه مايك سيلوين، لصٌّ محترف وفتَّاحُ خزائن، والذي، وفقًا لحديثه، قد وصل من أوروبا عصر ذلك اليوم استجابةً لدعوة سخيَّة وعدته بمبلغ جيد من المال.

قال مايك في مرارة: «لماذا تركتُ ميلان، حيث السرقةُ السهلة والمالُ الوفير، أودُّ منك أن تُخبرني!»

نُقِلَ السجناء إلى أقربِ حجز آمن، ولَمَّا عاد خدمُ لي من حفلهم الراقص، كانت كل الدلالات على تلك الساعة العصيبة قد اختفت، عدا باب الخزينة المُسوَدِّ الملتوي الذي كان شاهدًا على تلك الزيارة البغيضة.

عاد ميدوز بينما كانا يجمعان معًا الأوراقَ المُبعثرة. حيث كانت هناك المئاتُ منها، كلها مكتوبة بحروف طريقة برايل، وكان مانفريد يقرؤها قراءةً سريعة بأصابعه الحساسة.

فقال مانفريد ردًّا على سؤالٍ وُجِّه له: «آه، نعم. عرَفت أنَّ لي كفيف، وذلك في اليوم الذي كنا نُفَتِّش فيه في ممتلكات باربرتون. لكن كان هذا سريًّا.» ضحك مانفريد. ثم

استطرد قائلًا: «لقد انتظر باربرتون زيارةً من صديقه القديم وترك له رسالة على رفِّ المدفأة. هل تذكرون تلك القصاصة من الورق؟ تلك التي كان مكتوبًا فيها: «عزيزي جوني، سأعود في غضون ساعة». هذه خطابات» مُشيرًا إلى الأوراق.

فقال ميدوز: «استنتجتُ ذلك من الأظرف». وتابع: «لعلك لا تستطيع إدانة كوتشيني؛ حيث سيقفُ اللصَّان أمام القاضي، لكن اتهام كوتشيني يعني افتضاحَ قصة الأفعى بالكامل، وهو ما يعني تأثيرًا أكبرَ من استعدادي لاستبعاده … أميل إلى صرف النظر عن كوتشيني في الوقت الحالي.»

فأومأ مانفريد بالإيجاب. وجلس بينما الأوراق ذات النقش البارز موضوعةٌ على ركبتَيه.

وقال: «إنها مُرسَلة من أماكن مختلفة.»

كانت مشاهدة مانفريد مثيرةً للفضول، حيث تتحرك أصابعه برفقٍ بطول السطور المنقوشة، وعيناه تُحدِّقان في الفراغ.

ثم قال: «لم أعرف شيئًا حتى الآن، عدا أن باربرتون في وقت فراغه كان يُسلِّي نفسه بترجمة القصص الخرافية من لُغتها الأصلية إلى الإنجليزية، وكتابتها بطريقة برايل؛ للاستفادة منها في مدارس المكفوفين. أعرف، طبعًا، أنه فعل ذلك لأنني قد قابلتُ أخته بالفعل، التي كانت مديرةَ قسم البنات.»

كان قد انتهى من قراءة ستة خِطابات عندما نهض عن الطاولة وتوجَّه نحو الخزينة.

وقال: «أشعر أن الشيء الذي نبحث عنه غيرُ موجود هنا». وتابع: «فمن المستبعَد تمامًا أن يسمح بخلط خطاب بهذه الأهمية مع باقي المراسلات.»

كان باب الخزينة مفتوحًا، وكذلك الدُّرج المعدِني في الخلف. وكان من الواضح أن الخطابات قد أُخرِجَت من هذا الدُّرج. أصبح الدرج شاغرًا الآن. فأخرجه مانفريد وبدأ يقيس عُمقه بإصبعه.

فقال جونزاليس فجأة: «دعني أرَ.»

تحسَّس أرضية الخزينة، وبدأ يتلمَّس الجوانب بحذر.

وقال: «لا شيء هنا.» ثم أمسك بستةٍ من دفاتر الحسابات ورِزْمة من الوثائق التي وضَعها مانفريد جانبًا؛ إذ ظنَّها للوهلة الأولى وثائقَ شخصية لمالك راث هول. كانت هذه الأشياء مُلقاةً على الأرض وسط كُتَل المعدن المنصهر التي أحرقت السجادة وصنعت فيها ثقوبًا عميقة. فتفحَّص ليون الدفاتر كلًّا على حِدَةٍ، وفتحها ممرِّرًا إصبعه بطول حواف

الصفحات. أما الدفتر الرابع الذي كان دفترًا ثقيلًا، فلم يُفتَح بسهولة ... أو، في الواقع، لم يُفتَح أصلًا. فأخذه ليون إلى الطاولة وحاول نزع الغلاف. بينما يقول: «والآن، كيف يُفتح هذا؟»

كانت أغلفة الدفتر مصنوعةً من الجلد؛ لذلك بدا أنه دفترٌ عادي، وكان ليون حريصًا على ألَّا يُفسد هذا الغلاف التمويهي البديع. وأثناء فحصه لحافة الدفتر بدقة، رأى جزءًا كانت الحواف فيه متباعدةً عن عمد. فأخرج سِكينًا بحوزته، وأدخل النصلَ الرفيع في الفتحة. فسمعوا صوت طقطقة، وانفتح الغلاف كغطاء صندوق.

فقال جونزاليس: «أظن أنَّ هذا هو ما نبحث عنه.»

كان الدفتر مُجوَّفًا من الداخل، والحواف المتبقية مُلصَقة بالصمغ بإحكام، فأصبح يُشكل حاويةً مغلَّفة بأوراق بُنية؛ عدا ورقةٍ واحدة، كانت عبارةً عن صفحة كبيرة من الفولسكاب، بعنوان:

«مكتب وزارة المستعمرات، لشبونة.»

وقد نقش باربرتون الكتابةَ بطريقة برايل فوق هذه الوثيقة الطويلة، والآن حُلَّ أحد الألغاز.

قال مانفريد: «قال لي إنه لم يتلقَّ أبدًا أيَّ وثائق مهمة، وذلك، طبعًا، على حدِّ علمه. فقد كانت هذه الوثيقة بالنسبة إليه مجردَ ورقة نُقِشَت عليها حروفٌ بطريقة برايل. اقرأ هذا يا ليون.»

فحص ليون الخطاب. ووجده بتاريخ «الحادي والعشرين من يوليو، عام ١٩١٢»، وكان الخطاب يحمل في أسفله على اليسار، ختْمَ إدارة المستعمرات البرتغالية. قرأه ليون بسرعةٍ وفي النهاية رفع وجهه وتنهَّد في رضًا.

ثم قال: «هذا يحلُّ لغز شركة أوبيرزون آند كو، ويسلب منها ثروةً، أظنُّنا سنعرف إلى أي مدًى عندما نقرأ خطاب باربرتون.»

أشعل سيجارةً وفحص المكتوب مرةً أخرى، بينما ظل ميدوز الذي لم يستوعب شغفَ ليون بالدراما، منتظرًا بنفاد صبرٍ واضح.

بدأ ليون في القراءة قائلًا: «السيد المُبجَّل». وتابع: «شَرُفت اليوم بوضع خِطابك بتاريخ الخامس عشر من مايو ١٩١٢، أمام فخامة الرئيس وأعضاء مجلس الوزراء. وبموجب خطابٍ يعود تاريخه إلى الثامن من يناير ١٩١١ منحت سيادتكم الأراضيَ ذات العلامة إكس ٢٧٥ على الخريطة المساحية لمنطقة بيسكارا، دعمًا لقضية العلم — وهي

قضية مُحببة جدًّا إلى قلب فخامة الرئيس. كما نظر المجلس في الخطاب الآخر الذي يشكو سيادتكم فيه، من أنَّ توغُّل المُنقِّبين في أرضنا يُعرقل جهودك العِلمية، وتُطالب فيه بوضع نهايةٍ لهذا الإزعاج بمنحك امتيازًا إضافيًّا، حتى تحصل على مِلكية المعادن الموجودة في باطن أرض المنطقة السابق ذكرها، إكس ٢٧٥ على الخريطة المساحية لبيسكارا، وهو ما يجعل توغُّل المُنقِّبين غيرَ قانوني، وبناءً عليه جرى منحُك الامتياز الإضافي، بموجب الشروط التالية: تصل مدة الامتياز إلى اثنتَي عشْرة سنة، بداية من الرابعَ عشرَ من يونيو ١٩١٢، وتُجدَّد المدة بمعرفتك، أو معرفةِ ورثتك أو من تُرشِّحهم، كلَّ اثنتي عشرة سنة، وذلك بدفع مبلغ رمزي قيمته ١٠٠٠ ميلريس. وفي حالة إخفاق صاحب الامتياز، أو ورثته أو مُرشَّحيه، في طلب التجديد في الرابع عشر من يونيو ١٩٢٤، يسقط حقُّ ملكية المعادن الموجودة في باطن أرض المنطقة المذكورة، إكس ٢٧٥ على الخريطة المساحية لبيسكارا، بحسب القوانين السارية في أنجولا …»

أسند ليون ظهره للخلف.

ثم نظر لأعلى، وقال: «الرابع عشر من يونيو؟» وتابع: «عجبًا، سيحل هذا التاريخ في الأسبوع القادم — بعد خمسة أيام! لقد وصلنا في اللحظات المناسبة، يا جورج.»

فردَّ مانفريد قائلًا: «قال باربرتون إنه تبقَّى ستة أسابيع». ثم أضاف: «من الواضح أنه قد أخطأ في تأريخ التنازل بالحادي والعشرين من يوليو — أي تاريخ الخطاب. لا بد أنه كان الرجلَ الأكثرَ أمانةً في العالم؛ فليس هناك سببٌ آخر يجعله يتواصل مع الآنسة ليستر. إذ كان من الممكن أن يسكت ويُطالب بهذه الحقوق لنفسه. أكمِل يا ليون.»

فردَّ ليون متفقدًا نهاية الخطاب: «هذا كلُّ شيء تقريبًا». وتابع: «البقية مجاملاتٌ وإشارة إلى الجهد العلمي للبروفيسور ليستر. خمسة أيام … يا إلهي!» وأطلق صافرة.

فقال مانفريد وهو يُقلِّب الصفحات الكثيرة: «ربما نجد الآن شيئًا في حديث باربرتون الطويل من شأنه أن يُعطينا فكرةً عن قيمة هذه الأرض». وأضاف: «هل يكتب أحدكم يا سادةُ بطريقة الاختزال؟»

خرج ميدوز إلى البهو وأحضر ضابطًا. وانتظر ليون حتى وجد قلمَ رصاصٍ وورقة، ثم بدأ يحكي قصةَ ويليام باربرتون الاستثنائية — أكثر قصة استثنائية؛ فقد ثُقِبَت كلُّ كلمة بصبر بحروف طريقة برايل.

الفصل الثامن عشر

قصة مونت دور

«**صديقي العزيز جوني،**

أودُّ أن أحكيَ لك أمورًا كثيرة حتى إنني لا أعرف من أين أبدأ. صِرتُ ثريًّا أخيرًا، وتحقَّق الحلم الذي لطالما حدَّثتُك عنه. أولًا وقبل كل شيء، دعني أخبرك بأني حصلت على مشغولاتٍ ذهبية بقيمة ٥٠ ألف جنيه إسترليني. لقد كانت الأسودُ تُسبِّب لنا المتاعب هنا، حتى إن أحدها خطف مني حقيبتي، وفي النهاية قرَّرتُ أن أخرج لأُصفِّيَ الحسابات مع هذا الأسد. وجدتُه على بُعد ستة أميال من المخيَّم وأصبته برصاصتَين لكن دون أن أقتله، وقرَّرت تقفِّيَ أثره. كان هذا ضربًا من الجنون، أقصد تتبُّعَ أسدٍ جريح إلى الغابة، ولم أدرك مدى جنون الأمر حتى خرَجنا من الغابة متوجهين نحو التلال حيث وجدتُ لبؤته بانتظاري. وكادت هي الأخرى أن تُصيبني. لكن أسعفَني حظي ولا شيء غير ذلك، واستطعت أن أُطلق عليها النار وأُردِيَها قتيلةً من الرصاصة الأولى، ثم أطلقت رصاصةً أخرى على وليفها بينما كان يتسلَّل إلى كهفٍ قريب من خيمتنا.

وبما أني كنتُ قد قطعت شوطًا كبيرًا، فكَّرتُ في إنجاز المهمة كاملةً، خاصة عندما رأيت شبلَين يلعبان عند مدخل الكهف، فأحضرت الشبابَ المرافقين لي الذين كانوا مرتعبين حدَّ الموت، وزحفتُ للداخل لأجد الأسد الكبير، كما توقعت، ميتًا تقريبًا، وأن الرصاصة قضَت عليه. لذلك اضطرِرت إلى قتل الشبلَين؛ فقد كانا صغيرَين جدًّا ليُتركا وحدهما، كما كانا سيُحدِثان جَلبةً كبيرة لو أحضرتهما إلى المُخيَّم. وعرَفت أن هذا الكهف كان يُستخدم عرينًا لسنوات؛ حيث تملؤه العظام، التي من بينها عظامٌ بشرية.

لكن ما أدهشني كان منظرَ سطح الكهف، الذي كنتُ متأكدًا تقريبًا من أنه قد شُكِّل باليد. كان أشبهَ بمنزل، وبه من الخلف بابٌ محفور في الصخرة. لذا أضأتُ مصباحَ جيبي ودخلتُ في جولة استكشافية، وتخيَّل دهشتي عندما وجدتُ نفسي في غرفة صغيرة بها صفٌّ من الخزائن الصخرية أو الرفوف. وعلى كل جانبٍ من جوانب الغرفة ثلاثةٌ منها. وضعت على بعضٍ منها تماثيل مصغَّرة. كانت مُغطاةً تمامًا بالتراب حتى إنني ظننتها حجارة، إلى أن حاولت أن أنزل أحدها لفحصه؛ عندئذٍ عرَفْت من وزنه أنه مصنوعٌ من الذهب، كبقيتها.

لم أُرِد أن يعرف الشباب المرافقون لي بما وجدتُ؛ لأنهم غدَّارون، فأخذت أخفَّ التماثيل وزنًا، بعد وزنِها جميعًا بميزانٍ نابض، وكتبتُ ملاحظة عن موضع كلٍّ منها. وربما تعتقد أنها فرصة نادرة لا تُكرَّر سوى مرةٍ واحدة بالعمر، لكن حظِّي كان سعيدًا. حيث أعدتُ الشباب وأمرتُهم أن يُقوِّضوا المعسكر وينضمُّوا إليَّ على قمة التبَّة. أسميتُها تبَّة لأنها شبيهةٌ بتلٍّ أعرفه في باسوتولاند، وهي واحدة من أصل اثنتين.

نُقِل المعسكر لأعلى في تلك الليلة؛ ونُصِبَت الخيام بشكل أفضل من أي خيمة نصَبْناها. كانت هناك مياهٌ، ووفرةٌ من الطرائد الصغيرة، ولا يوجد ناموس. لكنَّ أسوأ ما في الأمر هي العواصف الرعدية المرعِبة التي كانت تضرب من حيث لا ندري، ولن تعرفَ أبدًا كيف تكون العاصفة الرعدية حتى تشهدَ واحدةً في هذا البلد ذي الصخرِ الحديدي! وقد كان التلُّ المُواجه لنا أقصرَ قليلًا من التل الذي عسكَرْنا فوقه، ويوجد بينهما وادٍ ضحل، يجري فيه نهرٌ ضحل — أو منحدر نهر إذا تحرَّينا دقة الوصف.

في ساعةٍ مبكرة من صباح اليوم التالي، كنت أتفقَّد المكان حولي بنظارتي المعظِّمة، ورأيتُ ما ظننته منزلًا على التلِّ المقابل. فسألت مرشدي الذي يعيش هناك، وأخبرني بأنَّ هذا المنزل كان يومًا مِلكًا للزعيم؛ وتذكرتُ أن شخصًا ما، في موساميدس، قد أخبرني أنَّ عالمًا فلَكيًّا كان يعيش في هذا المنزل، وأنه قُتِل على يد السكان الأصليين. ففكرت في الذَّهاب إلى هناك وأخذِ جولة في المكان. وقد كان الجو غائمًا ولم يكن شديد الحرارة، فأخذتُ بندقيتي واثنين من الشباب وعَبَرْنا النهر وبدأنا نتسلَّق التل. وقد أصبح المنزل، بالطبع، حُطامًا؛ وهو عبارةٌ

عن كوخ من الأغصان في أحسن الأحوال. كان جزءٌ منه مغطًّى بالعشب، لكني تفقدت المكان بدافع الفضول؛ على أمل إيجادِ أيٍّ ما يمكن أن يكون مفيدًا لي، كالغلايات على وجه التحديد، حيث أتلفَ الشبابُ المرافقون لي كلَّ ما كان لديَّ منها. وفعلًا وجدتُ واحدة، وبعد ذلك، وبالتقليب في كومة من القمامة أظنها بالتأكيد كانت سريرَ صاحب المنزل، وجدتُ علبة صغيرة من الصفيح الصدئ ففتحتها بعصاي. ووجدتُ فيها بضعة خطابات، لكن كان الحبر قد تلاشى حتى إنني استطعتُ فقط قراءة كلمة من هنا وكلمة من هناك، ووجدتُ داخل قطعةٍ من القماش المُشمَّع الأخضر، خِطابًا طويلًا من الحكومة البرتغالية.»

(وعند هذه المرحلة، إمَّا من قبيل المُصادفة أو عن قصد، واصلَ الراوي كلامَه على الورقة الفعلية التي كان قد أشار إليها.)

«أتحدَّث البرتغالية ويُمكنني قراءتُها بسهولةٍ كالإنجليزية، وكان الشيءُ الوحيد الذي أقلقني هو أنَّ خطاب منح الامتياز هذا قد أعطى البروفيسور ليستر كلَّ حقوقِ مِلكية كهفي. فكانت أول فكرة راودتني هي أن أُحرق الخطاب، لكني بعدها بدأتُ أدرك كم سيُصبح هذا تصرفًا حقيرًا، وخرجتُ بالخطابات في ضوء الشمس وحاولتُ إيجادَ ما إن كان لديه أيُّ أقارب؛ على أمل أن أستطيعَ الاتفاق معهم كي أحصلَ على ٥٠ في المائة مما وجدت. لكنَّ خطابًا واحدًا هو ما ساعدني. كان مكتوبًا بخطِّ طفل، ومن الواضح أنه مرسَلٌ من ابنته. ولم يَرِد به عنوانٌ محدد، لكنه يحمل اسم ... «ميرابيل ليستر».

وضعتُ الخطاب في جيبي مع خطاب منح الامتياز ورُحتُ أبحث، لكني لم أجد شيئًا آخرَ. وأثناء نزولي عن التلِّ باتجاه الوادي خطر ببالي أنه ربما يكون هذا الرجل قد وجد ذهبًا، واتخذ من خطاب الامتياز خدعة. فأرسلت أحدَ الشباب إلى المعسكر ليأتيَ لي بمِعوَل، ومِطرقة، ومِجرفة، ولمَّا عاد بدأتُ أحفر في جانب التل. ولم يكن هناك ما يمكن أن يرشدني — لا نتوء صخري، كالذي تجدُه عادةً بالقرب من الرصيف الرسوبي — لكن قبل أن أتمَّ ساعةً من الحفر، وجدتُ أغنى طبقةٍ من الصخور الرسوبية رأيتُها في حياتي. إما كنت أحلم، أو أن ملاكي الحارس قد قادني أخيرًا إلى المكان الوحيد بين صخور التل الذي يمكن العثورُ على الذهب فيه. وكنت قد أرسلت الشبابَ سابقًا إلى المعسكر

وأخبرتهم أن ينتظروني هناك، حتى إذا ما وجدتُ الذهب، لا يفتضح أمري في كل أنحاء أنجولا، حيث يبحثون عن الذهب منذ سنوات.

أودُّ منك أن تفهم أنه لم يكن رصيفًا رسوبيًّا بالمعنى التقليديِّ للكلمة، بل كان عبارةً عن كتلة رسوبية بالكامل، وكلما كنتُ أُوسِّع نطاق الحفر، تظهر الكتلة الرسوبية على نطاقٍ أوسع، فأخذتُ المِعوَل إلى مكانٍ آخرَ من التل وبدأت الحفر مجددًا، لأحصل على النتيجة نفسِها — صخر رسوبي. وكأن الطبيعة قد شكَّلت هضبةً ضخمة من الذهب على سطح الأرض. وفي وقت لاحق من تلك الليلة، غطَّيتُ موضعَي الحفر وعُدت إلى المعسكر. (كان هناك نمرٌ يُراقبني مختبئًا وسط الشُّجيرات المنخفضة، لكني نجحتُ في القضاء عليه.)

وفي ساعة مبكِّرة من صباح اليوم التالي، انطلقت لتفقد بقعة أخرى، وحصلت على النتيجة نفسِها؛ ثلاثة أقدام أولى من التراب، ثم نحو ستة إنشات من الطَّفل، ثم صخر رسوبي. حاولتُ الحفر في الكتلة الرسوبية، ظنًّا مني أنها ربما مجرد قشرة، لكني جُنِّبتُ مجهودًا كبيرًا عند اكتشاف صدعٍ عميق في التل باتساع عشرين قدمًا تقريبًا من الأعلى، ثم ينخفض إلى نحو خمسين قدمًا تحت سطح الأرض. حيث وفَّر لي هذا الصدعُ قطاعًا يمكنني الحفرُ فيه، وبحسَب تقديري، كان سُمك الكتلة الرسوبية أكثرَ من خمسين قدمًا، ولستُ متأكدًا مما إن كان هناك كتلةٌ أخرى على مسافة عشرين قدمًا أو أكثر؛ إذ إنني حفرتُ في مزيدٍ من الطَّفل، ثم وجدت بروزًا لصخرة رسوبية أخرى في عمق الصدع.

ماذا يعني هذا، يا جوني؟ يعني أننا وجدنا تلًّا من الذهب؛ ليس الذهب الصُّلب، المذكور في كتب الحكايات، بل ذهبٌ يوزن بالأوقية أو ربما بالرَّطْل وحتى الطن. ولا أفهم كيف أغفَله المنقِّبون كلَّ هذه السنوات، إلا إذا كانوا يحفرون في الجانب الشماليِّ من التل، حيث لم يجدوا إلا الأردواز والأحجار الرملية. لا بد أن ذلك النهر الصغير الذي يجري في الوادي يحتوي على الطَّمْي بعمق قدمٍ واحدة، فقد غسلت حصى الكتلة الرسوبية ووجدت ثماني أوقيات من الذهب الخالص خلال ساعة — وكان ذلك بطرقٍ بدائية للغاية. لكن يجب عليَّ توخِّي الحرص من إثارة فضول الشباب؛ لذا سأفضُّ المعسكر غدًا، وأودُّ منك أن تُرسل برقية أو تُرسل حوالةً لي في موساميدس بقيمة ٥٠٠ جنيه إسترليني. فالتمثال المُصغَّر الذي سأعود به إلى الوطن يستحقُّ كلَّ ذلك. وكان من الممكن أن آتيَ

بالمزيد، لكن لا يُمكنني الوثوقُ بشباب أنجولا المرافقين لي؛ فالكثير منهم تابعون للإرسالية، ويستطيعون قراءة البرتغالية، وهم ودودون جدًّا مع شخصٍ نصف أنجولي ونصف برتغالي يُدعى فيلا، وهو وكيل شركة أوبيرزون آند سميتس؛ تلك الشركة التي نعرف أنا والتجَّار أن أصحابها هم أكثرُ الأشخاص نذالةً وانعدامًا للضمير على الساحل كلِّه.

سأذهب إلى موساميدس بعد ثلاثة أسابيع من تلقِّيك هذا الخطاب، لكنني لا أودُّ العودة إلى الساحل متعجِّلًا، وإلا سيشكُّ الناس أنني قد اكتشفتُ شيئًا ما.»

وضع ليون الخطابَ جانبًا.

وقال: «إليكم القصةَ باختصار، يا سادة. لا أُصدِّق، ولو لحظةً، أن السيد باربرتون أطلَع فيلا على الخطاب. بل إن الاحتمال الأكبر هو أن واحدًا من السكان الأصليِّين المتعلمين الذين يتحدث عنهم رآه وأخبرَ وكيل أوبيرزون بشأنه. فاللغة البرتغالية هي اللغة الشائعة في هذه المنطقة من الساحل. لقد قُتِل باربرتون لمنع لقائه بالفتاة وإخبارها باكتشافه — ولسببٍ آخرَ أيضًا، وهو تحذيرها لتقديم طلب تجديد منح الامتياز. ولم يكن التفتيش في أمتعته ضروريًّا حتى بحثًا عن الخطاب؛ لأنه بمجرد عِلمهم بوجود الخطاب والتاريخ الذي من الواضح أن باربرتون قد خلَط بينه وبين تاريخ كتابة الخطاب، فإن كلَّ ما عليهم فِعله ببساطة هو تقديم طلبٍ لإدارة وزارة المستعمرات في لشبونة. لكن الأمر اختلف بعد مقتل باربرتون، ذلك عندما عرَفوا أو خمَّنوا أن الخطاب بحوزة السيد لي.»

أيَّده ميدوز في الرأي.

فسأله ليون قائلًا: «هل كان هذا هو الغرضَ من تعامل أوبيرزون مع ميرابيل ليستر؟»

فأجابه ميدوز: «بالضبط، كما كان السببَ وراء الهجوم على مزرعة هيفيتري. فمن أجل الحفاظ على هذه الأرض عليهم إبعادُ الآنسة ليستر وإخفاؤها حتى ينتهيَ موعد التجديد، أو حتى يُمكنَهم إرهابها أو إجبارها على تعيين مُرشَّح.»

قال ليون بخفة ظل: «أو تزويجها. ألم تخطر ببالك هذه الفكرة؟ ربما كانت لدى صديقنا الأنيق مونتي نيوتن نوايا تتعلق بالزواج منها. كانت هذه ستصبح ضربةً موفَّقة للغاية أن يؤمِّن لنفسه زوجةً وتلًّا ضخمًا من الذهب في الوقت نفسه. أظن أن هذا يئد طموحات دكتور أوبيرزون.»

نهض ليون عن الطاولة وسلَّم الأوراق للمُحقِّق، والتفتَ إلى صاحبه بابتسامةٍ مُحيِّرة. وسأله قائلًا:

«هل ترغب، يا جورج، في الذَّهاب في جولةٍ بالسيارة لمسافة مائتَين وخمسين ميلًا؟»

فردَّ جورج بسؤاله: «هل ستكون أنت السائقَ؟»

فأجابه ليون في مرح: «نعم سأكون أنا السائق». وتابع: «فأنا أقود السياراتِ منذ سنوات ولم أُقتَل حتى الآن. ومن غير المحتمل أن أُخاطر بحياتي الثمينة وبحياتِك أيضًا الليلة. تعالَ معي وأَعِدُك ألَّا أسيرَ بسرعة تتجاوز الستين إلا على الطرق السريعة.»

فأومأ مانفريد بالموافقة.

فقال ليون: «سوف نتوقف في أوكسلي ونُحاول إجراء مكالمة هاتفية إلى مدينة جلوستر». وأضاف: «وطبعًا، هذا الخطُّ معطَّل. فهم لن يتصرفوا تصرفًا غبيًّا كإهمال الإجراءات الوقائية الأساسية بقطع خطٍّ تليفون راث هول.»

توقَّفت السيارة الكبيرة طراز سبانز في أوكسلي أمام واجهة الفندق الصغير حيث ساد الظلامُ والصمت، ونزل ليون، فأتى بصاحب النُّزُل في نصف ملابسه وشرح له مهمته، كما عرَف أن سيارتين كبيرتين مرَّتا من هنا قبل نصف ساعة، متجهتَين إلى لندن.

فقال مانفريد: «لا بد أنهم العصابة. أتساءل كيف سيُبرِّرون لوليٍّ نعمتهم فشلَهم للمرة الثانية؟»

كانت مكالمة مانفريد الأولى للمنزل في كورزون ستريت، لكن لم يُجِبه أحد. فقال له ليون: «اتصل ثانيةً». وتابع: «هل تركتَ بويكارت هناك؟»

فأومأ مانفريد بالإيجاب.

انتظرا خمسَ دقائق؛ لكن لم يأتِهم رد.

فقال مانفريد: «ما أشد غرابة هذا!» وأضاف: «مِن غير المُعتاد أن يُغادر بويكارت المنزل. اتصل بجلوستر.»

في هذه الساعة المتأخرة من الليل تكون الخطوطُ غيرَ مشغولة، وفي مدةٍ قصيرة جدًّا سمع ليون صوتَ مُشغِّل خطوط جلوستر، وبعدها ببضع ثوانٍ سمع صوتَ النقرة التي تُخبرهم بأنهم الآن على اتصال بمزرعة هيفيتري. حيث كان هناك بعضُ التأخير حتى أُجيبَ الاتصال.

لم يكن مُجيب الاتصال ميرابيل ليستر ولا عمَّتَها. كما لم يكن صوتَ ديجبي الذي تعافى بما يكفي للعودة إلى عمله.

فسأل مُجيب الاتصال بحدة قائلًا: «مَن الذي يتكلم؟» وتابع: «أهذا أنت، أيها الرقيب؟»

فردَّ ليون كذبًا: «لا، بل السيد ميدوز.»

فسأله مُجيب الاتصال في شغف: «رجل شرطة اسكوتلاند يارد؟»

ثم قال: «أنا الشرطي كيرك، من شرطة جلوستر. لقد كان الرقيبُ يُحاول الاتصال بك، يا سيدي.»

فسأله ليون، وقد دبَّ القلق في قلبه: «ما الخطْب؟»

فأجابه الشرطي: «لا أعرف، يا سيدي. فقبل نصف ساعة أثناء مروري أمام المزرعة — فأنا أحد الرجال الذين يمتطون الجياد — رأيتُ الباب مفتوحًا عن آخره والأنوار كلها مُضاءة، ولمَّا دخلتُ لم أجد أحدًا مُستيقظًا. فأيقظت الآنسة جودارد والسيد ديجبي، لكن الآنسة الشابَّة لم تكن في المنزل.»

فسأله ليون بسرعة: «كانت الأنوار كلُّها مُضاءة؟»

فأجابه: «نعم، يا سيدي ... في غرفة الاستقبال على أي حال.»

فسأله ليون: «هل توجد أيُّ آثار للمقاومة؟»

فأجابه: «لا، يا سيدي؛ لكن مرَّت بي سيارة على بُعد ثلاثة أميال من المنزل بسرعة هائلة. أظن أن الآنسة كانت بهذه السيارة. وقد غادر السيد ديجبي والآنسة جودارد لتوِّهما إلى جلوستر.»

فقال له ليون: «حسنًا أيها الضابط. سأُرسل السيد جونزاليس لمقابلتك.» ووضع سماعةَ الهاتف.

عرَف جورج مانفريد من ملامحِ وجه صديقه أن ثمة مشكلةً ما، فسأله قائلًا: «ماذا حدث؟»

فأجابه ليون: «لقد أمسكوا بميرابيل ليستر رغم كلِّ شيء». وتابع: «أخشى أن أُضطرَّ إلى أن أُخلف وعدي لك، يا جورج. سأسافر بسيارتي هذه قبل الفجر!»

الفصل التاسع عشر

في مزرعة هيفيتري

لقد اتفقوا على أنه، بعد فشل هجوم العصابة، ونظرًا إلى أنهم قد ركَّزوا جهودهم في الوقت الحالي على راث هول؛ فإنَّ العودة الفورية للحارس القديم إلى مزرعة هيفيتري هي أمرٌ غير مرجَّح. كان هذا هو رأيَ ميدوز، وشاركه ليون وصديقه الرأي ذاتَه. ولم يُعارض هذا المنطقَ سوى بويكارت؛ الخبير الاستراتيجي الذي يعمل بثقةٍ لامتلاكه معرفةً غريبة بسيكولوجية أعدائه، ولكنه لم يُصِرَّ على رأيه؛ لذا تُرك أمر مزرعة هيفيتري وقاطنيها بين أيدي الشرطة المحلية وديجبي المضطرب.

عرَضَت العمة ألما ترْكَ غرفتها للرجل المصاب، لكنه لم يُذعن لذلك، وأخذ غرفة النوم الاحتياطية، فهي تُتيح وضعيةً دفاعية ممتازة؛ لأنها تفصل جَناح ميرابيل عن الغرفة الصغيرة الجميلة التي اتخذتها العمة ألما غرفةَ مكتبٍ ومكانًا للنوم.

يتكون طاقَم العاملين بمزرعة هيفيتري من راعي بقرٍ عجوز، وطاهٍ، وخادمة، وكانت الأخيرةُ قد قدَّمت إخطارًا بالفعل وغادرَت في عصر يوم الهجوم. فقد أخبرتْ ميرابيل، بمنتهى الجِدية، أنها تمتلك قلبًا ضعيفًا.

وقاطعتْها ألما بحدة قائلةً: «وعقلًا ضعيفًا أيضًا!» وأضافت: «لو كنتُ مكانكِ، يا فتاتي، لما قلقتُ على قلبي.»

استاءت الفتاة من الإهانة التي نالت من ذكائها، وردَّت عليها بقولها: «لقد كنتُ الأولى على صفي في المدرسة.»

ردَّت ألما: «لا بد أنه كان صفًّا صغيرًا جدًّا.»

انتهى الأمر بالعثور على خادمةٍ جديدة، وهي فتاة شعرَت بسعادة غامرة حينما علمَت باحتمالية تخلصِها من رَتابة العمل اليومي نتيجةَ أحداث مثيرة خارجةٍ عن المألوف، وقبل حلول المساء استقرت شئون المنزل وعادت إلى طبيعتها. كانت ميرابيل متعبة؛ لذا

خلدَت إلى فراشها مبكرًا تلك الليلة، واستيقظت مع أول أشعَّة شمس تسللت عبر نافذتها. استيقظت من النوم، وهي تشعر، كما قالت لنفسها، بأنه يومٌ عادي لا يختلف عن أي يوم من أيام حياتها. سحبت الستائر القطنية المزخرفة بالزهور، ونظرَت إلى الخارج لتُبصر سكون العالم، وهي تشعر بسعادة وراحةٍ لا حدود لهما. لم تلمح أحدًا على مرمى البصر. كانت السحُب تعلو الواديَ، ومن أحد مباني المزرعة البيضاء، بعيدًا على منحدر التل، رأت الدخانَ الأزرق يتصاعد. كان صباحًا لا يُنسى، وللاستمتاع بتلك اللحظات أقصى استمتاع، ارتدَتْ ملابسها على عجَل ونزلت إلى الحديقة. وفي أثناء سَيرها في الطريق سمعت صوت النافذة تنفتح وأطلَّ منها رأس السيد ديجبي المغطى بالضمادات.

قال بارتياح: «أوه، إنها أنت يا آنسة، أليس كذلك؟» وضحكت هي.

وقالت: «لا يوجد شيءٌ أكثر فظاعةً من رؤية عنكبوت كبير»، وأشارت إلى عنكبوتٍ كبير ثابت في مكانه، نسج خيوطَه بين أوراق نبات الخَطْمي الطويلة. ووقعت أولُ نحلة فريسة داخل شِباكه.

اعترف لها قائلًا: «لو أتى أحدُهم البارحة لما سمعته». وأضاف: «لقد استغرقت في النوم كالأموات». وتحسَّس رأسه بحذرٍ شديد. ثم تابع، دون أن يتردد في الإفصاح عن ضعفه: «أشعر بوخز، ولكن زال الألم. أخبرني الطبيب أنني نجوتُ بمعجزة؛ وظن أنني أعاني كسرًا. هل ترغبين مني أن أُعِدَّ لك الشاي، يا سيدتي، أم أستدعي الخادمة؟»

هزَّت رأسها نافيةً، ولكنه اختفى بالفعل، وأتى باحثًا عنها في الحديقة بعد عشرِ دقائق، وفي يدَيه كوبٌ من الشاي. وأخبرها للمرة الثانية أنه شرطيٌّ متقاعد، ويعمل لدى جونزاليس منذ ثلاث سنوات. إن الرجال الثلاثة يدفعون أتعابًا جيدة، وتفاجأت، حينما علمتْ بامتلاكهم موارد خاصة هائلة.

«هل هو مُجزٍ ماديًّا — أقصد عملهم في التحريات الخاصة؟»

سخِر من الفكرة قائلًا: «بوركتِ يا آنسة، كلا، بالطبع! إنهم رجالٌ في غاية الثراء. كنت أظن أن الجميع يعلم ذلك. يُقال إن ثروة السيد جونزاليس تُقدَّر بالمليون، حتى قبل الحرب.»

كان هذا خبرًا مذهلًا.

سألته: «ولكن لِمَ يفعلون هذا؟» ترددَت وتابعَت: «أقصد هذا النوعَ من العمل؟»

أجاب الرجل باقتضاب: «إنها هواية، يا سيدتي. فالبعض يَهْوى المشاركة بأحصنة السباق، والبعض الآخر يمتلك اليخوت، أما هؤلاء السادة فيجدون متعةً كبيرة في عملهم.» وأضاف: «ويدفعون أجورًا جيدة.»

إن الرجال الذين يعملون بانتظامٍ لدى رجال العدالة الثلاثة لا يتلقَّون أجرًا جيدًا فحسب، بل يتلقَّون أيضًا مكافأة، في كثير من الأحيان، لا يمكن وصفُها إلا بالهائلة. ذات مرة، بعد أن اعتقلوا وأطاحوا بعصابة إسبانية من لصوص البنوك، وزَّعوا ألف جنيه إسترليني على كلِّ مَن شارك في تلك المهمة. وألمح دون تصريح إلى أن هذه الأموالَ شكلَت جزءًا من الأموال المنهوبة التي استردَّها الثلاثة، وبدا أنه يظن أنه لا بأس في توزيع هذه المكاسب غير المشروعة.

وقال متفلسفًا: «وعلى أي حال، يا آنستي، بعد استعادتك أموالًا مماثلة، يصبح من المستحيل إعادتها لمن سُلبت منهم. فقد استمرَّ دييجو هذا بالسطو على البنوك سنوات، والبنوك ليست كالأفراد — إنها لا تشعر بخَسارة المال.»

قالت ميرابيل، وهي تركز في قطف الورود: «إنها وجهة نظر غير أخلاقية إطلاقًا.»

وافقها ديجبي الذي بدا أنه واحدٌ ممن تلقَّوا المكافأة، وتبنَّى وجهة نظر راضية ومتسامحة، فقال: «ربما، يا سيدتي». وتابع: «ولكن ألف جنيه تعني الكثير من المال.»

مرَّ اليوم بسلام. وعلمت بحريق مبنى أوبيرزون من الصحف المسائية المبكرة القادمة من جلوستر، ونظرَت إلى هذه الكارثة بصفتها مجردَ حادث ولم تربطها بأي شيء. لم تشعر بأسفٍ تجاه الحادث. التهمت النيران مبنًى عتيقًا متهالكًا. ودمَّرت بالصدفة لوحةً أصلية يعتبرها الدكتور أوبيرزون أثمنَ من أي لوحةٍ رسمها ليوناردو أو تخيَّلها رافائيل، لكنها لم تكن على علم بذلك.

وقبل وقت العشاء مباشرة، وقع أول حادث غريب في ذلك اليوم. كانت ميرابيل تقف بجانب بوابة الحديقة تتأمَّل أضواء السماء وقتَ الغروب، التي تكسوها السحب الحمراء والرمادية الضاربة إلى الزُّرقة. وقد بدأ الرذاذ في التساقط منذرًا بليلةٍ ممطرة. لكن استبَقَتْها روعة تلك الألوان الفخمة. وأدركت في هذه العتمة قدوم رجلٍ باتجاه المنزل من جهة جلوستر. كان يسير في منتصف الطريق بخطًى وئيدة، وكأنه معجبٌ بالمنظر، هو الآخر، ويرى أنه لا داعي للعجلة. كانت يداه وراء ظهره، وقبَّعته الصوف مُزاحة خلف رأسه. كان رجلًا بدينًا قصيرَ القامة، ذا وجه مألوف بشكل غريب. أدار عينيه المتجهمتَين باتجاهها، ونظرت مرةً أخرى إلى ملامحه الحادة، وإلى شاربه الأسود الدقيق الذي يخطُّه الشَّيبُ تحت أنفه المعقوف، كانت واثقةً أنها رأته من قبل. ربما التقَتْه في الشارع ذات مرة، ودون وعي منها اختزنَت صورته في ذاكرتها.

أبطأ خطوتَه، وتوقَّف، عندما اقترب منها.

وسألها بصوتٍ عميقٍ متناغم: «هل هذا طريقُ هيفيتري لان؟»

أجابته بابتسامة: «لا، ستجد الطريق عند أول فتحة في السياج». وتابعت: «أخشى أنه لا يمكنك وصفه تمامًا بالطريق؛ فهو عادةً ما يكون موحلًا بارتفاع الكاحل.»

نظر خلفها متطلعًا إلى المنزل؛ وتجوَّلت عيناه بين النوافذ، ووقع نظره على نَبْتة الياسمين البريِّ المتسلقة، ثم نظر إليها من جديد.

وقال: «لا أعلم مقاطعة جلوسترشاير جيدًا. منزلك جميل جدًّا.»

أجابته في دهشة: «أجل!»

«وكذلك الحديقة.» ثم قال بعفوية: «هل تزرعون البصل؟»

حدَّقَت فيه وضحكَت.

«أعتقد أننا نزرعه، لستُ متأكدة. فعمتي هي التي تعتني بحديقة خَضراوات المطبخ.»

طافت عيناه الحزينتان على المنزل مرةً أخرى.

قال: «إنه مكان جميل جدًّا»، ورفع قبَّعته تحيةً لها، ومضى في طريقه.

كان ديجبي بالخارج، فقد ذهب في نزهة خاطفة، وكانت تنظر إلى الطريق لتُتابع الغريب، حينما رأت الحارسَ يظهر عند منعطف الطريق، ورأته يتوقَّف ويتحدث إلى الغريب. بدا واضحًا أن كلًّا منهما على معرفةٍ بالآخر؛ لأنهما تَصافحا عند لقائهما، وبعد قليلٍ أشار ديجبي إلى الطريق حيثما تقف، ورأت الرجلَ وهو يُصدر إيماءةً برأسه. وبعد انصراف الغريب عن الأنظار بقليل. تساءلت الفتاة مَن يكون هذا الرجل؟ هل كان حارسًا إضافيًّا عيَّنه الرجال الثلاثة لحمايتها؟ وعندما أتى ديجبي إليها سألته. فأجابها قائلًا: «ألا تعلمين مَن هذا السيد، يا سيدتي؟ إنه السيد بويكارت.»

ردَّدتْ مبتهجة: «بويكارت؟» ثم أضافت: «يا إلهي! ليتني كنتُ أعرف!»

قال الحارس: «لقد اندهشتُ لرؤيته. الحقيقة أنه أكثرُ مَن التقيتُه من بين الرجال الثلاثة. فهو عادةً ما يظل في كورزون ستريت، حتى حينما يكون الآخران في مكانٍ آخر.»

لم يكن لدى ديجبي ما يقوله عن بويكارت باستثناء أنه كان رجلًا شديدَ الهدوء، وليس له دورٌ فعَّال في العمليات التي يقوم بها رجال العدالة الثلاثة.

سألته الفتاة متأملة: «أتساءل لِمَ أراد أن يعرف إن كنا نزرعُ البصل؟ بدا ذلك محيرًا بشدة.»

ليس أمرًا شديدَ الغموض بالنسبة إلى ليون.

خلد جميعُ مَن بالمنزل إلى النوم بعد العاشرة بقليل، وذهبتْ ألما لتتفحَّص المصارع والأقفال الجديدة التي أتمُّوا تركيبها هذا الصباح على كل باب يسمح بالدخول إلى المنزل.

كانت ميرابيل متعبةً دون سبب واضح، واستسلمَت للنوم بمجردِ أن لامس رأسُها الوسادة.

سمعت في أحلامها المطرَ يتساقط على نافذتها، وظلَّت مستلقيةً طويلًا وهي تُحاول استعادة نشاطها لتنهض وتُغلق النافذة الوحيدة المفتوحة؛ لأن الستائر كانت تتطاير. ثم سمعت صوتَ دقٍّ أعلى على اللوح الزجاجيِّ المغلَق، وارتطم شيءٌ بأرضية غرفتها مُحدِثًا صوتًا عاليًا. فاعتدلَت وجلست. لا يمكن أن يكون ذلك صوتَ المطر المنهمر، على الرغم من أن صوت الرعد كان قريبًا.

نهضت من فراشها، وأحكمت رِداء النوم حول جسدها، وذهبت إلى النافذة، وتمالكَت نفسها حتى تكبحَ صرختها. فقد رأت شخصًا يقف في الممر بالأسفل ... امرأة! فمالت خارج النافذة.

وسألت: «مَن هناك؟»

«أنا ... أنا ... جوان!» بدا من صوت الفتاة أنها تنتحب. ورغم هذه العتَمة، استطاعت ميرابيل ملاحظةَ أن الفتاة مبتلَّة تمامًا. «لا تُوقظي أحدًا. تعالَي ... أريد محادثتك.»

سألتها ميرابيل بصوت خفيض: «ما الخطْب؟»

«كل شيء ... كل شيء.»

كانت على وشْك أن تُصاب بنوبةٍ هيستيرية. أشعلت ميرابيل شمعةً وتركت الغرفة، وهبطت السلَّم بهدوء حتى لا تُزعج ألما. وضعت الشمعة على الطاولة، ورفعت المزلاج وفتحَت قُفل الباب، وبمجرد أن فتحَته، تسلل رجلٌ عبر الباب نصف المفتوح، وأطبق بيدَيه على فمها حين أوشكت على الصراخ.

تبِعه رجلٌ آخر، ورفع الفتاةَ التي تُقاوم، وحملها إلى غرفة الجلوس. وأخرج أحدُ الرجلين قنينةً معدنية صغيرة من جيبه، متصلةً بأنبوبة مطَّاطية تنتهي بقناعٍ أحمرَ كبير. رفع آسِرُها يدَيه عنها لحين تثبيت القناع على وجهها. وفتح صنبورًا صغيرًا. شعرت ميرابيل بهواء ينفث في وجهها، له طعمٌ حلو غريب، وبعدها بدأت دقَّات قلبها تتسارع بشدة. وظنت أنها تحتضر، وأخذت تتلوَّى في يأسٍ لتحرير نفسها.

قال مونتي نيوتن وهو يرفع جَفنَها للحظة: «إنها بخير. أحضِر بطانية.» والتفتَ بعنفٍ إلى الفتاة التي تنتحب خلفه. وقال بوحشية: «فلتخرسي! هل تريدين إيقاظ البيت بأكمله؟»

كانت جوان البائسةُ تنتحب في هدوء، والدموع تنهمر على وجهها، ويداها تتشابكان وتستقرَّان فوق رأسها الذي تتصارع الأفكار بداخله.

وقالت باكية: «لقد أخبرتَني أنك لن تؤذيَها!»

أشار إلى الباب، وهمس قائلًا: «اخرُجي». وانصرفت بخنوع.

التفَّت بطانية ثقيلة حول الفتاة الفاقدة الوعي، وتعاونَ الرجلان في رفعها، وخرجا في المطر، حيث تنتظرهم الشاحنة القديمة، وسَحَباها فوق أرضية العربة المغطَّاة بالقش. وفي غضون ثانية تحركت العربة، وانطلقت مُسرعة.

بحلول هذا الوقت بدأ تأثير الغاز يتلاشى واستردَّت ميرابيل وعيها. مدَّت يدَها ولامست رُكبةَ امرأة. فقالت: «مَن أنتِ؟ ألما؟»

جاءها صوتٌ بائس قائلًا: «لا، أنا جوان.»

«جوان؟ أوه، أجل، بالطبع ... لماذا فعلتِ ذلك؟ يا للخبث!»

زمجرَ مونتي قائلًا: «فلتَصمُتي!» وتابع: «وانتظري لحين الوصول إلى ... حيث أنتِ ذاهبة، وبعدها فلْتسألي عن «الأسباب» و«العلل»».

كانت ميرابيل مرتبكةً وتشعر بغثيانٍ شديد، وزادت حالتها سوءًا خلال الساعة التالية، للحد الذي صرَف عنها قلقها. كان رأسها يدور ويدور، وآلَمها بشدة، وكانت الشاحنة تهتزُّ، فحال ذلك دون تحسُّن حالتها.

كان مونتي، الجالسُ مستندًا بظهره إلى جانب الشاحنة، يُدخِّن. ويتلفَّظ بالسباب بين الحين والآخر، حين تُطيح به بعض الهزَّات العنيفة جدًّا إلى الأمام. ومرُّوا عبر مركز العاصفة؛ فكان وميضُ البرق شبهَ مستمرٍّ وصوت الرعد يكاد يُصِم الآذان. وانهمرَ المطر فوق غطاء الشاحنة محدثًا صوتًا يُشبه دقَّات الطبول.

غطَّت ميرابيل في سُبات عميق، واستيقظت وهي تشعر بتحسُّن. كان الجوُّ لا يزال معتمًا، وليس باستطاعتها معرفةُ الطريق الذي يسلكونه، فقط عندما اتخذ السائقُ منعطفًا خاطئًا عبر بلدة ريفية، وبمساعدة ضوء البرق، تأكدت من أنها لمحت مِضمارَ سباق، وبعدها بقليل لمحت كلمة «نيوبري». فأدركَت أنهم متجهون إلى لندن.

في هذا الوقت من الصباح كانت حركة المرور قليلةً أو معدومة، وعندما انعطَفوا إلى طريق جريت ويست رود الجديد مرَّت بهم سيارةٌ كبيرة تنطلق بسرعة سبعين ميلًا في الساعة، واستيقظت الفتاةُ على صوت هَدير محركها. أصبح الآن بإمكانها الشعورُ بعجلات الشاحنة وهي تنزلق فوق قُضبان الترام. زادت الأضواء أكثر. ورأت نافذة متجر مضاءة بأنوار كثيرة، من الواضح أن الحارس الليلي نسي إطفاءَ الأضواء في الوقت المحدد.

وسرعان ما كانوا يعبرون نهر التايمز. لمحَت الأضواءَ الحمراء والخضراء لقاطرة، ورأت اللونَ الأسود في سلسلة من الزَّوارق البحرية في منتصف النهر. غالَبَها النعاس مرةً

أخرى، واستيقظت منتفضة عندما تمايلت العربة وانزلقت فوق سطحٍ شديد الوعورة أكثرَ من أي سطح آخرَ اجتازوه. ففي مرةٍ انزلقت عجلاتها في الحفرة، واندفعت بعنفٍ إلى الجانب. وفي مرة أخرى انزلقَت واصطدمت ببعض الحواجز. أصبح الاصطدامُ أقلَّ حدةً، ثم توقفت العربة، وقفز مونتي للأسفل ونادى عليها بحدَّة.

الآن صار ذهنُها صافيًا، على الرغم من خفقان رأسها. رأت منزلًا غريبَ الشكل، كانت الجملونات والأبراج ضيقةً بشكلٍ غريبٍ لا يُلائم ارتفاعها. بدا أنهم وسط أحد الحقول. ورغم ذلك كانوا في لندن؛ إذ كان بإمكانها رؤيةُ وهج حرائق الأفران، وسماعُ دويِّ صافرات إنذار السفن وهي تشقُّ طريقها عبر النهر.

لم يكن لديها وقتٌ كافٍ لملاحظة الأشياء من حولها؛ لأن مونتي كبَّل ذراعَيها وخاضت في الوحل، وصعدت سُلَّمًا صخريًّا إلى قاعةٍ خافتة الإضاءة. كانت مشوَّشة الذهن وظنَّت أنها رأت جِراءً صغيرة تقف على جانب درجات السلَّم، وطائرًا كبيرًا ذا منقارٍ طويل، لكن ربما ليست إلا أضغاثَ أحلام من تأثير الغاز.

فتح مونتي بابًا ودفع بها أمامه، ووجدَت نفسها تُحدِّق في وجه الدكتور أوبيرزون.

كان يرتدي رداءَ نوم مخمليًّا أسودَ، لعله كان لباسًا ملَكيًّا ذات يوم، ولكنه أصبح الآن ملطَّخًا بالدهون والبقع. وفوق رأسه البيضاوي ارتدى قبعةَ تدخين مطرزةً تعود إلى العصر الفيكتوري. وغطَّت قدَمَيه نعلٌ مخملية دافئة. وضع الكتابَ الذي كان يقرؤه جانبًا، ومسح عدساتِ نظارته بكمِّه المخملي، ثم قال:

«حسنًا إذن!»

وأشار إلى بقايا نيران التدفئة.

وخاطب ميرابيل قائلًا: «اجلسي لتحصُلي على بعض الدفء يا ميرابيل ليستر.» ثم خاطب مونتي قائلًا: «لقد أتيتَ سريعًا يا صديقي.»

أجابه نيوتن متذمرًا: «إن جسمي كلَّه مليء بالكدمات السوداء والزرقاء. لماذا لم يُمكننا الحصول على سيارة؟»

«لأن السيارات كانت مشغولةً كما أخبرتك.»

بادره نيوتن بقوله: «هل ...» ولكن العجوز نظر إلى الفتاة نظرةً ذات معنًى، وهي ترتجفُ أمام المدفأة وتُدفئ يدها وهي تفركها.

«سأجيبك، دون أن تسأل، في الوقت المناسب. وهذه اللحظة تحديدًا ليست الأكثرَ ملاءمة. أين امرأتُك؟»

لقد نسي أمر جوان، وخرج ليجدَها واقفةً في الرواق ترتجف.

سأله، ورأسه يُطل من الباب: «هل تريدها؟»

«ستذهب مع هذه الفتاة. اشرح لها الأمر.»

«أين ستضعها؟»

أشار أوبيرزون إلى الأرضية.

«هنا؟ ولكن …»

«لا، لا. يا صديقي، أنت تتسرَّع في تفسير الأمور على غير مُرادي. ستُقيم هذه السيدة المبجَّلة في قصر … لديَّ صديق لن يحتاج إليه بعد الآن.»

ارتجف وجهُه وكاد يبتسمَ. وتحسَّس تحت الطاولة، وأخرج زوجًا من أحذية ولينجتون الطويلة الرقبة، وخلع شِبْشِبَه، ولبس الحذاء وهو يلهثُ ويرتعش.

«كل ما يحتاجانه هناك؛ لقد اعتنيت بالأمر بنفسي. هيا تقدَّم!»

وتقدَّمَهم للخروج من الغرفة، ورفع الفتاةَ لتقف على قدمَيها، وتبعهما نيوتن، وكانت جوان الأخيرة. وداخل المصنع، أخرج أوبيرزون كشافًا يدويًّا صغيرًا من جيبه، وأرشدهم عبر الركام حتى وصلوا إلى ذلك الجزء من الأرض حيث السحارة. أزال القُمامة التي تُغطيها بقدمه، وسحب السحارة ونزل إلى الأسفل.

قالت جوان بصوتٍ منفعل: «لا يمكنني النزول إلى هناك، يا مونتي، لا أستطيع!» وتابعت: «ماذا ستفعل بنا؟ يا ويلي! فقط لو كنت أعرف …»

أجابها نيوتن بحدَّة: «لا تكوني حمقاء». وأضاف: «ممَّ تخافين؟ لا يوجد شيءٌ هنا. نريدك أن تعتني بها لمدة يوم أو يومين. فأنتِ لا يُمكنك أن تتركيها تنزل إلى الأسفل بمفردها؛ ستموت رعبًا.»

كانت أسنانها تصطكُّ ببعضها، وتعثرَت جوان وهي تهبط السلَّم خلفه. من المؤكد أن نظرتها الأولى على مسكنها الجديد كانت مطمئِنة. كان هناك فِراشان صغيران جاهزان؛ وقد خضعت الغرفةُ الموجودة تحت الأرض للتنظيف، وفُرِش بِساطٌ جديد فوق الأرضية. علاوةً على ذلك، كانت إضاءة الغرفة جيدة جدًّا، وكان الفرن يُصدر دفئًا مبالَغًا فيه، لكنه كان موضعًا للترحيب؛ فقد انخفضَت درجة الحرارة ٢٠ درجة منذ الظهيرة.

قال أوبيرزون، مشيرًا إلى صندوق جديد تمامًا موضوع بجانب أحد الفِراشين: «يوجد داخل هذا الصندوق ملابسُ متنوعة، وجميعها باهظةُ الثَّمن». وتابع: «وستحصلان على طعام وفير … والخبز والحليب الطازَج يوميًّا. وبحلول المساء عليك وضع الستارة فوق

جهاز التهوية.» وعلى الحائط كانت هناك ستارةٌ سوداء صغيرة بمساحة نحو عشر بوصات مربعة.

أخذها مونتي إلى الغرفة المجاورة ودلَّها على مكان الاغتسال. كان هناك حوضُ استحمام، وهو شيء إلزامي بموجِب قانون المصانع الإنجليزية في مخزنٍ بهذا الوصف، فقديمًا كان الرجال يُضطرُّون إلى التعامل مع بعض المنتجات غير الصحية القادمة من الساحل.

«ولكن كيف سنخرج، يا مونتي؟ وأين نُرفِّه عن أنفسنا؟»

قال خافضًا صوته: «ستخرجان مساءَ الغد، سأحرص على ذلك». وتابع: «والآن أنصِتي، يا جوان؛ عليكِ أن تكوني فتاةً عاقلة وتُساعديني. سنَجْني أموالًا طائلةً من هذا الأمر، أكثرَ مما حلمتِ به يومًا. وعندما ينقضي هذا العمل البغيض، سآخذك بعيدًا في رحلة حول العالم.»

إنه هذا الوعد القديم الذي قطَعه من قبل، الوعدُ الذي لطالما حلما بتحقيقه، ولكنه لم يتحقَّق قَطُّ. ولكن هذا الوعد لم يمحُ قلقها تمامًا.

وسألت: «لكن ماذا ستفعل بالفتاة؟»

«لا شيء؛ ستمكث هنا أسبوعًا. وأقسم لكِ لن يَمسَّها أيُّ سوء. وفي نهاية الأسبوع ستكون حرة دون أن تُمس شعرة واحدة من رأسها.»

نظرت إليه بتمعُّن. وبالنظر إلى مدى معرفتها به، علمَت أنه كان يقول الحقيقة. ورغم ذلك ...

هزَّت رأسها، وقالت: «ولكني لا أفهم الأمر»، وللمرة الأولى أظهر مونتي نيوتن صبره معها.

حيث قال: «إن لديها ممتلكاتٍ كبيرةً في أفريقيا، وهو ما سنحصل عليه، إذا سارت الأمور على ما يُرام. الفكرة أنها لا بد أن تُطالب بمِلكيتها هذه في غضون أيام قليلة، وإن لم تفعل فسنحصل نحن على المِلكية.»

زالت ملامحُ القلق عن وجهها.

سألته: «هل هذا كلُّ ما في الأمر؟» كانت تعرفه جيدًا بما يكفي للكشف عن لحظات صِدقه النادرة. وتابعت: «لقد أزاح هذا الكثيرَ من الأفكار التي تدور في ذهني، يا مونتي. بالطبع سأبقى هنا وأعتني بها من أجلك، شعرت بالراحة لمعرفتي عدمَ وقوع أيٍّ سوء. ما تلك الأشياء المغطَّاة باللباد الموجودة خلف الفرن، تبدو كأنها صناديق؟»

التفتَ خلفه بسرعة.

وأجابها قائلًا: «كنتُ سأخبركِ عنها، لا تلمَسي أيًّا منها تحت أي ظرف». وأضاف: «إنها تخص الرجلَ العجوز، وهو سريع الغضب بشأن أشياءَ كتلك. اتركيها كما هي. هو فقط مَن يلمسها ولا أحد سواه. هل تفهمين؟»

أومأت برأسها موافِقة، واندهش، عندما طبَعَت قُبلةً على خده بشفتَيها الباردتين.

وقالت بارتجاف: «سأساعدك، يا فتى. لعلَّ هذه الرحلة تُؤتي ثمارها بعد كل هذا العناء، إذا ...»

«إذا ماذا؟»

«هؤلاء الرجال — الرجال الذين كنتم تتحدَّثون عنهم — رجال العدالة الأربعة، أليس هذا ما يُطلقونه على أنفسهم؟ إنهم يُخيفونني بشدة، يا مونتي! وهم مَن أخَذوها بعيدًا من قبل، وسيقتلوننا — حتى أوبيرزون يقول ذلك. إنهم يُلاحقونه. هل ...» تردَّدَت قبل أن تُكمل حديثها، وقالت: «هل قَتَلَ أحد؟ ذلك الهراء عن الأفعى — لا دخل لك به، أليس كذلك، يا مونتي؟»

بدَت كطفلةٍ لا امرأة بالغة عاقلة، بينما تتشبَّث بذراعه، وعيناها الزرقاوان تتطلعان باستجداءٍ إلى عينيه.

أزاح ذراعها المتشابكة بذراعه، وهو يتحرك إلى حيث كان ينتظره أوبيرزون، وقال وهو لا يزال محتفظًا بصبره: «هُراء! وماذا أعرف أنا عن الأفاعي؟»

كانت الفتاة راقدةً على الفراش، وتدسُّ وجهها بين ذراعَيها، بينما ينظر إليها، بتعبيرٍ غامض.

«حسنًا، إذن هذا كل شيء الليلة. ليلة سعيدة، أيتها السيدتان الكريمتان.»

استدار وعادَ للخلف باتجاه السلَّم، ولوَّح بيدَيه. وتبِعه مونتي. سمعت الفتاة صوتَ غلق السحارة، وصوتَ احتكاك حذاء الرجل العجوز بالأرضية، ثم صوتَ هدير، لم تفهَمْه على الفور. ولاحقًا، وهي تُحاول فتح السحَّارة في رعب، وجدَت أن بِرميلًا ثقيلًا قد وُضع عليها، وأنه لا يمكن فتحها.

الفصل العشرون

إفادة جيرتر

لم ينَمْ دكتور أوبيرزون في سريره منذ خمسةٍ وثلاثين عامًا. فقد اعتاد النومَ على كرسي، واستبدل غفوات النعاس بجرعات غزيرة من مؤلفات كُتَّابِه المفضَّلين. وفي أغلب الأحيان كانت الكتب تدور حول الروح، والإرادة الحرة، والقضاء والقدَر، مع الانغماس أحيانًا في مؤلَّفات نيتشه على سبيل الترفيه. في الظروف العادية كان سيحتاج إلى كل الفلسفات التي يُمكنه إتقانها؛ ليُواجه الخراب الذي حلَّ به. فإن تدمير مخزنه الذي لم يكن مؤمَّنًا عليه، لأي غرضٍ أو مقصد، كان بمثابة ضربة القدَر القاصمة لولا الفرصةُ الذهبية التي يضعها صوب عينيه.

وصل فيلا الوسيم الذي كان نصف أنجولي نصف برتغالي، إلى إنجلترا وظلَّ بصحبة الدكتور طَوال المساء. في تلك اللحظة كان في طريقه إلى ليفربول للَّحاق بالسفينة المتجهة إلى الساحل، وترك مع رئيسه سِجلًّا بالادعاءات المثبَتة في مونتو دورو، بعدما أعاد تسمية الجبل الجديد تسمية جذابة. كانت هناك ملايينُ؛ ثروة لا تُحصى. ولم يفصل الدكتورَ عن حصد هذه الثروة الهائلة إلا حياةُ شخص واحد، لم تكن لديه رغبةٌ فورية في التخلص منها. كان الدكتور رجلًا أعزبَ، سئم النساء. ولكنه كان مستعدًّا لاتخاذ خطوة القتل إذا كان ذلك سيضمن له تضاعُفَ ثروته. وسيمنحه موتُ ميرابيل فرصةً واحدة، ولكن إذا نجح في إقناعها وهي على قيد الحياة، تتضاعف هذه الفرصة مائة مرة.

فتح الكتاب الذي كان يقرؤه على الصفحة الأخيرة، وأخرج الورقةَ المطوية. كانت تصريحًا خاصًّا للزواج، ومسجَّلًا على النحو الواجب لدى مكتب تسجيل جرينتش بتاريخ اليوم السابق على توظيف الفتاة في شركته. كان هذا هو سلاحَه الثانيَ والأقوى. فبهذه الورقة من الممكن أن يُصبح متزوجًا قانونيًّا منذ ما يقرب من الأسبوع. وكان هذا التصريح

ساريًا لمدة شهرين على الأقل، وتَفصله خمسةُ أيام فقط عن حتميةِ اتخاذ القرار. إذا انقضى الوقت، يمكن أن تعيش ميرابيل. فإنَّ قتل امرأةٍ تبحث عنها الشرطةُ بدمٍ بارد، ومن شأن اسمه أن يرتبطَ باختفائها، يختلف تمامًا عن النوع الآخر من القتل الذي يُفضِّله؛ وهو صرعُ رجال غرباء في الشوارع المزدحمة. إنها لا تصلح ضحيةً للأفعى — حتى الآن.

طوى الورقةَ بعناية، وأعادها إلى الكتاب وقلب الصفحة، عندما سمع طرقاتٍ رقيقةً على الباب، فاعتدل في جِلسته.

«ادخل، يا فايفر، تقدم!»

فُتح الباب بهدوء، ودخل رجلٌ إلى الغرفة في وجَل، اندهش دكتور أوبيرزون لرؤيته.

كانت هذه المرةَ الأولى التي يخرج فيها عن هدوئه المعتاد، فتلعثمَ صائحًا: «جيرتر!»

ابتسم جيرتر وأومأ برأسه، وعيناه المستديرتان مثبَّتتان على الشُّرَّابة المتدلية من قبعة التدخين الخاصة بالدكتور.

«لقد عدتَ ... وفشلتَ، أليس كذلك؟»

قال الرجل بلهجةٍ متقطعة: «أظن ... أن الرجل الأمريكي ... قد مات، يا سيدي الدكتور». وتابع: «وفايفر المتميز جدًّا هو الآخر ... مات!»

طرَف الدكتور بعينَيه مرتين.

وقال منزعجًا: «مات؟» ثم أضاف: «مَن أخبرك بهذا؟»

«لقد رأيته. حدث شيءٌ ما ... للأفعى. تعرَّض فايفر للدغةِ الأفعى.»

ظلَّت نظراتُ العجوز الحادة مثبَّتةً عليه.

وقال بهدوء: «هكذا إذن!»

ارتجف جيرتر، وهو لا يزال مبتسمًا تلك الابتسامةَ السخيفة، وقال: «مات بسرعة جدًّا ... بالطريقة المعتادة.»

ردَّد الدكتور مرة أخرى: «هكذا إذن!» وتابع: «فشل كلُّ شيء، ونجا الأمريكي الذي لا قيمة له، ومات فايفر الذي ... لا غِنى عنه!»

قال جيرتر دون أن يرفع بصره أو يَخفضه: «فليرحَمْه الله برحمتِه! كنت أُفكر في ذلك طَوال الطريق وأنا عائدٌ يا دكتور ... كم كان من الأفضل لو ظلَّ فايفر على قيد الحياة بدلًا مني. رغم أن أعصابي متوترةٌ للغاية.»

قال الدكتور للمرة الرابعة، وهو يمد يده إليه: «هكذا إذن!»

أدخل جيرتر يده في جيب الصديري وأخرج علبةَ سجائر ذهبية. فتحها الدكتور، ونظر إلى السجائر الخمس المصطفَّة فوق الحامِلَين الطويلَين اللذين يرقدان بدقةٍ في مكانهما الصحيح، ثم أغلق العلبة بلمسةٍ واحدة ووضعها فوق المنضدة.

«ماذا أفعل بك، يا جيرتر؟ ستأتي الشرطةُ غدًا لتفتيش هذا المنزل.»

«هناك القبو، يا سيدي الدكتور؛ إنه مكانٌ مريح للغاية. وأنا أفضِّل ذلك.»

أصدرَ الدكتور أوبيرزون إيماءةً مثل صبيٍّ يمحو شيئًا مكتوبًا فوق أحد الألواح.

وقال: «هذا غير ممكن؛ إنه مشغول. يجب أن أعثرَ لك على مكان جديد.» استمرَّ في التحديق والتأمل. ثم قال: «هناك القارب.»

لم تتلاشَ ابتسامةُ جيرتر.

كان القارب صندلًا صغيرًا، سُحب إلى الرصيف الخاص بمصنع أوبيرزون آند سميثس، وظل قابعًا هناك سنواتٍ، وصار ملعبًا للفئران، ومأوًى للمشرَّدين. وأدرك الدكتور ما كان يدور في عقل الرجل.

«ربما تستريح هناك. سأعطيك بعضَ الغاز لقتل الفئران، وسيكون ذلك مؤقتًا لخمسة أو ستة أيام فقط.»

«حسنًا، يا سيدي الدكتور.»

«وبالنسبة إلى هذه الليلة فيُمكنك النوم في المطبخ. فأنا لا أتوقَّع …»

سمع صوت طرقاتٍ مدوِّية على الباب الخارجي. فتبادل الرجلان النظرات، ولكن ما زال جيرتر يبتسم.

قال الدكتور بهدوء: «أظن أنها الشرطة.»

هبَّ واقفًا، ورفع مقعد الأريكة الطويلة الصلبة، وكشف عن تجويفٍ عميق، انزلق جيرتر داخله، وبعدها عاد مقعد الأريكة لما كان عليه. بعد ذلك، توجَّه الدكتور إلى الباب وأدار المفتاح في الباب.

«صباح الخير، أيها المفتش ميدوز.»

سأله ميدوز: «هل يمكنني الدخول؟»

وقف خلفه ضابطان من الشرطة، أحدهما يرتدي زيَّه الرسمي.

«بالتأكيد. هل ترغب في رؤيتي؟» أمسك الباب بحرصٍ ليظل مفتوحًا، دخل ميدوز وحده، وسبق الدكتور إلى غرفة المكتب.

قال ميدوز باقتضاب: «أريد ميرابيل ليستر». وتابع: «لقد اختُطِفَت من منزلها في وقتٍ مبكر من صباح اليوم، ولديَّ معلومات تقول بأن السيارة التي اختطفتْها توجهَت إلى هذا المنزل. وهناك آثارُ إطارات السيارة في الوحل بالخارج.»

قال الدكتور بهدوء: «إذا كانت هناك آثارُ إطارات سيارة، فإنها آثارُ سيارتي.» وعدَّد له السيارات التي يمتلكها. «وهناك أمرٌ آخر، أيها المفتش ميدوز؛ بالنسبة إلى السيارات التي تأتي إلى هنا ليلًا، فأنا أمتلك حاسةَ سمع قويةً، وسمعتُ العديد من السيارات تقطع طريق هانجمان — ولكن ليس في أرضي. بالإضافة إلى أنني واثقٌ أنك لم تأتِ لتُخبرني عن فتيات مختطَفات، وإنما لتُخبرني عن الوغد الذي أحرَق مخزني. فهذا ما توقعتُه منك.»

قال ميدوز بلهجةٍ عُدوانية: «ما تتوقعه مني يختلف تمامًا عما ستنالُه». وأضاف: «والآن أخبرني يا أوبيرزون! نحن نعلم لماذا تريد هذه الفتاة — فقد انفضحَت المؤامرةُ بأكملها. أنت تظن أنك ستمنعها من تقديمِ مطالَبةٍ للحكومة البرتغالية لتجديد الامتياز الممنوح لوالدها في يونيو ١٩١٢.»

لعل الدكتور أصابته الصدمةُ لعلمه بانفضاح سرِّه، ولكنه لم يُظهر صدمته. ولم تتغيَّر ملامحه.

«أنا لا أعلم شيئًا عن هذه الأمور. هذا محضُ خيال، قصة خرافية. ولكن لا بد أن تكون حقيقيةً يا سيدي المفتش ميدوز، ما دمت أنت قائلَها. ولكن لا؛ أعتقد أنَّ مجرمي كورزون ستريت، ومعتادي القتل والجرائم، ممن لديهم سِجلات شائنة، نجَحوا في خِداعك. هل ترغب في تفتيش منزلي؟ إنه امتيازٌ أمنحه لك وحدك.» ولوَّح بيده. ثم استطرد: «لن أطلب منك تقديمَ إذن التفتيش. المنزل أمامك من القبو وحتى السقيفة.»

لم يُفاجَأ عندما أخذ ميدوز كلمته على محمل الجِد، وخرج إلى الرِّواق واستدعى مُعاونيه. فتَّشوا كل غرفة على حدة، واستقبل الطباخُ العجوز والفتاةُ الدنماركية المتوسطة الذكاء، هذه الزيارةَ كحدثٍ عاديٍّ، ومعهم كلُّ الحق في ذلك؛ لأنها كانت المرةَ الثانية التي تزور فيها الشرطة المنزل خلال أسبوعين.

قال ميدوز: «والآن، سنُلقي نظرة على غرفتك، إن لم يكن لديك مانع.»

وقعَت عيناه سريعًا على سحارة الأريكة العثمانية المواجهة للحائط، وحقيقةُ أن الطبيب كان جالسًا فوقها زادت من شكوكه.

قال: «سأبحث هنا، إذا سمحت لي.»

نهض أوبيرزون، ورفع المحقِّق الغِطاء. ووجدها فارغة. كانت الأريكة العثمانية موضوعةً في مواجهة الحائط، وتوجد في أسفلها فجوة عميقة. وقد انزلق جيرتر عبرها منذ وقتٍ طويل عبر الظهر الزائف.

قال أوبيرزون: «أرأيت! لا يوجد شيء». وتابع: «ربما تودُّ الآن تفتيشَ مصنعي؟ لعلي أخفيتُ شيئًا بين العوارض الخشبية والقوائم المحترقة. أو لعله الصندل الموجود على الرصيف؟ مَن يدري ماذا وضَعتُ بين الفئران؟»

قال ميدوز: «إنك شديدُ الذكاء، وأنا أصرِّح بأنني لستُ ندًّا لك. ولكن هناك ثلاثة رجال في هذا البلد هم مَن يصلحون كأندادٍ لك! سأتحدث معك بصراحة، يا أوبيرزون. إنني أودُّ أن أضعك حيث يُمكنني تقديمُك لمحاكمة عادلة، وَفقًا لقانون هذا البلد، وسأقاوم قدرَ استطاعتي أيَّ رجل يحاول تطبيق القانون بيدَيه. ولكن سواءٌ أكنتَ بريئًا أم مذنبًا، لن أضعَ نفسي مكانك فيما يخصُّ كل الأموال الموجودة في أنجولا!»

قال الدكتور بأدب: «وماذا تريد إذن؟»

«اترك الفتاة، وأنا أظن أن نِصف الخطَر الذي يُداهمك سيزول. أقول لك إنك تَفوقني ذَكاءً. وهذا قولٌ غبي ليقولَه ضابطُ شرطة، ولكنني لا أستطيع اكتشافَ الحقيقة وراء أفعاك. بينما هم يكشفونك.»

انعقد حاجبا الرجل العجوز.

وقال بلطف: «حقًّا؟» ثم أضاف: «وعن أيِّ أفعى تتحدث؟»

لم يُضف ميدوز شيئًا. لقد أعطاه تحذيرًا، وإذا لم يستغله أوبيرزون فسيُصبح الخاسرَ.

لا أحدَ يشكُّ، خاصة ميدوز، أنَّه على الرغم من جميع القوانين التي وضعها البشر، وبعيدًا عن جميع آليَّات تنفيذ العدالة التي ابتكرتها عبقرية البشر، فإن العقاب المحتوم ينتظر أوبيرزون وكان وشيكًا.

الفصل الحادي والعشرون

دفتر الحساب

كانت الساعة الخامسة صباحًا حينما اجتازَت السيارة طراز سبانز، الملطَّخةُ بالطين، الضبابَ والأمطار المتساقطة أعلى تلال تشيلترن وعبرَت طريق جلوستر الرئيسي، وتوقفَت وهي تهتزُّ أمام مزرعة هيفيتري. قفز مانفريد خارجَ السيارة، ولكن قبل أن يصلَ إلى باب المنزل، وجد العمةَ ألما تفتحه، وعلم من ملامحها أنها لم تَذُق النوم تلك الليلة.

سألها: «أين ديجبي؟»

أجابته ألما قائلةً: «ذهب لمقابلة مأمور الشرطة». وتابعت: «تفضَّل بالدخول سيد جونزاليس.»

كان ليون مبتلًّا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه؛ دون رُقعةٍ واحدة جافة. ولكنه كان لا يزال محتفظًا ببهجته المعتادة وهو يدخل ردهة المنزل، ونزع عنه معطفَه الثقيلَ الواقيَ من المطر.

«لا شك، بالطبع، أن ديجبي لم يسمع شيئًا، يا جورج.»

قالت العمة ألما: «أنا أكثرُ شخصٍ نومه خفيف في العالم، ورغم ذلك لم أسمع أيَّ صوت. ولم أعلم شيئًا إلا حينما أتى شرطي يطرق الباب ليُخبرني أنه وجد البابَ الأماميَّ مفتوحًا.»

«ألم يكن هناك أيُّ دليل؟»

قالت العمة ألما: «بلى.» ومِن ثَم دخلوا إلى غرفة الاستقبال، وأخذَت من فوق الطاولة زجاجةً سوداء صغيرة متصلةً بأنبوب وقناعٍ. وقالت: «وجدتُ هذا خلف الأريكة. لقد تمددت فوق الأريكة؛ فالوسائد كانت مُلقاةً على الأرض، ومزَّقت القماش وهي تقاوم لتحرير نفسها.»

أدار ليون صنبور الأنبوب، واستنشق الغاز المنبعث.

وقال: «إنه الغاز المخدِّر الجديد المستخدَم في مجال طب الأسنان». وتابع: «ولكن كيف دخلوا؟ فلا أثرَ لاقتحامٍ أو نافذة مفتوحة.»

قالت ألما بلهجةٍ متفاخرة: «دخلوا من الباب؛ أنا واثقةٌ من ذلك. وكان برفقتهم امرأة.»

«كيف علمتِ بذلك؟»

قالت العمة ألما: «لا بد من وجود امرأة. لم تكن ميرابيل لتفتحَ الباب دون إيقاظي أنا أو السيد ديجبي، لولا وجودُ امرأة.»

أومأ ليون برأسه، وعيناه تلمعان.

وقال: «هذا بديهي.»

«ووجدتُ أيضًا آثارَ أقدام امرأة في الرِّواق. لقد جفَّت الآن، ولكن لا يزال بإمكانك رؤيتُها.»

أجابها ليون بقوله: «لقد رأيتُها بالفعل». وتابع: «إنها إلى يسار الباب؛ حذاء صغير مدبَّب، وكعب مطاطي. لقد فتحَت الآنسة ليستر البابَ للمرأة، ودخل الرجال، والباقي كان يسيرًا.» ثم وجَّه حديثَه لجورج ملاطفًا: «لا يُمكنك إلقاء اللوم على ديجبي.»

لقد كان على علاقة طيبة بجميع العملاء، لكن مانفريد لم يُجادله هذه المرة.

وقال: «أنا ألوم نفسي. لقد أخبرني بويكارت ...»

قالت العمة ألما: «لقد كان هنا.»

سألها مانفريد مندهشًا: «مَن ... بويكارت؟» وصفع جونزاليس ركبته بكفه.

«هكذا إذن، بالطبع! يا لنا من حمقى! كان يفترض بنا أن نُدرك السببَ وراء ترك هذا العجوز الماكر مكانَه. في أي وقتٍ كان هنا؟»

أخبرته ألما بملابَسات الزيارة كافة.

قال ليون بابتسامة توحي بالسرور: «لا بد أنه غادر المنزل بعدنا مباشرة، واستقلَّ قطار الخامسة المتجهَ إلى جلوستر، واستقل سيارةَ أجرة إلى هنا.»

سأله مانفريد: «وبعدها؟»

حكَّ ليون ذقنه.

«أتساءل إن كان قد عاد؟» وأمسك بالهاتف وأجرى طلب مكالمةٍ هاتفية إلى لندن. «أشك أنه عاد. ها هو ذا ديجبي، يبدو كمَن يتوقع إعدامه دون محاكمة.»

كان الشرطي المتقاعد حزينًا وفي حالةٍ يُرثى لها.

وشرَع في الحديث قائلًا: «لا أعلم ما ستظنه بي، يا سيد مانفريد ...»

ابتسم جورج ابتسامةً خافتة وقال: «لقد صرَّحت بالفعل عن رأيي بهذا الشأن. أنا لا ألومك يا ديجبي. لقد كان من الحماقة الشديدة أن أتركَ رجلًا مثلك، تعرَّض لاعتداء، دون دعم بعدد كافٍ من الرجال. لم أكن أتوقَّعُ عودتهم بهذه السرعة. في الحقيقة، إنني أنوي تعيينَ أربعة رجال بدءًا من اليوم. هل كنت تُجري تحرياتك؟»

«أجل، يا سيدي. مرَّت السيارة بجلوستر في الصباح الباكر، ثم سلكَت طريق سويندون. شاهدها شرطيٌّ على دراجته؛ وقال إن الشاحنة كان يُظللها غِطاء سميك من القماش المشمع.»

سأله مانفريد بلهفة: «ألم يكن هناك أثرٌ لشخص داخل سيارة، أو على دراجة نارية يُطارد العربة؟»

فقد اتجه بويكارت مؤخرًا إلى ركوب الدراجات النارية.

«لا، يا سيدي.»

«هل رأيت السيد بويكارت؟»

«أجل، كان في طريقه للعودة إلى لندن. قال إنه يريد معاينةَ المكان بأمِّ عينَيه.»

شعر جورج بخيبة أمل. فإن كانت زيارة بويكارت بدافع الفضول، فبهذا يكون غيابه عن المدينة مبرَّرًا. ولم يكن ليعودَ في الوقت الذي هاتفَه فيه.

كانت العمة ألما تُعِد فطورًا سريعًا، وقبِلا دعوتها بامتنان؛ فكلاهما كان جائعًا للغاية، وفي أثناء تناولهما وجبتَيهما أتتهما مكالمة لندن.

«بويكارت، أهذا أنت؟»

جاء صوت بويكارت متحدثًا: «أجل أنا مَن يُحادثك». وتابع: «من أين تُهاتفني؟»

«من مزرعة هيفيتري. هل رأيت الآنسة ليستر؟»

ساد الصمت لحظة.

«هل اختفت؟»

«ألم تعلم؟»

سادت لحظةٌ من الصمت مرةً أخرى.

«حسنًا، أجل، لقد علمت؛ في الحقيقة، لقد رافقتها جزءًا من الطريق إلى لندن، ثم انفصلتُ عنها عندما سلكَت الشاحنة طريق جرايت ويست. ميدوز هنا، لقد أتى للتو من منزل أوبيرزون. يقول إنه لم يعثر على شيء.»

فكَّر مانفريد قليلًا.

وقال: «سنعود سريعًا بعد التاسعة.»

فأجابه بسخرية: «وليون هو السائق؟»

«أجل ... ورغم هذا سنعود في تمام التاسعة.»

بعدما أخبره مانفريد بما دار في محادثتهما، قال ليون: «هذا الرجل يُضمر حقدًا تجاه أسلوبي في القيادة. كنت أعلم أنه هو عندما وصف ديجبي السيارة وقال إنها مظلَّلة بغطاءٍ واقٍ من المطر. «غطاء سميك» ليس وصفًا سيئًا. هل تعلم ما إذا كان بويكارت قد تحدث إلى الآنسة ليستر أم لا؟»

«أجل، فقد سألها عمَّا إذا كانت تزرع البصل في مزرعتها.» تسبَّب ردُّه هذا في دخول ليون في نوبةٍ من الضحك المكتوم.

انتهت وجبة الإفطار وكانا يستعدَّان للمغادرة، عندما سأل ليون فجأةً: «هل تمتلك الآنسة ليستر طاولة كتابة خاصة بها؟»

أجابته ألما قائلةً: «نعم، في غرفتها.» ورافقته لتُريَه المكتب القديم.

فتح الأدراج دون استئذان، وأخرج بعض الرسائل القديمة، وبعثرها وقرأها بلا خجل. وفتح بعدها دفترَ المسودة. كان هناك الكثيرُ من الأوراق الفارغة بعنوان «مزرعة هيفيتري»، وورقتان تحملان توقيعها في الأسفل. أوضحت ألما أن الحساب المصرفي للمزرعة كان باسم ميرابيل، وعند الحاجة إلى إجراء سحب نقدي، كان البنك يقتضي إرفاقَ خطاب إحالة — وهو أمرٌ لا يزال متعارفًا عليه إلى الآن في بعض المؤسسات المصرفية العتيقة في غرب البلاد. وفتحت قُفل أحد الأدراج التي لم يتمكَّن من فتحها، وأخرجَت له دفتر شيكات به ثلاثة شيكات فارغة تحمل توقيعَها.

قالت ألما بسخرية: «هذا المصرفي يعرفني منذ شبابي. لن تُصدق أنَّ هناك قدرًا كبيرًا من البيروقراطية.»

أومأ ليون بالإيجاب.

«هل تحتفظين بأيِّ دفاتر حسابات؟»

أجابته ألما باندهاش: «أجل، أحتفظ بها. هل تقصد حساباتِ المنزل؟»

«هل يمكنني رؤية أحدها؟»

خرجت، ثم عادت بدفتر حسابات صغير، طالعَ محتوياته سريعًا. ظنَّت ألما أن ذلك لم يكن كافيًا على الإطلاق، مقارنةً بالمشقة التي واجهَتها والاهتمامِ الذي أظهره.

قال: «هذا يكفي! والآن، يا جورج، هيا بنا إلى السيارة!»

سأله مانفريد وهما ينطلقان في الطريق: «لماذا أردتَ رؤية دفتر الحسابات؟»

وجاءه رَدُّه مخيبًا للآمال: «تعلم أنني أتمتع بعقلية مادية. ولكن يا جورج يوشك الوقود أن ينفد منا. فلْتدعُ الله دعوةً صادقة أن نُصادف محطة وقود في غضون الدقائق العشر المقبلة.»

إن كان جورج قد دعا، فقد استُجيبت دعوته؛ فقبل بُرهة من نفاد الوقود في أسطوانات المحرك، كانت السيارة تقف أمام مِرآب، وتزوَّدوا بما يكفيهم للوصول إلى وجهتهم ويفيض. كانت الساعة قد بلغَت تمام التاسعة صباحًا عندما توقفَت السيارة أمام المنزل. وابتسم بويكارت الذي كان يُراقب وصولهما من غرفة جورج، ابتسامةً كالحة، بعد النظرة الوقحة التي رمَقه بها السائق.

وخلفَ الأبواب الموصدة، جلس الرجال الثلاثة يتشاورون.

وأخيرًا قال ليون: «لقد أفسد ذلك كلَّ مخططاتي». وتابع: «إن كانت الفتاة بأمانٍ، فيجب تسوية الأمر مع أوبيرزون الليلة.»

حكَّ جورج مانفريد ذقنه وهو يُفكِّر. منذ كانت لحيته طويلة بعضَ الشيء ومشذبة، وهو لم يتوقف عن عادة تمسيدِ لحيته.

وقال بجدِّية: «إننا نفكر على نحوٍ متشابه تمامًا. كنت عازمًا على اقتراح أخذِ هذا المسار.»

قال ليون بصوت رقيق يشوبه شعورٌ بالندم: «تكمن المشكلة في ميدوز. أودُّ تسوية القضية بأي شكل، وأن يتنحَّى عنها ميدوز تمامًا. فلا رغبة لي في إحراجه. ولكن من الواضح أن الأمر لا يحتمل التأخير. كان من الممكن أن تسير الأمور بسلاسة بالغة. وهذا مستحيلٌ الآن حتى تصبح الفتاة بأمان. ولكن حتى يتحقَّق ذلك» وهز كتفَيه بلا مبالاة «سيشعرُ صديقنا أوبيرزون بالإرهاق بحلول الغد. لن يشعر بالألم — فقط إرهاق بسيط. سُبات، يتبعه غيبوبة ... ثم الوفاة في اليوم الثالث. إنه رجل عجوز، ولا أحد يرغب في إيذاء كِبار السن. ولا ضررَ يُضاهي الشعور بالخوف. أما بالنسبة إلى جيرتر، فسنجد طريقةً أكثر عنفًا، ما لم يصل إليه أوبيرزون قبلنا. وأتمنى بصدقٍ أن يفعل.»

تساءل بويكارت: «لم أسمع بهذا الأمر من قبل. ماذا بشأن جيرتر؟»

أخبره مانفريد.

أومأ بويكارت برأسه قائلًا: «ليون مُحقٌّ فيما قاله الآن.» ونهض من الطاولة وفتح قُفل الباب. وقال: «إذا كان أحدكما يرغب في النوم فالغرفُ جاهزة؛ الستائر منسدلة، وسأوقظكما في أي وقت تُريدانه.»

لم يرغب أيٌّ منهما في النوم. حيث يجب على جورج لقاءُ أحد العملاء هذا الصباح؛ كان رجلًا لديه قصة مثيرة ليرويَها. وأراد ليون إصلاح كاربراتير السيارة. وأعلن الاثنان أنهما سينامان خلال وقتٍ ما بعد الظهيرة.

وصل العميل بعد قليل. استقبله بويكارت وأجلسَه في غرفة الطعام لينتظرَ حتى يُخبر بقدومه.

قال: «أظن أن رجل عصر الأتراك قد وصل.» وذهب للأسفل ليرشد الزائر.

كان رجلًا ذا ملامحَ مألوفة، وله شاربٌ طويل مشذب ولحية خفيفة.

أشار قائلًا: «إنه إما خائرُ القُوى وإما عليل.»

وافقه مانفريد الرأيَ عندما أبلغه كبيرُ الخدم بقدومه، قائلًا: «لعله مزيجٌ من الاثنين.»

دخل الغرفة بعصبيةٍ وجلس أمام مانفريد.

وشكا إليه قائلًا: «لقد حاولت الوصولَ إليك عبر الهاتف في الليلة الماضية، لكنني لم أتلقَّ أيَّ رد.»

أجابه جورج بخفةِ ظل: «تمتد ساعاتُ عملي المكتبيةُ من العاشرة حتى الثانية!». وتابع: «والآن هلا تخبرني بقصة أختك مرة أخرى؟»

مال الرجل إلى الخلف واستراح في مقعده، وتشابكت يداه حول ركبتيه، وبدأ يتحدث بصوتٍ متناغم، وكأنه يتلو شيئًا حفظه عن ظهر قلب.

«كنا نعيش في تركيا. وكان والدي تاجرًا في القسطنطينية، وكانت أختي، التي تدرس في إنجلترا، تُراودها أفكارٌ غريبة، وعادت وهي أشدُّ الموالين للأتراك. إنها فتاةٌ فائقة الجمال، واستطاعت التعرُّف على عددٍ من أفضل العائلات التركية، على الرغم من معارضتي الشديدة أنا وأبي لصِلتها بهؤلاء الأشخاص. وذات يوم ذهبَت لزيارة هايمر باشا، ولم تَعُد في تلك الليلة. ذهبنا إلى منزل الباشا وسألنا عنها، لكنه أخبرنا بأنها غادرَت في الساعة الرابعة. وبعدها لجأنا إلى الشرطة فأخبَرونا، بعد إجراء التحقيقات، أنها شُوهدت وهي تصعد على متن سفينةٍ غادرَت إلى أوديسا في الليلة ذاتها. ولم أرَها طيلة عشر سنوات، حتى ذهبتُ إلى نادي جرينجو كلوب، وهو مكانٌ متواضع في إيست إند — إنه لا ينتمي إلى الطِّراز الرفيع، هل تفهمني، ولكنه يُدار بشكل جيد للغاية. وكان هناك عرضٌ

في الملهى بعد منتصف الليل، وبينما أنا جالسٌ أفكِّر في العودة إلى المنزل — لشعوري بالملل الشديد؛ لأنني لا يروقني هذا النوع من الأمور — رأيتُ فتاة تخرج من وراء ستار وترتدي كالنساء التركيات، وبدأت ترقص. كانت في منتصف تأديتها رقصتَها عندما انزلق حجابُها. كانت ماري! وقد عرَفَتني في الحال، واندفعَت عبر الستائر. حاولتُ أن أتبعها، لكنهم منَعوني.»

سأله مانفريد: «هل توجَّهت إلى الشرطة؟»

هزَّ الرجل رأسه نافيًا.

وتابع برتابةٍ قائلًا: «لا، وما فائدة الشرطة؟» ثم أضاف: «يكفيني ما وجَدتُه منهم في القسطنطينية؛ لذا عزَمت على الحصول على المساعدة بعيدًا عن الشرطة. ثم حدثَني أحدهم عنك، فأتيت إليك. أخبِرني يا سيد مانفريد، هل يستعصي عليك إنقاذُ أختي؟ أنا واثقٌ تمامًا من أنها محتجَزة رغمًا عنها.»

سأله مانفريد: «في نادي جرينجو كلوب؟»

أومأ قائلًا: «أجل.»

خاطبه جورج قائلًا: «سأرى ما يُمكنني فعله». وتابع: «لعلي أذهب ذاتَ مساء أنا وأصدقائي لاستطلاع الأمر. ولكن في تلك الأثناء، هلَّا عُدت إلى صديقك الدكتور أوبيرزون لتُخبره بأنك قد أدَّيت دورك؟ أما أنا فسأتكفَّل بالقيام بدوري. وبالنسبة إلى قصتك الهزيلة فسأضمُّها إلى مجموعة الاختراعات غير القابلة للتصديق!»

ضغط جرسًا، ودخل بويكارت.

«من فضلك، فلتُرافق السيد ليجينز إلى الخارج. لا تؤذِه؛ لعل لديه زوجةً وأولادًا، رغم أن هذا مستبعَد تمامًا.»

تسلَّل الزائر من الغرفة وكأنه تعرَّض للجلد.

وبمجرَّد أن أغلق الباب خلفه، نادى بويكارت على ليون ليأتيَ من غرفته.

قال: «يا بني، يريد جورج أن تتعقَّب أثر هذا الرجل.»

اختلس ليون نظرةً خاطفة على الضحية الناجية من الاستبداد التركي.

وقال: «ليست بالمهمة الصعبة. فلديه قدمٌ مسطحة!»

عاد بويكارت إلى غرفة الاجتماعات. وسأله: «مَن هذا؟»

«لا أعلم. إما أن يكون أوبيرزون هو مَن أرسله، وإما أن يكون صديقنا نيوتن، والغرض من إرساله هو جمْعُنا معًا في نادي جرينجو كلوب — في أمسية لطيفة — وهو

مكانٌ أعرفه جيدًا. إنه ممثلٌ رديء! يفتقر إلى الأسلوب الجيد. لن أُفاجَأ إن اكتشف ليون أمرًا مثيرًا بشأنه.»

«لقد أتى هنا من قبل، أليس كذلك؟» أومأ مانفريد.

«أجل، كان هنا في اليوم التالي لمجيء باربرتون. على الأقل، تلقيتُ رسالته صباح اليوم التالي، ورأيته لحظاتٍ معدودةً ذلك اليوم. إن أوبيرزون هذا شيطانٌ خبيث! ومجتهد أيضًا». وأضاف: «إنه يُحرك الجميعَ في الوقت ذاتِه، وهو محقٌّ بالطبع. فالجنرال الجيد هو مَن يهاجم بجيش كامل، وليس بفصيلة واحدة، وبكامل قوَّته، مدرِكًا أنه إن فشل في اختراق ثغرة، فلا بد أنه سينجح في اختراق أخرى. يا لها من فكرة شائقة، هل تعلم يا ريموند، لعلَّ في هذه اللحظة نحو عشرين وكالة تحرٍّ منفصلة ومستقلة تعمل ضدَّنا. ويجهل أغلبُهم أن جهودهم مكرَّرة. إنه أسلوب أوبيرزون — ولطالما كان هذا أسلوبه. إنه الأسلوب الذي يُشعل به شرارة الثورات، والأسلوب الذي يُدير به الفتن الطائفية.»

بعد أن استحمَّ وبدَّل ثيابه، أعلن عزمه زيارة تشيستر سكوير.

«أنا حريصٌ على مقابلة جوان نيوتن مرةً أخرى، حتى وإن عادت إلى هُويتها الأصلية بصفتها جين سميث.»

وعندما ذهب للزيارة، أخبرته الخادمةُ أن الآنسة نيوتن ليست بالمنزل. لعله يُقابل السيد مونتيجو نيوتن، ليس لأنه في المنزل فحسب؛ بل لأنه كان يترقَّب زيارته بلهفة، في حقيقة الأمر؛ لأنه كان يرى اقتراب عدوه.

غمغمَ مانفريد قائلًا: «يُسعدني ذلك»، ورافقه أحدهم إلى غرفة الاستقبال الرائعة الخاصة بالسيد نيوتن.

قال نيوتن بلهجة مطمئنة: «لدي خبر سيئ جدًّا بشأن جوان». وأضاف: «لقد سافرَت إلى أوروبا هذا الصباح.»

ابتسم مانفريد متسائلًا: «من دون جواز سفر؟»

كانت زلَّة بسيطةً من مونتي، ولكن كيف علم مانفريد برفض السلطات، قبل أسبوعٍ واحد فقط، تجديدَ جواز سفرها لحين الانتهاء من التقصِّي بشأن بعض المخالفات؟ فهناك اتهامٌ موجَّه إليها باستخدام آخَرين لهذه الوثيقة الشخصية للسفر إلى أوروبا والعودة منها.

واختلق كذبة على الفور: «أنت لا تحتاج إلى جواز سفرٍ للذَّهاب إلى بلجيكا». وتابع: «على أي حال، إن أمر جواز السفر مبالغٌ فيه إلى حدٍّ ما. فلسنا في حالة حرب الآن.»

قال مانفريد: «نحن في حالة حرب طَوال الوقت». وأضاف: «هلا تسمح لي بالجلوس؟»

«تفضَّل. هل ترغب في سيجارة؟»

قال مانفريد بحذر: «دعني أتأكَّد من العلامة التجارية أولًا قبل قَبولها»، ضحك الآخر بشدة وكأنه سمع مزحة طريفة.

رفض الزائر السيجارةَ المقدمةَ له من علبة السجائر والتقط واحدةً من صندوق على الطاولة.

وسأل بلطف: «هل تقوم جين بجولة كبرى؟»

«إن جين مجهدة وتريد أن تستريح.»

«وماذا بشأن أيلسبري؟»

لاحظ إجفالَ الرجل عند ذكْر مؤسسة النساء المُدانات، ولكنه تمالكَ نفسه سريعًا. «إنه ليس بعيدًا جدًّا، وعلمتُ أنه مأوًى لجميع أنواع الشخصيات الغريبة. لا، إنها ذاهبة إلى بروكسل ثم إلى إكس لا شابيل، وبعدها ربما تذهب إلى سبا — لا أتوقَّع أنني سأراها قبل شهر أو اثنين.»

قال مانفريد: «لقد كانت في مزرعة هيفيتري في الساعات الأولى من صباح اليوم، وكذلك أنت. لقد شاهدك صديقي — السيد ريموند بويكارت. لقد سافرتَ من مزرعة هيفيتري متجهًا إلى منزل أوبيرزون داخل شاحنة من طراز فورد.»

لم تطرِف عينا مونتي نيوتن رغم الفزع الذي أصابه.

وقال: «هذا خداع». وتابع: «أنا لم أغادر هذا المنزلَ ليلة أمس. ماذا حدث في مزرعة هيفيتري؟»

«اختُطِفت الآنسة ليستر. أرى أنك متفاجئ، أو قلقٌ تقريبًا.»

سأله مونتي بثبات: «هل تظن أن لي أيَّ صلة بهذا الأمر؟»

«أجل، وتُشاركني الشرطة رأيي هذا. فقد صدر إذنٌ مؤقَّت بإلقاء القبض عليك هذا الصباح. رأيتُ أنه ينبغي إخبارك.»

تراجع الرجل في مقعده، وامتُقع وجهه ثم أصابه الشحوب، ثم امتُقع مرةً أخرى ليُصبح أكثر احمرارًا من ذي قبل. فابتسم مانفريد بهدوء.

قال: «إنك تشعر بتأنيب الضمير، يا نيوتن، ولا يفصل بينك وبين إلقاء القبض عليك إلا القليل، فأين جين؟»

«لقد أخبرتُك أنها سافرت إلى الخارج.»

أفقدَته تلك الحيلةُ الناجحة للغاية بعضًا من اتزانه، وبعضًا من رِباطة جأشه.

قال مانفريد: «إنها بصحبة ميرابيل ليستر؛ أنا واثقٌ من ذلك. لقد حذَّرتك مرتين، ولا داعي لتحذيرك مرةً ثالثة. أنا لا أعلم مدى تورُّطك في جرائم الأفعى؛ فهذا الأمر ستُقرره هيئة المحلَّفين عاجلًا أو آجلًا. ولكنك ستكون في عِداد الأموات خلال ستِّ ساعات فور علمي بأن الآنسة ليستر لاقت معاملةً قاسية. أنت تعلم أنني صادقٌ فيما أقول، أليس كذلك؟»

كان مانفريد يتحدَّث بجدية بالغة.

واستأنف حديثه قائلًا: «أنت تخشانا أكثرَ مما تخشى القانون، وأنت محقٌّ في ذلك؛ لأننا لا نترك رجالنا رَهْن ذكاء هيئة المحلَّفين. وسنمنحك الحكمَ ذاته الذي قد يمنحك إياه قاضٍ عليمٌ بكافة الحقائق. فلا يمكنك التغلبُ على قاضٍ إنجليزي، يا نيوتن.»

عاودتْه الابتسامة، وغادر الغرفة. كان فريد قريبًا جدًّا، ينتظر في الرواق، ولكن على مسافةٍ آمنة من الباب، ورافقه حتى خرج وهو يشعر ببعض الحماسة.

التفتَ مونتي نيوتن جانبًا، ولمح الرجل الذي كان يكرهه — ولعله كرهه أكثرَ مما كره جونزاليس — ثم استدعى خادمه بغِلظة.

نادى قائلًا: «فريد، تعالَ إلى هنا»، فأطاعه الخادم. ثم قال مونتي: «سيُرسلون مَن يُجري بعض التحقيقات، وأريدك أن تعيَ جيدًا ما ستقوله لهم. لقد سافرَت الآنسة جوان هذا الصباحَ إلى أوروبا، في نحو الساعة الثامنة وخمس عشرة دقيقة. وهي إمَّا في بروكسل أو في إكس لا شابيل. لستَ متأكدًا في أي فندق نزلت، ولكنك ستبحث في الأمر. هل هذا واضح؟»

«أجل، يا سيدي.»

كانت عينا فريد تتفحَّصان أرجاء الغرفة بلا هدف.

«ما خطبُك؟»

«كنت أتساءل أين الساعة؟»

«الساعة؟» الآن صار مونتي نيوتن يسمع صوتها بنفسه. دقات ساعة رخيصة، وشحب لونه. وقال بصوتٍ أجشَّ: «اعثُر عليها»، وفي أثناء حديثه وقعَت عيناه على الصندوق الأسود الصغير الملقى أسفل المكتب، وذهب إلى الباب وهو يصرخ في رعب.

شاهد المارَّة في تشيستر سكوير لحظةَ اندفاع الباب وفرار الرجلَين منه هربًا إلى الشارع. وظلَّت الساعة الأمريكية الصغيرة، التي اشتراها مانفريد قبل أيامٍ قليلة، تدقُّ وتشير للوقت، واستمرت تدقُّ بمرحٍ إلى أن أتى خبراء الشرطة وفتحوا الصندوق. كانت تلك أقدمَ حِيَل مانفريد الطريفة، التي لم تفشل أبدًا.

الفصل الثاني والعشرون

داخل قبو المخزن

كان من المستحيل أن تعجز ميرابيل ليستر عن إدراك حجم الخطر الجَسيم الذي يُحيط بها. أما عن سبب عداوة أوبيرزون لها، والغرض وراء حِرص هذا الرجل على إبقائها تحت ناظِرَيه، فهذا ما لم تستطِع تخمينه. كان من المطمئِن أن تستيقظ في الصباح الباكر، مثلما فعلت، لتجد جوان نائمةً معها في الغرفة ذاتِها؛ كانت تمتلك أسبابًا عديدة تجعلها لا تثقُ في هذه الفتاة، ولكن كان هناك شيءٌ في هذه الفتاة، ذات الوجه الشبيه بالدُّمَى، جعلها تطمئنُّ لها.

كانت جوان مستلقية على الفراش بكامل ثيابها، وعندما سمعت صريرَ الفراش، استدارت ونهضت، وهي تضبط تنورتها.

سألتها: «حسنًا، ما رأيك في بيتك الجديد؟» على نحوٍ مَرِح، رغم القلقِ الذي سيطر عليها، وفشَلِ محاولات مونتي طمأنتَها.

ردَّت ميرابيل بجفاء: «لقد رأيت أفضلَ من ذلك.»

«أُراهن أنكِ فعلتِ!» بسطَت جوان ذراعَيها وهي تتثاءب؛ ثم فتحت إحدى الخزائن، وملأتْ مجرفةً بالفحم وألقته داخل الفرن، وأغلقت الباب الحديدي. وقالت بدعابة: «هذه مهمتي؛ أن أُبقيكِ دافئة.»

«إلى متى سأظل هنا؟»

جاءتها الإجابة المفاجئة: «خمسة أيام.»

سألتها ميرابيل بفضول: «ولِم خمسة أيام؟»

أجابتها جوان: «لا أعلم. لعلهم سيُخبرونك.»

أدخلت المقبس في الحائط، وشغلت موقدًا كهربائيًّا صغيرًا. وغابت، ثم عادت ومعها غلاية وضعتها فوق فوهة الموقد.

قالت في ابتهاج، تأكدتْ ميرابيل الآن أنه مصطنَع: «ربما لا نحظى بمنظر رائع، ولكن الطعام جيد.»

«لا ريبَ أنَّكِ في صف هؤلاء الرجال — دكتور أوبيرزون ونيوتن، أليس كذلك؟»

صحَّحت لها جوان قائلة: «تقصدين السيد نيوتن.» وتحدَّثت بغموض قائلة: «أجل، أنا خطيبته. وسوف نتزوج عندما تتحسَّن الأوضاع قليلًا، ولا تنزعجي مني لأنني ساعدتُ في إحضارك إلى هنا. أخبرني مونتي كلَّ شيء. لن يمَسُّوكِ بأي سوء.»

بدأت ميرابيل بالحديث متسائلةً: «فلماذا إذن ...»

قاطعتها جوان قائلةً: «سيُخبرك العجوز، عاجلًا أو آجلًا، أو ... أو ... حسنًا، إن مونتي لا دخل له بهذا الأمر؛ هو فقط يُطيع أوبيرزون مكرهًا.»

وافقتها ميرابيل في أمرٍ واحد فقط؛ وهو أن التماديَ في توجيه الاتهامات ولومِ الفتاة على خيانتها العظمى لم يكن إلا مَضيعةً للوقت. ففي النهاية، إن جوان ليست مَدينة لها بالولاء، فهي منذ البداية لم تكن إلا أداةً استخدَموها لاحتجازها. ولم يكن من المنطقيِّ أن يُعاتب السجينُ حارسَ السجن.

سألت الفتاة، وهي تُراقبها في أثناء إعدادها الشاي: «كيف وصلتِ إلى مثل هذا المستوى وفِعل هذا النوع من الأمور؟»

سألتها جوان: «ومن أين أتيتِ بعبارة «هذا النوع من الأمور»؟» وتابعَت: «إن كنتِ تظنين أنني قضيتُ حياتي في رعاية الإناث، فأنت مخطئة. أنت خائفة، أليس كذلك؟»

نظرت إلى ميرابيل، وهزَّت الفتاة رأسها نافية.

«لست خائفة.»

اعترفَت لها جوان قائلةً: «يجدر بي أن أكون خائفة.» ثم سألتها: «هل تُمانعين في إضافة الحليب المكثَّف للشاي؟ فلا يوجد غيره. نعم، يجدر بي الاختباء تحت الطاولة؛ فأنا أعلم أوبيرزون.»

قالت ميرابيل بحماس: «لو كنت مكان أوبيرزون، لكان عليَّ الاختباءُ في حفرة عميقة لئلا يجدَني رجال العدالة الأربعة.»

ردَّدت الفتاة بسخرية: «رجال العدالة الأربعة!» ثم تبدَّلت ملامحها. وسألت: «هل هم مَن جلَدوا جيرتر؟»

لم تسمع ميرابيل بهذا العمل البطولي، ولكنها أشارت برأسها إيجابًا.

وسألتها باهتمام: «هل هذا صحيح؟ هل يعلم جيرتر أنهم أصدقاؤك؟»

«أنا لا أعرف جيرتر.»

«إنه الرجل الذي كنتِ ترقصين معه تلك الليلة ... اللورد ... لقد نسيتُ بأي اسم دعَوناه.» ثم تحدثتْ بهمسٍ قائلة: «لأنه، إن علم، يا عزيزتي، فسيُصبح هناك شخصان عليكِ توخِّي الحذر الشديد منهما. فإن جيرتر مجنون تقريبًا. لطالما صرَّح مونتي بذلك. وهو كذلك يتعاطى المخدرات، وهناك أوقاتٌ يتحول فيها إلى ذئب متوحش وليس ببشَري على الإطلاق. أعترف بأنني ... أخشاه.» ثم غيَّرتْ مجرى الحديث فقالت: «ولكنهم على أي حال ليسوا بأربعةِ رجالٍ للعدالة. فعددهم لم يتجاوَز الثلاثة منذ سنوات. بعد أن قُتل أحدهم في بوردو.» ثم قالت مستهزئةً: «إنها مَدينة لا أودُّ أن تشهَد مقتلي.»

تبِع ذلك فترةٌ من الصمت فتحَت خلالها علبة معدِنية مغلقة بإحكام، وأخرجت منها كعكة صغيرة، ووضَعتْها على الطاولة، وقطعتها إلى شرائح.

سألتها: «كيف يَبْدون؟» ومن الواضح أن خلال فترة الصمت دارت أفكارُها حول رجال كورزون ستريت. «يقول مونتي إنهم مجرد محتالين، ولكنني لست واثقةً ما إذا كان مونتي يُخبرني بكلِّ ما يدور في رأسه. إنه خائفٌ جدًّا لدرجة أنه طلب مني الاتصالَ بهم ومقابلتَهم؛ فقط لأنهم أمَروه بذلك — وهذا التصرف لا يَصدر عن مونتي. لقد ارتكَبوا جرائمَ قتل من قبل، أليس كذلك؟»

أومأت ميرابيل برأسها.

«وأفلَتوا بفعلتهم؟ لا بد أنهم أذكياء.» بدَت علامات الإعجاب على جوان. «ومن أين يحصلون على أموالهم؟»

لطالما انشغلَت جوان بهذا الأمر.

وعندما شرحَت الفتاة الأمر، أبدت الأخرى إعجابَها الشديد. لأنها رأتْ أن تمكُّنهم من ارتكاب جرائم القتل والإفلات من العقاب، أمرٌ جدير بالإعجاب؛ ولأنهم من أصحاب الملايين فقد جعلَهم هذا في مكانة منفردة.

قالت لها جوان: «لن يمكنهم العثورُ عليك هنا أبدًا». وتابعت: «فلا يوجد مخلوقٌ يعلم بشأن هذا القبو. كان هناك ثمانيةُ رجال يعملون هنا، في فرز جلود القِرَدة، وماتوا جميعًا. أخبرني مونتي بذلك. وقال إن هذا المكان ينخفض عن مستوى سطح القناة، وبإمكان أوبيرزون إغراقُه في خمس دقائق. يعتقد مونتي أن الرجل العجوز كان يُفكر في إدارة مصنع مزيف ها هنا.»

سألتها ميرابيل، بفمٍ فاغر: «ماذا تقصدين بهذا؟»

«مزيَّف، مغشوش، صوري. ليس مشروعًا إنجليزيًّا؛ وإنما على مستوى أوروبا. كان سيفعل ذلك إذا زادت الأمورُ سوءًا، ولكن لا شك أنك تسبَّبت في قلب الموازينِ كافَّة.»

وضعت ميرابيل كوبها.

وقالت، وهي تُحاول تمالُكَ ضحكتها: «هل يتوقع أن يجنيَ المال من ورائي؟»

أومأت الفتاة برأسها بجدية.

«هل يعتقد أنني أمتلك أموالًا طائلة؟»

«إنه واثقٌ من ذلك.»

كانت جوان أيضًا واثقةً من ذلك. كانت اللهجة التي تحدَّثتْ بها توحي بذلك.

جلست ميرابيل على الفِراش، ولم تتمكن من الحديث جرَّاء الدهشة التي أصابتها. لم يكن وضعُها الماليُّ خفيًّا. لديها ما يُدِرُّ عليها بالكاد دخلًا سنويًّا زهيدًا، وتمكَّنت من توفير احتياجاتها الأساسية من إنتاج المزرعة. وكان الفشل في جعْل المزرعة مصدرًا للربح، هو الدافعَ وراء حصولها على الوظيفة الجديدة في لندن. وألما أيضًا لديها دخلٌ سنوي بسيط؛ فالمزرعة مِلكٌ للفتاة، لكنها لا تمتلك شيئًا بخلاف هذه الإيرادات. ولم يكن هناك حتى احتمالٌ ضئيل بأن تصبح وريثة. فوالدها رجلٌ فقير نسبيًّا، أما رحلاته المتعددة إلى أنحاء العالم سعيًا وراء المعرفة، فكانت بدعمٍ من الجمعيات العلمية التي ينتمي إليها؛ وكانت أرباح نِتاجه الأدبي لا تُذكر؛ ولم تَلْقَ مؤلفاته رَواجًا كبيرًا. وتتبعَت سلالة أسلافها وصولًا إلى سابع جَد؛ وأحصَت أعمامها وعماتها، ولم تجد بينهم رجلًا أو امرأةً واحدة، ذهب إلى أمريكا وحقَّق ثروةً طائلة، كما هو الحال في أغلب كتب الحواديت.

قالت: «هذا سخيف!» وأضافت: «فأنا لا أمتلك نقودًا. وإن احتجزني السيد أوبيرزون من أجل الحصول على فِدية، فلن يجنيَ نقودًا تزيد عن المائة!»

قالت جوان: «يحتجزُك للحصول على فِدية؟» وتابعت: «لا أفهمُ ما تقولين. ولكنكِ ثرية لا ريب؛ هذا ما يُمكنني قوله لكِ. مونتي يقول ذلك، وهو لا يكذب عليَّ.»

كانت ميرابيل في حَيرة من أمرها. لأنه يكاد يكون مستحيلًا أن يرتكب رجلٌ بذكاء أوبيرزون، بما يمتلكه من مصادر للمعلومات، خطأً كهذا. لكن جوان كانت تتحدث بجِدية بالغة.

قالت: «لا بد أنهم خلطوا بيني وبين شخص آخر»، ولكن جوان لم تُجِبها. كانت جالسةً في وضعية المنصِت، وعيناها موجَّهتان نحو الباب الحديدي الذي يفصل غرفةَ

نومهما عن القبو الكبير. حيث سمعت صريرَ السحارة وهي تُفتح وصوتَ أقدام تنزل السلَّم.

نهضت ميرابيل فور دخول أوبيرزون. كان يرتدي رداءه الأسود، وقبعته المطرزة مُزاحةً إلى مؤخرة رأسه، وجعله الحذاء الواقي من المطر الذي يُغطي قدميه والمغطَّى بالوحل، يبدو بمظهرٍ متناقض، كان من الممكن في ظل ظروفٍ أخرى أن يدفعها إلى الضحك. حيَّاها بانحناءة رسمية.

وحادثَها قائلًا: «هل نمتِ جيدًا، يا سيدتي الكريمة؟» ودُهِشَت عندما أمسك يدَها الباردة وقبَّلها.

خالجَتْها مشاعرُ النفور والزيف التي تملَّكتها في رقصةِ تلك الليلة عندما حيَّاها جيرتر بالطريقة ذاتِها.

نظر في أرجاء الغرفة بارتياح وقال: «إنه مكانٌ جميل، يُناسب الشباب وكبار السن». وتابع: «ها هنا كنتُ سأنعم بقضاء حياتي في قراءة كتبي، والاستغراق في التفكير، ولكن» بسَط ذراعيه وهزَّ كتفيه قائلًا: «ما باليدِ حيلة! فأنا رجلُ أعمال، ولديَّ مسئوليات هائلة في كل بقاع العالم. وأنا رجل ثري، أيضًا، أكثر مما تتخيَّلين! وأمتلك متاجرَ في جميع أنحاء العالم، ويتقاضى آلافُ الرجال والنساء رواتبَهم مني.»

تساءلت، عن سبب إخباره لها بذلك كلِّه، فما الداعي وراء سردِ هذه الحقائق بصوتٍ رَتيب. فمن المؤكد أنه لم يأتِ ليؤكد سلامة وضعه المالي!

قالت: «أنا لستُ مهتمةً كثيرًا بعملك يا سيد أوبيرزون، لكنني أودُّ معرفة سبب احتجازي هنا. بالتأكيد، إن كنتَ بهذا الثراء الفاحش، فأنت لا تتَّخذني رهينةً مقابل حصولك على فدية.»

بدا متحيرًا، وقال: «من أجل فدية؟!» وأضاف: «ما هذا الهُراء. هل أخبرَتك تلك الفتاةُ بهذا؟» وأشار إلى الفتاة وقد استشاط غضبًا.

أجابته ميرابيل سريعًا حتى لا يغضبَ من رفيقتها: «لا، إنه تخميني.»

«أنا لا أحتجزك لأجل الحصول على فدية. أنا أحتجزك، يا سيدتي الجميلة؛ لأن رؤيتَكِ تَسرُّني. ألا يقول هاينه: «إنَّ جمال المرأة يُهدِّئ الروح»؟ ينبغي أن تقرَئي كتابات هاينه؛ إنه طائش، ولكن ينتج عن رعونته العديدُ من الأفكار الذكية. والآن أخبريني، يا سيدتي الجميلة، هل لديك كل ما ترغبينه؟»

قالت: «أريد الخروج. لا يمكنني البقاءُ تحت الأرض في هذه الغرفة دون أن يُشكل ذلك خطرًا على صحتي.»

«ستخرجين قريبًا.» وانحنى انحناءةً رسمية مرة أخرى، ثم مشى بتثاقلٍ نحو المِدفأة. وبالخلف كان هناك صندوقان مغطَّيان باللباد الأخضر، رفع أحدهما برفق. وقال بإنجليزيته المتواضعة: «ثَمة أسرار لا ينبغي عليكِ التطفلُ لمعرفتها.» وتابع: «إنها أكثر المواد الكيماوية فتكًا. فإن لمسةً من شخص جاهل قد تتسبَّب في انفجارها — هل فهمتِ؟»

خاطب ميرابيل، التي لم تفهم ولكنها لم تُجِب.

«لا بد أن تظل دافئةً لهذا السبب. سآخذ إحداهما، وأترك الأخرى. ممنوع لمسها — هل هذا مفهوم؟» ونظر إلى جوان وسألها: «ألم يُخبركِ صديقي العزيز بذلك؟».

قالت: «أفهم جيدًا». وتابعت: «اسمع، يا أوبيرزون؛ متى يُمكنني الخروج في نزهة؟ فهذا المكان يُثير أعصابي بالفعل.»

«الليلة ستتريَّضين برفقة السيدة الجميلة. وسأرافقكما بنفسي.»

سألته ميرابيل مرةً أخرى: «لماذا أنا هنا، يا سيد أوبيرزون؟»

قال أوبيرزون، وهو يضع الصندوق الأخضر تحت ذراعه: «أنت هنا لأنك في خطر.» وتابع بينما يهزُّ رأسه مع كل كلمة: «أنت في خطر داهم للغاية. هناك رجالٌ محدَّدون، ذَوو أسوأ سمعةٍ على الإطلاق، يُخطِّطون لإنهاء حياتك. إنهم مجرمون، وماكرون، وأذكياء — ولكنهم ليسوا في مثلِ مكر أو ذكاء دكتور أوبيرزون. ولكنني لن أتركَك للوقوع فريسةً في أيديهم؛ لذلك أبقيكِ هنا، يا آنستي الصغيرة. عِمتم صباحًا.»

انحنى من جديدٍ انحناءةً رسمية وخرج، وعلا صوتُ الباب الحديدي المرتطم خلفه. وسمعتاه وهو يصعد السلَّم، وسمعتا صوت السحَّارة وهي تُغلق، وصوت البراميل، التي علمت جوان أنه لا بد صوتُ دحرجة البراميل الأسمنتية الموضوعة فوق السحارة.

قالت جوان بمرارة: «إنه رجلٌ ضئيل لطيف، أليس كذلك؟» وتابعت: «هو وموادُّه الكيميائية!» وحدَّقت في الصندوق المتبقِّي. وقالت: «لو كنت واثقة من أنها لن تنفجر، لحطَّمتها إلى قطعٍ صغيرة!»

في وقتٍ لاحق، أُخبِرت السجينة بهوس أوبيرزون؛ وإنفاقه الوقتَ والمالَ بحثًا عن إكسير الحياة.

قالت بجدِّية: «يظن مونتي أنه سيَجدُه». وتابعت: «هل تعلمين أنَّ هذا العجوز استخلص بهريز طهي ثور كامل وعبَّأه في علبةٍ حجمُها نصف لتر فقط؟ كان هناك ملكٌ في أوروبا — لا أتذكَّر اسمه — فعل الأمرَ ذاتَه، لكنه ليس بهذه القوة. يقول مونتي إن أوبيرزون نادرًا ما يتناول الطعام — فقط ملعقة صغيرة من هذا البهريز تَكفيه طوال اليوم. ويقول مونتي ...»

وطوال هذا الصباح الكئيب، اضطُرَّت الفتاة إلى سماع، دون إنصات، أقوال مونتي الحكيمة وأفعاله الذكية؛ وبين الحين والآخر تبتعد عيناها عن الصندوق المغطَّى باللباد الأخضر الذي يحتوي على «أفتك المواد الكيميائية»، وتساءلت عن احتمالية وقوعِ ما يُبرر، في أسوأ الظروف، استخدامَها لهذه القُوى المخيفة من أجل تحرير نفسها.

الفصل الثالث والعشرون

حامل الرسالة

حضر إيليا واشنطن إلى لندن طلبًا للاستشارة. ولولا كدمةٌ زرقاءُ تحت عينه اليمنى، لما ظهر عليه أيُّ أثر من تجربته المزعجة.

قاده ليون جونزاليس إلى البلدة، وفي طريقه، عبَّر الرجل الضخم عن آرائه بشأن لدغة الأفعى التي كانت مثيرةً للغاية بالنسبة إلى الرجل الذي يتولَّى القيادة. حيث قال: «لقد تبيَّن لي الأمرُ على هذا النحو: لا توجد أفعى على الإطلاق. ما يحدث هو أن هؤلاء الرجال قد استخرَجوا سمَّ الأفعى — وهذا أمرٌ سهل، من خلال جعْل ثعبانٍ سامٍّ يلدغ شيئًا ناعمًا — وسمَّموا سهمًا أو نبلة. لقد رأيتُ ذلك يحدث في أفريقيا، ولا سيما في مقاطعة إيتوري، وهو أمر شائع جدًّا في أمريكا الجنوبية. يقوم الرجل برميه أو إطلاقه، وحيث يقع السهم، يُصيب الهدف بسمِّ الأفعى مباشرة.»

قال ليون: «هذه نظرية ممتازة، ولكن ... لم يُعثر على سهمٍ أو نبلة على الإطلاق. فقد كان ذلك أولَ شيء بحثَت عنه الشرطة في قضية سمسار البورصة. لقد فتَّشوا الأرضَ أيامًا. وكان ذلك نفسَ الشيء في حالة المتشرد وموظَّف البنك، ونفس الشيء في قضية باربرتون. سوف يلتصقُ السهم بعضَ الوقت وستجده في ملابس الرجل أو بالقرب من المكان الذي ضُرِبَ فيه. فكيف يمكنك تفسير ذلك؟».

اعترف السيد واشنطن بصراحةٍ أنه لا يستطيع تفسير ذلك على الإطلاق، فضحك ليون.

وقال: «يمكنني ذلك. في الواقع، أنا أعلم كيف يحدث ذلك تمامًا.»

شهق واشنطن مندهشًا: «يا إلهي!» وأضاف: «لماذا لا تُخبر الشرطة إذن؟»

قال ليون: «الشرطة تعرف ... الآن». وتابع: «إنها ليست لدغة أفعى ... إنه تسمُّم بالنيكوتين.»

سأل الرجل المذهول: «كيف ذلك؟» لكن ليون احتفظ بالمزحة لنفسه.

بعد استشارةٍ استمرَّت معظمَ الليل، أحضروا واشنطن من راث هول، وفي الطريق ألمح ليون بلطفٍ إلى أن الثلاثة لديهم مهمة من أجله، وأعرب عن أمله في قَبولها.

قال: «أنت رجلٌ صالح للغاية بحيث لا يمكن وضعك في موقفٍ خطيرٍ لا داعي له؛ وحتى لو لم تكن كذلك، فلن نُجازف بحياتك المباركة بهذه السهولة؛ لكن المهمة التي علينا أن نطلب منك القيامَ بها ليست مجردَ نزهة».

قال السيد واشنطن بانفعال مفاجئ: «اسمع! أنا لا أريد المزيد من الأفاعي — وخاصةً هذا النوع من الأفاعي! لقد عانيتُ من الألم كثيرًا في حياتي، لكن لا شيء مثل هذا! أعلم أنه كان سمَّ أفعى، لكني أودُّ أن أقابل ذلك المتلاعبَ الصغير الذي يصنع هذا النوع الذي أصابني، وربما أغيِّر رأيي بشأن القبض عليه — على قيد الحياة!».

وافق ليون بصمت، وفي اللحظات القليلة التالية كان يتجنَّب سيارةً على جانب الطريق، وعربة الخباز على الجانب الآخر، وامرأةً محبَطة كانت تسير بلا هدفٍ في الطريق، على ما يبدو أنه ليس لديها نيةٌ أخرى سوى محاولة الموت في سنٍّ مبكرة، تلك هي طريقة النساء المحبَطة.

قال السيد واشنطن، بينما انزلقت السيارة على طريق مشحم: «أووه!» وتابع: «لا أعرف ما إذا كنت سائقًا جيدًا أم أنك بطبيعتك تتمتَّع بحماية العناية الإلهية.»

قال ليون بينما يُحاول السيطرة على اتجاه السيارة في مسارها الطبيعي: «كلاهما». وأضاف: «كل السائقين الجيدين كذلك.»

ثم عاد ليُكمل حديثه:

«إنه سمُّ الأفعى فعلًا يا سيد واشنطن؛ ولكنه سمُّ الأفعى الذي جرَت معالجته بعنايةٍ من قِبَل رجل يعرف جيدًا طريقةَ تركيز سُمِّه وكيفيةَ استخراج مكوناته غير المؤذية. نظريتي هي أنه قد أُضيفت بعض أشباه القلَويات، ومن الممكن أن يكون هناك مزيجٌ من نوعَين مختلفَين من السُّم. لكنك محقٌّ عندما تقول إنه لا يوجد حيوانٌ واحد يحمل في كيس السُّم الخاص به هذا النوعَ المعيَّن من عصارة الموت. وإذا كان لذلك أيُّ قيمة بالنسبة إليك، فنحن على استعداد لمنحك شهادةً أنك محصَّن ضد سم الأفعى!»

حذَّره إيليا واشنطن قائلًا: «لا أريد تجرِبةً أخرى من ذلك النوع»؛ لكن ليون حوَّل الحديث إلى حالة الطريق ومشكلات التحكم في سيولة المرور.

لم يكن هناك أيُّ معلومات عن ميرابيل، وقد وُجِّهَت أنشطة ميدوز في الوقت الحاليِّ إلى جلسة الاستجواب الوشيكة عن مقتل باربرتون. في الوقت الحاضر، كلما ذهب إلى

سكوتلاند يارد، وجد نفسَه مدفوعًا وسط حشدٍ من المراسلين، وكلهم متلهِّفون لمعرفةِ ما إذا كان هناك المزيد من التطورات. كان مقتل باربرتون لا يزال الموضوعَ الأكثر حيويةً على صفحات الجرائد؛ لقد تجدَّد الشعور القديم بالخوف من الأفعى وازداد إلى حدٍّ ما. لم تكن هناك جريدةٌ لا تحتوي على أعمدة من الرسائل إلى المحرر تُندِّد بتخاذل الشرطة. سأل أحد المراسلين الساخرين: هل كانوا تحت تأثير عيون الأفعى المنومة؟ كما سأل آخرُ: ألا يستطيعون التخلِّيَ عن حبس متجاوزي السرعة على طريق لينجفيلد وتركيز عقولهم المتميزة لتفسير لغزٍ من المفترض أنه يتسبَّب في قلقٍ عارم لجميع الأُسَر في لندن؟ كانت جريمةُ مقتل باربرتون بمثابة المِشْجَب الذي يُعلِّق عليه كلُّ مبتدئ في كتابة الرسائل وجهةَ نظره الجديدة، ولم يكن السيد ميدوز يمرُّ بأفضلِ أوقاته كضابط في قوات الأمن في هذا الوقت.

سأل واشنطن بينما يصلون إلى كورزون ستريت: «أين لي؟»

«إنه في المدينة في الوقت الحاليِّ، لكننا سوف ننقله إلى شمال إنجلترا، على الرغم من أنني لا أعتقد أن هناك أيَّ خطر عليه، بعد أن صارت رسائلُ باربرتون في حوزتنا الآن. كانوا سيقتلونه أمسِ لمنعِنا من الوصول إلى تلك المراسَلات. واليوم يُخيَّل لي أنه لم تَعُد له أيُّ أهمية خاصة في نظر أوبيرزون وشركائه. وها نحن أولاء قد وصلنا!»

خرج السيد واشنطن بصورةٍ رسمية وكان في استقباله على الفور كبيرُ الخدم. صعد الرجال الثلاثة إلى الطابَق العُلوي حيث كان جورج مانفريد يُجاهد لحل مرحلةٍ من مراحل اللغز. ولكنه لم يكن وحده؛ حيث جلس ديجبي حزينًا، ورأسه مغطًّى بالضمادات، على حافة كرسيٍّ وأجاب تحيةَ ليون المبتهجة بابتسامة كئيبة.

«سوف أرسل ديجبي لمراقبة منزل أوبيرزون؛ وأريده على وجه الخصوص أن يُفتش ذلك القاربَ القديم الخاص به.»

كان يُشير في كلامه إلى مركبٍ قديم يرسو في الوحل عند قاع مرفأ السيد أوبيرزون الخاص. وهناك ممرٌّ مائي ضيق من القناة يمر في أراضي المصنع الصغيرة. لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن رُفِع الجسر الناتئ الصغير الذي يُغطي المدخل، حتى إن السكان المحليِّين اعتبروا أرضية الجسر جزءًا من الضفة الأصلية للقناة. لكن خلف بوابات المياه الخضراء كان هناك مرفأ خَرساني كبير بما يكفي لاستيعاب قاربٍ واحد، وظل القارب القديم المتهالك يرسو هنا سنواتٍ، وأصبح مرتعًا للفئران ومكانَ نومٍ للمشردين البائسين.

قال ليون: «لا يمكن تحريك القارب عمليًّا، ولقد أبلغتُ عن ذلك بالفعل.»

فأجابه مانفريد: «إنه يبدو كذلك بالتأكيد، ومع ذلك فإنني أرغب في تفتيشه. أنت تُدرك أن هذه مهمةٌ ليلية، وقد طلبت من ميدوز إخطار المفتش المحلي بأنك ستكون في مهمة — لا أريد أن أُجرَّ من فراشي للتعرف عليك في مركز شرطة بيكهام. إنها ليست مهمةً مبهجة، ولكن قد تكون قادرًا على جعلها مهمةً ممتعة من خلال استكشاف طريقك في أرضه. لا أعتقد أن مراقبة المصنع ستسفر عن الكثير، لكن المنزل سيكون بالتأكيد دراسةً مفيدة بالنسبة إلى مَن يراقب الطبيعة البشرية.»

قال ديجبي وهو يستدير ليذهب: «آمُل أن أوفَّق بشكلٍ أفضلَ هذه المرة، يا سيد مانفريد. وإذا كنت لا تُمانع، فسأذهب أثناء النهار وألقي نظرة على المكان. لا أريد أن أُخفق هذه المرة!»

ابتسم جورج بينما ينهض ويُصافح الرجل عند مغادرته. وقال بخبث: «حتى السيد جونزاليس يرتكب أخطاء.» وبدا ليون متألمًا لذلك.

رتَّب مانفريد بعض الأوراق على مكتبه ووضعها في دُرج، في انتظار عودة بويكارت. وعندما جاء قال: «سوف نُخبرك، الآن، يا سيد واشنطن، بما نُريدك أن تفعله. نريدك أن توصل رسالةً إلى لشبونة. ربما ألمح ليون إلى شيءٍ بهذا المعنى، ومن واجبي الآن إخبارُك بأن هذه المهمة بكل تأكيد خطيرةٌ للغاية، لكنك أنت الرجل الوحيد الذي أعرفه ويمكنني أن أعهَد إليه بهذه الوثيقة المهمة. أشعر أنني لا أستطيع السماحَ لك بالاضطلاع بهذه المهمة دون إخبارك بأن احتمالات وصولك إلى البرتغال ضعيفة للغاية».

قال واشنطن في خَواء: «بارك الله فيك على هذه الكلمات المبهجة». وتابع: «الشيء الوحيد الذي أريد أن أتأكد منه هو: هل من المحتمل أن أقابل الأفعى المتنكِّرة؟»

أومأ مانفريد برأسه، فتجهَّم وجه الرجل الأمريكي.

ثم قال أخيرًا: «لا أعلم حتى إن كان هذا يُخيفني، خاصةً الآن وبعد أن علمت أن المخدِّر الذي يستخدمونه ليس سُمَّ أفعى حقيقيًّا على الإطلاق، بل سمٌّ مصطنَع. إن اهتزاز ثقتي في الأفاعي هو ما ضايقني. متى تريدني أن أذهب؟»

«الليلة.»

أصبح السيد واشنطن متحيرًا في تلك اللحظة، وتابع مانفريد قائلًا: «ليس من خلال طريق دوفر-كاليه. نُفضِّل أن تُسافر عبر نيوهافن-ديبي. فلن يكون أصدقاؤنا في حالةِ تأهُّب، على الرغم من أنني لا أستطيع حتى أن أضمنَ لك ذلك. أوبيرزون يُنفق الكثير من المال في التجسس. هذا المنزل كان تحت المراقبة أيامًا. سوف أثبت لكم ذلك.»

ثم ذهب نحو النافذة وفتح الستارة.

سألهم: «هل ترون أيَّ جاسوس؟» وكان بعينيه بريق.

فنظر السيد واشنطن نحو الشارع.

وقال: «بالتأكيد!» وتابع: «ذلك الرجل في الزاوية الذي يُدخِّن سيجارًا ...»

قال مانفريد: «إنه ضابط محقِّق من سكوتلاند يارد. هل ترى شخصًا آخر؟»

قال واشنطن بعد وهلة: «أجل، هناك رجلٌ يُنظِّف النوافذ في الجهة المقابلة من الطريق، إنه ينظر نحوَنا على نحوٍ متواصل.»

قال مانفريد: «إنه مواطن بريء تمامًا.»

أومأ السيد واشنطن برأسه نحوَ صفٍّ من سيارات الأجرة التي تقف مصفوفةً في وسط الطريق. وقال: «حسنًا، لا يمكن أن يكون في أيٍّ من سيارات الأجرة هذه؛ لأنها لا تحمل ركَّابًا.»

«على العكس، فهو في أول سيارة أجرة في الصف — إنه السائق! إذا خرجتَ واستدعيتَ سيارة أجرة، فسيأتي إليك. إذا ناداه أيُّ شخص آخر، فسوف يُصبح مشغولًا. اسمه كلارك، يعيش في ٤٣، بورتلينجتون ميوز؛ وهو مُدان سابق يعيش بعيدًا عن زوجته، ويتقاضى سبعة جنيهات في الأسبوع مقابل خدماته، وعشَرة جنيهات في كل مرة يقود فيها سيارة أوبيرزون، وكل الأموال التي يَجنيها من سيارته الأجرة.»

ثم ابتسم بسبب دهشة الآخر.

«لذا فإن الاحتمالات هي أن تُصبح تحركاتُك معروفة؛ حتى لو لم تستدعِ السيارة الأجرة، فسوف يتْبعُك. يجب أن تكون مستعدًّا لذلك. أنا أكشف لك كلَّ أوراقي، يا سيد واشنطن، وأطلب منك أن تفعل شيئًا، إذا كنتَ لا تستطيع أن تحمل نفسك على الموافقة عليه، فيجب أن أفعله أنا، أو بويكارت أو جونزاليس. بصراحة، لا أحدَ منا يُمكنه التهرُّب.»

قال الأمريكي: «سأذهب». وتابع: «سواءٌ أكانت هناك أفعى أم لا، أنا ذاهبٌ إلى لشبونة. ما الطريق الذي سأسلكه؟»

أخرج بويكارت ورقةً مطوية من جيبه.

«نيوهافن، ديبي، باريس. لديك مقصورة محجوزة في قطار سود إكسبريس؛ ستصل إلى مدينة فالادوليد في وقتٍ متأخر من ليلة الغد، ثم تُغيِّر وِجهتك بقطار البريد البرتغالي، إلا إذا تمكنتَ من حجز طائرة لمقابلتك في مدينة إيرون. نحن نحاول الآن. وإلا، فيجب أن تكون في لشبونة في الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالي. من الأفضل أن يأخذ الرسالة الآن، يا جورج.»

فتح مانفريد خزينةَ الحائط، وأخرج مظروفًا طويلًا. وكان موجهًا إلى «وزير المستعمرات السيد ألفاز مانويل إي سينترا»، وكان مغلقًا بإحكام.

وقال: «أريدك أن تُسلِّم هذا إلى يد السيد سينترا شخصيًّا. لن تجد صعوبة هناك؛ لأنه ينتظر ذَهابك إليه. هل ستسافر بهذه البدلة؟»

فكَّر الرجل الأمريكي لحظة.

وقال: «نعم؛ فمِثلها مِثل غيرها.»

«هل يمكن أن تخلع الجاكيت؟»

أطاع السيد واشنطن الأمر، فقطع مانفريد شقًّا صغيرًا في البطانة باستخدام مقصٍّ صغير ودسَّ الرسالة بداخله. ثم، وأمام دهشة الأمريكي، تحوَّل ليون إلى ربَّة منزل حقيقية، وأدخل الخيط في ثقب إبرة ببراعةٍ لافتةٍ للنظر، وخلال الدقائق الخمس التاليةِ راقب صائدُ الأفاعي الأصابعَ البارعة بينما تَخيط ما بين الورَق والبِطانة. خِيطَت الفتحةُ بمهارة لدرجة أن إيليا واشنطن كان عليه أن ينظر مرتَين للتأكد من مكانِ قَطع البطانة.

وقال: «حسنًا، هذا عملٌ احترافي للغاية!» وتابع: «يا سيد جونزاليس، سوف أُرسل لك قُمصاني لإصلاحها!»

«وهذا شيء لك لِتَحمله.» وكانت محفظةً جلدية سوداء، باليةً للغاية. أُرْفِقَت بها سلسلةٌ فولاذية تنتهي بحزام جلدي في أحد طرفَيها. ثم أردف قائلًا: «أريدك أن تضع هذا الحزام حول خَصرك، ومن الآن فصاعدًا تحمل تلك المحفظة. إنها لا تحتوي على شيءٍ أكثرَ أهميةً من مجرد بضعة مظاريفَ مغلقةٍ بأحكام شديد، وإذا فقدتَها فلن يتسبب ذلك في أي ضررٍ كبير.»

أومأ مانفريد برأسه إيجابًا، عندما سأله واشنطن: «هل تعتقد أنهم سيسعَون للحصول على المحفظة؟»

ثم قال: «لا يمكن للمرء أن يتنبأ، بالطبع، بما سيفعله أوبيرزون، فهو ماكرٌ مثل أفاعيه. لكن خبرتي تقول كلَّما كان المجرم أكثرَ ذكاءً، كبرَت حماقتُه وزادت أخطاؤه. سوف تحتاج إلى المال.»

قال الآخر بابتسامة: «حسنًا، لا، لستُ محتاجًا إلى المال». وتابع: «تُعد الأفاعي عملًا مربحًا للغاية. ومع ذلك، فأنا رجل أعمال ...»

وفي الدقائق الخمس التالية ناقشوا التفاصيلَ المالية، وقد فُوجئ كثيرًا باكتشاف الاستهتار في صرف الأموال.

ثم خرج، وهو ينظر بلمحةٍ من زاوية عينه إلى سائق السيارة الأجرة الذي رفع يده مستفسرًا، لكنه تجاهل السائق، واستدار وسار باتجاه ريجنت ستريت، ووجد في الحال سيارة أجرة متجولةً ليست مشكوكًا فيها، وأمر الرجل بقيادة سيارته إلى فندق ريتز كارلتون، حيث حُجِزت له غرفة.

وصل إلى شارع ريجنت قبل أن ينظر حوله من خلال الفتحة، وكما وعدَه مانفريد، كانت سيارة الأجرة تتبعه، مع تلاعُب سائقها بإشاراتها الضوئية حتى لا يطلبه أحدٌ بشكل عرَضي. صعد السيد واشنطن إلى غرفته، وفتح النافذة ونظر إلى الخارج، فوجد سيارة الأجرة قد وقفت في مكانٍ انتظار قريب. وترك السائق مقصورة القيادة.

تمتم السيد واشنطن قائلًا: «إنه يتحدث في الهاتف»، وكان على استعدادٍ لإنفاق الكثير من المال ليعرف طبيعة المكالمة.

الفصل الرابع والعشرون

على متن قطار البريد المسائي

رغم كونه رجلًا روتينيًّا، فوَّت السيد أوبيرزون رحلته اليومية إلى سيتي رود. ففي الظروف العادية، كان من الممكن أن تُصبح تلك الخَسارة فادحة، لكنه في الآونة الأخيرة أصبح متشبثًا أكثرَ فأكثر بكرسيه الوثير ذي الذراعين ومجلداته الثقيلة؛ وعلى الرغم من أن مبنى سيتي رود كان منشأةً ناجحة للغاية من نواحٍ كثيرة، وقد أسيء استبداله بالمبنى المؤقَّت الذي أمَّنه مديره، فقد شعر أنه يستطيع الاستغناء عن هذا الفرع من شركته تمامًا.

كانت شركة أوبيرزون آند سميتس مؤسسةً نشأت من لا شيء. إن مجهود الشركاء، وخاصة المعرفة بالظروف التِّجارية الأفريقية التي كان يمتلكها سميتس الراحل، قد أنتج عملًا تِجاريًّا مزدهرًا كان من الممكن طرحُه في البورصة قبل عشر سنوات مقابل نصف مليون جنيه إسترليني.

لا يزال هناك طلبياتٌ واردة. ومتاجر محلية يجب إعادة تعبئتها؛ وعقود جديدة، حتى إذا كانت غيرَ مهمة، يجب تلبيتها؛ حتى إنه كان هناك عرضٌ مبدئي قيد الدراسة من إحدى دول أمريكا الجنوبية لتسليح فصيلٍ سياسي. لكن السيد أوبيرزون كان راضيًا بتمضية الوقت في الانتظار، إيمانًا منه بأن الأسبوع المقبل سيشهد تجاوزَه لهذه الاعتبارات الطفيفة وسيسمح له، إذا رغب في ذلك، بتصفية شركته وبيع متاجره وتجارته. كان هناك مشترون جاهزون، لكن نصف المليون جنيه قد تضاءل إلى عُشرِ هذا المبلغ، وهو ما لم يكن كافيًا لسداد الفواتير المستحَقة. وكما قال مانفريد، كانت نفقات تشغيله هائلةً. كان لديه عملاءُ في كل مكتب حكومي مركزي في أوروبا، وعلى الرغم من أنهم لم يستحقُّوا أجورهم، إلا أنهم بالتأكيد قد حصلوا على الكثير من الأموال في مقابل خدماتهم.

كان قد أمضى صباحًا حافلًا في مختبره الصغير، واستقر على كرسيِّه، عندما جاء ساعي البرقيات وهو يقود دراجته عبر الأرض الوعرة، وتوقَّف لحظةً للإعجاب بالكلاب

الحديدية المنتشرة على قطعة أرض عُشبية غير منظَّمة، وأيقظ أصداءَ هذا المنزل الموحش بقَرْعِه المدوِّي على الباب. سارع السيد أوبيرزون إلى الباب. يجب أن تكون البرقية المرسَلة إلى هذا العنوان مهمةً للغاية. فأخذ البرقية، وأغلق الباب في وجه الساعي وهُرِع عائدًا إلى غرفته، مزَّق المظروف وهو في طريقه للغرفة.

كانت هناك ثلاثُ ورقات مليئة بالأخطاء الإملائية؛ لأن البرقية كانت باللغة البرتغالية وموظَّفو مكتب البرقيات لا يُجيدون التخمين. قرأها بعنايةٍ فائقة، وشفتاه تتحركان في صمتٍ، حتى وصل إلى النهاية، ثم بدأ في القراءة من جديد، ولِفَهمٍ أفضلَ لمضمونها، أخذَ قلمًا وورقةً وترجم الرسالة إلى السويدية. وضع البرقية ووجَّهها لأسفل على المنضدة وحمل كتابه، لكنه لم يكن يقرأ. فانسحب عقله المشغول من لشبونة إلى لندن، من كورزون ستريت إلى المصنع، وفي النهاية أغلق كتابه بضجةٍ عنيفة، ونهض، وفتح الباب، ونادى اسم جيرتر بصوت مزعج. نزل ذلك الرجل الغريب إلى الطابق السفليِّ مرتديًا جورَبين في قدميه، وشعره يتدلى فوق عينَيه، كان مشهدًا مزعجًا. فأشار الدكتور أوبيرزون إلى الغرفة ودخل الرجل.

تحدَّثا لمدة ساعة خلف أبواب مغلقة، ثم خرج جيرتر، وهو لا يزال مستعرضًا أسنانَه بابتسامةٍ مصطنَعة، وصعد السُّلم درجتَين في كل خطوة. وسمعت الخادمةُ الدنماركية المتوسطة الذكاء، وهي تمر أمام باب غرفة الدكتور، صوتَه الأجشَّ وهو يتحدث في الهاتف، ولكنه كان يتحدث بلغةٍ مختلفة اختلافًا طفيفًا عن لغتها، برغم أنها كانت قريبةً إلى لغتها إلى حدٍّ ما، فلم تستطِع فهم التعليمات والنصائح والأوامر والاقتراحات التي أطلقها في عدة اتجاهات مختلفة، على الرغم من أنها سَمِعته بوضوح.

بعد ذلك، عاد الدكتور أوبيرزون إلى كتابه وتناول مشروبًا منعشًا لمنتصف النهار، وتناول غداءه من كوبٍ صغير بجانبه يحتوي على بِضع أوقيات من السائل الأحمر الداكن. كان يُتابع فلاسفته الذين قرأ عنهم جيدًا بنصف تركيز؛ أما النصف الآخر فكان يعمل بسرعةٍ محمومة، للتخمين والاستنتاج، ولإحباط وخداع العقول التي كانت تعمل ضدَّه. أخذ يلعب لعبة الشِّطرنج الذهني، طوال الوقت بحثًا عن حركة «كش ملك»، وعندما اكتشف أخيرًا حركةً مناسبة، ألقى كتابه وخرج إلى حديقته، يتجول ذَهابًا وإيابًا داخل إطار السياج السلكي، ويتوقف بين الحين والآخر لاختيار زهرة من بين الحشائش، أو التوقف مؤقتًا لفحص حفرة مليئة بمياه المطر كما لو كانت جِرمًا سماويًّا في منظر طبيعي مهيب.

لقد أحبَّ هذا المنزل القبيح، وعرف كلَّ حجَر فيه، مثل أي سيدٍ إقطاعي يعرف القلعة التي بناها، والبرج، والسقف المسطح ذا المتراس العالي، الذي كان يؤدي إلى إطلالة على ضفة القناة من جانب واحد وأسوار السكك الحديدية على اليسار واليمين. كانت لأسوار السكك الحديدية قيمة بالنسبة إليه. حُظِر معظمها، بعد أن تحوَّلت إلى مرائبَ وأكواخٍ مغلقة، ولا يمكن المرور إلا من خلال عدد قليلٍ منها فقط. أسفل واحد منها، يسير المرُّ الموحل — لماذا أُطلق عليه «ممر الجلاد» لا أحد يعرف؛ ويؤدي ممرٌّ آخرُ إلى بعض المخصصات على حافة ممتلكاته؛ وممر ثالث يمكن من خلاله أيضًا رؤيةُ ضوء النهار، لكنه لم يمتدَّ إلى أي طريق على الإطلاق.

مرَّ قطار سريعٌ محدثًا ضجةً ومخلفًا سحابةً من البخار، ونظر أوبيرزون إلى الجسر في اهتمام عطوف. ثم قام بجولته التفقُّدية اليومية. وعند عودته إلى المنزل، صعد السلَّم إلى الطابق الثالث، وفتح بابًا صغيرًا كشف عن مجموعةٍ إضافية من الدرجات، وخرج إلى السطح. في كل ركن كان هناك سقيفةٌ سوداء مربَّعة، تصل إلى ارتفاع صدر الرجل تقريبًا. كانت الأبواب مقفلة بإحكام، وبالقرب من كلٍّ منها صندوقٌ أسودُ ضخم، ومقاوم للعوامل الجوية. كانت هناك أشياءُ أخرى هنا؛ مقابس حائط كبيرة وغير متقنة على مسافات منتظمة. عند رؤيتها، قد يُعتقد أن السيد أوبيرزون قد فكَّر في مجيء ليلة، وسط نشوةٍ من الإنجاز، يُنير خلالها هذا المبنى القبيح. لكن حتى الآن لم تَحِنْ تلك الليلة، وفي الحقيقة كان الضوء الوحيد القابل للاستخدام هو الضوءَ الذي أُزيل في الوقتِ الحاليِّ في أكبر الأسقف الأربعة.

من هذا الموضع يمكنه أن ينظر إلى أسفل على المياه التي تمر عبر أرض المصنع؛ وبدا الهيكل الأسود للصندل، الذي يملأ عرض الرصيف بالكامل، قريبًا جدًّا لدرجةِ أنه كان بإمكانه إلقاءُ حجر عليه. كان اهتمامه ينصبُّ على المياه السوداء البطيئة التي تتسرَّب عبر البوابات. ساد ضباب خفيف على القناة؛ بينما يمر صندل نحو ديتفورد، وأخذ يتأمل الحصان المجهد الذي يسحب حبل الصندل ويُفكِّر في حلول الوقت الذي يمكنه فيه، هو أيضًا، أن يستعمل قاربًا أسرع للمرور خلال الممر المائي.

كانت لندن ممتدةً حوله، وأبراجها ومداخنها تلوح في الأفق عبر غلالة رقيقة من الدخان. وبعيدًا، انعكست أشعة الشمس على الكرة الذهبية لكاتدرائية سانت بول وأضافت نَجمًا جديدًا إلى السماء. كره السيد أوبيرزون لندن — فقط هذه البقعة الصغيرة التي يملكها هي ما تحمل جمالًا في عينَيه. لا الحدائق الخضراء الشاسعة ولا شجيرات الورد

المزهرة؛ لا الأروقة الملَكية الممتعة التي يسلكها المتنزِّه الغنيُّ أو يسير عليها، ولا شوارع المتاجر ذات الواجهات الحجرية، ولا الخضرة المبهجة لطرق الضواحي — لقد أحب فقط هذه الأفدنة النائية، لهذه البرِّية الموحلة التي بُني فيها مسكنه.

نزل إلى الطابق السفلي، وأغلق باب السطح من خلفه، ومرَّ عبر غرفة جيرتر، فطرق الباب وسُمِح له بالدخول. جلس الرجل مرتديًا قميصَه الداخلي؛ كان قد حلق مرةً واحدة، لكن الشفرة الحادة كانت تمر على بشَرته للمرة الثانية. أدار وجهه الذي يُغطيه بالكريم، وابتسم ابتسامةً عريضة إلى الزائر، ثم مع صوت نخرةٍ أغلق الدكتور الباب ونزل إلى الطابَق السفلي، وهو يعلم أن الرجل كان سعيدًا في الوقت الحاليِّ؛ فلا شيء يُسعد جيرتر أبدًا مثل «التأنق».

وقف الدكتور عند مدخل غرفته، مترددًا بين الكتب والمختبَر، ثم قرَّر اختيار الأخير، وانشغل على مدار الساعتين التاليتَين. وقد غادره مرةً واحدة فقط، كان ذلك ليُحضر من الغرفة الدافئة صندوق اللباد الأخضر الذي يحتوي على «أقوى المواد الكيميائية، ذات القوة الهائلة».

يحظى طريق نيوهافن-ديبي بشعبيةٍ على أوقات متقطِّعة. هناك ليالٍ تزدحم فيها القطارات المتجِهة إلى باريس، وليالٍ أخرى يمكن فيها الحصولُ على عربةٍ تُقلُّك بمفردك؛ وتصادف أنه في هذا المساء، عندما حجز إيليا واشنطن مقعده، كان من الممكن أن يجلس في مقصورةٍ ويضعَ قدمَيه على مقعدٍ في مقصورة أخرى، لو كان ذلك ممكنًا جسديًّا.

هناك فرقٌ واحد ملحوظ بين الفرعَين الكبيرين للعِرق الأنجلو ساكسوني. فالرجل الإنجليزي يُفضِّل السفر في عُزلة وصمت. رحلته المثالية هي رحلةٌ من لندن إلى القسطنطينية في مقصورة لا يطَؤها إلا محصِّل التذاكر؛ وإذا كان من الممكن إنسانيًّا أن يصل إلى وجهته دون أن يتفوَّه بأي شيءٍ أكثرَ من مجرد موافقة على تعليق راكب آخر على حالة الطقس، فهو بالفعل رجل محظوظ. أما الرجل الأمريكي فيحب الرفقة؛ ورث الرغبة في الاستحواذ من الجانب اللاتيني، بالإضافة إلى السمات البلاغية للشعب التوتوني. تجعله العزلة تعيسًا؛ ويزعجه الصمت. يحب التحدث عن أشياءَ كبيرة ومهمة، مثل مستقبل البلد، وآفاق الزراعة وتقلبات التجارة، التي لا يعرف عنها الرجل الإنجليزي العادي أيَّ شيء، ولا يهتمُّ بها كثيرًا. يتمتَّع الأمريكي بكبرياء المدينة، ويُمكنه التحدث بشكلٍ عاطفي تقريبًا عن شبكة صرفٍ جديدة وأن يُصبح بليغًا عندما يتحدث عن الميزانية العمومية للبلدية. أما الرجل الإنجليزي فلا ينمو بداخله كبرياءُ بلدته حتى يبلغ منتصف العمر، وهو يشعر به بالقدْر الكافي للشعور بالإحباط من مكان ولادته بعد أن يُجدد معرفته به.

وجد السيد واشنطن نفسَه في مقصورةٍ فارغة، وسار على طول الممر، وهو ينخر بسبب شعوره بعدم الرضا، أخذ يختلس النظر في مقصورةٍ تلو الأخرى على أمَل العثور على مُواطن من بلده في نفس المحنة المؤسفة. ولم يُثمر بحثه عن شيء وعاد إلى العربة التي وُضِعت فيها حقيبته ومعطفه، واستقرَّ على قراءة صحيفةٍ إنجليزية فكاهية وبحَث بلا جدوى عن شيء يمكن لأي رجل ذكي أن يضحك عليه.

كانت أبواب العربة عند طرَفَيها، وكان على معظم الركَّاب المرورُ عبر المدخل المفتوح لمقصورة السيد واشنطن. ومع كل نقرة على الباب كان ينظر لأعلى، على أمَل العثور على صُحبة ملائمة. لكنَّ خيبة الأمل كانت تنتظره، حتى تردَّدت سيدةٌ عند الباب. كانت عربةً مسموحًا فيها بالتدخين، لكن واشنطن الذي تتَّسم شخصيته بالشهامة، كان سيُضحي بكل سرور بسيجاره من أجل سعادة صحبته. خمَّن أنها صغيرة السنِّ وأرملة. كانت ترتدي الأسودَ، وظهر وجهها الجذابُ من خلال وشاح ثقيل يغطيه.

سألت بصوتٍ خفيض يكاد يكون همسًا قائلةً: «هل هذه المقصورة مشغولة؟»

نهض واشنطن، والقبعةُ في يده وقال: «لا، يا سيدتي.»

سألت بصوتٍ رقيق: «هل تمانع جلوسي؟»

قال الأمريكي الشهم: «يا إلهي، تفضلي بالتأكيد! اجلسي، يا سيدتي». وتابع: «هل ترغبين في الجلوس على مقعدٍ في الزاوية بجوار النافذة؟»

هزَّت رأسها، وجلست بالقرب من الباب، وقد أدارت وجهها عنه.

سألها واشنطن بعد مدة: «هل تُمانعين في أن أدخِّن؟»

قالت: «تفضَّل بالتدخين»، ثم أدارت وجهها بعيدًا.

قال السيد واشنطن محدِّثًا نفسه في اشمئزاز: «إنها إنجليزية»، وتقوقعَ على نفسه لمدة ساعة ونصف من الصمت غير المريح.

انطلقت صافرة، وتحرك القطار ببطءٍ من الرصيف، وبدأت رحلة المغامرة لإيليا واشنطن.

كانوا يمرُّون عبر كرويدون عندما نهضت الفتاة وانحنت، وأغلقت الباب الزجاجي الصغير.

قال إيليا معاتبًا: «عليك أن تدَعيني أفعل ذلك»، فتمتمتْ بشيء عن عدم رغبتها في إزعاجه، ثم عاد إلى مقعده.

نظر واحد أو اثنان من الرجال الذين يمرون عبر الرواق نحوها عبر الزجاج، ومن الواضح أن ذلك أزعجها؛ لأنها مدَّت الستارة الزنبركية وسحبَتها لأسفل وأخفَتْها جزئيًّا

عن نظراتِ مَن بالخارج، وبعد أن جاء محصِّل التذاكر وثقب تذكرتَيهما، أنزلت الستارة الثانية من الستائر الثلاثة.

سألته: «هل تمانع؟».

قال إيليا، دون أي حماس: «بالتأكيد لا، يا سيدتي». لم تكن لديه رغبةٌ في السفر بمفرده مع سيدة في مقصورة محاطة بالستائر. لقد سمع عن حالات … وكان بطبيعته رجلًا شديد الحذر.

زادت سرعةُ القطار، واستقر الركابُ المتجولون في مقاعدهم. وجرَت عملية التفتيش الثانيةُ على التذاكر بينما كانوا يندفعون عبر ريدهيل، وظن السيد واشنطن بعدم ارتياح أنَّ هناك نظرةً ملحوظة على وجه المفتش وهو ينظر أولًا إلى الستائر المسحوبة، ثم قلَّب نظره من السيدة إليه.

رشَّت السيدة عطرًا من نوعٍ ممتع بشكلٍ غامض. وعبَّأت العربةَ بهذا العطر الرقيق. شمَّه السيد واشنطن وسط رائحة سيجاره. كانت لا تزال تُشيح بوجهها بعيدًا عنه؛ فتساءل عمَّا إذا كانت قد خلَدت إلى النوم، وبعد أن سئم من بحثه عن الفكاهة، وضع الصحيفة جانبًا، وطوى يدَيه وأغلق عينَيه، ووجد نفسه ينجرف بلطفٍ إلى ذلك المزيج من الواقعية واللاواقعية الذي يعتبر بادرةَ الأحلام.

تحرَّكت السيدة؛ حتى أصبحَت نصف مواجهةٍ له. فنظر إليها من زاوية عينَيه نصف المغلقتين. كانت لا تزال ترتدي وِشاحها، وكان قفَّازاها الأبيضان مثبَّتين على ركبتَيها. ثم أغمض عينَيه مرة أخرى، حتى أيقظته حركةٌ أخرى، فقد كانت تتحسَّس حقيبتها.

كان السيد واشنطن متيقظًا الآن — متيقظًا تمامًا كما كان دائمًا طَوال حياته. وعندما مدَّت السيدة يدَيها، كانت قد سحبت كمَّها، فظهر جزءٌ من ذراعها بين القفاز ومعصم بلوزتها، كان هناك شعرٌ على ذراعها!

غيَّر وضعه قليلًا، وشَخَر كأنه نائمٌ، ووضع يدَه في جيبه، وطوال الوقت كانت تلك العيون الباردة تُراقبه عبر الوشاح.

رفعت الجزء السفلي من الوشاح، ووضعت مبسم السجائرِ الأبنوس بين أسنانها وفتَّشت الحقيبة بحثًا عن ثقاب. ثم التفتتْ إليه متوسلةً وكأنها أحسَّت يقظته. عندما نهضت، نهض واشنطن أيضًا، وفجأةً قفز عليها وألقى بظهرها على الباب. ذُهلت السيدة المحجَّبة للحظة، ثم ظهر بريقُ شيء فولاذي.

ظهر سكِّين في يدها من العدم، وقبض واشنطن على رسغها ورفعه ودفع راحة يده تحت ذقنها. وقد تمكَّن من الشعور بالشعر الخشن على الرغم من وجود الوشاح،

هو يعرف الآن، إن لم يكن قد عرَف من قبل، أنه يجب عليه التعامل مع رجل. رجل نشط، تضاعفت قوَّته بمعرفة خطرِه. تقدَّم جيرتر إلى الأمام برأسه، لكن واشنطن توقَّع الهجمة، فثنَى ذراعه ولكَمه بالكامل في وجهه وراء الوشاح. أوقفت الضربة الرجل لحظةً فقط، ثم عاد مرةً أخرى، وهذه المرةَ أصاب طرَفُ السكين كتفَ الرجل الأمريكي، ومزَّقت المعطف حتى المرفق. لقد كان إيليا واشنطن بحاجةٍ إلى هذا لحثِّ قوَّته العقلية والبدَنية. وبزئير عالٍ أمسك بحُنجرة من يُهاجمه وألقاه بعنف شديد على الباب المقابل، وارتطمت «الأرملة المتَّشحة بالسواد» بلوح الممرِّ الخارجي. وقبل أن يتمكَّن من الوصول إلى المهاجم، استدار جيرتر وأسرع على طول الممرِّ إلى باب العربة. وفي لحظة واحدة فتحه ونزل على طرَف درجة السُّلم. كان القطار يتباطأ ليتَّجه نحو هورشام جانكشن، وترقبت العينان اليقظتان حتى رأتْ موقعًا جيدًا للقفز، وقفز. كان واشنطن يُحدق في الظلام، ولم يرَ شيئًا، ثم جاء مفتش القطار.

قال بأنفاسٍ متقطعة بعض الشيء: «كان هذا رجلًا متنكرًا في ملابسَ نسائية»، وعادوا لتفتيش المقصورة، لكن السيد جيرتر أخذ الحقيبة وكل شيء معه، والتذكار الوحيد لوجوده كان كعبُ الحذاء الذي نُزع في الشجار.

الفصل الخامس والعشرون

عودة جيرتر

كان القطار يسير بسرعة ثلاثين ميلًا في الساعة حين قفز جيرتر على سلسلةٍ من التلال الرملية إلى جانب السكة الحديدية، وفي الثانية التالية، كان يتدحرج إلى الأمام على وجهه. ولحسن حظِّه أن الوشاح، رغم تمزقه، حافظ على عينَيه. وقف على قدميه مترنحًا، ونظر مِن حوله. لا بد أن بوابات المزلقان في مكانٍ ما هنا، كان ينوي القفز من القطار عند هذه النقطة، حيث إن أوبيرزون قد رتَّب الأمر على هذا النحو. رأى عاملُ إشارة، كان جالسًا عند نقطة عالية فوق السكة الحديدية، هيئته واستوقفه.

قال جيرتر: «لقد ضللتُ طريقي». وتابع: «أين المزلقان؟»

«على بُعد مائة ياردة. ابتعِد عن هذه القضبان — قطار إيستبورن السريع قادمٌ خلفك.»

لو أن جيرتر سار على نهجه الخاص، لتوقفَ وقتًا كافيًا من أجل إزالة قضبان السكة الحديدية ومشاهدة بضع مئاتٍ من الأشخاص المكروهين يُلقَون في التهلكة من أجل المتعة الخالصة. ولكنه خمَّن أن السيارة تنتظره؛ ولذا سار على جانب الطريق عبر البوابات الآمنة ومنها إلى طريقٍ مكتظٍّ بالسكان إلى حدٍّ ما. كان هناك أشخاص يُديرون رءوسهم وينظرون في ذهولٍ إلى المرأة الموحِلة المتَّشحة بالسواد، ولكنه كان قد اجتاز الشعور بالقلق حيال مظهره.

رأى السيارة ذاتَ الضوء الأخضر الصغير الذي يستخدمه أوبيرزون دومًا لتمييز سياراته عن باقي السيارات الأخرى، وقفز إلى السيارة الأجرة (إن جاز التعبير)، وجلس ليستعيدَ أنفاسه. كان يعرف أن السائق أحدُ الرجال الثلاثة الذين عيَّنهم أوبيرزون، وأحدهم قد التقى به السيد واشنطن في صباح ذلك اليوم.

كانت رحلةُ العودة إلى البلدة طويلةً، رغم أن السيارة كانت الأسرعَ بين معظم السيارات، بالنسبة إلى كونها سيارةً عامة. رحَّب جيرتر بالرحلة. لقد فشل مرةً أخرى، واستنتج أن فشله الأخير هذا هو الأخطرُ على الإطلاق. ولم تُساوره مسألةُ استياء أوبيرزون. لقد تجاوز تلك النقطةَ حين كان يهتمُّ كثيرًا لاستياء الرجل السويدي. ولكن لعل تداعيات هذا الموقف هي الأشدُّ خطورةً من أي موقف آخر. كان يعلم جيدًا التعليماتِ التي تلقَّاها فايفر في ليلة الهجوم على راث هول — بيد أن جيرتر كان أسرع، وأفعاه لدغَت أولًا. لم تُراود الدكتور أوبيرزون أيُّ أوهام بخصوص ما حدث، وحتى إن كان قد امتنع بلباقةٍ عن الإشارة إلى الأمر، فإن لديه أغراضًا وأسبابًا لذلك. وأحدها هي تلك الرحلة المسائية مع إيليا واشنطن.

لم تكن هناك أيُّ مبررات؛ وهو ليس لديه ما يُقدِّمه من مبررات. تحسَّست يدُه أسفلَ الثوب السكينَ الطويل المثبَت إلى جانبه، طمأنَه كثيرًا ملامسةُ المقبض البالي. ففي الوقت الحاضر، هو في مأمن؛ وإلى أن يعثروا على رجلٍ آخر يحلُّ محلَّ فايفر كان أوبيرزون يعمل بمفرده، ولا يُطيق الاستغناء عن خدماتِ آخرِ قتَلَتِه.

كانت الساعة قد تجاوزت الحاديةَ عشرة حين نزَل من السيارة الأجرة في نهاية الشارع الطويل، وباتباع الطريق الوحيد الآمن، وصل إلى الباب غير المدهون الذي يُفضي إلى مبنى أوبيرزون. والكلمات الأولى التي نطَقها سيدُه أخبرته بأنه لا داعي للتفسير.

«إذن، لم تنَلْ منه، أليس كذلك يا جيرتر؟»

«لا، يا سيدي الدكتور.»

كان صوت أوبيرزون رقيقًا للغاية في ظلِّ جميع الظروف: «ما كان ينبغي لي أن أُرسلك». وتابع: «كان ذلك هو الرجلَ الذي لم تستطِع قتْله — بالأفعى. لقد علمت منذ ذَهابك أنه لُدغ في منزل الرجل الضرير، ورغم ذلك عاش! هذا أمرٌ استثنائي. سأُخصِّص مبلغًا كبيرًا من المال لفحص دمائه. هل جرَّبتَ السكين؟»

«أجل، يا سيدي الدكتور.» ثم رفع وشاحه، وخلع القبعة والشعر المستعار في حركةٍ واحدة. كان الوجه المخضَّب والمجمَّل بالمساحيق مصابًا بالكدمات؛ وتحت الشعر المستعار البُنِّي كانت هناك بقعةٌ من الدم الجاف.

«جيد! لقد فعلت كلَّ ما بوُسعك. اذهب إلى غرفتك يا جيرتر — تحرك!»

صعد جيرتر إلى الطابق العلوي، وأخذ يُحدق لمدة ربع ساعة في وجهه المبتسم المنعكس على الزجاج، بينما يُزيل مساحيقَ التجميل مستخدمًا كريمًا وفوطة متَّسخة.

كانت رِقةُ أوبيرزون البالغة تهديدًا في حدِّ ذاتها. ما الذي كانت تُنذر به هذه الرقة؟ وحتى تلك الليلة لم يكن جيرتر ولا رفيقه الراحل يحْظَيان بثقة الرجلَين اللذين يُوجِّهان أنشطتهما. كان يعلم أن ثمَّة أوراقًا معيَّنة يجب استعادتها، وثَمة رجال يجب قتلهم، ولكنه لم يكن يعرف قيمةَ الأوراق، أو لماذا يصبح الموت من نصيب هذا التعيس أو ذاك؛ لم يكن يعرف ولم يهتمَّ. كان واجبه هو إطاعةَ الأوامر، لقد أحسن خدمةَ سيدِه السخيِّ بإخلاص. وماذا عن تلك الفتاة المحبوسة في الغرفة السفلية؟ كان لدى جيرتر تفسيراتٌ محتملة بخصوص حبسها. ورغم ذلك لم تكن أيٌّ من هذه التفسيرات تتناسبُ مع الظروف. كانت تأمُّلاته مَضيعةً للوقت. في تلك الليلة، وثق به الدكتور، لأول مرة.

كان قد انتهى من تغيير ملابسه، ويتَّجه إلى مطبخه حين وقف الدكتور عند مدخل الباب ونادى عليه ليدخل.

قال بلطفٍ: «اجلس، يا جيرتر». وتابع: «هل ترغب في تدخين سيجار؟ هذه نوعية ممتازة.»

مدَّ له سيجارًا طويلًا، ورفيعًا، أسودَ اللون، وضعه جيرتر بين أسنانه وبدا مسرورًا على نحوٍ مضحك بخدعته.

قال الدكتور: «لقد حان الوقت لكي تعرف شيئًا حتمًا، يا جيرتر.» ثم أخذ سيجارًا آخرَ من النوع نفسه الذي كان يُدخِّنه الرجل، ونفث سُحبًا ضخمةً من الدخان في وسط الغرفة. ثم تابع يقول: «لديَّ صديق ... مَن؟ السيد نيوتن؟» وهزَّ كتفيه. قائلًا: «إنه رجل جذاب للغاية، ولكنه عديم الذكاء. إنه، يا جيرتر، مِن نوعية الرجال الذين من شأنهم أن يعيشوا في راحة، يأخذ كلَّ ما نُقدِّمه إليه ببراعتنا ومجهودنا، ولا يشكر أحدًا أبدًا! وعندما تواجهنا المشكلات، ما الذي سيفعله، يا جيرتر؟ سيذهب إلى الشرطة ... أجل، يا صديقي العزيز، سيذهب إلى الشرطة!»

أومأ برأسه. لقد سمع جيرتر القصةَ نفسَها في تلك الليلة التي سار فيها على أطراف أصابعه إلى الباب، وسمِع الدكتور يُناقش أمورًا محدَّدة مع السيد فايفر الراحل.

«إنه لن يتَوانى عن قتلنا، دون أن ترجف له عين، أو تهتزَّ له يدٌ، ولعله يقرأ خبر إعدامنا، بابتسامة، ثم يذهب ويأكل حلوى البرقوق واللحمَ المشوي! هذا هو صديقنا السيد نيوتن! هذا ما رأيتَه بعينَيك، أليس كذلك؟»

هتف جيرتر المطيع قائلًا: «أجل، يا سيدي الدكتور!»

تابع أوبيرزون حديثه بتروٍّ: «إنه يُمثل خطرًا لعدة أسباب». وأضاف: «بسبب هؤلاء الرجال الثلاثة الذين كرَّسوا أنفسهم على نحوٍ فاضح جدًّا لتدميري، والذين أحرَقوا

شركتي، والذين جلَدوك، يا جيرتر — لقد أوثَقوك في عمودٍ وجلدوك باستخدام سوطٍ ذي تسعة سيور. أنت لم تنسَ تلك الفعلة، أليس كذلك يا جيرتر؟»

«كلا، يا سيدي الدكتور!» بالفعل، لم ينسَ جيرتر، رغم أن الابتسامة المتكلَّفة البَلْهاء على وجهه قد تُوحي بأن الحادث ترك لديه ذِكرى لطيفة.

واصل الدكتور بنبرةٍ تكهُّنية: «إنَّ وجود شخصٍ غبي داخلَ مؤسسة، أشبهُ بوجود لوح خشب تالف بالسفينة، أو حلقة ضعيفة في سلسلة. دَعْها تنكسر، فماذا سيحدث؟ سنموت أنا وأنت، يا جيرتر العزيز. سنقف أمام رجل غبي يلبس شعرًا مستعارًا أبيضَ اللون وعباءةً حمراء، ليُسلِّمنا إلى رجل آخر يضع حبلًا حول رقبتَينا، ويدفعنا إلى حفرة في الأرض — كل هذا لأننا نتعامل مع رجلٍ غبي مثل السيد مونتيجو نيوتن.»

قال جيرتر حين توقَّف سيدُه عن الحديث: «أجل، يا سيدي الدكتور.» شعر أن هذا التعليق من جانبه ضروري.

«الآن، سأخبرك بالحقيقة الكاملة.» نفض الدكتور بحرصٍ رمادَ سيجاره في صحن فنجانه. وتابع قائلًا: «هناك ثروة تنتظرنا أنا وأنت، وهذه الفتاة التي نحتجزها في المكان الهادئ يُمكنها أن تمنحَنا إياها. يمكنني أن أتزوَّجها، أو يُمكنني أن أقضيَ عليها إذن! إذا تزوجتها فسيصبح هذا أفضل، على ما أظن، وهذا ما رتَّبته.»

ثم، أخبره بطريقته الخاصة بقصة تلِّ الذهب، لم يُخفِ شيئًا، ولم يحتفظ بشيء — قال كلَّ ما عرَفه، وكل ما أخبره به فيلا.

«يجب أن تبقى هنا مدةَ ثلاثة أو أربعة أيام. وفي نهاية هذه المدة، لا يُهم أي شيء آخر. الرسالة المرسلة إلى لشبونة — ما قيمتها؟ كنت أحمقَ عندما حاولتُ إيقافها. هي لم تُعين مرشحًا، وليس لها وريث، ولا تعرف شيئًا عن ثروتها، ومن ثَم ليس بوُسعها أن تُطالب بتجديد عقد منح الامتياز.»

«سيدي الدكتور، هل تتكرَّم وتسمح لي أن أتحدث؟» أومأ الدكتور برأسه. فسأله جيرتر: «هل المدعوُّ نيوتن يعلم ذلك؟»

ردَّ الدكتور قائلًا: «المدعو نيوتن يعرف كل هذا.»

«هل تتكرم وتسمح لي أن أتحدث مرةً أخرى، يا سيدي الدكتور؟ ماذا كانت فحوى هذه الرسالة التي تعيَّن عليَّ أخذها، لو لم يُحالفني الحظ السيئ؟»

حدَّق أوبيرزون في السقف.

ثم قال: «لقد فكَّرت في هذا الأمر من جميع الزوايا، وقرَّرت الآتيَ. إنها رسالة كتبها جونزاليس إلى السكرتير أو وزير وزارة المستعمرات، يطلب فيها تأجيل تجديد عقد منح

الامتياز. والبرقية التي جاءت من صديقي بوزارة المستعمرات في لشبونة كانت بخصوص هذا الأمر.» ثبت نظارته، وتحسَّس جيب معطفه وأخرج برقية من ثلاث صفحات. وأردف قائلًا: «سأقرؤها لك بلُغتك:

«وصل طلب من ليون جونزاليس، يطلب فيه من سيادة الوزير استقبالَ رسالة خاصة جدًّا ستصل خلال يومين. لم تذكر البرقية أيَّ شيء بخصوص محتوى الرسالة، ولكن أعطى الوزيرُ أوامرَ للساعي ليتلقَّى الرسالة. الوزير الحاليُّ ليس من أنصار استمرار عقود الامتياز الممنوحة لإنجلترا أو للإنجليز.»»

طوى الورقة.

واستطرد قائلًا: «وهو ما يعني أنه لن يكون هناك تأجيلٌ، يا عزيزي جيرتر، وستُصبح هذه الثروة الهائلة لنا.»

فكَّر جيرتر في هذه النقطة ونسي لحظةً أن يبتسم، وبدا على حقيقته نتيجةَ ذلك ذئبًا جائعًا، وساخطًا في هيئة بشرية.

«سيدي الدكتور، هل تتكرم وتسمح لي أن أسألك سؤالًا؟»

ردَّ أوبيرزون بسَعة صدر قائلًا: «سَلني.»

«كم تبلغ حصة السيد نيوتن؟ وإذا كنت ستُكرمني وتمنحني جزءًا من مكسبك الذي تستحقُّه عن جدارة، فكم ستبلغ حصتي؟»

أخذ أوبيرزون يُفكر في هذا، وهو ينفث الدخان حتى امتلأت الغرفة بضبابٍ كثيف من الدخان.

وأخيرًا قال: «عشَرة آلاف جنيه إسترليني.»

قال جيرتر برفق: «أيها الدكتور الكريم المثقَّف، هذه نسبة صغيرة جدًّا من الملايين الكثيرة.»

قال الطبيب، وقد بدا على وجهه الانفعال: «سيحصل نيوتن على النصف، إذا بقي على قيد الحياة. وإذا حالفه الحظُّ السيئ، فستُصبح حصته من نصيبك، يا جيرتر، أيها الرجل الشجاع! هكذا وبهذا المبلغ الكبير لن يُصبح المرء صيدًا سهلًا. سيتهافتُ عليه الأغنياء والنبلاء؛ سيمتلك يختَه الخاصَّ ويجوب البحارَ الدافئة إلى الأبد، أليس كذلك؟»

وقف جيرتر ونقر بكعب حذائه.

«هل تريدني مرةً أخرى هذه الليلة؟»

هز العجوز رأسه. قائلًا: «كلا، كلا، يا جيرتر». وتابع: «تذكَّر أنه لا يزال أمامنا غدًا وبعد غد. لننتظرْ ونسمع ما سيقوله صديقُنا. طابت ليلتك، يا جيرتر.»

«طابت ليلتك، يا سيدي الدكتور.»

أخذ الدكتور يُحدق في الباب مدةً طويلة بعد أن خرج الرجلُ ثم أخرج كتابه. كان في منتصف الفصل المعنوَن، باللغة الألمانية: «نشاط العقل الباطن في الفكر الإنسانيِّ وعلاقته بالانفعالات المعقَّدة.» فبالنسبة إلى الدكتور أوبيرزون، كان هذا الفصل أروعَ من أكثر الروايات روعةً وإثارة.

الفصل السادس والعشرون

في الأَسر

طلع نهار اليوم الثاني من الأَسْر دون أن تشهَده ميرابيل ليستر، في عالم خارج حدود سقف القرميد والجدران البيضاء اللامعة لمكان احتجازها. وقد ازدادت قوة ميرابيل وشجاعتها، بخلاف رفيقتها جوان، التي بدأت سهرتها المرهقة ببهجة شديدة، ولكن بمرور الوقت انخرطت في حالة من الاكتئاب شيئًا فشيئًا، ثم استيقظت ميرابيل على صوتِ نحيبِ امرأة، لتجدَ الفتاة جالسةً بجانب فراشها، ورأسها مدفونٌ بين يديها المبللتَين بالدموع.

تنهَّدَت قائلة: «كم أكرهُ هذا المكان! لماذا يحتجزُني هنا؟ يا إلهي! لو كنت أعلم أن هذا الكلب سيخونني ...! سأُجنُّ إن طال بقائي هنا أكثرَ من ذلك.» ثم صرخت قائلة: «سأجن، يا ليستر!»

قالت ميرابيل، وهي تنهض من الفراش باحثةً عن شبشبها: «سأُعِدُّ لك كوبًا من الشاي.»

في تلك الأثناء، كانت الفتاة تجلس منزويةً على نفسها في حالةٍ مُزرية، وبعد برهةٍ أثار نشيجُها المتكرر أعصابَ ميرابيل.

وخاطبتها قائلةً: «لا أعلم سببَ تعاستك. فهم لا يسعَون وراء الحصول على أموالك!»

تنهَّدت الفتاة، وهي تمدُّ يدَيها المرتعشتين لتُمسك بكوب الشاي، وأجابتها قائلةً: «أتضحكين؟! وكيف يمكنك ذلك، لا أعلم! أعلم أنني حمقاء، ولكنني لم أُسجن قطُّ على هذا النحوِ من قبل. لم أتخيَّل أنه سيُخلف وعده. لقد أقسم إنه سيأتي بالأمس. كم الوقت الآن؟»

أجابتها ميرابيل: «الساعة السادسة.»

ربما كانت الثامنة أو منتصف النهار؛ لأن كلَّ ما لاحظته يقول عكس ذلك.

قالت الفتاة المضطربة: «إنه مكان قذر». وتابعت: «أظن أنهم سيُغرقوننا جميعًا ... أو أن هذا الشيء سوف ينفجر» أشارت نحو الصندوق المغطَّى باللباد الأخضر، وأضافت: «أنا أعلم ذلك! أشعر به يَسْري في عُروقي. إن جيرتر المتوحِّش موجودٌ بالقرب من هنا، أليس كذلك؟ إنه كالأفعى اللزجة. هل رأيته من قبل؟»

«جيرتر؟ هل تقصدين الرجل الذي رقص معي؟»

قالت جوان بنفاد صبر: «إنه هو. هذا ما أحاول إخبارك إياه. أتمنى أن نخرج من هنا.»

قفزت فجأةً من مكانها.

«تعالَي لنرى إن كان بإمكانك مساعدتي في رفع السحارة.»

كانت ميرابيل تُدرك أنه لا جدوى من ذلك قبل محاولتها لنيل حريتها. وفشلت جهودُهما المجتمعة في إزاحة الحجَر، وكانت جوان على شفا الانهيار عند عودتهما إلى غرفة نومهما.

وعندما صارت أهدأ، قالت: «أتمنى ألا يعلم جيرتر أن هؤلاء الرجالَ أصدقاؤك.»

«أمسِ قلتِ لي ذلك. ولكن هل سيُشكِّل هذا فارقًا؟»

أجابتها جوان باندفاع: «فارقٌ كبير!» وتابعت: «هذا الرجل يسري في عروقه دمٌ بارد! ويمكنه فعلُ أي شيء. لا بد من محاسبة مونتي على ترْكه لنا هنا تحت رحمته. أنا لا أخشى أوبيرزون؛ فهو رجل عجوز. أما الآخر فيتعاطى المخدرات، ويصير جامحًا، ويفقد عقله في بعض الأحيان. أخبرني مونتي ذاتَ ليلة أنه» اختلج صوتها، ثم تابعتْ قائلة: «أنه قاتل. وقال إن هؤلاء الألمان المجرمين لا يكتفون أبدًا بجريمةٍ واحدة؛ فهم يستمرون حتى يُنفِّذون عشرين أو ثلاثين جريمة! ويقول إن السجون الألمانية تعجُّ بالرجال معتادي القتل والإجرام.»

«ربما كان يُحاول إخافتَك.»

قالت الفتاة، بغضبٍ غير مبرر: «ولِمَ يفعل ذلك؟» وتابعت: «فلتترُكوه وشأنه! مونتي هو أفضل رجلٍ في العالم. وأنا أعشق التراب الذي يمشي عليه!»

بحِكمة شديدة، لم تحاول ميرابيل معارضتها.

لم يتسلَّل الخوف إلى نفس ميرابيل إلا عندما أُصيبت رفيقتها بتلك النوبات الهيستيرية. فقد كان اهتمامها موجَّهًا بالكامل ومنصبًّا على رجال العدالة الثلاثة — وبالأخص جونزاليس. تساءلت كم يبلغ من العمر. فتارةً كان يبدو في أوج شبابه،

وتارة أخرى بدا وكأنه رجلٌ طاعن في السن. كان من الصعب تذكُّرُ ملامحه؛ لأن قسماته تَفيض بالتعبيرات؛ بدءًا من ابتسامة عينيه، وحتى الحماس الصِّبياني الغريب الذي يُميزه، وانتهاءً بالإيماءات والحركات التي صاحبت حديثَه. لم تتمكن من فهم نفسها؛ لماذا استمرت بالتفكير في جونزاليس وكأنها فتاةٌ تُفكر في حبيبها؟ تورَّد وجهُها خجلًا من هذه الفكرة. لقد بدا في منأًى عن ذلك، وبعيد جدًّا عن الوقوع أسيرًا لتأثير النساء المعتاد. لنفرض أنها ارتكبت جريمة شنيعة وفرَّت من يقظة العدالة، فهل سيُطاردها بالطريقة المندفعة ذاتها، التي لا تعرف الرحمة، وسيُخطِّط ليقطع عليها أيَّ طريق للهروب حتى يقودَها في النهاية إلى زنزانة السجن؟ كانت فكرةً مروِّعة، فأغلقت عينيها بشدة لمحو الصورة الذهنية التي تخيَّلتْها.

كان ليغمُرها شعورٌ بالرضا الشديد إذا علمَت عدد المرات التي ضلَّت فيها أفكار جونزاليس وقادته إلى الفتاة التي دخلت حياته بشكلٍ غريب. لقد أمضى جزءًا من وقته في ذلك الصباح داخلَ غرفة نومه، مثبِّتًا على الحائط خريطةً كبيرة للسكك الحديدية التي تضمُّ جنوب إنجلترا والجزء الأكبر من قارة أوروبا. كان هناك خطٌّ بالحبر الأحمر يُميِّز الطريق من لندن إلى لشبونة، وكان يُثبِّت عَلمًا صغيرًا أخضر اللون على الخط الموجود أسفل جنوب باريس مباشرة عندما دخل مانفريد الغرفة وفحص عمله.

قال مشيرًا إلى آخرِ الأعلام الخضراء: «قطار سود أكسبريس على وشك الوصول إلى هنا، وأعتقد أن صديقنا سيَحظى برحلةٍ ممتعة وهادئة حتى فالادوليد — حيث رتَّبت الأمر مع ميجيل جارسيا، وهو أحد أصدقائي القدامى، ليُرافقه ويُلازمه كظلِّه في الرحلة تجاه الغرب — ما لم نحظَ بطائرة. أنا أتوقَّع وصول برقية في أي لحظة. بالمناسبة، ألقت شرطةُ بلدية ديبي القبضَ على السيد الذي حاول إلقاءه من على متن السفينة في منتصف القناة، أما الرجل الذي انتزع حقيبته في جار سان لازار فلا يزال طليقًا.»

قال مانفريد بلطفٍ، ثم ضحك على ما يقوله: «لا بد أنه اعتاد الأمر.»

استدار ليون على الفور. وقال بلهجةٍ حاسمة: «إنه رجل صالح». وتابع: «لم يكن بإمكاننا اختيارُ مَن هو أفضلُ منه. والمرأة التي كانت على متن القطار كانت جيرتر بالطبع. إنه المجرم الوحيد الذي أعرفه يُجيد التنكر.»

أشعل مانفريد غليونه؛ فقد اعتاد تدخينَه مؤخرًا. وقال: «القضية تزداد صعوبةً وتعقيدًا يومًا بعد يوم. هل تدرك ذلك؟»

أومأ ليون برأسه. وقال: «وتزداد خطورة. فوفقًا لقانون الاحتمالات، سينال جيرتر من أحدنا في المرة القادمة التي يُحاول فيها. هل طالعت الصحف؟»

ابتسم مانفريد.

«إنهم يُطالبون بمحاسبة ميدوز، يا للمسكين! وهذا يدل على التناقض العجيب للعامة. لم يُشارك ميدوز إلا في قضية واحدة فقط من قضايا الأفعى. إنهم ينسبون إليه الفشلَ في جميعها.»

قال جونزاليس وهما يهبطان السلَّم معًا: «يبدو أن هناك إجماعًا تامًّا على أن قضايا الموت التي تسبَّبت فيها الأفعى تندرجُ تحت فئة القتل عمدًا.»

كان ميدوز يتحدث إلى المراسلين. في الواقع، كان هذا هو الجُرم الرئيسي من وجهة نظر المسئولين. فإن أول بند في مبادئ عمل أي شرطي منضبط ينص على «عدم التواصل مع الصحافة.»

كان ليون يتجول في أرجاء الغرفة بلا هدف. مرتديًا زيَّ السائق الخاصَّ به، وواضعًا يدَيه داخل جيوبه الخلفية. وقد رنَّ مانفريد الجرس، بعد أن فهم حالته، ليستدعيَ بويكارت، وصعد الرجل الهادئ من الطابق السفلي.

قال مانفريد بجفاء: «سيُصبح ليون غامضًا.»

احتجَّ ليون قائلًا: «ليس صحيحًا»، لكن وجهه احمرَّ خجلًا. كانت إحدى السمات الساحرة التي لم تُفارقه أبدًا هي تورُّدَ وجهه خجلًا. وأضاف: «كنت سأقترح فقط أن هناك مسرحيةً تُعرض في لندن يجب أن نُشاهدها. لم أعلم أن «الهارب» مسرحية إلا هذا الصباح، عندما رأيت أحدَ موظَّفي أوبيرزون الأرستقراطيِّين ذاهبًا إلى المسرح، وتبعته، بدافع الفضول الذي أتميَّز به.» وقال مؤكدًا: «إن المسرحية التي تُثير اهتمام أوبيرزون لا بد أن تُثير اهتمامي، ولا بد أن تُثير اهتمامك أنت أيضًا يا جورج، وبالتأكيد لا بد أن تُثير اهتمام ميدوز؛ فهي مليئة بالأحداث المثيرة! تدور أحداثها حول مجرم يهرب من دارتمور ويعود لقتل مَن خانه. وبها مشهد يُعرض في الظلام، سيُثير إعجابك — لقد كنتُ أطالع آراء نقادِ الدراما، ونظرًا إلى إجماعهم على أن هذا العمل لم يُحقِّق نجاحًا فنيًّا، علاوةً على أن أحداثه بعيدة الاحتمال إلى حدٍّ كبير، فهو يستحقُّ المشاهدة.» وأضاف بخُبث: «أنا أختار دائمًا عملًا ناجحًا فنيًّا عندما أعاني الأرق.»

«يحق لأوبيرزون الاستمتاعُ بما يُسلِّيه، مهما كان مبتذلًا.»

اعترض ليون قائلًا: «ولكن هذه المسرحية ليست بمبتذَلة، باستثناء أنها تحظى بشعبية. فقد عانيت كثيرًا لشراء التذاكر. حتى المثلون يذهبون لمشاهدة عرض الجمهور.»

«ما هو رقم المقعد الذي اشترى تذكرته؟»

قال ليون على الفور: «الشرفة أ، ودفع ثمنًا باهظًا لشراء التذكرة. إنها الشُّرفة الأخيرة جهة الملقِّن — وقبل أن تسألني عن مصدر معرفتي المذهلة بفنِّ المسرح، فسأخبرك بأنه حتى الطفل الرضيع يعلم بأن جهة الملقن هي في الجانب الأيسر المواجِه للجمهور.»

«هل سيذهب الليلة؟»

أومأ ليون برأسه إيجابًا.

قال وهو يُخرِج التذاكر من جيبه: «لقد حجزت ثلاثة مقاعد». وتابع: «إن لم تستطِع الذَّهاب، فهل ستعطيها للطاهية؟ يبدو أنها امرأةٌ يُمكنها الاستمتاعُ بالبكاء على معاناة بطَلتِها المعذَّبة. المقاعد في الصف الأمامي، مما يعني أنه يمكنك الدخولُ والخروج بين المشاهد دون أن تخطوَ فوق أقدام الآخرين.»

سأل بويكارت بنبرةٍ حزينة: «هل يجب عليَّ الذَّهاب؟» وتابع: «أنا لا أحب المسرحيات البوليسية، وأكرهُ المسرحيات الغامضة. فأنا أستطيع معرفة القاتل الحقيقي قبل رفع الستار بعشر دقائق، وهذا يُفسد عليَّ أمسيتي.»

سأله ليون بلهجة عدائية: «ألا يُمكنك اصطحاب إحدى الفتيات؟ هل تعرف أيَّ فتاة قد ترغب بالذهاب؟»

اقترح مانفريد قائلًا: «لماذا لا تصطحب العمة ألما؟» وقبِل ليون الاسم بمرح.

أتت العمة ألما إلى المدينة بناءً على اقتراح الثلاثة، واستخدمَت شقة ساحة داوتي كورت.

«إنها بالفعل امرأةٌ رائعة، وأظهرَت ثباتًا وشجاعةً في مواجهة الموقف الرهيب الذي واجهَ صديقتنا الصغيرة المسكينة، وهو أمر تستحقُّ عليه الثناء الشديد. لا أظن أن ميرابيل ليستر تُواجه خطرًا عاجلًا. أظن أنني صرَّحتُ بذلك سلفًا. يرغب أوبيرزون في احتجازها فقط حتى انتهاءِ مدة التجديد. لا يسَعُني تخيُّلُ كيف سينجو من عواقب سجنه لها. قد لا يُحاول الهرب منهم، ولعله سيتقبَّل عقوبة السجن التي ستُوجَّه له بالتأكيد، كجزء من الثمن الذي يجب أن يدفعه مقابل ملايينه.»

سأله بويكارت: «وماذا إن قتلها؟»

امتُقع وجهُ ليون للحظة.

وقال بهدوء: «لن يقتلها. ولِمَ يفعل ذلك؟ إننا نعلم أنه يحتجزها، والشرطة تعلم. يختلف أمرها عن أمرِ باربرتون؛ فهو مجرد رجل مجهول لقي مصرعه، ولا أحد يعلم

كيف حدث ذلك، في مكانٍ عام. لا، لا أعتقد أننا بحاجةٍ إلى القلق بشأن هذا الاحتمال، إلا إذا ...» فرَك يدَيه بانفعال. واستدرك قائلًا: «ولكننا سنرى. في هذه الأثناء أنا أَضَعُ ثقتي الكاملة في ديجبي، وهو رجل بارع يشعر بالتقصير وحاجته إلى التكفير عن أخطائه السابقة. لقد كنتَ حكيمًا بخصوص تلك النقطة، يا جورج.»

كان ينظر إلى الشارع عبر الستائر.

قال، وهو يُشير برأسه إلى سيارة الأجرة الوحيدة التي تقف في الصف: «إن الفأر الصغير لا يزال في مكانه، يا لكلب الصيد المتفاني! أتساءل إن كان يتوقَّع ...»

لاحظ مانفريد البريقَ الذي تسلَّل إلى عينيه.

سأله ليون بسرعة: «هل ستُريدني خلال الساعتين المقبلتين؟» وغادر الغرفة بسرعة البرق.

وبعد مرور عشر دقائق، كان بويكارت وجورج يتحدثان معًا، عندما سمعا صوتَ انغلاق الباب الخارجي، وشاهدا ليون يتجوَّل فوق حافة الرصيف ملوِّحًا بمظلته. وفجأةً ارتجف سائق التاكسي من فرط الانفعال. وانحنى، وأدار محرِّك سيارته، وصعد إلى مقعده وسرعان ما استعدَّ بسيارته، أسرع من أيِّ سيارة أجرة.

قال ليون: «نيو سكوتلاند يارد»، وركب السيارة.

اجتازت السيارة بواباتِ المبنى التي من الممنوع اجتيازُها، وأنزلته عند مدخل الموظفين.

قال ليون: «انتظرني هنا»، وبدا الرجلُ مضطربًا.

فبدأ قائلًا: «لا بد لي من العودة مرةً أخرى إلى مرأبي.»

طمأنه ليون: «لن أستغرق أكثرَ من خمس دقائق.»

كان ميدوز في مكتبه، لحسن الحظ.

قال ليون: «أريد منك القبضَ على هذا الرجل، وأن تستجوبه باستخدام جرعةٍ من الدرجة الثالثة من أساليب الاستجواب التي يُسمح بها في هذا البلد. إنه يحمل مسدسًا؛ رأيته عندما اضطُرَّ إلى النزول لفحص ذراع موتور سيارته في ميدان بيكاديللي سيركس. حينما توقف المحرك.»

«ماذا تريد أن تعرف؟»

«كلُّ ما يمكن معرفته عن أوبيرزون. ربما فاتني أمرٌ أو اثنان. لقد رأيتُه خارج المنزل. أوبيرزون يستخدمه في مهامَّ غريبةٍ، وأحيانًا يعمل سائقًا خاصًّا للرجل العجوز.

في الواقع، كان هو قائدَ السيارة في اليوم الذي تناولَت فيه الآنسة ليستر الغداءَ برفقة أوبيرزون في فندق ريتز كارلتون. لعله لا يحمل رخصةَ قيادة سيارة أجرة، وهذا سيُسهِّل عليك الأمر.»

بعد مرور دقائقَ قليلة، اقتِيدَ الرجل، مندهشًا وغاضبًا، إلى كانون رو، وفُتِّش بعناية. كان ليون مُحقًّا بشأن المسدس؛ فقد وجَدوه وتبيَّن أنه محشوٌّ، ولم يلقَ تذرُّعُه بأنه حمَل السلاح بغرض الحماية بعد مقتل سائق سيارة أجرة مؤخرًا، القَبولَ الذي يُغنيه عن حمل التصريح اللازم. بالإضافة إلى — وكانت هذه هي جريمتَه الأكثرَ خطورة — عدمِ امتلاكه أيَّ تصريح من سكوتلاند يارد، يُخوِّله قيادة سيارة أجرة في الشوارع، وكانت رخصه مِلكًا لشخص آخر.

قال ميدوز: «ضعه في الداخل»، وعاد ليبلغ ليون الذي ينتظره. «لقد أصبتَ الهدف من أول مرة. لا أعلم إن كان سيُصبح مفيدًا لنا أو لا، ولكنني لا أستهينُ بأي طُعم مهما صغر.»

في أثناء انتظاره، انخرط ليون في بعض الأفكار السريعة.

«كان الرجل في جرينتش مؤخرًا. رآه أحد رجالي هناك مرتين، ولا داعيَ لذكر أنه كان يقود سيارة أوبيرزون.»

قال ميدوز: «سأتحدَّث معه لاحقًا، وسأُهاتفك»، وعاد ليون جونزاليس إلى كورزون ستريت، بابتسامةٍ واسعة.

قال جورج مانفريد: «إنك لم تفعل سوى استبدالِ جاسوسٍ تعرفه بآخرَ لا تعرفه، على الرغم من أنني لم أُشكِّك أبدًا في أفعالك الغريبة، يا ليون. ففي كثير من الأحيان تمتلك حيلةً تُمكِّنك من رفع الورقة الرابحة. بالمناسبة، ستُداهم الشرطةُ ناديَ جرينجو كلوب في طريق فيكتوريا دوك رود هذه الليلة، وربما يتمكنون من القبض على بعض الشباب الذين يعملون لصالح أوبيرزون ممن يتردَّدون على هذا المكان بانتظام.»

رنَّ جرس الهاتف بصوتٍ حادٍّ، ورفع ليون السماعة، وتعرف على صوت ميدوز.

قال المحقِّق على الفور: «لديَّ قصة غريبة لك.»

سأله ليون باهتمام: «هل تحدَّث؟»

«بعد مدة قصيرة. أخذنا بصمته، ووجدنا أنَّ لديه سِجلًّا إجراميًّا. بالإضافة إلى أنه قد حصل على وثيقة إعفاء مشروط. وبصفته محكومًا عليه سابقًا يُمكننا إعادته لاستكمال مدته غير المنتهية. لقد وعدته بأن أتوسَّط له، فاعترف بكلِّ شيء. والأمر الأكثر إثارةً هو أن أوبيرزون يُخطِّط للزواج.»

سأله مانفريد، في دهشة: «سيتزوَّج! مَن؟» ثم أضاف: «أوبيرزون؟!»

أومأ ليون برأسه.

سأل ليون: «ومَن هي السيدة التعيسة؟»

سادت لحظةُ صمت، ثم قال:

«الآنسة ليستر.»

لاحظ مانفريد وجه صديقه المحتقن، وخمَّن الأمر.

سأله ليون بنبرة متغيرة: «هل يعرف متى؟»

«لا. صدر تصريحُ الزواج منذ أكثرَ من أسبوع، وهذا يعني أن أوبيرزون يُمكنه أن يتزوج في أي يوم متى شاء إحضارَ عروسه. ماذا يدور في ذهنه، برأيك؟»

قال ليون: «تعالَ إلينا هذا المساء، وسأخبرك أنا أو جورج.»

وضع سماعة الهاتف ببطء شديد.

«هذا خطرٌ لم أتوقَّعه، رغم أنه من البديهي أن هذا هو المسار الوحيد الذي يُمكن لأوبيرزون أن يسلكه. إذا تزوَّجها فلن يمكن استدعاؤها للشهادة ضده. هل يمكنني رؤية الدفتر، يا جورج؟»

فتح مانفريد خزينة الحائط، وأخرج دفترًا صغيرًا. تصفَّحه جونزاليس بعناية.

سأله: «دنيس — لقد أدَّى عملًا جيدًا لصالحنا، أليس كذلك؟»

«أجل، إنه رجلٌ موثوق للغاية. إنه يَدين لنا، بحياته، من بين أمور أخرى. هل تتذكر، كانت زوجته ...»

«أتذكَّر.» كتب ليون عُنوان الرجل الذي أثبت أنه أحدُ أكثر رجاله جدارةً بالثقة.

سأل مانفريد: «ماذا ستفعل؟»

«لقد وضعت دنيس للمراقبة أمام مكتب أمين توثيق جرينيتش من الساعة التاسعة صباحًا، وحتى الثالثة والنصف عصرًا، وسأمنحُه تعليماتٍ بأنه، فور رؤيته أوبيرزون وهو ينزل من العربة برفقة سيدة، عليه أن يدفعَه بقوة، ولكن برِفق، أسفلَ عجلات السيارة، ويطلب من السائق أن يتحرَّك للأمام خطوةً واحدة.»

كان ليون في أكثرِ لحظاته مزاحًا غالبًا ما يكون شديدَ الجدية.

الفصل السابع والعشرون

معضلة السيد نيوتن

ربما تسير أكثرُ ضربات الحظ المحكَمة في الاتجاه الخاطئ، رغم كافة الاحتياطات المتخَذة، وهذا ما حدث مع السيد مونتيجو نيوتن؛ إذ واجهَ أمسيةً كارثية على الصعيد المالي، وشهد ليلةً لم يَذُق فيها طعم النوم. حيث إنه أقام إحدى حفلات لعب الورق؛ بيد أن النتيجة التي حصل عليها واحدة، سواءٌ أكان السببُ هو غيابَ جوان، وقلة كفاءة بديلتها ذات الشعر الناعم، أم أن النبيذ لم يُعجب أحدَ أكثر الضحايا الواعدين. فقد لعبوا الورق، وكاد الحظُّ أن يُحالف مونتي نيوتن، لكن بدلًا من أن يكسب ويحصل على شيكات بمبالغَ ضخمةٍ من منافسه، انهزمَ وسدَّد له مبلغًا كبيرًا من المال نقدًا.

بدأت الليلة بدايةً خاطئة بسبب بديلة جوان، وتُدعى ليزا. بعد أن اصطحبَت إلى المقر ابنَ مليونير أفريقي، عقب تناول عشاءٍ فاخر في نادي ميرو. كانت جوان، بالطبع، ستجلبه بمفرده، أما ليزا، الأقلُّ خبرةً، فقد سمحت لشابٍّ صديقِ الضحية بالمجيء إلى الحفل، بل إنها توقعت الثناءَ على فِطنتها وجُرأتها في الإيقاع بعصفورَين بالحجر الذي يستخدمه السيد نيوتن ببراعة، بدلًا من عصفور واحد.

لم يستَأ مونتي بسبب الوضع الحَرِج الجديد، وبدلًا من ذلك تبنَّى رأي الفتاة، حتى علم أن «غنيمة» ليزا لم تكن مثلما اعتقدت، أحدَ ضباط الحرس، بل محامٍ شابٌّ أنيق له باعٌ طويل في الممارسات الإجرامية، وعندما كان مبتدئًا، ترافع بالفعل في عدة محاكمات لصالح البلاط الملكي. وفي اللحظة التي ذُكر فيها اسمه، شعر مونتي بإحباط شديد. كما أنه كان، علاوةً على ذلك، يقظًا تمامًا. ولم يكن وضْع صديقه مناسبًا على الإطلاق.

كان هذا أولَ أمرٍ مربك حدث. أما الثاني فهو المزاج السيِّئ للاعب الذي أصرَّ على إعادة خلط ورق اللعب عندما تجاوزَت أموالُ المقامرة قيمة ٣ آلاف جنيه إسترليني بكثير. كل هذه المضايقات كان من الممكن تجاوزُها، ولكن بعد أن أعربَ عن استعداده

«اللعب»، انزلقت الورقةُ التي كان يُخبئها مونتي في يده إلى الطاولة، وعلى الرغم من عدم ملاحظة اللاعبين حقيقةَ الأمر، تشتَّتَ انتباهُ المحامي آنذاك، وكان من المستحيل استعادة تلك الورقة الثمينة. كما أقدم مونتي على فعل شيء سخيف. فبدلًا من التعبير ببراعة عن الضيق بسبب الملاحظات التي أبداها ابن المليونير، قرَّر تجرِبة اللعب النزيه بالورق. ومن ثَم خسر. وعلاوةً على ذلك، قرَّر اللاعب الذي لم ينَل منه السُّكْرُ إلا قليلًا أنه عندما يفوز أحدهم بضربة حظٍّ بقيمة ٣ آلاف جنيه إسترليني، حينئذٍ يحينُ وقت التوقف عن اللعب. لذلك تذوَّق مونتي مرارة خَسارة المال، ورافق زائره إلى الباب بابتسامةٍ لطيفة للغاية ومليئة بالودِّ للحد الذي دفع الشابَّ للاعتذار عن فظاظته.

قال مونتي: «فلتأتِ في ليلةٍ أخرى وتُتِحْ لي الأخذَ بثأري.»

«أراهنك أنني سأفعل! إنني ذاهبٌ غدًا إلى جنوب أفريقيا. لكنني سأعود مطلعَ العام المقبل، وسآتي للبحث عنك.»

شاهده مونتي وهو ينزل السُّلم وتمنَّى أن يكسر عنقه.

لقد كان قلقًا على جوان، وتجاوز قلقُه الحدَّ الذي كان يظنه، فلم يتخيل أن قلقه على مجرد فتاةٍ سيبلغ هذا الحد. إن وجودها ضروريٌّ له من نَواحٍ كثيرة. ورأى أن ليزا حمقاء تفتقد البراعة، ولكنه سمح لها بالانصراف دون أن يجرح مشاعرها. لأنها مفيدةٌ من نواحٍ عديدة، ولا شيء يفسد الأمر أسرعَ من التذمر المستمر.

شعر نيوتن بوحدة شديدة داخل المنزل، وكان يتجوَّل من غرفة لأخرى، وشعر بالاستياء من نفسه؛ لأن غياب الفتاة الحمقاء، التي لم تنَل قسطًا من التعليم ولا تنتمي إلى طبقته الاجتماعية، أحدث في نفسه هذا الفارقَ الكبير. ولكنها الحقيقة؛ كان عليه الاعترافُ بذلك. كان يُبغض التفكير في تلك الغرفة الموجودة تحت الأرض. وهو يعلم مِزاجها المتقلب، وكيف أن تلك التجرِبة ستُثير أعصابها. ولكنه على أي حال تمنَّى لو أنه لم يشعر بهذه المشاعر تجاهها؛ لأنها ستتعرَّض لصدمة قادمة، ولعله توقَّع مقدار الألم الذي سينال منها؛ لذا حرَص على جعل الحاضر سعيدًا قدرَ استطاعته من أجلها.

فبعد أن ينتهيَ مما ينوي فِعله، لن يُصبح هناك سببٌ في العالم يجعلهما أصدقاءَ سوء، وسيمنحُها هدية كبيرة. والفتيات اللائي ينتمين لتلك الطبقة سرعان ما ينسَين بؤسَهن، إذا كانت الهدية كبيرة بالقدر الكافي. هكذا قال لنفسه، وهو يتقلب في فراشه، وطوال الوقت كانت أفكاره تدور حول هذا القَبو اللعين. تساءل حيالَ شعورها! لم يقلق

إطلاقًا بشأن ميرابيل؛ لأنها — حسنًا — هي محطُّ الاهتمام في هذا الأمر، أما جوان فكانت الضحيةَ الحقيقية.

جافاه النومُ حتى بزوغ الفجر، واستيقظ وهو في أقصى حالات التوتر. فقد قطع وعدًا للفتاة بأنه سيزورها ويراها، ولكنه اتفق سرًّا مع أوبيرزون، على عدم الذهاب إلى المنزل حتى انقضاء الأيام الخمسة.

وبحلول وقت الغداء، لم يَعُد بإمكانه تمالكُ أعصابه، وطلب سيارته، وانطلق حتى وصل إلى نقطةٍ بين نيو كروس وبرموندسي، وأكمل بقية المسافة سيرًا على الأقدام. توقَّع السيد أوبيرزون الزيارة. فهو يتمتَّع ببصيرةٍ حادة تُمكِّنه من فهْم عقلية حلفائه، وعندما رأى هذا الرجلَ ذا الثياب الأنيقة يُحاول تلمُّس طريقه عبر الأرضية المليئة بالنفايات، هبط السلَّم ليُقابله.

قال: «غريبٌ أنك أتيت.»

تذمَّر نيوتن قائلًا: «لماذا لم تُهاتفني؟» وكان هذا هو مبرِّرَه للزيارة.

قال أوبيرزون: «لأن هناك شخصًا يُمكنه التنصُّت على كل مكالمة». وتابع: «فإذا كانت الهواتف آليةً ولا يمكن لأحد سماعُنا، لَكنتُ تحدثتُ أنا وأنت مِرارًا وتَكرارًا! ولكنتُ تحدثتُ إليك طَوال اليوم بكل سرور. ولكن ليس في ظلِّ مراقبة هذه الآنسة وتلك لخطِّ الهاتف وقولها: «انتظر لحظةً، من فضلك»، حتى تتمكنَ من إدخال رجل سكوتلاند يارد على الخط ليتنصَّت على المكالمة، قائلةً له: «الآن يمكنك التنصت!»»

«هل عاد جيرتر؟»

قال الدكتور بلهجةٍ جادة: «عاد جيرتر.»

«لم يُصِب الهدف؟ على الأقل، لم أجد شيئًا في الصحف.»

أجاب الدكتور دون اكتراثٍ قائلًا: «إنه في طريقه إلى لشبونة». وتابع: «لعله سيصل وجهته، ولعله لن يفعل! ما الفارق؟ أودُّ رؤية الرسالة؛ لأنها بيانات، والبيانات لعالِم عجوز مسكين مثلي، لها سحرٌ لا يُقاوم. هل ترغب في تناول كأس؟»

تردَّد مونتي، مثلما يترددُ دائمًا كلما قدَّم له أوبيرزون مشروبًا. فلا يمكن أبدًا أن يثقَ في أوبيرزون.

وقال أخيرًا: «سأتناول الويسكي، ولكن من زجاجةٍ كاملة، زجاجة لم تُفتح بعد. سأفتحها بنفسي.»

ضحك الدكتور ضحكةً صاخبة.

وقال: «أنت لا تثقُ بي؟» وأضاف: «يا لك من حكيم! فمَن في هذا العالم يمكنه قولُ عبارةٍ مثل «إنه صديقي. وسأثق به لآخر يوم في عمري»؟»

لم يجد مونتي حاجةً إلى إجابة هذا السؤال.

أخذ زجاجة الويسكي ورفعها باتجاه الضوء، وفحص السِّدادة، وأدخل المثقاب ليفتحها.

قال الدكتور أوبيرزون ممازحًا: «ها هو ذا ماء الصودا ... ولعله مسموم هو الآخر.»

لم يكن ليقولَ هذه العبارة في أي وقت آخر. ولكن قوله لتلك العبارة كان يُنذر بتغيُّر طفيف ولكنْ مشئوم في علاقتهما. وإن كان مونتي قد لاحظ ذلك، إلا أنه لم ينطق بكلمة واحدة، واكتفى بصبِّ كأسه والجلوس على الأريكة ليرتشفَ منها. كان الدكتور يُراقبه باهتمام طوال الوقت.

«أجل، عاد جيرتر. لقد أخفق، ولكن يمكن تبريرُ الإخفاق لرجلٍ بارع مثله. فلا وجود للموظف المثالي حتى الآن، والأمر ينطبق على الرئيس المثالي أيضًا. فآخِرُ ما سمعتُه عن الأمريكي، واشنطن، أنه غادر باريس. ولا بد من تهنئته. فلو كنت مكانه وعشتُ في باريس لكنت سأغادرها دائمًا. إنها مدينةٌ بلا قيمة.»

أشعل مونتي سيجارًا، وقرَّر البدء في الحديث عن الغرض من زيارته تدريجيًّا. إذ إنه جاء لأداء مهمتَين أساسيتين. فكان يرى أن مِن واجبه زيارةَ جوان. وأراد كذلك أن يُعلن خطته لشريكته، وكان في ذلك راحةٌ له أيضًا، وليس واجبًا فحسب.

سأله: «كيف حال الفتاتين؟»

قال الدكتور أوبيرزون الذي لم يَعُد إلى مقعده بل ظل واقفًا، وبدَت وضعيةُ جسده أشبهَ بجيرتر الذي يقف منتصبًا محدقًا بلا حَراك: «إنهما في غاية السعادة. فضيوفي دومًا يُمضون وقتًا سعيدًا.»

قال الآخر بازدراءٍ: «داخل هذا الجحر؟ أنا لا أريد أن تمكثَ جوان هنا.»

هز الدكتور كتفَيه دون اكتراث.

وقال: «فلتأخذها إذن، يا صديقي. فإن كنت مستاءً لأن هذه المرأة ليست برفقتك، فلماذا تبقى هنا؟ لا نفع من بقائها. لعلها تشعر بالقلق. على أي حال سأُحضرها لك.» واتجه نحو الباب.

قال مونتي: «انتظر لحظة. سأراها لاحقًا، وربما أصطحبها للخارج، لكنني لا أريدها أن تبتعد بشكلٍ دائم. يجب أن يبقى أحدهم مع تلك الفتاة.»

سأله أوبيرزون بلطف: «ولماذا؟ ألست أنا هنا؟»

قال مونتي وهو ينظر خارج النافذة ولم تلتقِ عيناه بعينَي الدكتور: «أنت هنا، وجيرتر أيضًا هنا. وخاصةً جيرتر. ولهذا السبب لا بد من وجود شخصٍ بجانب ميرابيل ليستر ليرعاها. هل فكَّرت من قبل أن أفضل طريقةٍ للخروج من هذا المأزق البسيط هي ... الزواج؟»

قال الدكتور: «أجل فكرتُ في ذلك. هل فكرتَ في ذلك أيضًا؟ هذا رائع! لقد بدأتَ تفكر.»

أصبحَت لهجته المتغيرة واضحةً بقدرٍ كافٍ الآن. استدار مونتي للرجل الذي كان لا يزال واقفًا، وهو يشعر بالرهبة منه ومن أحكامه.

قال مخاطبًا إياه، ودون مقدمات: «فلتتوقف على الفور عن هذه اللهجة الساخرة، يا أوبيرزون، سأتزوَّج هذه الفتاة». لم يعلِّق أوبيرزون على كلامه. فأضاف: «إنها ليست مخطوبة؛ وليس لديها أيُّ علاقة غرامية. أخبرتني جوان بذلك، وهي فتاة بارعة جدًّا. لا أعرف كيف سأصلح الأمر، لكنني أعتقد أن أفضل شيء يمكنني فعلُه هو التظاهر بأنني صديق وفيٌّ وأخرجها من قبو منزلك. ستشعر بالامتنان الشديد، للحد الذي يدفعها للموافقة على أي شيء تقريبًا. بالإضافة إلى ذلك، أعتقد أنني تركت في نفسها انطباعًا جيدًا منذ المرة الأولى التي رأتني فيها. ومكانتي تؤهلني أن أُقدِّم لها بيتًا في أفضلِ مكان في لندن، يا أوبيرزون ...»

قاطعه صوتُ أوبيرزون الرنانُ قائلًا: «تقصد بيتي.»

«بيتك؟ حسنًا، يمكننا القول بأنه بيتنا. فلن نتشاجرَ بسبب المسمَّيات.»

قال أوبيرزون: «أنا أيضًا لديَّ مكانةٌ مرموقة لأُقدِّمها لها، ولست أقدِّم لها مكانةَ رجل آخر.»

كان أوبيرزون يُحدق فيه وقد اتسعَت عيناه، بشكل كوميدي؛ فوجهُه الطويل الذي بدا بارزًا في الظلام جعله أشبهَ بقناع المسرحيات الصامتة.

«أنت؟» كاد مونتي ألا يُصدق أذنَيه.

«أنا، البارون إريك أوبيرزون.»

«بارون! أنت؟» اهتزَّت أرجاء الغرفة من ضحكات مونتي. وتابع: «عجبًا، أيها العجوز الخرِف، أيُخيَّل إليك أنها ستُوافق على الزواج منك، هل تظن ذلك؟»

أومأ أوبيرزون برأسه.

وقال وهو غاضبٌ بإنجليزيةٍ سيئةٍ قليلًا: «ستفعل أيَّ شيء أطلبه منها». وأضاف: «ربما لا تحبُّ فتاةٌ رجلًا ما، ولكن هناك ما تخشاه أكثر … هل تفهم؟ قد تقول النساء إن الموت هيِّن، ولكنهنَّ يَخْشَينَه، أليس كذلك؟»

قال مونتي بازدراء: «أنت مجنون.»

«أنا مجنون، أليس كذلك؟ وعجوز خرِف ملعون … أليس كذلك؟ ورغم ذلك سأتزوجها.»

ساد الصمت التام للحظة، ثم تابع أوبيرزون حديثه، ولكن بنبرة أكثر هدوءًا.

«لعلي مثلما تقول، ولكن لا داعي للشجار بين صديقَين على أمرٍ كهذا. ستأتي غدًا إلى هنا، وسنتناقش بشأن هذا الأمر كما نُناقش أيَّ صفقة عمل، أليس كذلك يا صديقي؟»

نظر إليه مونتي وكأنه يُحدق في حشَرة تحوم في مجال رؤيته.

وقال: «أنت لستَ سويديًّا، أنت ألماني». وأضاف: «ذلك الحديث عن أنك بارون فضحَ أمرك.»

أجابه أوبيرزون باقتضاب: «أنا من دول البلطيق، لكنني عشت سنواتٍ عديدة في السويد». وتابع: «أنا لست ألمانيًّا، ولا أحبُّهم.»

لم يَزِد عن تلك الكلمات. من المحتمل أنه شارك جيرتر اشمئزازه تجاه جيرانه في وقتٍ ما.

وتابع قائلًا: «على أي حال، لن نتشاجر». وأضاف: «أنا أحمق، وأنت أحمق، وجميعنا حَمقى. هل ترغب في رؤية امرأتك؟»

قال مونتي بفظاظة: «أود مقابلة جوان. ولكنني لا أحبُّ سماع عبارة «امرأتك» تلك.»

«سأذهب لإحضارها. فلتنتظر.»

من جديد، ظهر الحذاء الطويل من أسفل الطاولة، وأدخل الدكتور قدمَيه فيه بصعوبة، وراقَبه مونتي عبر النافذة وهو يتَّجه إلى المصنع ويختفي.

غاب خمسَ دقائق قبل أن يعود مرةً أخرى، بمفرده. تجهَّم مونتي. وتساءل عن سبب ذلك.

لهث أوبيرزون قائلًا: «صديقي، ليس من الحكمة.» وبدأت محاولات أوبيرزون تُثير قلقًا أكبرَ في نفسه.

قال مونتي: «أرغب في رؤيتها …»

«رفقًا، رفقًا؛ ستراها. ولكن جيرتر شاهدَ رجلًا غريبًا على ضفة القناة، وكان يتجوَّل ذَهابًا وإيابًا، متظاهرًا بأنه يصطاد. فأخبِرني أنت، مَن بإمكانه الصيد في القناة؟»

«وما شأن هذا الرجل بالأمر؟»

«أسألُك من جديد، هل سيكون من الحكمة إحضارها في وضح النهار؟ ألا يعتقد الرجال أن امرأ ... أن هذه الفتاةَ في بروكسل؟»

لم يخطر الأمر ببالِ مونتي.

«لديَّ فكرةٌ من أجلك. إنها فكرة جيدة. ففي بعض الأحيان يُجيد أوبيرزون، العجوز الخرِف، استخدامَ عقله. هذا الصباح، أرسل لي أحدُ أصدقائي تذكرةَ دخولٍ إلى المسرح. وبهذا يمكنك أخذها الليلة. فغالبًا ما يعلو الضبابُ قليلًا عند غروب الشمس، ويمكنك مغادرة المنزل في السيارة. وفي الوقت الحاليِّ، سأرسل أحدًا لتشتيت انتباه هذا المراقب، وبعدها سأحضرها إلى المنزل حتى يمكنك رؤيتها.»

قال مونتي بإصرار: «سأنتظرها.»

وانتظرها بالفعل، وبعد نصف ساعةٍ أتت الفتاة التي كادت تُجن، واندفعت في لهفةٍ إلى داخل الغرفة، وارتمت في أحضانه.

وقف الدكتور أوبيرزون بلا حَراك ليشهد لمَّ شملِهما.

وقال: «هذا مشهدٌ جميل لا يمكنني احتمالُه، بالنسبة إلى شخص سيتزوج في القريب العاجل»، وتركَهما بمفردهما.

«مونتي، لا أستطيع العودة إلى هذا المكان البغيض الليلة. سيتعيَّن عليها البقاءُ بمفردها. وهي فتاة مطيعة يا مونتي، ولكنها لا تعلم أنها تُقدَّر بالكثير من الأموال.»

سألها بلهجةٍ غاضبة: «هل كنتِ تتحدَّثين إليها؟ أخبرتك أن ...»

«لا، لقد سألتها بضعةَ أسئلة فقط. فلا يمكنك أن يزجَّ بك في جُحر حقير كهذا، وتُلازم أحدهم ليلًا ونهارًا، دون أن تتحدَّث إليه، هل يُمكنك ذلك؟ مونتي، هل أنت واثقٌ تمامًا بأنها لن تُصاب بأي سوء؟»

تنحنحَ مونتي.

وقال: «أسوأ شيء قد يحدث لها هو أن تتزوج.»

اندهشَت عند سماع تلك العبارة.

«وهل يرغب أحدٌ في الزواج منها؟»

أجابها قائلًا: «أوبيرزون.»

قالت ساخرةً: «هذا العجوز!»

مرةً أخرى لم يجد ما يقوله.

قال: «لقد فكَّرت في الأمر مِرارًا، يا عزيزتي. ورأيت أن الزواج لا يعني الكثيرَ لأي شخص.»

قالت بهدوء: «إنه يعني الكثيرَ لي.»

فاندفع دون تفكيرٍ قائلًا: «فلنفترض أنني تزوجتها.»

«أنت!» قالتها وهي تبتعد مرتعدة.

«فقط لـ... حسنًا، إنها الحقيقة يا جوان. لعلها الطريقةُ الوحيدة للحصول على أموالها. أنتِ الآن شريكتُنا في هذا الأمر، وأنت تعرفين مكانتَكِ عندي. إنه زواج — فقط زواج صوري — لمدة عام أو اثنين، وبعدها يحدث الطلاق، ويمكننا أن نُصبح معًا، زوجًا وزوجة.»

وجَّهت رأسها نحو الباب وقالت: «هل هذا ما قصَدَه؟» وتابعت: «عندما تحدَّث عن «الزواج العاجل»؟»

«يريد أن يزوِّجها لنفسه.»

قالت بلهجةٍ حادة: «دَعْه يفعل». وأضافت: «هل تظن أنني أكترثُ للمال؟ ألا توجد طريقةٌ أخرى للحصول عليه؟»

التزمَ الصمت. كان هناك العديد من الطرق الأخرى للتحايل على الأمر بدلًا من الحصول على الرفض المباشر.

«يا إلهي! مونتي، أنت لن تفعل ذلك؟»

قال: «أنا لا أعرف بعدُ ماذا سأفعل.»

قالت بإصرارٍ وهي تتشبَّث بمعطفه: «لكنك لن تفعل هذا، أليس كذلك؟»

«سنتحدَّث الليلةَ في هذا الأمر. لقد حجز لنا العجوزُ تذاكر للمسرح. سنتناول العشاءَ في مطعم ويست ونُكمل مسيرتنا، ولا يُهم إذا ما رآنا أحد؛ فإنهم يعلمون بالفعل أنك لست في بروكسل. ولكن لماذا رائحتك غريبة هكذا؟»

ضحكت جوان، متناسيةً للحظةٍ المشكلةَ الخطيرة التي تُواجهها.

وقالت: «عيدان البخور». وتابعت: «كان المكان خانقًا ومكتومًا، ووجدتُها في المخزن مع المؤن. في الواقع، كان من الغباء فعلُ ذلك؛ لأن المكان امتلأ بالدخان. لكنه اختفى الآن.» وقالت بجدية: «مونتي، يمكنك فعلُ أشياءَ مجنونةٍ وأنت حبيس. لا أظن أنني قادرةٌ على العودة مرة أخرى.»

كاد يتوسَّل إليها قائلًا: «عودي غدًا». وتابع: «لن يستمرَّ الأمر أكثرَ من يومين أو ثلاثة، وهذا يعني لي الكثير. لا سيما الآن، بعد الأفكار التي تُراود أوبيرزون.»

«لن تُفكر مرةً أخرى في ... في الزواج منها، أليس كذلك؟»

أضاف بلهجةٍ غيرِ موثوقة: «سنتحدث في هذا الأمر ليلًا على العشاء. ظننتُ أنك ستُحبين فكرة ابتزاز المال.»

اضطُرَّت جوان إلى العودة إلى محبسها لجمع بعض متعلقاتها. ووجدت الفتاة مستلقيةً على الفراش، وهي تقرأ، استقبلَتْها ميرابيل بابتسامة.

«حسنًا، هل انتهت مدة حبسك؟»

تردَّدت جوان.

«ليس بالضبط. هل تُمانعين غيابي الليلة؟»

هزَّت ميرابيل رأسها نافية. والحقيقة أنها سعدت لكونها ستُصبح بمفردها. فقد اضطُرَّت طوال ذاك اليوم إلى الاستماع إلى شكوى ونحيب هذه الفتاة المتقلِّبة، وشعرت بأنها لن تتمكنَ من الصمود أربعًا وعشرين ساعةً أخرى.

«هل أنتِ واثقةٌ من أنك لا تمانعين بقاءكِ وحدك؟»

أجابتها ميرابيل، بصدقٍ وليس مجردَ إطراء: «لا، بالطبع لا. سأفتقدك». وتابعَت: «متى ستعودين؟»

عبَس وجه الفتاة قليلًا.

«غدًا.»

«أنتِ بالطبع لا ترغبين في العودة، أليس كذلك؟ هل نجحتِ في إقناع ... صديقك بالسماح لي بالخروج أيضًا؟»

هزَّت جوان رأسها نافية.

«لن يفعل ذلك أبدًا يا عزيزتي، إلا إذا ...» نظرَت إلى الفتاة. وسألَتها: «أنت لستِ مخطوبة، أليس كذلك؟»

نهضت ميرابيل من فراشها، وضحكت قائلة: «أنا؟! لا. هل هذه قصة أخرى سمعوا بها؟» وتابعت: «وريثة، ومخطوبة؟»

سارعت جوان بتصحيح الانطباع الخاطئ: «لا، إنهم لا يقولون بأنكِ مخطوبة.» وقالت بلهجةٍ تنم عن إعجاب حقيقي: «إنك رائعة، يا فتاة! فلو كنتُ مكانكِ لارتعدتُ خوفًا. ولكنكِ مبتهجة وكأنك ذاهبةٌ لحضور جنازة عمةٍ غنية!»

لم تعلم شيئًا عن حالة الانهيار التي كادت أن تُصيب رفيقتها ذلك اليومَ، ولم ترغب ميرابيل بإخبارها، بعد أن صارت تشعر بقوةٍ واتزانٍ أكثر.

أومأت جوان برأسها قائلةً: «أنتِ رائعة جدًّا. أتمنى لو كان لديَّ جُرأتك.»

ثم، وباندفاع، توجَّهتْ نحو الفتاة وقبَّلتها.

وقالت: «لا تشعري بالاستياء تجاهي»، وذهبَت قبل أن تتمكَّن ميرابيل من الرد.

كان الدكتور ينتظرها في المصنع.

وقال: «لقد ابتعد الجاسوس حتى جسر القناة. بإمكاننا المضيُّ قُدُمًا.» ثم تابع — وهو يشعر بالرضا: «بالإضافة إلى أنه لا يمكنه رؤيةُ ما وراءَ الجدران العالية.»

«ما حكاية الزواج من ميرابيل ليستر؟»

«إذن فقد أخبرك، أليس كذلك؟ فهل أخبرَك أيضًا أنه ... أنه ينوي الزواج منها؟»

«أجل، ودَعْني أخبرك، يا دكتور، أنني أُفضِّل أن يتزوجها هو بدلًا منك.»

سألها الدكتور: «هكذا إذن!»

«أفضِّل أن يتزوجها أيُّ شخص، باستثناء أفعاك.»

التفت أوبيرزون إليها في حِدَّة. نطقت الكلمة بعفويةٍ دون التفكير في وقْعِها، وتأوهَت فزعًا عندما أدركت خطأها قائلةً: «أوه!».

قالت: «كنت أقصد جيرتر.»

قال بثبات: «حسنًا، أعلم أنكِ تقصدين جيرتر، أيتها الآنسة الصغيرة.»

ومن أجل العودة إلى المنزل، كان عليهم الالتفافُ حول المصنع في نصف دائرة، والعبورُ بين جدار القناة والمبنى ذاتِه. كان الطريق المباشر سيأخذهما إلى حفرةٍ عميقة كانت مستودعًا للحُطام منذ سنوات، وقد أخفَتْه الطبيعة الآن، بلطفها، تحت غطاءٍ أخضرَ من اللبلاب البرِّي الطبيعي. كان من المعتاد في هذا المكان أن تكون الصورة الجميلة الوحيدة مَخفيةً عن الأنظار.

كانا يلتفَّان حول ركن المصنع حينما توقَّف الدكتور، ونظر إلى أعلى نحو الجدار المرتفع الذي كان محصنًا بإفريزٍ شائكٍ من قطع الزجاج المكسورة. كان الزجاج في مكانه باستثناء بقعةٍ واحدة بعرض نحو قدَمَين، لم ينتزع منها الزجاج فحسب، بل انتزع منها المِلاطَ الذي يُثبته. كانت هناك شظايا زجاجٍ متناثرةٌ، وعلى الجانب الداخلي للجدار، كانت هناك علاماتٌ لبعض الخدوش على السطح الصلب للمِلاط.

قال الدكتور: «هكذا، إذن!»

كان يفحص الخدوش الموجودة على الجدار.

أمرها قائلًا: «انتظري»، وهُرِع عائدًا إلى المصنع، وعاد، حاملًا في كل يدٍ أداتَين صدِئتَين كبيرتين ووضعَهما على الأرض.

نجح في فتح السنون الصدئة الخشنة بالقوة، واحدًا تلوَ الآخر، حتى تباعدَت بعضها عن بعض ويجمعهما معًا مقبضٌ زنبركي. لقد رأت أشياءَ من هذا القبيل في متحف. لقد كانت أفخاخًا بشرية، أحد بقايا الأفعال البربرية الزائلة، عندما كان التعدي على ممتلكات الغير جريمةً وليست مجردَ خطيئة.

ثبَّت الفخ الثانيَ على الطريق بين المصنع والجدار.

قال: «سنرى الآن». وأضاف: «تقدَّمي!»

كان مونتي ينتظرها بنفادِ صبر. وكانت السيارة الرولز جاهزةً تشريفًا لها، وكان السائق المتجهِّم بالفعل في مكانه على عجَلة القيادة.

سألته في أثناء صعودهم إلى الطريق الممهَّد: «ما خطْب هذا السائق؟» وتابعَت: «يبدو سعيدًا جدًّا للحد الذي يجعلني أصدِّق أن والدتَه شُنقت هذا الصباح.»

أوضح لها مونتي قائلًا: «إنه مستاءٌ من عمله لدى الرجل العجوز». وأضاف: «لدى أوبيرزون سائقان. كلاهما يقوم بجولاتٍ تفقدية صباحية. وكان من المفترض أن يعود زميله الآخرُ لتولي وردية الثالثة عصرًا، ولكنه لم يأتِ. إنه السائق الأفضل بين الاثنين.»

من الواضح أن السائق كان يتعمَّد المرور فوق كل حفرة، وفي الدقائق الخمس التالية كانت تتشبَّث بأربطة الذراع وبمونتي. شعرا الاثنان بارتياحٍ عندما سلكت السيارةُ أخيرًا طريقًا مرصوفة وبدأت السيرَ في هدوء باتجاه الأضواء. ثم تلامسَت أيديهما، وللحظةٍ تفتحت هذه الزهرة الجميلة، التي نمَتْ في مثل هذه التربة البغيضة، بإشراقة الحب الذي تعرفه كلُّ امرأة، سواءٌ أكانت مكانتها رفيعةً أم دنيئة، سواءٌ أكانت صالحة أم طالحة.

الفصل الثامن والعشرون

داخل مسرح براتر

اقترح مانفريد تناول عشاءٍ مبكِّر في مطعم لاسكي، حيث يُقدِّم الحساء المتناسب مع ذَوقه الذي يصعب إرضاؤه. كان ليون الذي تناول الكثيرَ من الكعك مع الشاي — إذ إن نقطة ضعفه هي تلك الموادُّ الغذائية صعبة الهضم — على استعداد للاستغناء عن وجبة العشاء، أما بويكارت فكانت له آراءٌ أخرى، نظرًا إلى كونه صاحبَ عادات ثابتة. تناولوا العشاء في مطعم لاسكي، وطلب ليون بصلًا مشويًّا، وأسهب في الحديث عن العامَين الضائعَين من حياة بويكارت، مستعينًا بصورٍ غنية وكلمات بلاغية جميلة تليق بموضوعٍ أفضل من ذلك.

نظر مانفريد إلى ساعته.

وسأل: «أين يتناولان العشاء؟»

قال ليون: «لم أعرف بعدُ». وتابع: «سيصلُ صديقنا في غضون بضع دقائق؛ عندما نخرج، سيُخبرنا. أنت لا تريد مقابلتها، أليس كذلك؟»

هز مانفريد رأسه نافيًا.

وقال: «بلى.»

قال بويكارت متذمرًا: «سأشعر بالملل.»

قال ليون على الفور: «إذن، كان يجب أن تسمح لي بإحضار ألما.»

أومأ ريموند برأسه الرصين. قائلًا: «بالضبط». وأضاف: «ينتابُني شعورٌ بأنني أنقذ تلك السيدةَ من أمسية كئيبة تفوق الوصف.»

كان هناك رجلٌ ينتظرهم حين خرجوا من المطعم — رجل لا يبدو مثيرًا للاهتمام على الإطلاق، لديه ثلاث عبارات ليُبلغهم بها بصوتٍ خفيض بينما هم واقفون بجواره، ولكن بشكل واضح دون أن يُظهروا انتباهًا لحضوره.

قال مانفريد: «لم أرغب في الذَّهاب إلى نادي ميرو، ولكن نظرًا إلى أن لدينا متسَعًا من الوقت، أظن أنه من المستحسَن التمشيةُ في هذا الاتجاه. لديَّ فضول لاكتشافِ ما إذا كانت هذه مفاجأةً صغيرة من جانب أوبيرزون، أم أن الفكرة تفتَّق عنها ذهنُ السيد نيوتن الذي لا يستحقُّ التقدير أو الإعجاب.»

تساءل جونزاليس: «كيف ستعرف، يا جورج؟»

«من خلال السيارة. إذا كان أوبيرزون هو سيدَ مراسم الاحتفالات، فسنجد سيارته متوقفةً في مكانٍ ما في الحي. وإذا كانت الفكرة فكرةَ نيوتن، فسنجد أن سيارة أوبيرزون الليموزين التي أتت بهم من جنوب لندن قد عادت، وستحلُّ سيارة نيوتن مكانها.»

كان نادي ميرو واحدًا من أكثرِ أندية الطعام الأنيقة، التي لا يتردَّد عليها نُخبة المجتمع وحَسْب؛ وإنما يوجد على قوائم حجزِها أيضًا صفوةُ عالم المسرح. كان يقع في أحد الميادين الهادئة العتيقة الموجودة في قلب لندن، محصَّنًا ضد أيدي المضاربين من مُلَّاك العقارات؛ وهذا لأسبابٍ غامضة. احتفظ الميدان بالمظهر الذي كان عليه أيامَ العصر الجورجي؛ وعلى الرغم من أن بعض القصور الفخمة قد تحولَت إلى مقارَّ للتجارة والنقابات المهنية، وقد شغل المحامون ووكلاءُ المصنعين غرفَ الاستقبال وغرف النوم التي كانت مقتصرةً على استعراض مظاهر البذخ والجمال الخاصة بأيام الزمن الماضي، فإنَّ عددًا كبيرًا جدًّا من البيوت ما زال يخضع للملكية الخاصة.

لم يكن هناك شيءٌ في واجهة نادي ميرو يُعلن عن طبيعته. إذ يتكوَّن مقرُّ النادي من ثلاثة مبانٍ أنيقة وعتيقة. ولعل الشخصَ غيرَ المعتادِ ارتيادَ المكان لن يشكَّ مطلقًا بأن ثمة صلةً تربط بين المباني الثلاثة؛ نظرًا إلى أن الأبوابَ والأعتاب العتيقة ظلَّت على حالها؛ وواحدةً فقط منها تُستخدَم.

تجوَّلوا على طول جانبَي الميدان، وفي وسط كتيبة السيارات التي تقف متراصَّةً بعضها بجوار بعض، وهم يُولُّون ظهورهم إلى درابزين الحدائق المركزية، رأَوا سيارة أوبيرزون. جلس السائقُ عاقدًا ذراعَيه على عجَلة القيادة، منهمِكًا في حديثٍ جادٍّ مع رجل شاحبِ الوجه، ذي لحية خفيفة ومنمَّقة ويرتدي ملابسَ سهرة كاملة أنيقة. ومن الواضح أنه كان معوقًا؛ إذ لديه إحدى الكتفَين أعلى من الأخرى؛ وعندما يتحرَّك، كان يسير على نحوٍ مؤلم بمساعدة عصًا.

رأى مانفريد السائقَ وهو يشير إلى صفِّ السيارات، وسار الرجل الأعرج في الاتجاه الذي أشار إليه السائقُ ثم توقَّف وتحدَّث إلى شخصٍ آخر يرتدي زيَّ الخدم. وحين اقتربوا منه، رأَوا أن فردةً واحدة من حذائه لها نعلٌ سميكة، وهذا فسَّر سببَ عرَجِه.

قال مانفريد الذي وقف يُدقِّق النظرَ في لوحة الأرقام: «لقد فقدَ الرجل سيارتَه.»

كانت سرقةُ السيارات حدثًا متكررًا بصفة يومية. وكان لدى ليون ما يقوله بخصوص تَبِعات ذلك الفرع من الجريمة. إذ إنه يمتلك معرفةً موسوعية بخصوص الأشكال الحاليَّة للاعتداءات، وببضع عبارات مختصرة أشار إلى نطاقِ هذه السرقات.

«تُشحَن خمسون سيارةً أسبوعيًّا إلى الهند والمستعمَرات البريطانية، بعد أن تُمحى أرقامُها وتُستبدل بها أرقامٌ أخرى. وفي بعض الحالات يقود «المهربون» — هكذا يُسمُّون السارقين — السياراتِ مباشرةً إلى داخل حاويات الشحن المجهزةِ لتتناسبَ مع شكل كل سيارة، وتُثبَّت أطراف الأغطية، وتنتظر الشحن على أرصفة الموانئ قبل أن يتأكَّد أصحابها من فقدانها. وتقريبًا عدد السيارات المسروقة في الهند وجنوب أفريقيا وأستراليا يُساوي عدد السيارات الأصلية!»

ساروا ببطءٍ أمام البوابات المزخرفة لنادي ميرو، ولمحوا، عبر النوافذ المغطاة بالستائر، على ضوء مصابيح الموائد الخافتة، سيداتٍ ذواتِ أذرع مكشوفة ورجالًا ذَوي قمصان بيضاء، وسمعوا صوتًا خافتًا لآلات أوركسترا تعزف موسيقى الفالس المميزة لفيينا.

قال جونزاليس: «أود أن ألتقيَ بفتاتِنا جين». وتابع: «لم تأتِ إليكَ مطلقًا، أليس كذلك؟»

ردَّ مانفريد: «لقد جاءتني، ولكني لم أقابلها». وأضاف: «في اللحظة التي تُغادر فيها المسرح، يجب ألا تُترك وحدها.»

أومأ ليون برأسه.

وقال: «لقد أجريت ذلك الترتيب بالفعل». وتابع: «إن ديجبي ...»

قاطعه مانفريد قائلًا: «سيتولَّى ديجبي مهمته في منتصف الليل». وأضاف: «لقد عاين بنفسه محلَّ إقامة أوبيرزون ليدرُسَ موقع الأرض، ويعتقد أنه من المستحسن أن يدرس تضاريسَ الأرض في ضوء النهار، ووافقته الرأي. ولعله يوقِعُ نفسه في ورطةٍ محرجة إذا ما شرَع في استكشاف ضفَّة القناة في ساعات الظلام. فعادةً ما يتكاثف الضباب على صفحة المياه، صيفًا أو شتاءً.»

وصلوا إلى مسرح براتر في وقتٍ مبكرٍ للغاية حيث ما زالت الطوابير الواقفة عند باب القاعة الرئيسية تنتظر في الخارج، واقترح ليون عليهم أن يتجوَّلوا حول هذا المسرحِ الترفيهيِّ المتنقل. كان موقعُه في طريق شافتسبري ويَشغل مكانًا معزولًا. كان على جانبي المبنى شارعان ضيِّقان، بينما يُشكِّل الجزء الخلفيُّ الجانب الثالث من ميدان صغير، أحدُ أضلاعه مبنى مجلس المحافظة، يَشغله الحِرفيُّون بالأساس. ويمتد من الميدان ممرٌّ يؤدي إلى كرانبورن ستريت؛ بينما هناك، بالإضافة إلى الحارة المؤدية إلى الجزء الخلفي من المسرح، شارعٌ مُوازٍ لطريق شافتسبري يمتدُّ من طريق تشيرينج كروس وحتى ريبيرت ستريت.

المسرح في حدِّ ذاته كان واحدًا من أفضل المسارح في لندن، وعلى الرغم من سلسلة الإخفاقات، حالفه الحظُّ من جديد، وجذبت المسرحية البوليسية الجديدة انتباهَ سكان لندن جميعًا.

قال ليون — حين وصلوا إلى الميدان — موضحًا: «هذا هو باب خشبة المسرح، وهذه هي مخارج الطوارئ التي تُستخدَم في نهاية العرض لإخلاء المسرح.» وأشار إلى الطريق الذي جاءوا منه.

سأله بويكارت: «لماذا تُبدي كلَّ هذا الاهتمامِ بالمسرحِ نفسِه؟»

ردَّ جونزاليس بهدوء قائلًا: «لأنني متفقٌ مع جورج. ينبغي أن نعثر على سيارة نيوتن متوقفة عند حديقة فيتزريف — لا سيارة أوبيرزون. والظروف مريبةٌ بعضَ الشيء.»

الآن، فُتحت أبوابُ القاعة الرئيسية والرِّواق؛ وتحركت الطوابيرُ ببطءٍ في اتجاه المداخل؛ ورأَوا المبنى العظيمَ يستوعب بداخله مُحبِّي الدراما؛ قبل أن يعودوا إلى مقدمة المبنى.

بدأت السياراتُ تتوافد، في البداية على أوقات متباعدة، ولكن، مع اقتراب بدء العرض المسرحي، أصبحت تتوافدُ في صفوفٍ متصلة تسبَّبت في الازدحام وجعلَت شرطة المرور تتلفَّظ وتتعامل على نحوٍ قاسٍ أحيانًا. كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف بقليلٍ حين رأى مانفريد سيارة أوبيرزون اللامعة بالقرب من المبنى، وفي الحال توقَّفت عند مدخل المسرح. نزلت جوان أولًا ثم مونتي نيوتن وغابا عن الأنظار.

ظنَّ جونزاليس أنه لم يسبق له رؤيةُ الفتاة بهذا الجمال الصارخ من قبل. كانت تبدو بمظهر وهيئة شابةٍ جميلة، رغم أن الأشخاص الأكثرَ تحفظًا قد يعترضون على

زينتها الجريئة، فإن الأشخاص الأكثرَ جُرأةً لن يجدوا غضاضةً في التأثير الممتع الذي تتركه في النفس.

تحدَّث ليون — باللغة الإسبانية — قائلًا: «يا له من أمرٍ مؤسفٍ للغاية، مؤسف لأبعد الحدود! ينتابني نفس الشعور حين أرى قطعةً مثالية من الرخام بين يدَي صانع شواهد القبور ليُشوهها ويصنع منها قبحًا!»

مدَّ مانفريد يده وجذبه بعيدًا عن الأنظار. أقلَّت سيارةُ أجرةٍ الرجلَ الأعرج. ونزل من السيارة بمساعدة مرشد مقاعد المسرح، ودفع الأجرةَ إلى السائق، ثم عرج إلى المدخل. لم يكن الأمر صدفةً استثنائية؛ حيث من الواضح أن الرجل قد أتى من نادي ميرو، ونظرًا إلى أن جميع أهل لندن يسعَون لمشاهدة المسرحية الدرامية، لم يكن من المستغرب أن يَجِدوه هنا. لاحظوا أنه صعد إلى مقاعد الشرفة، وفي وقتٍ لاحق، حين اتخذوا أماكنَهم في مقاعد الصالة، نظر ليون إلى أعلى، ورأى الوجه الشاحب الملتحيَ، ولاحظ أنه يشغل آخر مقعد في الصف الأمامي.

قال بانفعالٍ: «لقد التقيتُ بهذا الرجل في مكانٍ ما». وتابع: «لا شيء يُضايقني أكثر من أن أنسى، ليس الوجهَ، وإنما المكان الذي رأيته فيه!»

لم يكن جيرتر يعلم أنه قد حقَّق أسمى طموحاته؛ إذ إنه مرَّ مرتين أمامهم، وأفلتَ من المراقبة الشديدة لأذكى المحقِّقين في العالم، ولم يتعرف عليه أحد.

الفصل التاسع والعشرون

مهمة جيرتر

كان جيرتر يغطُّ في نومه حين استُدعي للمهمة، إلا أنه وقفَ أمام قائده في حالةٍ من الإشراق والنشاط كما لو أنه لم يقضِ ليلةً مؤرِّقة، ولم يتحمَّل إجهاد القفز من القطار في منتصف الليل.

قال دكتور أوبيرزون وقد تهلَّلَت أساريره بعضَ الشيء: «سأرسلك، يا عزيزي جيرتر، مرةً أخرى في مهمة. ولكن هذه المرة لتُنقذنا جميعًا من خيانة يهوذا الذي كنَّا نظنُّه صديقًا لنا. الليلة يجب أن تلدغَ الأفعى، وأن تلدغَ بقوة، يا جيرتر. هناك في الظلام، سيرحل المؤتمن المزعوم! وبعد ذلك، يا فتاي الشجاع، لن يُصبح هناك ما نخشاه.»

توقَّف برهةً انتظارًا للتصديق على كلامه بالموافقة، وحصل على موافقةٍ سريعة.

وأردف أوبيرزون قائلًا: «الليلةَ نتمنى أن تُقدِّم تحفة فنية، الاستغلال الأمثل لموهبتك العظيمة، يا جيرتر؛ أسمى وسائلِ التعبير عن العبقرية! لن يفيَ أسلوبُ رجل نوادي النبلاء بالغرض. فلعلهم يبحثون عنك ويعثرون عليك. من الأفضل، هذه المرةَ، أن ...»

قاطعه جيرتر بحماسٍ قائلًا: «سيدي الدكتور، هل تتكرَّم وتسمح لي أن أقدِّم اقتراحًا متواضعًا؟»

أومأ الدكتور برأسه بتأنٍّ.

ثم قال: «تحدَّث، يا جيرتر. أنت رجل فطِن؛ ولا ينبغي لي أن أُملِيَ تعليماتي على فنانٍ مثلك.»

«دعني أغِبْ لمدة ساعة، أو ربما ساعتين، وسأعود لك بأسلوب استثنائي. هل تتكرَّم وتسمح لي بذلك، سيدي الدكتور؟»

«تقدَّم!» قالها الدكتور في لطف، وهو يُشير بيده إلى الباب.

مرَّت ساعة ونصف تقريبًا قبل أن يُفتح الباب من جديد ويدخل منه رجلٌ نبيل ظن الدكتور لدقيقة أنه شخصٌ غريب. كان وجهه شاحبًا على نحوٍ غير طبيعي؛ والحاجبان أسودَين، والهالات الشاحبة تحت عينيه توحي الإصابة مؤخرًا بمرضٍ ما، واللحية سوداءَ قصيرةً مشذبة يتخللها الشَّيب — ربما لم يخدعه كلُّ هذا. ولكن من الواضح أن الرجل كان ضحيةً لحادث مروِّع وقع في الماضي. إذ إن إحدى كتفيه محدبة، واليد التي تُمسك بالعصا مشوَّهة، أما وطأة قدمه المعوجَّة فكانت تشي بعرَجِه.

استهل الدكتور الحديث قائلًا: «سيدي، هل تودُّ مقابلتي …؟» ثم حدَّق وقد فغَر فاه. وهو يقول: «أنت لست …!»

ابتسم جيرتر.

«سيدي الدكتور، هل تتنازل وترضى بهذا؟»

تمتم أوبيرزون، وهو يُحدق في ذهول قائلًا: «هائل! مِن بين كل الإنجازات هذا هو الأبرز! يا جيرتر، أنت فنان. يومًا ما سنشتري لك مسرحًا في منطقة أونتر دِن لِندن، وستُبهج قاعدة كبيرةً من الجماهير.»

«سيدي الدكتور، هذه فكرتي الخاصة؛ هذا ما خطَّطت له على مدار عدة أشهر. لقد صنعتُ الحذاء بنفسي؛ وحتى المعطف عدَّلته» ثم ربَّت على كتفه المشوَّهة بفخر.

«هل ينقصك ارتداء نظارة؟»

قال جيرتر على الفور: «لديَّ واحدة.»

«ربطة العنق — أليست مفرطة في الرسمية؟»

تحسَّس جيرتر بأصابعه ربطة عنقه.

«من واقع العادة النبيلة، أزعمُ بكل احترام أن ربطة العنق الرسمية مستحسَنة، إذا تكرمت وسمحت بذلك.»

أومأ الدكتور برأسه.

ثم قال بورَع، وهو يُخرج علبة سجائر ذهبية من جيبه ويُعطيها للرجل: «فليرعَكَ الله، يا جيرتر». وتابع: «اجلس، يا صديقي العزيز.»

وقف وأشار إلى الكرسي الذي أخلاه.

«على الكرسيِّ الخاص بي، يا جيرتر. لا يوجد شيءٌ يُعَد أفضلَ من أن تحصل عليه. الآن، إليك الترتيبات …»

كشف له عن الجدول الزمني خطوةً بخطوة، حيث إن التسلسلَ الزمنيَّ كان يُمثِّل شغفًا عظيمًا لهذا الرجل الغريب والخبيث كما كان بالنسبة إلى العمة ألما تمامًا.

ونظرًا إلى أن جيرتر كان واثقًا جدًّا من قدراته على التنكُّر لدرجةِ أنه ذهب مباشرةً وتحدَّث إلى سائق أوبيرزون، وبطرف عينه رأى مانفريد وجونزاليس يقتربان. كان هذا هو الاختبارَ الأهمَّ وقد اجتازه والفضل يرجع إليه.

لم يتناول جيرتر العشاءَ في مطعم ميرو؛ إذ إنه لا يأكل أو يشرب حين يكون متنكرًا، وهذا من واقعِ معرفته بمدى حساسية تلك المهمة. وبدلًا من ذلك، طلب سيارةَ أجرة، وأمضى الوقت في التجوُّل بالسيارة حول السور الخارجي لحديقة ريجنت بارك.

استغرق جيرتر في التفكير طوالَ هذه الأيام، وقيَّد أنشطته المؤذية على حساب بذل جهدٍ جسدي شاقٍّ، بحيث يُصبح ذهنه صافيًا طوال الوقت. لأنه لو أراد أن يظلَّ على قيد الحياة، فمن الضروري أن يُبقيَ ذهنه صافيًا.

شغَل فكرَه أمرُ السجينة المحبوسة في القبو. كانت تُمثل أهميةً لسببَين: فهي صديقة الرجل الذي يكرهه بكل برودٍ وعداوة شديدة تفوق الوصف؛ كما تُمثل الثراء المستتر، لدرجةِ أن الدكتور ذهب إلى حد التخطيط للزواج منها. وليس من المقرَّر أن تُقتَل، أو تؤذَى؛ فهي تُمثل أهميةً كبيرة لدرجةِ أن العجوز من شأنه أن يتحمل المخاطر المحفوفة بفكرة الزواج منها. لا بد أن هناك سببًا وجيهًا لذلك؛ لأن دكتور أوبيرزون لم يكن ذا حسٍّ مرهَف للغاية.

بدا أنه يتذكَّر أن الزوجة لا يمكن أن تشهدَ ضد زوجها، وَفقًا للقانون الإنجليزي. لم يكن متأكدًا من ذلك، ولكن كانت لديه فكرةٌ مبهَمة أخبره بها فايفر؛ كان فايفر رجلًا متعلمًا ونال أرفع الأوسمة في الألعاب الرياضية.

لم يكن جيرتر يُجيد القراءة بكفاءة. ومستوى تعليمه متواضع، ولقد رُفض ذاتَ مرة لأداء دورٍ تمثيلي رئيسي بسبب لهجته المحلية. تلك الغلطةُ التي صحَّحها في السجن، على يدِ أستاذٍ يقضي عقوبة السجن مدى الحياة بسبب قتل امرأتَين؛ ولكن بحلول الوقت الذي أُفرج فيه عن جيرتر، صار مسجَّلًا خَطِرًا، وضاعت عليه فرصةُ العمل على خشبة المسرح إلى الأبد.

كان أوبيرزون يمتلك المميزات التي يفتقر هو إليها. وهو السيد؛ بينما جيرتر هو الخادم. لذا بإمكان أوبيرزون تحديدُ خط سَير الأحداث من منطلق سُلطته المطلقة، والخيوط التي يتحكَّم فيها في مختلِف أنحاء العالم. ولقد قبِل جيرتر بهذه الوظيفة لخادمٍ مطيع طاعةً عمياء، ولكن الآن وجهة نظره تغيرَت، وحتى بعد أن تغيَّرت وجهةُ نظر

أوبيرزون بخصوص مونتيجو نيوتن. وربما لهذا السبب. كان الدكتور يسحب الثقة من أحدهما، ويُعطيها للآخر، وفي خِضَمِّ هذا تأثَّرت هيبته.

الآن، صار جيرتر المؤتمن، وبالتالي النِّد، ومن المنطقي، يمكن دومًا أن يُصبح النِّدُّ هو الرئيس. لطالما راودَته أحلامٌ بحياةٍ رغدة، وبإشباع إحساسه بالترَف دون التفكير الواعي بأن هناك في مكانٍ ما عند المنعطف رجلًا ينتظره ليُربِّت على كتفه ويقبضَ عليها؛ إنه يتخيَّل قصرًا أبيضَ اللون وسط أرض مغطَّاة بالزهور، وحمامات سباحة زرقاء، وفتَيات مطيعات يُنادينه بالسيد. بدأ جيرتر يرى الضوء.

وإلى أن اتخذ مقعده في المسرح، لم يكن قد لمح الرجلَ والمرأة الجالسَين في شُرفة المسرح الأخيرة.

كانت جوان سعيدة — أسعد مما كانت تُسعفها ذاكرتها بتذكُّر لحظةٍ كهذه. ربما كان هذا ردَّ فعلٍ على حبسها التطوُّعي. بالتأكيد كانت موافقةُ مونتي المترددةُ على تغيير الخطط هو ما تَسبَّب في سعادتها الغامرة. لقد تخلى مونتي عن فكرة زواج المصلحة؛ وبمجرد أن اقتنعَ بذلك، تَبدد آخر عائقٍ في طريق الاستمتاع. فليأخذ أوبيرزون الفتاة، إذا رغبها؛ وليأخذ معها، أيضًا، المسئولية الثقيلة المترتِّبة على ذلك. وسيحصل مونتي نيوتن على كلِّ ما رغبه دون خوض المخاطرة. وما إن توصَّلَ إلى هذا القرار، حتى طلب زجاجةً أخرى من الشمبانيا ليُبرم الصفقة، وغادرا نادي ميرو كحبيبَين سعيدين أكثر مما كانا عليه قبل دخولهما.

وقال لها بينما كانا يستقلَّان السيارة في طريقهما إلى المسرح: «بمجرد أن نَجنيَ هذه الأموال، سنُغادر إنجلترا». وتابع: «ما رأيك أن نُمضي فصل الشتاء في بوينس آيرس، أيتها الفتاة العزيزة؟»

لم تكن تعلم أين تقع بوينس آيرس بالضبط، ولكنها عبَّرت عن فرحتها بالاقتراح، وأطال مونتي الحديثَ عن مباهج قضاء الصيف في أمريكا الجنوبية، ومواطن جَمال بوينس آيرس، ووسائل التسلية والترفيه فيها.

وعقَّب قائلًا: «لا أظن أنه سيكون هناك أيُّ ضربة قادمة، ولكن ستُصبح خُطةً لا بأس بها إذا أخذنا جولةً حول العالم، وسنعود بعد نحو ثمانيةَ عشر شهرًا كي نستقرَّ في لندن. حينئذٍ سيُصبح ماضيَّ المحمومُ طيَّ النسيان — يا إلهي، ولعلني أترشح للبرلمان.»

همسَت جوان، قائلةً: «كم هذا رائع!» ثم أردفَت قائلة: «ما قصة هذه المسرحية، يا مونتي؟»

«إنها مثيرةٌ بعضَ الشيء، وهي المسرحية المناسبة تمامًا لك — قصة بوليسية سيقشعرُّ لها بدنك.»

كان لديها هوسٌ صِبياني بجرائم القتل وغيرها من الجرائم، جلسَت في الشُّرفة يغمرها شعورٌ لطيف بالترقُّب، وشاهدت تطورات الفصل الأول.

كان المشهد يدور في أحد النوادي، مكان متواضع حيث يلتقي فيه أكثرُ الأشخاص المنبوذين في المجتمع، تشربت كلَّ كلمة؛ لأنها كانت خبيرةً بالحياة، وقد رأتْ تلك النوعية من النساء مثل تلك التي ترتدي الثيابَ الغالية وتتبخترُ على خشبة المسرح بينما صاحبُ النادي يُحادثها بأُلفة. كانت خبيرةً بذلك المحقِّق ذي النظرات الثابتة حين ظهر على نحوٍ محرج. كانت السيدة في نفس موضعها. كانت تعرف الشخص الهائم شاحبَ الوجه الذي يقترب خِلسة من الباب؛ ذئب بشري فرَّ هاربًا عند رؤية رجل الشرطة.

شاهدها الثلاثة الجالسون في الصف الأمامي من المسرح — كيف استطاع ليون جونزاليس الحصولَ على تذاكر هذه المقاعد هو أحد الألغاز الصغيرة لهذا اليوم — وشعر أحدهم على الأقل بانقباض قلبه.

أطلق مونتي العِنان لتصرفاته اللطيفة. لقد تناول ما يكفي من النبيذ ليرى العالم برؤية وردية، وحتى إنه قد أبدى اهتمامًا نوعًا ما بالمسرحية، رغم أن متعته الأساسية تمثلَت في شعور الفتاة بالبهجة. طلب لها حلوى مثلَّجة بعد فترة الاستراحة الأولى.

علَّق قائلًا: «لقد صرتِ من جمهور المسرح، يا صغيرتي». وتابع: «لا بد أن أصطحِبَكِ إلى عروضٍ أخرى. لم يكن لديَّ أدنى فكرة بأنكِ تُحبين هذا النوع من المسرحيات.»

أخذَت نفَسًا عميقًا وابتسمت له.

قالت: «أنا أحب أيَّ شيء حين أكون معكَ.» وتشابكَت أيديهما على نحوٍ طائش، حتى انطفأت أضواءُ صالة المسرح ورُفع الستار عن مشهدٍ في مكتب أحد المحامين.

كان صاحب المكتب محاميًا ينتمي لعالَم الإجرام؛ رجلًا على وشك أن يُشطَب اسمه من نقابة المحامين. وقد خان عميلًا يتعامل معه، ودخل الرجل السجنَ لقضاء مدةٍ طويلة، ولكنه فرَّ هاربًا. وجاءت الأخبار بأنه ترك أستراليا وعاد إلى لندن، وهو يتحيَّن الفرصة لتدمير الرجل الذي تسبَّبَت خيانته في القبض عليه.

وقد مسَّت هذه الأحداثُ وترًا لديها. حتى مونتي وجد نفسه يميل إلى الأمام، وكأنه يتطلَّع إلى ألاعيبه المألوفة تُعرَض أمامه على خشبة المسرح.

قال أثناء وقتِ الاستراحة الثاني: «لا بأس بالمسرحية مطلقًا، باستثناء ...» تردَّد للحظةً قبل أن يُردِف قائلًا: «أليس هذا قريبًا جدًّا من الحقيقة؟ على كل حال، المرء لا يذهب إلى المسرح ليرى ...»

توقَّف عن الحديث، وقد أدرك أن الظروف والمواقف المألوفة بالنسبة إليه كانت جديدةً تمامًا بالنسبة إلى جمهورٍ عصري يعرف لأول مرة أن «عسَّاس» يعني المخبر السرِّي؛ بينما يُشار إلى مرشِد الشرطة بكلمة «العين».

أُضيئت الأنوار، ونظر حوله عبر الصالة، وفجأةً انتفض وأمسك بذراعها.

قال وهو يُشيح بنظره: «لا تنظري الآن، ثم ألقي نظرةً على الصف الأمامي. ألا ترَين شخصًا تعرفينه؟»

نظرت على الفور.

وقالت: «أجل، هذا هو الرجل الذي تكرهه كثيرًا، أليس اسمُه ... جونزاليس؟»

قال مونتي: «إنهم جميعًا هنا — ثلاثتهم». وتابع: «إني أتساءل ...» أربكَتْه الفكرة، فأضاف: «أتساءلُ إن كانوا يبحثون عنك؟»

«عني. ليس لديهم شيءٌ ضدي، يا مونتي.»

التزم الصمت.

«يُسعدني أنكِ لن تعودي إلى ذلك المكان الليلة. إنهم سيتتبَّعونك بالتأكيد ... بالتأكيد!»

ظن فيما بعدُ أنه ربما من قبيل المصادفة أن يكونوا هناك. بدا أنهم لا يُظهرون أيَّ اهتمام بالشُّرفة، ولكنهم يتسامرون ويتحدثون ويتبادَلون الضحكات. لم تلتفت أعينُهم إليه بالأعلى ولو مرةً واحدة، استعاد ثقتَه بنفسه بعد مدة قصيرة، ولكنه شعر بالقدْر الكافي من السعادة حين استؤْنِفَت المسرحية.

احتوى هذا الفصل على مشهدين؛ المشهد الأول من داخل قسم الشرطة، والمشهد الثاني من داخل غرفة المحامي. حيث يظهر الرجلُ في حالة سُكْر، وجاء المخبر السرِّي ليُحذره من أن الهارب يُلاحقه. وفجأةً انطفأت أنوارُ خشبة المسرح، وعمَّ الظلام في القاعة كلِّها. كان هذا جزءًا من حبكة المسرحية. وفي هذا الظلام، وفي وجود الشرطة، قُتل الرجل المهدد. وقد أصغَوا السمع في هذا الصمت المطبِق، ومدَّت الفتاة رأسها إلى الأمام محاوِلةً اختراق الظلام؛ لتستمع إلى سُطور الحوار المحتدم الآتية من خشبة المسرح وسط الظلام. كان هناك شخصٌ في الغرفة — سيدة، ولقد عثَروا عليها. ثم أفلتَت من قبضة المحقِّق على خشبة المسرح واختفَت، وعندما عادت الأنوار كانت قد ذهبَت.

همسَت قائلة: «ماذا حدث، يا مونتي؟»

لكنه لم يردَّ.

«هل تظن ...؟»

التفتَت إليه. كان رأسه مائلًا على القماش المخمليِّ المبطَّن لحافة الشرفة. بينما امتُقع وجهه الذي التفتَ نحوها؛ وقد أغمض عينَيه، وكشفت أسنانه عن تكشيرةٍ بشعة.

فصرخت.

«مونتي! مونتي!»

وهزَّت جسدَه. لكن مرةً أخرى دوَّت صرختها عبر القاعة. في البداية، ظن الجمهور أنها امرأة دخلت في نوبةٍ هيسترية من هول المشهد المعروض على خشبة المسرح، ثم نهض شخصٌ أو اثنان من مقعدَيهما في الصفوف الأمامية ونظرا إلى أعلى.

«مونتي! تحدث إليَّ! لقد مات، لقد مات!»

شغرت ثلاثة مقاعد في الصف الأمامي. حالت صرخاتُ الفتاة الهيسترية دون استمرار المشهد، وأُسدِل الستار سريعًا.

ساد الانفعال قاعةَ المسرح. والتفتَت جميع الوجوه إلى الشُّرفة حيث جثَت على ركبتَيها بجوار المتوفِّي، تحتضنه بين ذراعَيها، بينما اللوعة في صوتها مثيرة للأعصاب.

فُتح باب الشرفة، واندفع مانفريد إلى الداخل. ثم ألقى نظرةً واحدة على مونتي نيوتن، ولم يكن بحاجةٍ إلى تَكْرارها.

قال باقتضاب: «أخرِجوا الفتاة.»

حاول ليون أن يسحبَها إلى خارج الشُّرفة، ولكنها كانت في حالة غضبٍ عارمة.

«لقد فعلتموها، لقد فعلتموها! دعني أذهب إليه!»

رفعَها ليون لتقفَ على قدَميها، وحملها إلى خارج الشرفة، وهي تُخربش وجهه بعنف.

هُرِع مدير المسرح عبر الرواق، أرسله ليون بإيماءةٍ من رأسه. ثم جاءت سيدة ترتدي فستانَ سهرة من مكانٍ ما.

وقالت: «هل يُمكنني أخذها؟» وانهارت الفتاة المنهَكة بين ذراعيها.

عاد جونزاليس على الفور إلى الشرفة. كان الرجل مستلقيًا على الأرضية، وخاطب مديرُ المسرح الذي وقف عند حافَة الشُّرفة، الجمهورَ.

«لقد فقد الرجلُ وعيه، وأخشى أن صديقته صارت في حالةٍ هيسترية قليلًا. يجب أن أعتذر لكم، سيداتي سادتي، على هذا التوقُّف. اسمحوا لنا ببضع دقائق لنُخْلِيَ الشرفة، وسنستكمل عرض المسرحية. إذا كان هناك طبيبٌ في قاعة المسرح، فسأصبح سعيدًا بصعوده إلينا.»

ومن ثَم تقدَّم طبيبان كانا يحضران العرض، وفي الرِّواق الذي أصبح الآن تحت حراسة حاجب، أُجري فحصٌ سريع. حيث فحصا ثَقب الجرح الموجود في مؤخرة العنق، ثم نظرا أحدهما إلى الآخر.

قال أحدهما: «هذه لدغة الأفعى.»

قال مانفريد: «لا ينبغي أن يعرف الجمهور». وأضاف: «لقد مات، أليس كذلك؟»

أومأ الطبيبُ برأسه.

وبالخارج في الرِّواق كان هناك بابٌ كبير كمخرج للطوارئ، فتحه المدير، وهُرع إلى الشارع، ليجد سيارة أجرة نُقلت فيها جثة مونتي نيوتن.

وأثناء القيام بذلك، عاد بويكارت.

وقال: «غادرت سيارته للتو». وتابع: «لقد رأيتُ لوحة أرقام السيارة وهي تنطلق نحو ليزلي ستريت.»

سأله جونزاليس بسرعة: «منذ متى؟»

«في هذه اللحظة بالضبط.»

عضَّ ليون شفَتَيه وهو منخرطٌ في التفكير.

«أتساءل، لماذا لم ينتظر؟»

عاد من خلال باب الطوارئ الذي أُغلق، ومرَّ عبر الرِّواق نحو المدخل. كانت الشُّرفة في مستوى الصف الأول، وفي نهاية الرواق القصير وجد نفسَه عند الصف تمامًا.

وخطرَت على باله فكرةُ الرجل الأعرج، وتوجَّهت عيناه إلى المقعد الأول في الصف الأمامي، وهو المقعد الأقرب إلى الشرفات. لقد ذهب الرجل.

وعندما توصَّلَ إلى هذا الاكتشاف، خرج جورج من الرواق.

قال ليون: «جيرتر!» وتابع: «يا لغبائي! ولكن كم هو بارع!»

قال مانفريد في دهشة: «جيرتر؟» وأضاف: «هل تقصد الرجلَ ذا القدم العرجاء؟»

أومأ مانفريد برأسه.

قال جونزاليس: «بالتأكيد، لم يكن بمفرده». وتابع: «لا بد أنَّ هناك رجلَين أو ثلاثةً من العصابة هنا، رجال ونساء — يضع أوبيرزون هذه الخطط بحِرص ودقة الجنرالات. أتساءل أين أخذت الإدارة الفتاة؟»

وجد المدير يُناقش الحادثَ المأسويَّ مع رجلَين آخَرين، أحدهما كان ذا صلةٍ واضحة بالإنتاج، فأشار له ليتنحَّى جانبًا.

«السيدة؟ أظن أنها ذهبت إلى المنزل. لقد غادرت المسرح.»

سأله جونزاليس، في حالة ذعر مفاجئ: «أيَّ طريق سلكت؟»

استدعى مدير المسرح مرشد مقاعد المسرح الذي رأى سيدةً في منتصف العمر تخرج من المسرح مع فتاةٍ تبكي، وسلَكَتا الشارع الجانبي الذي يؤدي إلى الميدان الصغير خلف المسرح.

قال مانفريد: «ربما أخذتها إلى منزلها في تشيستر سكوير.» انتقصت نبرةُ صوته من ثقته في هذا الافتراض.

لم يُحضر ليون سيارته، فاستقلُّوا سيارة أجرة إلى تشيسترسكوير. لم يسمع فريد، الخادم، أو يرَ الفتاة، وكاد يفقد وعيَه حين عرَف النهاية المأسَوية لمسيرة سيده المهنية.

قال بنبرةٍ متأوهة: «أوه، يا إلهي!» وتابع: «قد غادر من هنا بعد الظهر هل قلت، إنه قد مات؟»

أومأ جونزاليس برأسه.

تلعثمَ الرجل وهو يقول: «ليست ... ليست الأفعى؟»

قال مانفريد بصرامة: «ما الذي تعرفه بخصوص الأفعى؟»

«لا شيء، باستثناء ... حسنًا، جعلتْه الأفعى متوترًا، هذا ما أعرفه. قال لي اليوم إنه يأمُل أن يمرَّ عليه هذا الأسبوع دون أن يتعرض للدغة أفعى.»

جرى استجوابه عن كثب، ورغم أنه من الواضح أنه يعرف شيئًا بخصوص صفقات سيدِه غير القانونية، وأنه متورطٌ في العمل مع أوبيرزون، لم يكن للخادم أيُّ صلة بعصابة الدكتور. كان يحصل على أجرٍ كبيرٍ ونسبةٍ مئوية من أرباح لعبة القمار، وأعترف أن جزءًا من واجباته تتمثَّل في إعداد ورق اللعب ليُمرره لسيده متسترًا تحت غطاء تقديم المشروبات. ولكنه لم يكن يعلم أيَّ شيء أخبثَ من ذلك.

قال ليون معترفًا: «بالتأكيد، إن المرأة، التي جرى دسُّها لتعتنيَ بالفتاة في اللحظة التي تضرب فيها الأفعى، هي شريكة لهم. لقد كنتُ في حالةٍ ذهنية جعلتْني لا أتذكر كيف

يبدو شكلها. أنا غبي … أحمقُ تمامًا! أعتقد أنني قد أصبحت عجوزًا. ليس أمامنا سوى شيءٍ واحد لنفعله، ألا وهو أن نعود إلى كورزون ستريت — ربما حدث شيءٌ ما هناك.»

«هل تركت أحدًا في المنزل؟»

أومأ ليون برأسه قائلًا: «أجل، تركت أحد رجالنا، ليردَّ على أي رسائل هاتفية قد تأتينا.»

دفعوا الأجرة للسيارة التي وقفَت أمام المنزل، وهُرِع ليون إلى المرأب ليُخرج السيارة. فتح لهم البابَ الرجلُ الذي أوثقه البائع المتجولُ في مزرعة هيفيتري، وجاءت كلماته الأولى التي نطقها بمثابةِ صدمةٍ لمانفريد: «ديجبي هنا، يا سيدي.»

قال الآخر مندهشًا: «ديجبي؟» وتابع: «ظننتُ أنه كان في مهمة، أليس كذلك؟»

«جاء إلى هنا منذ أن غادرت مباشرة، يا سيدي. لو كنتُ أعلم إلى أين ذهبتَ، لأرسلته إليك.»

خرج ديجبي من غرفة الاستقبال في تلك اللحظة، وهو على استعدادٍ ليعتذر.

«كان يتعيَّن عليَّ مقابلتك، يا سيدي، ويؤسفني أني تركت موقعي.»

قال مانفريد وهو عابس: «ربما لن يفوتَك الكثير». وأضاف: «اصعد معي وأخبرني ما الخطْب.»

كانت قصة ديجبي غريبةً. حيث نزل بعد ظهر ذلك اليوم إلى ضفَّة القناة ليستطلعَ الأرض التي كانت جديدةً بالنسبة إليه.

«وأنا سعيدٌ أنني فعلت ذلك؛ لأن الأسوار غُرس أعلاها زجاج مكسور. خرجتُ إلى طريق أولد كنت وأحضرتُ مجرفة الحدائق، وأزلت الزجاج من المِلاط، بحيث يُمكنني التسلُّق، إذا أردت ذلك. ثم تسلقت البوابة المائية وألقيتُ نظرة على الصندل الخاص به. لم يكن فيه أحد، لكن أعتقد أنهم اكتشَفوا وجودي بعد ذلك. إنه صندل كبير، وبالطبع، كان في حالةٍ مزرية، ولكن مخزنه مليء بالشحنات — هل تعلم ذلك، يا سيدي؟»

«هل تقصد أنَّ ثمة شيئًا في الصندل؟»

أومأ ديجبي برأسه.

«أجل، عليه حَمولة من نوعٍ ما. إن الجزء الخلفي، حيث توجد كابينةُ النوم الخاصةُ بقائد المركب، يمتلئ بالفئران والمياه، ولكن الجزء الأمامي من المركب مانعٌ لتسريب الماء، ومحمَّل بشيء ثقيل أيضًا. ولهذا السبب فإن مقدمة المركب غارسةٌ في الوحل. لقد عملتُ بإدارة شرطة المسطحات المائية في نهر التيمز وأعلم الكثير بخصوص المراكب النهرية.»

«أهذا ما جئتَ لتُخبرني به؟»

«لا، يا سيدي، ثَمة شيء أغربُ من ذلك. بعد أن ألقيت نظرة على الصندل وحاولتُ سحب بعض الألواح — الأمر الذي لم أستطِع القيام به — ذهبتُ وألقيت نظرةً على المصنع. ليس من السهل الدخول؛ لأن المدخل مواجهٌ للمنزل، ولكن لكي تدخله عليك أن تأخذ نصف جولة حول المبنى، وهذا يمنحُك قدرًا من التغطية. لم يكن هناك شيء يُمكنني رؤيته في المصنع نفسِه. كان في حالة فوضى عارمة، مليء بقطع الحديد القديمة والصناديق المحترقة. وكنت أتجوَّل في الجزء الخلفي من المبنى»، ثم أردف يقول بانفعال: «حين شممتُ رائحةً غريبة.»

«عطر؟»

«أجل، يا سيدي، كان عطرًا، ولكنه أقوى من العطر — أقرب إلى بَخور. ظننتُ في البداية أنه ربما يكون بالةً قديمة من الأشياء التي جرى التخلص منها، أو ربما كنت أتوهَّم. بدأت أفتِّش أكوام القمامة — ولكن لم ينبعث منها رائحة! ثم عُدت مرةً أخرى إلى المبنى، لكن لم تكن هناك رائحةٌ في هذا الجزء. ثم أصبحت قويةً للغاية حين عُدت إلى الجزء الخلفي من المصنع؛ وعندئذٍ رأيتُ قليلًا من الدخان ينبعث من شفاط تهوية قريب من الأرض. وخطرت على بالي فكرةُ أن المكان يحترق، ولكن حين جثوتُ على ركبتي، وجدت أنها تلك الرائحة.»

قال بويكارت سريعًا: «عيدان بَخور أليس كذلك؟»

قال المخبر السرِّي: «كان الأمر كذلك!» وتابع: «شبيه بالبَخور، ولكن ليس بَخورًا. جثوت على ركبتي وتنصتُّ عبر الشبكة الحديدية لفتحة التهوية، وأقسم أنني سمعت أصواتًا. كانت خافتة جدًّا.»

«أصوات رجال؟»

«بل أصوات نساء.»

«هل أمكنَك رؤية أي شيء؟»

«كلا، يا سيدي، كان شفاط تهوية تصعب الرؤيةُ عبره وعلى الأرجح كان هناك عمود — في الواقع، أنا متأكد من وجوده؛ لأنني دفعتُ حجرًا عبر إحدى الفتحات وسمعتُه يسقط على مسافة لأسفل.»

قال بويكارت: «ربما تكون هناك غرفةٌ تحت الأرض وأحدهم يُشعل بَخورًا لتلطيف الأجواء.»

قال جورج: «أسفل المصنع أليس كذلك؟ لا يوجد شيءٌ كهذا في خرائط المبنى. لقد حصلت عليها من إدارة مساحة الأراضي وتفحَّصتها. رغم أن خرائط المساحة ليست معصومةً من الخطأ. إن رجلًا مثل أوبيرزون لن يتردَّد في خرق شيءٍ غير مهم مثل قانون البناء!»

جاء ليون في تلك اللحظة، وسمع القصة وكان متفقًا تمامًا مع نظرية بويكارت.

قال: «لقد تساءلت عندما تفحَّصنا الخرائط ما إذا كان علينا أن نتقبَّلها باعتبارها دقيقةً تمامًا». وأضاف: «بُني المخزن في أواخر عام ١٩١٤، حين كان المهندسون والبنَّاءون يتصرفون بمطلق الحرية ويضَعون في الاعتبار مقتضيات الحرب.»

واصل ديجبي قصته.

«كنت بصدد العودة إلى الصندل للمرور عبر البوابة المائية، ولكني رأيتُ العجوز ينزل درجات سلَّم المنزل؛ ولذا تسلَّقت الجدار، وسعدتُ جدًّا أنني أزلت ذلك الزجاج المكسور، وإلا ما استطعتُ الفرار.»

أخرج مانفريد ساعتَه من جيبه مقطبًا جبينه. لقد قضَوا ساعة تقريبًا من وقتهم الثَّمين بتحرياتِهم في تشيستر سكوير.

وقال بنبرةٍ متشائمة: «آمُل ألا يكون قد فاتنا الأوان». وتابع: «الآن، ليون ...»

ولكن ليون كان قد هبط السلَّم في ثلاث خطوات.

الفصل الثلاثون

جوان سجينة

سيطر الحزنُ على جوان، فأصبحَت لا تعي، ولا ترى، ولا تهتم، ولا تجرؤ على التفكير في أي شيء، حيث سرعان ما وجدَت نفسها تُقاد في الظلام إلى شارعٍ جانبي، حتى إنها لم تُلاحظ وقوفَ سيارة أوبيرزون الليموزين إلى جانب الرصيف.

أمرَتها المرأة بقسوة: «اركبي.»

دُفِعت جوان عبر الباب، ووجَّهها شخصٌ موجود مسبقًا بالسيارة إلى مقعدها.

وعندما أُغلق الباب وبدأت السيارة في التحرك، انهارت في زاوية وهي تئنُّ.

«إلى أين نحن ذاهبون؟ دعني أعُدْ إليه!»

أتاها صوتٌ بغيض قائلًا: «هلا تتفضل السيدة الكريمة بكبح حزنها»، فاستدارت باتجاه مصدر الصوت، وحدَّقت دون أن تُبصر شيئًا.

حيث أسدلَت ستائر السيارة؛ وساد الظلام الحالكُ بداخلها.

شهقت قائلة: «إنه أنت! أيها المتوحش!» وتابعت: «إنه أنت، أليس كذلك؟ جيرتر! أيها المتوحش القاتل!»

وجَّهَت له ضربةً ضعيفة، ولكنه أمسك بمعصمها.

وقال بلطف: «فلْتتمالَكِ السيدة الكريمة مشاعرَ حزنها». وأضاف: «فالسيد نيوتن لم يَمُت. وإنما كانت مجرد حيلة لإرباك بعض الدخلاء.»

صرخَت وهي تُحاول الإفلاتَ من قبضته الفولاذية، وصاحت قائلة: «أنت تكذب، أنت تكذب!» وتابعت: «لقد مات! أنت تعلم أنه مات، وأنت الذي قتلتَه! أيها الرجل الأفعى!»

أجابها جيرتر بلهجةٍ جادة: «سيدتي الكريمة، لا بد أن تُصدِّقيني.» كانوا يمرون بإحدى المناطق العامة في المدينة، ومن الممكن أن يسمع أيُّ شرطي صراخها في أي لحظة. «لو لم يتظاهر السيد نيوتن بأنه مصاب لأُلقِيَ القبض عليه، سيتْبعُنا في السيارة التالية.»

قالت: «إنك تُحاول تهدئتي، ولكنني لن أهدأ.»

وعندئذٍ وُضعت يدٌ فوق فمها، ودفعت رأسها للخلف باتجاه المساند. فقاومَت بشدة، ولكنْ أطبقَ إصبعان على وجهها وضغطا على أنفها. كانت تختنق. وجاهدَت لتحرير نفسها من قبضته القوية، ثم فقدت وعيها.

شعر جيرتر بارتخاء جسدها المنفعِل فأبعد يدَيه. لم تشعر بوخز الإبرة التي اخترقَت معصمها، على الرغم من أنه خدَّرها بشكلٍ طائش، فقد فعل ذلك في الظلام، داخل سيارةٍ تتأرجح من جهة لأخرى. تحسَّسَ نبضها، وضغط بأصابعه الطويلة على عنقها وشعر بخفقان الشريان السُّباتي؛ وساندها حتى لا تسقط، ثم استرخى السيد جيرتر متلذذًا، في زاوية السيارة الليموزين وأشعل سيجارًا.

انقضَت الرحلة سريعًا. فبعد قليل كانوا يسلكون طريقَ هانجمان، وانعطفوا فجأةً إلى أرض المصنع مما تسبَّب في التواء أحد رفارف السيارة إثر الاصطدام بأحد قوائم البوابة.

لربما مضَت ساعتان على رحيل رفيقتها، حينما استيقظت ميرابيل، المستلقيةُ فوق فِراشها، شبهَ نائمة، بعدما انزلق كتابها على الأرض، فنهضت معتدلةً في جِلستها لتجد مَن يُحدق بها، وكان هذا الرجل أكثرَ مَن تَمقتُه في العالم كلِّه، من كل قلبها. حيث دخل الدكتور أوبيرزون إلى الحجرة في صمتٍ وتحت ذراعه كومة من الكتب.

وقال، بصوته المدوِّي: «لقد أحضرتُ لكِ هذه الكتب»، ورصَّها فوق الطاولة بعناية. فلم تردَّ.

فاستطرد: «إنها روايات عديمة النفع، من النوع الذي قد تستمتعين به»، غير مدرك للإهانة التي يوجهها إليها بكلماته. وتابع: «لقد طلبتُ من بائع الكتب أن يختارها لي. إنها قصص مغامرات خيالية، وقصص عن الحب. ستَشغَلُك هذه الكتب، رغم أنني أراها محضَ هُراء وتفاهات.»

وقفت صامتة تتطلع إليه، ويداها متشابكتان خلفها. كان أكثرَ أناقةً من المعتاد، وارتدى، مرةً أخرى، المعطفَ المشقوقَ الذيلِ الذي كان يرتديه يوم قابلته أول مرة — بدا لها أن ذلك مضى منذ زمن بعيد! — كانت ياقته ناصعةَ البياض، ورابطة عنقه أجملَ من الرابطة التي اعتاد هذا الرجلُ المنمَّق ارتداءها، وبدَت أنها جديدة.

كان يحمل في يديه باقةَ زهور صغيرة في حُزمة محكمة، وسيقانها مزيَّنة بورق فِضي اللون، وأضفى عليها ورقٌ مزركشٌ أبيضُ اللون جمالًا إضافيًّا.

قال وهو يمدُّ يده نحوها: «هذه لكِ.»

نظرت ميرابيل إلى الزهور ولكنها لم تأخذها. ولم يبدُ مرتبكًا أبدًا، لا بسبب صمتها، ولا للموقف العدائي الذي أظهرتْه تجاهه، لكنه اكتفى بوضع الزهور فوق الكتب، ووضع يدَيه المتشابكتين أمامه وتحدَّث إليها. بدا أن هناك ما يُقلقه، لسببٍ ما؛ لأنه كان يُقطِّب جبينه حينًا ثم يلين من جديد بسرعةٍ مثيرة للعجب. تابعت تلك التقلُّبات، بذهول.

ثم بدأ بالحديث قائلًا: «كل رجل تأتيه لحظةُ افتتان بتكوين أسرة. حتى صاحب العقلية العِلمية، المنغمس في معضِلاتٍ عِلمية، يتوق إلى الحياة الأسرية والسكن والراحة وهو ما يُطلق عليه الزواج.»

توقَّف عن الحديث؛ ظنًّا منه أنها ستُعلِّق على هذا الكلام المرسل.

وبما أنها لم تُعقِّب بشيء، تابع حديثه قائلًا: «البشر فقط هم مَن يزعمون ويتبعون عُرفًا مصطنعًا غير طبيعي يفيد بأنه عند سنٍّ معينة يجب على الرجل أن يتزوج من امرأة في سنٍّ مماثلة. ولكن يُثبت التاريخ أن الزيجات السعيدةَ تكون في أغلب الأحيان بين رجل يراه العالم عجوزًا، وبين سيدة شابة.»

كانت تُحدِّق به في جزع. هل كان يعرض عليها الزواج؟ عجزت عن تصديق هذه الفكرة، وأصابتها بالاشمئزاز. ولعلَّه قرأ على وجهها الأفكارَ التي تدور في ذهنها، والاشمئزاز، والشعور بالنفور الذي تَملَّكها، ولكنه واصلَ حديثه، بلا خجل: «أنا رجلٌ أمتلك ثروةً طائلة. وأنتِ فتاةٌ فقيرة. ولكنني رأيتك ذاتَ يوم في بيتك الفقير، وبدَوت، يا سيدتي الرقيقة، أشبهَ بزهرة الزَّنْبق التي نبتت وسط الحشائش الضارة، فوجدتُ قلبي يميل إليكِ؛ ولهذا جئت بكِ إلى لندن، وأنفقت آلافَ الجنيهات حتى أسعدَ بصحبتك.»

قالت بهدوء: «لا أظن أنَّ هناك داعيًا لخوضك في هذا الحديث أكثرَ من ذلك، يا دكتور أوبيرزون، إن كنت تعرض عليَّ الزواج منك، كما أظن.»

أومأ برأسه مؤكدًا.

وقال: «تلك هي نيتي الشريفة.»

أجابته قائلة: «لن أتزوَّجك أبدًا مهما كانت الظروف». وتابعت: «حتى إذا التقيتُك في أسعد المناسبات. أما بالحديث عن سنِّك» كادت أن تُضيف «وهيئتِك»، ولكن منعَتها فِطرتُها الطيبة عن هذا الاندفاع القاسي، رغم أن هذا الكلام لم يكن ليُسبِّب له أي ألم على الإطلاق؛ «فهذا لا علاقة له بقراري على الإطلاق. فأنا لا أحبُّك، ولم أحبَّك قطُّ، يا سيد أوبيرزون.»

صحَّح لها قائلًا: «دكتور»، ولولا محنتها المؤسفة لكانت ضحكت على إصراره على ذكر هذا اللقب الشرفي.

وأردف يقول: «أيتها الآنسة، أنا لا أستطيع إبهارك مثلما كان يفعل أخي الشهيد الحبيب، الذي كان يُجيد التعامل مع النساء بأسلوب جميل.»

اندهشَت لسماعها أنه كان لديه أخٌ؛ فهي لم تكن تعلم على الإطلاق، ولكنها شعرت ببعض الراحة لمعرفةِ أنه مات.

«سقط شهيدًا، على أيدي قتَلةٍ أشرارٍ محتالين، قُتل وهو بكامل عافيته بمسدس القاتل». ارتجف صوتُه وتهدَّج. وقال: «سأثأر يومًا ما لحياة هذا الشهيد.»

لم يكن الفضول فقط هو ما دفعَها لسؤاله عن قاتله.

«ليون جونزاليس.» وبدأ يختار كلماتٍ قاسيةً وكأنَّ شفتَيه تحولت إلى مِبرَد: «قُتل ... اغتِيل! وحتى صورته الجميلة دُمِّرت في هذا الحريق المروِّع. فقط لو أنه أنقذ هذه الصورةَ لرقَّ قلبي تجاهه.» راجَع نفسه، وأدرك أنه ابتعد عن غرضه الأساسي من الزيارة. «فكِّري في الأمر أيتها الآنسة. ولتقرَئي الكتب الرومانسية والغرامية، لعلَّ بعدها يروق لك مشهد وجودك في زورق تحت ضوء القمر عبر جداول البندقية، والقمر فوق رأسك وسائق الزورق يُغني لك.»

كان رأسه يتمايل في وجد.

قالت: «لا يوجد كتاب بوُسعه تغييرُ رأيي يا دكتور». وتابعت: «لا أفهم لماذا تعرض عليَّ هذا العرض الغريب، ولكنني أفضِّل الموت على الزواج منك.»

للحظةٍ امتلأت نفسها رعبًا من نظراته القاسية.

«هنالك ما هو أسوأ من الموت، فالموت ليس إلا نومًا؛ هنالك أمورٌ أسوأ بكثير أيتها الآنسة. غدًا سآتي إليكِ، وسنذهب إلى البلدة، وهناك ستقولين «نعم» أو «لا» وَفقًا لرغبتي. فلديَّ الكثير من ... ماذا يسمونها؟ ... وثائق الزواج، فأنا أذكى بكثيرٍ من أن أبقى دون بدائل.»

(كان هذا صحيحًا؛ فهو يمتلك أماكنَ إقامة في أربع مقاطعات على الأقل، وقدَّم لكل مقاطعة إشعارًا قانونيًّا بزواجه المزمَع).

«لا غدًا ولا أي يوم سِواه. لا شيء سيقنعني بتغيير رأيي.»

رفع حاجباه حتى كادا يصلان إلى أعلى رأسه.

قال بجدِّية شديدة جعلت الدماءَ تتجمَّد في عروقها: «هكذا إذن!» ورفع إصبعه محذرًا إياها بقوله: «هناك رجالٌ أسوأ من الدكتور، رجالٌ بغيضة، وعقول مقيتة. هل قابلتِ جيرتر؟»

لم تردَّ.

ثم علَّق قائلًا: «أجل، أجل، لقد رقصتِ معه. إنه رجل لطيف مع النساء، أليس كذلك؟ ولكن نفس هذا الشخص المدعو جيرتر … دعيني أخبرك شيئًا.»

جلس عند أحد أركان الطاولة، وبدأ في الكلام حتى سدَّت أذُنَيها بيدَيها، وأخفت وجهها الشاحب عنه.

وعندما أنزلت يديها، قال: «كانوا سيقتلونه جرَّاءَ ذلك، ولكن جيرتر كان شديدَ الذكاء، والفلاحون الألمان المساكين أغبياء للغاية. ستتذكرين ذلك، أليس كذلك؟»

لم ينتظر إجابتها. وبانحناءةٍ رسمية متيبسة غادر الغرفة وصعد السلَّم. وعلَت أصواتُ سقوط السحارة والدحرجة المحتومة للبرميل الخرساني.

كان عليه إنجاز بعض الأعمال، وكان عملًا شاقًّا بالنسبة إلى رجل وجد نفسَه يلهث وهو يصعد السلَّم. وعلى الرغم من وجود أربعةٍ من أفضل رجاله وأكثرهم تهورًا ينتظرونه في الرَّدهة ويشربون من الويسكي الخاص به، ويملَئون الغرفة الصغيرة بدخان السيجار الكريه الرائحة، فإنه فضَّل تأدية هذه المهمة التي بدأها بالفعل بحلول الليل، بنفسه دون مساعدتهم أو عِلمهم.

وعلى حافة الحفرة العميقة الموجودة في أرض مصنعه، حيث نما اللبلابُ وسط العلب الصدئة المهملة وبراميل النفط، توجد بقعة من الأرض يسهل حفرها. عندما بُني المصنع، كانت الحفرة أكبرَ لكن البُناة ملَئوا نصفها بالتربة الخفيفة الناتجة من حفر أساسات المصنع.

أخذ المجرفة، التي تركها في المصنع، وتجنَّب الحفرة التي تُشبه الصحن، ووصل إلى المكان الذي بدأ عنده بالفعل حفر خندقٍ طويل. خلع معطفه الأنيق والصديري، وحلَّ رابطة عنقه وياقته، ووضعها بعناية فوق معطفه المطوي، وواصل عمله، وكان يتوقف بين الحين والآخر ليمسحَ العَرق المتصبِّب من جبينه.

كان مضطرًّا إلى العمل في الظلام، إلا أن ذلك لم يُشكِّل عائقًا؛ حيث بإمكانه رؤية حواف الحفرة. وفي غضون ساعة، صار الجزء العلوي من الخندق في مستوى ذقنه، وانحنى لتنظيف قاع التربة المفكَّكة. وصعد بصعوبةٍ أكبرَ مما كان يتوقَّع، ولم يتمكَّن من الوصول إلى السطح إلا بعد المحاولة الثالثة، وانقطعت أنفاسه وأصبح شديدَ الانفعال.

ارتدى ملابسه من جديد، وأمسك مصباحه الكهربائي ليُعاين الحفرة التي صنعها، وشعر بالرضا عن صنيعه.

كان شديدَ الحساسية تجاه أجواء معينة، ولم يكن بحاجةٍ إلى معرفة أيِّ معلومات تخص التغيير الذي حدث لمرءوسيه. ففي آخرِ اجتماعاتهم كان جيرتر أقلَّ انصياعًا، حتى إنه كان يُدخن في حضوره دون إذن … لعله كان شاردَ الذهن، ولكن هذا لا يُبرر الإساءة التي ارتكبها. وأوشك الدكتور أوبيرزون أن يصفَعه بسبب وقاحته، عندما سمع صوتًا داخليًّا يُحذِّره من فعل ذلك مما جعله يتراجع ويضع يده بجانبه. أم أنها كانت النظرة التي علَتْ وجهَ جيرتر؟ ولم يكن تأديب الرجل بغطرسةٍ على طريقة النبلاء الإقطاعيين القديمة أمرًا ممكنًا. وعلى الرغم من أن الدكتور أوبيرزون كان يُدين كلَّ أفعال الألمان التوتونيِّين، فقد تسلل إلى نفسه خفيةً احترامٌ للطبقة العسكرية لتلك الأمة.

ترك المجرفةَ عالقةً في كومة من التراب المنبوش. لعله يحتاج إليها مرةً أخرى، بعد قليل. إلا إذا أخفق جيرتر في مهمته. وبطريقةٍ ما لم يتوقَّع إخفاقًا هذه المرة. فالسيد مونتي لم يشكَّ فيه بعد، وإلا لاتخذ حذره منه. فقد اتضح ذلك في قَبوله السريع لتذاكر المسرح.

نهض الرجال الأربعة الموجودون في غرفته احترامًا له عند دخوله. كان جوُّ الغرفة معبَّأً بدخان السجائر، وقدَّم له ليو كوتشيني اعتذارًا بالغًا. كانت الشرطة قد أطلقَت سراحه هذا الصباح؛ لأن ميدوز وجد صعوبةً في توجيه تهمةٍ له تُدينه وفي الوقت ذاتِه لا تكشف تحركات الشرطة الكاملة، وخُططها بخصوص قضية اختطاف ميرابيل ليستر. من الواضح أن كوتشيني كان يُوبخ رفاقه الثلاثة، بطريقته الغريبة وبلُغته البذيئة، على جُبنهم؛ لأنه عندما دخل الدكتور شعر بأن الأجواء بينهم متوتِّرة. ولكن تبيَّن لاحقًا أن هذا الشقاق كان مُفتعلًا، ولعله كان استعراضًا تمثيليًّا لأجل مضيفهم.

بدأ كوتشيني بالحديث قائلًا: «كنتُ أخبر هؤلاء الرفاق للتو بأن …»

تذمَّر أحد أصدقائه قائلًا: «فلتخرس يا ليو!» وتابع: «لو لم يهتف هذا الرجل المجنون باسمك، لما عُدنا مرةً أخرى! لقد كان صوته عاليًا لدرجةِ أنه قد يوقظ الموتى. وتنصُّ الأوامر التي تلقَّيناها على التراجع عند ظهور أول نذير بالخطر. أنا مُحق، يا دكتور، أليس كذلك؟»

قال الدكتور بلا مبالاة: «بالتأكيد هذا صحيح». وأضاف: «حذاري أن يقبض عليك — هذا شعار جيد. وقد قُبض على كوتشيني.»

قال كوتشيني، وهو يكزُّ على أسنانه: «وأدفع عامًا من عمري للقاء هذا المدعوِّ داجو مرةً أخرى.»

كان تناقضه طريفًا؛ فهو أحد أبناء ميلانو، وتلقَّى تعليمه المبكِّر في حي هارتفورد الإيطالي، بولاية كونيتيكت.

«كان سيعذبني أيضًا، وعزم على وضع أعواد الثقاب المشتعلة بين أصابعي ...»

اتهمه أحدُ الثلاثة بعنف قائلًا: «وعندئذٍ اعترفتَ!» وتابع: «وسارعتَ بإفشاء كل شيء عنا!»

صاح الدكتور قائلًا: «كفى!» وأضاف: «هذا لا يَليق! لقد غفرتُ كل شيء. يكفيكم ذلك. لن أسمع كلمة أخرى.»

سأل كوتشيني: «أين جيرتر؟»

«غادر. سيُسافر الليلة إلى أمريكا. لعله سيعود ... ولكن مَن يدري؟! لكن هذه هي نيته.»

سأل أحدهم: «أن يتلوَّى كالأفعى أليس كذلك؟» وسرَت بينهم ضحكاتٌ خافتة.

مال كوتشيني إلى الأمام، وسيجاره بين أصابعه، وبدا مفتونًا للغاية، وتساءل قائلًا: «أخبِرني، يا دكتور، كيف تؤدِّي هذه الحيلة؟» وتابع: «أنا لم أرَ أي أفعى في راث هول، ولكنه لُدغ رغم ذلك، تمامًا مثلما تعرَّض هذا الأمريكي للَّدغ — أقصد واشنطن.»

قال الدكتور برضًا: «سيموت.» وتملَّكه شعورٌ شديد بالغيرة حيال فعالية أسلوبه.

«كان على قيد الحياة أمسِ على أي حال. فقد راقبناه حتى المحطة.»

«إذن فإنه لم يُلدغ ... لا هذا مستحيل. فبعد لدغة الأفعى ...» رفع أوبيرزون كفَّيه وهو يُحدق في السقف بشدة «بعدها لا شيء. لا، لا يا صديقي، إنك مخطئ.»

قال الآخر بإصرار: «أقول لك إنني لستُ مخطئًا». وتابع: «أخبرتك أنني كنتُ موجودًا في الغرفة، وفور أن أدخَلوه إليها، سمعت أحد رجال الشرطة يقول إن وجهه كان مبللًا بالكامل.»

قال أوبيرزون بلهجة كئيبة: «هكذا إذن!» وأضاف: «هذا سيئ جدًّا.»

«ولكن كيف تفعل ذلك، يا دكتور؟ هل هي طلقةٌ أم شيء آخر؟»

أجابه الدكتور قائلًا: «دعنا نتحدَّث عن الثروة والسعادة التي تنتظرنا». وتابع: «فالليلة ليلةٌ سعيدة بالنسبة إليَّ. سأغني لكم أغنية.»

ثم لدهشة الرجال وتعاستهم الشديدة، غنَّى لهم بصوتٍ هزيل ضعيف، قصةَ فلاحٍ شاب فشلت قصة حبه، فألقى بنفسه من أعلى الجرف إلى شلال مائيٍّ هائج. كانت أغنية طويلة، مليئة بالعواطف الجياشة، إلا أنَّ صوته لا يحمل أي سِمات موسيقية. لم تواجه العصابة مهمةً أشقَّ من كِتمانهم للضحك حتى ينتهيَ من الغناء.

قال له كوتشيني متملقًا، بعد أن نجح في إظهار الإعجاب في نبرته: «ما هذا! يا لك من فنان، يا دكتور!»

قال الدكتور بتواضع: «كنتُ مغنيًا رائعًا حين كنت طالبًا.»

وفوق رفِّ المدفأة، توجد ساعة كبيرة عتيقة، ذاتُ واجهةٍ بالية لم يَعُد يظهر منها سوى أرقام قليلة. عادةً ما يكون لدقاتها الصاخبة أثرٌ مهدئ في نفس الدكتور. لكن الغرض الرئيسي منها وقيمتها كانت في مدى دقتها. كان يضبطها يوميًّا عبر رسالةٍ تصله من جرينيتش، ونظرًا إلى أن نجاح أوبيرزون بصفته رجلًا مدبرًا للخطط يعتمد على التوقيت الدقيق، فإن الساعة هي أحد أهم ممتلكاته.

نظر إلى الساعة، وهذا منح كوتشيني عذره.

حيث قال: «سوف نتفق، يا دكتور». وتابع: «أنت لا تريد أيَّ شيء الليلة، أليس كذلك؟ وأنا أريد النَّيل من جونزاليس هذا. هل ستسمح لي بالذَّهاب إن لم يكن هناك ما نفعله؟»

نهض أوبيرزون وغادر الغرفة دون أن يتفوَّه بكلمة؛ لأنه علم أن نهوض كوتشيني لم يكن إشارةً فقط على انتهاء عمل اليوم، وإنما إشارة أيضًا على أن العصابة تريد أجرها.

كان مدير كلِّ مجموعة يحضر إلى السيد أوبيرزون مرةً واحدة في الأسبوع ومعه قائمةٌ بالرواتب، واعتاد الدكتور إحضار صندوق النقود إلى الغرفة وإخراج ما يكفي لسداد مديونيته لمدير المجموعة. كان صندوقًا كبيرًا، وفي يوم القبض، مثلما هو الحال الآن، يمتلئ الصندوق بالأوراق النقدية وسنَدات الخِزانة. وقد أحضره الآن ووضعه على الطاولة، وراجع القسيمة الصغيرة التي قدَّمها له كوتشيني، وأخذ رِزمة من الأوراق النقدية، المثبَّتة بشريط مطاطي، وبلَّل سبَّابته وإبهامه.

قال كوتشيني: «لست بحاجة إلى عدِّها». وتابع: «سنأخذها كلَّها.»

استدار الدكتور ليجد كوتشيني حاملًا مسدسًا في يده بلا مبالاة.

قال كوتشيني بهدوء: «الحقيقة، يا دكتور، أننا رأينا الخطر وشيكًا، وإذا لم نهرب الآن، بينما الهروب مناسبٌ، فلن يبقى لنا مكانٌ آمن فوق هذه الجزيرة الصغيرة، وأظن أننا سنلحق بجيرتر.»

نظر الدكتور إلى المسدس نظرة واحدة، وبعدها استكمل العد، وكأنَّ شيئًا لم يكن.

«عشرون، ثلاثون، أربعون، خمسون ...»

قال كوتشيني بحدَّة: «توقَّفْ عن ذلك الآن». وأضاف: «أقول لك لست بحاجة إلى العد.»

«صديقي، أنا أفضِّل معرفةَ مقدار ما أنا بصدد خَسارته. اعذرني على هذا الفضول.»

ورفع يده إلى الحائط حيث الحبلُ المتدلِّي، وجذبه برفقٍ دون أن يرفع ناظرَيه عن الأوراق النقدية.

همس كوتشيني قائلًا: «ماذا تفعل؟ ارفع يدَيك!»

قال أوبيرزون وهو يُلقي بِرزمة الأوراق فوق الطاولة: «أطلِق النار، أرجوك». وتابع: «هذا راتبُك.» وأغلَق الصندوق. «الآن يجدر بك الذَّهاب، إن استطعت! هل تسمعها؟» قالها وهو يرفع يدَيه، والتقطَت آذانُ الرجال المضطربين صوتَ حفيفٍ بسيط يأتي من الرِّواق الخارجي، وكأنَّ أحدهم يجرُّ قطعةً من الجلد على الأرضية. قال الدكتور مرةً أخرى، بهدوء عجيب: «هل تسمع؟ يجب أن تُغادر إن استطعت.»

شهق كوتشيني، وقد شحَب لونه، وارتجفَت يدُه التي تحمل المسدَّس، قائلًا: «إنها الأفاعي!»

سخِر أوبيرزون قائلًا: «أطلق عليها النار، يا صديقي». وأضاف: «إذا رأيتها، أطلِق عليها النار. ولكنك لن تراها، أيها الشجاع. أين مكانها؟ لن تُبصرها أيُّ عين في أي مكان. لعلها خلف صورة، أو لعلها تنتظر حتى يُفتح الباب، ثم ...»

صار حلق كوتشيني جافًّا.

وقال مرتعدًا: «أبعِدها، يا دكتور.»

«ضع مسدسك ... على الطاولة.»

كان صوت الحفيف لا يَزال مسموعًا. فتردَّد كوتشيني للحظة، ثم انصاع، وأخذ النقود.

تجمَّع الرجال الثلاثة الآخَرون بجانب المدفأة، وهم يرتعدون خوفًا.

قال كوتشيني: «لا تفتح الباب، يا دكتور»، ولكن أوبيرزون كان قد أمسك بالمقبض وأداره.

سمعوا صوتَ بابٍ آخَر يُفتح، وصوت ضغطةِ زرٍّ إضاءة الرواق عند دخوله. ثم عاد.

«إذا ذهبت الآن، فلا أودُّ رؤيتك مرةً أخرى. ألستُ أنا رجلًا عالِمًا بكل الأسرار؟ أنت تعلم ذلك جيدًا!»

نقل كوتشيني نظره بين الدكتور والباب.

وسأله، مضطربًا: «هل تريدنا أن نُغادر؟»

هزَّ أوبيرزون كتفَيه دون اكتراث.

«كما يحلو لكم! كنت أرغب في بقائكم معي الليلة؛ فهناك عملٌ وأموال كثيرة لكم جميعًا.»

تبادل الرجالُ النظرات القلقة.

سأله كوتشيني: «إلى متى تُريدنا أن نبقى؟»

«الليلة فقط، وإن كنت لا ترغب …»

ستحدث الأزمة هذه الليلة. أدرك أوبيرزون ذلك منذ أشرق عليه النهار.

«سنبقى … أين سننام؟»

للإجابة عن هذا السؤال، أشار إليهم أوبيرزون بمغادرة الغرفة، وتبعوه إلى المختبر. وفي الجدار المقابل كان هناك بابٌ حديدي ثقيل يُفضي إلى مخزن خَرساني حيث كان يحتفظ فيه ببقايا بعض المعدَّات، وزيوت وكحول لسياراته، والمحرك الغازي الصغير الذي يُشغِّل مولِّدًا كهربائيًّا صغيرًا في المختبر، ويوفِّر له، إذا لزم الأمر، إنارةَ المصنع بمصدرٍ مستقل بعيدًا عن مصدر التيار الخارجي.

كان هناك ثلاثُ نوافذ طويلة مغلقة بإحكام تقع أسفل السقف مباشرة.

تذمَّر كوتشيني بارتياب: «إنها أشبهُ بالزنزانة في نظري.»

سأله أوبيرزون: «هل توضع أقفال الزنزانة على بابها من الداخل؟» وتابع: «هل سيُعطيك السجانُ مِفتاح زنزانتك كما سأعطيك إياه؟»

أخذ كوتشيني المفتاح.

وقال في غيظ: «حسنًا، توجد أغطية كثيرةٌ هنا، أيها الرفاق، أرى أنك تُريدنا بعيدًا عن أعين الشرطة، أليس كذلك؟»

أجاب الدكتور: «تلك هي نيتي.»

أغلق دكتور أوبيرزون البابَ عليهم، وعاد إلى مكتبه، والسعادةُ ترتسمُ على فمه الواسع. سحب الحبل مرةً أخرى، وأغلق مروحةَ التهوية التي أدارها منذ قليل. حيث اكتشف منذ أيام قليلة أن عمود المروحة علقت به بعض الأوراق الجافَّة، مما جعل فتحتها تُصدر صوتًا مزعجًا للرجل الذي كان مستغرقًا في دراسةٍ متعمِّقة للفلاسفة الأقلِّ شهرة، ورغم ذلك الأكثر ثقافة.

الفصل الحادي والثلاثون

محتويات الصندوق

سمع الهدير الخافت للمحركات، ونظر عبر نافذة الرَّدهة، فرأى الأضواءَ الخافتة للسيارة تقتربُ من المنزل، فأطفأ أنوار الرَّدهة. وانتظر في الظلام، حتى فُتح باب السيارة الليموزين، وهبط منها جيرتر. وقال: «أبلغ سيادتكم بإنجاز المهمة، يا سيدي الدكتور.»

أومأ أوبيرزون برأسه.

«وامرأة نيوتن ... أين هي؟»

«إنها داخل السيارة. هل تودُّ مني إحضارها؟ لقد كانت مصدرًا للإزعاج الشديد، يا سيدي الدكتور، واضطُررت إلى حَقنها بالمخدِّر.»

هتف مُحدِّثًا السائقَ: «فلتدخلها ... أنت!» وتابع: «ساعِد صديقنا.»

تعاون الاثنان في رفع الفتاة الفاقدة للوعي، ولكنهما لم يحملاها لأبعدَ من السلَّم. وعندئذٍ قرَّر أوبيرزون أنها لا بد أن تعود إلى محبسها. في البداية انصرفَ السائق؛ ووضعت السيارة داخل مَرْأبٍ في نيو كروس (وهو أحد المستودَعات الثلاثة التي يمتلكها أوبيرزون في لندن)، وهو أيضًا المكان الذي يعيش به الرجل. وبعد أن غادر السائق، حمَلا جوان معًا إلى المصنع، وسلكا طريقًا ملتويًا، بدا لجيرتر غيرَ مبرَّر. فإن كان ضروريًّا، فليكن على الأقل ملائمًا؛ لأن الطريق الأقربَ إلى المصنع يمر عبر الحفرة التي أُنهك الدكتور في حفرها.

لم تكن لتُخطئ وصول أوبيرزون هذه المرة. حيث أُزيحت السحَّارة محدِثةً صوتًا عاليًا، وسمعت ميرابيل، بدقات قلب متسارعة، وقْع أقدام تهبط السلَّم الحجَري. كان هناك رجلان يمشيان بتثاقل. وعرَفَت بطريقةٍ ما قبل أن ترى حملهما، أنها كانت جوان. كانت ترتدي ثيابَ سهرة، ووجهُها شديد الشحوب وعيناها مغمَضتان؛ ظنت الفتاة أنها ميتة عندما رأتهما يضَعانها على الفراش.

قال أوبيرزون: «لقد أعطيتَها جرعةً مفرطة من المخدِّر، يا جيرتر»

أهذا جيرتر؟ لم تتمكَّن من التعرف عليه. كان من المستحيل أن تُصدق أن هذا هو الشابُّ الأنيق ذاته الذي رقص معها في الحفل التنكري الراقص.

قال جيرتر مخاطبًا الدكتور: «اضطُرِرت للتخمين في الظلام، يا سيدي الدكتور.»

كانا يتحدثان بالألمانية، بينما معرفة ميرابيل بهذه اللغة محدودةٌ جدًّا. رأت جيرتر يُخرج علبة صغيرة مسطَّحة من جيبه، وأخرج بعدها قنِّينة صغيرة، ورجَّ بيده كبسولة بُنية صغيرة. ثم أذابها في أنبوب صغير، وأخرج الماء المستخدَم، أيضًا من العلبة. ملأ حقنة رفيعة حتى نصفها، ووخز بها ذراعَ جوان. سادت لحظةُ صمت، ثم قال جيرتر: «ستستيقظ سريعًا، بعد إذن سيادتكم، يا سيدي الدكتور.»

لم تكن ميرابيل تنظر نحوه، لكنها علمت أن عينيه المتَّقدتَين مثبَّتتان عليها، وأنه ينظر إليها، طوال الوقت باستثناء اللحظة التي أجرى فيها هذا الأمر؛ وعرَفَت الآن أن هذا الرجل هو مَن عليها أن تخشاه. شعرت وكأن يدًا باردة تعتصر قلبها.

قاطع أوبيرزون هذا التحديق. عندما علا صوتُه الحاد. قائلًا: «سيَفي هذا بالغرض، يا جيرتر». وتابع: «لا داعي لانتظارك.»

أطاعه جيرتر وغادر الغرفة، وتبِعه الدكتور. وقبل حتى أن تُغلق السحارة، كانت ميرابيل بجانب الفتاة، ومعها وعاءٌ من الماء ومِنشفةٌ مبلَّلة. وفي اللحظة التي لامس فيها الماءُ وجهها، أفاقت جوان ونظرت إلى السقف المحدب، ثم تدحرجَت فوق الفراش ووقعت على ركبتيها، ثم كافحت لتقف على قدَميها، وترنَّحت وكادت تسقط، لولا أن سندتها ميرابيل.

«لقد نالوا منه! نالوا من فتايَ ... قتَلوه مثل الكلب!»

شهقت ميرابيل، مذعورة: «ماذا ... السيد ... السيد نيوتن؟»

«قتلوه ... مونتي! ... مونتي!»

ثم بدأت تصرخ وتجري في أرجاء الغرفة كالمجنونة. شعرت ميرابيل بألمٍ نفسي وجسدي؛ لرؤية جوان على هذا الحال، وأمسكتها وحاولَت تهدئتها، ولكنها كانت ثائرةً، وتكاد تفقد عقلها. بدا أن المخدِّر والتِّرياق المضادَّ قد ذهبا بما تبقى لديها من قدرةٍ على ضبط النفس. لم تتمكَّن ميرابيل من سحبها لترقد في الفراش مرة أخرى، إلا بعد أن سقطَت من الإجهاد.

مات مونتيجو نيوتن! مَن قتلَه؟ مَن هم «هؤلاء؟» ثم فكَّرت في جيرتر وفي ثيابه الغريبة؛ تجعدَت ملابسه البيضاء، حتى لحيته أصبحت شعثاء بعد الصراع الذي خاضه مع المرأة المنفعلة.

صعدت السُّلم في يأسٍ شديد وحاولت فتح السحَّارة، لكنها كانت مثبَّتةً بإحكام. لا بد أن تهرب من هنا ... لا بد أن تهرب في الحال. كان أنينُ جوان مثيرًا للشفقة، وجلسَت الفتاة بجانبها، تُحاول جاهدةً تهدئتها. بدَت أنها شبهُ فاقدة للوعي؛ فلم تُصدر أيَّ صوت ولم تنطق بأي كلمة مفهومة، باستثناء شهقاتها. مضت نصفُ ساعة، كانت الأطولَ والأكثر ترويعًا في حياة ميرابيل ليستر. ثم سمعت صوتًا. حتى إنه اخترق أذنَي تلك الفتاة التي كادت تجن؛ لأنها فتحت عينَيها على اتساعهما، وأمسكَت بميرابيل، ونهضت.

وقالت، وشفتاها شاحبتان: «إنه آتٍ، آتٍ ... القاتل آتٍ!»

قالت ميرابيل، وقد ملأها الخوفُ هي الأخرى: «بالله عليكِ لا تقولي هذا الكلام!»

سمعت، في الغرفة الخارجية، أصواتَ أقدام تتسلَّل. حدَّقَت في الباب المغلق، وكاد يُغشى عليها من شدة القلق. ثم رأت الباب الحديديَّ يتحرك ببطء، وظهرَت اليد أولًا، ثم طرَف الوجه — حيث وقف جيرتر يُحدق فيها. اختفت لحيته، وشعره المستعار؛ وكان من دون ياقة، حيث يرتدي سُترة متَّسخة فوق قميصه الأبيض الذي كان يرتديه يوميًّا.

تحدَّث إلى ميرابيل قائلًا: «أريدُك.» التصق لسانها بسقف حلقها ولكنها لم تقُل شيئًا.

بدأ بالحديث قائلًا: «سيدتي الشابة الجميلة ...» ثم انقضَّت عليه جوان، وهي تصرخ.

وكانت تبكي، وتلطمه بعنفٍ وتقول: «أيها القاتل، القاتل ...! المتوحش!» حاول التخلصَ منها بعناء، لكنها تشبَّثَت به؛ كانت أشبهَ بوحشٍ هائج، لم تكن بشرًا.

نجح أخيرًا في إزاحتها بعيدًا، ثم رفع يدَيه لحماية وجهه عندما هجمَت عليه مرةً أخرى. ولكنها هذه المرة انسلَّت أسفل ذراعه واندفعت نحو الباب كالبرق. سمع خطواتها على السلَّم، واستدار ليُطاردها. كانت السحارة مفتوحة. ارتبك وتعثَّر في الظلام وهو يعبر أرضية المصنع القاحل. وبمجرد وصولها إلى العراء، أمسك بها ولكنها أفلتَت. وفرَّت كالغزالة، ولكنه أسرع بالركض خلفها؛ وفجأةً أطبقت يدُه على عنقها.

قال، وهو يُشدد قبضته: «كان من الأفضل أن تخرجي، يا صديقتي.»

استدارت لتتفاداه، ولكنه مدَّ قدمه. تصاعد صوتُ طقطقةٍ مزعجة، أطبق شيءٌ على ساقه، مما سبَّب له ألمًا مبرحًا. خفَّف قبضته عن عنقها، ولكنه أمسك ذراعها بقوة. وألقاها باتجاه الحائط بكل ما أُوتي من قوة، فتهاوت على الأرض. ثم انحنى إلى الأسفل، وأبعد الأسنانَ المدبَّبة للفخ الذي خطا فوقه، وحرَّر ساقه. كان ينزف؛ وتمزَّقت ساقُ سرواله إربًا إربًا. توقَّف قليلًا حتى جرَّ الفتاة من أقدامها، وألقى بها فوق كتفه وكأنها جِوال، عاد إلى المصنع، وهبط السلَّم، وألقاها فوق الفراش بعنفٍ مما أدَّى إلى تحطم دِعامة الفراش

الزنبركية. كان لهذا تأثيرٌ غريب وقَع في نفس المرأة المذهولة، ولكنه لم يلحظ ذلك؛ لأنه التفتَ إلى ميرابيل.

ولهث قائلًا: «سيدتي الشابة، أنا أريدك!»

كان الدمُ يسيل من ساقه الجريحة، ولكنه لم يَعُد يشعر بالألم بعد الآن؛ لم يشعر بشيء سوى الرغبةِ في إلحاق الأذى بمن طاردَه، لم يرغب إلا في تحقيق أحلامه البغيضة البشعة.

تجمَّدت في مكانها، ولم تقوَ على الحركة. ثم وضع يده أسفلَ ذقنها ورفع وجهها؛ ورأت عيونه اللامعة الجائعة تلتهمُها، ورأت شِفاهه النحيلة تقترب أكثر فأكثر، ولم تستطِع الحركة؛ ولم تعُد تشعر بشيء، لم يَعُد بإمكانها سوى التحديقِ في عينَي هذا الرجل الأفعى، وسيطر عليها رعبُ هذه اللحظة.

ثم هبط عليه غضبٌ شديد. حيث اندفعت أصابعُ صغيرة نحو وجهه، وكاد يُصاب بالعمى. استدار وهو يصرخ بغضب، ولكن جوان ذات الوجه الشاحب، كانت قد طارت نحو المدفأة، وأخذت قضيبًا معدِنيًّا كان يُستخدم في جمع الفحم المشتعل معًا. وضربته به ولكنها أخطأته. أفلتَ منها فصوَّبَت القضيب نحوه، وأخطأته من جديد. اصطدم القضيب المعدني بالصندوق الأخضر الذي كان خلف المدفأة، وعلا صوت تحطُّم الزجاج. لم يلحظ ذلك، كانت الفتاة هي مقصدَه، وأغمضت ميرابيل عينيها ولم تسمع إلا صوت الضربة التي وجَّهها للفتاة.

عندما نظرت مرةً أخرى، كانت جوان مستلقية فوق الفراش وهو يربط إحدى يدَيها بحزامٍ نزعه من خَصره ويُثبته بأحد أعمدة الفراش. ثم رأت ميرابيل مشهدًا أطلق لسانها المنعقد. سمع صراخها وابتسمَ لها ابتسامةً عريضة، ونظر هو الآخر إلى موضع نظرها.

كان هناك شيءٌ يتسلل خارجًا من الصندوق الأخضر المتحطِّم! رأسٌ أسودُ مسحوب أشبه بالمجرفة، بعيون لامعة، جامدة بدَت وكأنها تتأمل المشهد بتحديقٍ خبيث. ثم، رويدًا رويدًا، كان هناك شيءٌ سميكٌ، أشبهُ بحبل مطَّاطي، يتلوَّى ببطء على الأرض، ويلتوي حول نفسِه، ويرفع رأسه المسطحة. «يا إلهي، انظر!»

استدار لينظر ماذا يدور هنالك، وما زالت تلك الابتسامةُ على وجهه، وقال شيئًا بصوتٍ أجشَّ. كانت الأفعى ساكنة، ونظراتها المقيتة موجَّهة نحو الفتاة المذهولة، ثم على الرجل.

كانت دهشة جيرتر مفجعة؛ بدا وكأنه رأى شبحًا من عالَم آخَر. ثم اتجهت يدُه إلى جيبه الخلفي؛ وانبعث وميضٌ وصوتُ انفجارٍ يُصم الآذانَ جعلها كالمصعوقة. سقط

المسدس من يده إلى الأرض محدثًا جلَبة، ورأت ذراعه ممدودةً ومتصلبة، ويبرز من طرَف كُم معطفه ذيلٌ أسودُ، يلتفُّ حول معصمه شيئًا فشيئًا. وصلت الأفعى إلى كُم قميصه. وكانت ثيابه الملتفة حول عضده تعلو وتهبط بشكل متقطع.

وقف منتصبًا، ومكشرًا، وذراعه لا تزال متصلبة، وعيناه تنظران في ذهول على الشيء الملتفِّ حول معصمه. وبعد ذلك أدار يدَه الأخرى ببطء، وقبض على الذيل وجذَبه بقوة إلى الأمام. استدارت الأفعى وهي تُصدِر فحيحًا غاضبًا وحاولت لدغَه مرةً أخرى؛ ولكنه رفع يده وصدم رأسها بالمدفأة. أخذت الأفعى تتلوَّى بعنف وسط الرماد.

همس جيرتر بالألمانية: «يا إلهي!» وارتفعت يدُه الحرة ليتحسَّس ذراعه بحذر. «لقد ماتت، يا سيدتي الكريمة. لعل هنالك أخرى غيرها؟»

سار وهو يترنَّح باتجاه الصندوق الأخضر، ووضع يده دون تردد. كانت هناك أفعى أخرى — أكبر حجمًا، استيقظت من سُباتها غاضبة. فلدغت الرجل مرتين في معصمه، ولكن جيرتر ضحك، ضحكةً مدوية تُعبِّر عن استمتاعٍ خالص. لأنه أدرك أنه رجلٌ ميت بالفعل. وخطر على ذهنه، لحظةَ أتاه الموت، عندما كانت أبوابُ الآخرة توشك أن تستقبله، أنه يجب أن يَلْقى خالقه بهذا العمل الصالح رغم حياته الفاسدة.

فقال، مبتسمًا في وجه الأفعى الشبيه بالمجرفة: «انصرفي، أيتها الصغيرة». وتابع: «لقد نَفِد سُمُّكِ، انتهى!»

داس بكعبه على رأسها الملتوي، وأغمضَت ميرابيل عينَيها وسدَّت أذنيها. وعندما عاودت النظر، كان الرجل يقف عند الباب، يتشبَّث بالعمود وهو ينزلق ولكنه يُجاهد ليبقى منتصبًا. وابتسم لها مرةً أخرى؛ هذا القاتل الذي أنهى للتو آخر عملية قتل.

وقال بصعوبة: «عذرًا، سيدتي الكريمة»، وسقط على ركبتيه، ورأسه مستندٌ إلى الباب، وجسده يتمايل من جانبٍ لآخر، ثم سقط في النهاية.

سمعت صوت أوبيرزون الأجشَّ من الدور العلوي. كان يُنادي جيرتر، ثم أطل من الباب، ممسكًا بمسدس في يده.

قال، وهو ينظر إلى الرجل الذي يحتضر: «هكذا إذن!»

ثم تجهَّم عندما رأى الأفعى. ونقَّل نظره بين ميرابيل والفتاة الملقاةِ فوق الفراش، وذهب ليفحصها، ولكنه لم يُحاول نزع الحزام. كانت ميرابيل هي مَن نزَعتْه؛ وهي أيضًا مَن مسحَت وجهَها المليءَ بالكدمات وأرخت فستانها.

وبينما تفعل ذلك، شعرت بيد فوق كتفها.

قال أوبيرزون: «تعالي.»

«سأبقى هنا برفقة جوان، حتى ...»

«تعالي في الحال، وإلا سأُلقي بك لصديقتَيَّ الصغيرتَين.» وأشار إلى الأفعيين الموجودتَين على الأرض واللتين لا تزالان تتحركان من حينٍ لآخر.

كان عليها أن تخطوَ فوق جيرتر، ولكن بدا ذلك أسهلَ من اجتيازها لتلك الحبال الملتوية، السوداء اللامعة؛ كانت يده ممسكةً بيدَيها، وهي تتعثر في أثناء صعودها السُّلم المظلم حتى خرجَت في النهاية إلى هواء الليل، الصَّحْو العليل.

كان يرتدي ثيابًا تصلح للسفر؛ لاحظَت ذلك فور رؤيته. إذ كان يلبس قبعة من القماش الثقيل على رأسه الغريب الشكل، وبدا شكله أقلَّ إثارةً للنفور بعد أن غطَّت القبعة الجزء الأكبر من جبهته. وارتدى معطفًا، على الرغم من أن الليلة كانت دافئة.

كانا يمرَّان بين الجدار والمصنع عندما توقف ووضع يده على فمِها. حيث سمع أصواتًا، كانت أصواتًا خافتةً على الجانب الآخر من الجدار، وبعد برهة سمع أصواتَ كشط شيءٍ ما. ودون أن يُزيح يده عن وجهها، أخذ يجرُّها ويدفعها حتى ابتعدا عن المصنع.

ظنَّت أنهما عائدان إلى المنزل الذي كان وسط الظلام، لكنه بدلًا من ذلك، قادها إلى الأمام بمُحاذاة الجدار، وعندئذٍ رأت هيكل الصندل.

قال لها: «فلتبقي هنا، دون كلام»، وبدأ يُدير عجلةً صدئة. وبعد صريرٍ وطنين، فتحت بوابات المياه للداخل. ما الذي كان ينوي فعله؟ لم يكن هناك ما يُشير إلى وجود زورق، فقط هذا الصندل المتهالك. كانت ستعرف حالًا.

قال مرةً أخرى: «تعالي.» كانت تقف فوق سطح الصندل، وتتجه نحو مقدمته، الموجهة باتجاه البوابة المفتوحة وخلفها القناة.

سمعته يلهث ويتأوَّه وهو يشد حبلًا وجده، ثم نظرَت إلى الأسفل، ورأت مقدمة الصندل تنفتح، مثلما فُتحت بوَّابتا المياه المنغلقتان. أظهر رشاقة ملحوظة، وهبط إلى الحافة؛ بدا أنه يقف على شيء صُلب؛ لأنه أمرها مرةً أخرى بالانضمام إليه.

قالت وهي تلهث: «لن أذهب»، واستدارت لتهرب، لكنه أمسك ثوبها بيده وسحبها نحوه.

«سأغرقك هنا، يا امرأة»، قالها وهي تعلم أن هذا التهديد له تتمَّة.

كانت ترتجف حتى هبطت فوق شيء ثابت ولكنه ليِّن في الوقت ذاتِه. بينما دفع هو الصندل بكل قوَّته، وزادت مساحةُ الرصيف أسفلَ منها. في البداية المقدمة المستدقَّة،

وبعدها نصف السطح المغطَّى لأسرع زورق مزوَّد بمحرِّك يمكن لأموال السيد أوبيرزون شراؤه، أو يمكن لأبرع البُناة تصميمُه. كان الصندل المتهالك عبارةً عن مرفأ للزَّورق، وهذا يعني امتلاكَه وسيلةَ هروب دائمًا. ولهذا السبب عاش في مكانٍ بدا الوصولُ إليه صعبًا.

اختفى الرجال الذين كانوا على ضفَّة القناة. دارت مراوح المحرك ببطء، وأبحر الزورق في المياه المظلمة، وبعد وقتٍ قصير عبر أسفل الجسر الذي كانت تمر فوقه سيارات الشارع، وتوجَّه إلى دتفورد وإلى النهر.

خلع الدكتور أوبيرزون معطفه، ووضعه برفقٍ في مأمن داخلَ الكابينة المفتوحة، ووضعه برفقٍ لأن كل جيب كان محشوًّا بالأموال.

بالنِّسبة إلى ميرابيل ليستر، القابعة في ظلام هذا المكان المسقوف، لم يكن لانقضاء الوقت أيُّ علامة مميزة. مرة سمعت صوتًا يُلقي عليهما التحية بطريقة رسمية من الضفَّة. كان هذا شرطيًّا؛ رأته بعد مرور القارب. كشف مصباحُ الغاز بريقَ الأزرار المعدِني. ولكنه سرعان ما صار بعيدًا عنهما.

كانا على مقربة من دتفورد عندما وصلا إلى حاجز، لم تكن الأموال أو البراعة قادرةً على اجتيازه؛ حيث وقف شخصٌ أشعثُ أشبه بطيور الليل يُحدق بفضولٍ في الزورق. وقال ببساطة: «لا يمكنك العبور من هنا، أيها الزعيم». وتابع: «هذا الجسر لا يفتح إلا عند ارتفاع المد.»

سأله أوبيرزون بلهفة: «ومتى يحينُ هذا المدُّ العالي؟»

أتاه الصوت قائلًا: «عند الساعة السادسة من صباح الغد.»

ظلَّ مشدوهًا بلا حركة مدةً طويلة عند سماعه هذا النبأ، ثم استدار بالزورق وبدأ في الدوران.

قال: «هناك ملجأٌ واحد لنا، يا آنستي». وتابع: «سنراه قريبًا. والآن دعيني أُخبرْكِ شيئًا. أنا أودُّ العيش بشدة. هل تودين أنت أيضًا؟»

لم تردَّ.

قال: «إذا صرختِ، أو أصدرتِ أيَّ صوت، فسوف أقتلك — هذا كل شيء»، وأخبرتها بساطة كلماته، وعدم لجوئه إلى تأكيد جديته الشديدة، بأنه سيحفظ وعده.

الفصل الثاني والثلاثون

عملية البحث والتفتيش

قال جونزاليس: «احذروا؛ إنها فِخاخ بشرية.»

كشف الضوء الأبيض لمصباحه عن هذا الشيء البغيض. ضرَب الفخَّ بعصاه، فانغلق بعنف.

قال: «بهذا نكون قد تخلَّصنا من أحدها»، وفحص أسنان الفخ. ثم أضاف قائلًا: «ولكن يبدو أنه قد التقط صيدًا أيضًا! فهناك آثار دماء.»

كان مانفريد وديجبي يُفتِّشان في الأرض بحذر. ثم توقَّف مانفريد لالتقاط أنفاسه المتسارعة، وانحنى مرة أخرى، والتقط قطعة من القماش المجدول.

وقال: «إنها لرجل»، وغالبَ ارتياحُه شعورَه بالخوف. وتابع: «إنه شخص يرتدي ثياب سهرة، حدث ذلك للتو.» ونظر إلى إصبَعه. وقال: «الدماء لا تزال لزجة.»

أراه ديجبي مروحةَ التهوية التي شمَّ عبرها رائحةَ البَخور، وعندما انحنى ليون، كانت الرائحة الضعيفة لا تزال باقية.

«سنُفتش المصنع أولًا. وإن كان خاويًا، سنطلب من الدكتور أوبيرزون أن يُرشدنا، وإن لم يفعل ذلك طوعًا فسوف أقنعه.» وفي انعكاس ضوء المصباح رأى جورج مانفريد ملامح ليون القاسية التي يعرفها منذ زمن. وتابع ليون: «هذه المرة لا يمكنني أن أعدَك: سيكون تهديدي أكثرَ انضباطًا من أفعالي.»

وصلوا إلى مدخل المصنع المعتم، واستعان مانفريد بضوء مصباحه في الداخل.

قال: «عليكم أن تخطوا بحذرٍ هنا.»

تقدَّموا ببطء؛ لأنهم لم يعلموا بوجود مسار محدَّد بين الحواف الحادة للحديد والحطام. توقف ليون مرة أو مرتين ليضربَ فوق الأرض بقدمه؛ وأتاه صوتٌ أجوف.

استمر البحث طويلًا وببطء شديد، مضت ربع ساعة قبل أن يوجِّه ليون مصباحه نحو البلاطة المقلوبة، والمدخل الواسع للقبو. كان أول مَن نزل، وعندما وصل إلى الأرضية،

رأى ظلًّا في الضوء المنبعث داخل الغرفة، كان رجلًا، كما ظن، جاثمًا أمام المدخل، ويحجبه.

قال: «ارفع يدَيك!»

لم يَصدر عن الشخص أيُّ استجابة، وركض مانفريد باتجاه الجسم. كان وجهُه في الظل، ولكنه خفَض مصباحه وتعرَّف على ابتسامة الرجل الميت.

جيرتر!

وافَتْه المنيَّة على هذا الحال، في محاولةٍ أخيرة للخروج طلبًا للمساعدة.

قال مانفريد باقتضاب: «الأفعى». وتابع: «لا توجد علاماتٌ على وجهه حسبما أرى.»

«هل لاحظتَ معصمه، يا جورج؟»

ثم نظر جونزاليس خلف الجثة، ورأى الفتاة مستلقيةً على الفراش، وتعرَّف إلى جوان قبل أن يرى وجهها. وفي منتصف الغرفة تعثَّر في شيء. وأدرك غريزيًّا أنها أفعى فقفز سريعًا، ممسكًا مسدسه باتِّزان.

«يا إله السموات! انظروا إلى هذا!»

وأخذ يُحدق من أفعى لأخرى.

وقال: «إنها ميتة!» وأضاف: «هذا يُفسِّر ما أصاب جيرتر.»

حلَّ وثاق معصمَي جوان بسرعة ورفع رأسها، وأنصت إلى نبضات قلبها الخافتة وهو يضغط بأذنه. كان وعاء الماء والإسفنج يروي ما حدث. ولكن أين ميرابيل؟

كانت هناك غرفة أخرى، وصفٌّ من الخزائن الكبيرة، لكنه لم يجد الفتاة في أي مكان بحث فيه.

قال مانفريد بهدوء: «لا بد أنها ذهبَت». وتابع: «وإلا لوَجدْنا السحارة مغلقةً. من الأفضل أن نُخرج هذه الفتاة المسكينة بعيدًا ونفتش في الفِناء حول المنزل. ديجبي اذهب إلى …»

ثم توقَّف عن متابعة حديثه.

لو أن أوبيرزون في المنزل، فلا يجب عليهم المخاطرةُ بتنبيهه.

ولكن حالة الفتاة كانت طارئة. حمَلها مانفريد ونقلها إلى الخارج، وعادوا، بينما ليون يُرشدهم، بعد جولة كادت أن تتسبَّب في كسر عنق ليون، على بُعد بِضع ياردات من المنزل.

قال جونزاليس: «أظن أن الحفرة التي كِدتُ أسقط فيها حُفرت لغرضٍ محدَّد، ولن أُفاجأ إذا علمت أن السيد جيرتر المتوفَّى كان سيتخذها مأوًى دائمًا. هل أحملها عنك؟»

أجابه مانفريد: «لا، لا، اذهب على الطريق. من المفترض أن يكون بويكارت هناك الآن بالسيارة.»

«إن معرفة بويكارت عن زراعة البصل تفوق معرفته عن قيادة السيارات.» صدر هذا التهكُّم بتلقائية؛ لأن قلب الرجل وعقله كانا يُفكران في ميرابيل ليستر.

كان عليهم الالتفافُ حول سياج الأسلاك النُّحاسية الصلبة المحيطة بالمنزل، وفي النهاية وصلوا إلى طريق هانجمان، وفي اللحظة ذاتِها ظهرَت أضواء المصابيح الأمامية للسيارة من طراز سبانز.

قال مانفريد: «سأصحبها إلى المشفى وأتصل بالشرطة». وتابع: «أظن أنه لا يوجد هاتفٌ قريب، أليس كذلك؟»

قال ليون بجدِّية: «سأُهاتفهم من المنزل على الأرجح.»

لم يستطِع تمييزَ ما إذا كان الباب مغلقًا أم مفتوحًا من مكانه. ولم تكن هناك نافذةٌ فوق الباب؛ لذا من المستحيل معرفةُ ما إذا كانت هناك أضواءٌ في هذا الرواق أم لا. حيث غرق المنزل في ظلمة حالكة.

كان مكتئبًا بشدةٍ للحدِّ الذي منعه من توجيه أيِّ تعليمات لبويكارت، الذي شعر بإحراج بالغ بسبب المهمَّة التي فُرضت عليه، وسلَّم عجلة القيادة بكل سرور إلى جورج.

حمَلوا الفتاة ووضعوها في المقعد الخلفي للسيارة، وتراجعوا باتجاه البوابة، واتجهوا نحو الطريق بحذر ... لم ينتظر ليون مغادرتهم، بل عاد إلى الجهة الأمامية للمنزل.

كان المكان معتِمًا. فتح البوابة السلكية، وصعد السلَّم في صمت. وقبل أن يصل إلى الأعلى رأى الباب مفتوحًا على مِصراعَيه. هل كان فخًّا؟ مكَّنه مصباحُه من رؤية مفتاح الإنارة، فأنار المصابيح، وأغلق الباب خلفه، ومال برأسه مُنصتًا.

كان الباب الأول جهةَ اليمين هو غرفةَ أوبيرزون. ووجد الباب مواربًا، لكن المصابيح مضاءةٌ بالداخل. دفع الباب بطرَف حذائه، لكن كانت الغرفة خاوية.

وعندما حاول فتح البابَين المجاورين في هذا الدور وجَدهما موصَدَين. هبط بحذرٍ إلى المطبخين وفتَّشهما. فوجدهما خاويَين. كان يعلم بوجود خادم أو اثنين في هذا المبنى، ولكنه كان يجهل أمرًا واحدًا، وهو ما اكتشفَه في أثناء جولته، وهو أن أوبيرزون ليس لديه غرفةُ نوم. ومن الواضح أن الخدم كانوا يَشغلون إحدى الغرفتَين بالأعلى. حيث وجد الباب مفتوحًا، والغرفة خاوية وفي حالة فوضى؛ ووجد رداءَ نومٍ خشنًا ملقًى على الفراش على عجل، وموضوعًا فوق أغطية الفراش المتهدِّلة. يبدو أن أوبيرزون صرَف خدمه على عجل، ولكن لماذا؟

وجد سيجارةً مدخَّنة جزئيًّا فوق حافة منضدة حوض غسل اليدَين. وكان رمادها ملقًى على الأرض. وفي المكتب كانت كل الأدراج مفتوحةً وخاوية، باستثناء دُرجٍ واحد، كان دُرجًا داخليًّا صغيرًا مملوءًا بقُصاصات قماش غريبة. لعل الطاهيَ أو الخادمة من المدخِّنين. ووجد علبة سجائر تحت إحدى الوسائد تؤيد فكرتَه، وخمَّن أنهما خلَدا إلى النوم على مهل، ولم يُخيَّل إليهما أنهما سيسرحان في الليل.

وعلِم لاحقًا أن أوبيرزون أعطى خدمه إشعارًا بالطرد قبل طردهم بعشر دقائق فقط، ودفع لهم راتبَ ستة أشهر تعويضًا للإساءة التي تعرَّضوا لها.

كانت غرفة فايفر مغلقةً، ولكنه صار الآن مقتنعًا بأن المنزل خاوٍ، فحطَّم المزلاج الضعيف، وفتَّش الغرفة لكنه لم يجد شيئًا. وكانت الفوضى تعمُّ أرجاء غرفة جيرتر. لا بد أنه بدَّل ثيابه على عجل. وتناثرت المساحيق واللحى، والشعر المستعار وزجاجات الكحول المبعثرة فوق منضدة التزيُّن. وتذكَّر منزعجًا أنه وعد بمهاتفة الشرطة، ولكنه حين حاول استخدام الهاتف وجده معطلًا، كان ظرفًا غريبًا، حتى اكتشف أنه في وقتٍ متأخر من تلك الأمسية، قرَّر ميدوز قطع جميع الاتصالات الهاتفية عن المنزل، وأعطى الأوامر بذلك.

كان المنزل مبنيًّا على طرازٍ غريب، ولم يلحظ أبدًا شكلَه الغريب حتى تمكَّن من تفتيشه بهذا القرب. كانت جدرانه سميكة بدرجة هائلة، وقد أدرك تلك الحقيقةَ عندما فتح النافذة الموجودة في غرفة الخادمة ليرى إن كان بإمكانه رؤيةُ ديجبي. كانت السلالم خرسانية، كما صُنعت واجهات شيش نوافذ غرفة مكتب أوبيرزون من الفولاذ. وقرَّر، بينما ينتظر وصول الشرطة، أن يُفتش الغرفتين المغلقتين. لم يجد صعوبةً في فتح أُولاهما. وهي غرفة كبيرة في الطابق الأرضي، يمكن الوصول إليها بنزول سلَّم من ستِّ درجات. وبها أريكة عريضة تحتلُّ الجوانب الثلاثة لهذه الغرفة الخاوية، ولا يقطعها سوى مدخلٍ إلى غرفة أخرى. كان الباب من الصُّلب وموصَدًا بإحكام.

غطَّى الغبار الغرفة ولكنها كانت مرتَّبة. حيث وُضع كل شيء في مكانه. وتفصل مسافةٌ كبيرة بين الأجهزة المختلفة. رأى في إحدى الزوايا محركًا يعمل بالبنزين ومولدًا كهربائيًّا يُغطيه الغبار. لم يجد شيئًا مفيدًا هنا. أما الآلةُ الأكثرُ إثارةً لاهتمامه فكانت آلةً يعلم عنها كلَّ شيء، ولكنه لم يعلم بوجود قوالبِ الجرافيت. وأثارت اهتمامَه من جديد محتوياتُ زجاجةٍ زرقاء صغيرة، مسدودةٍ بإحكام ويبدو أنها مملوءةٌ بمسحات من الصوف القطني. ألقى نظرةً في أرجاء المختبر، وخرج وحاول فتح ثاني الأبواب الموصدة.

ولكن كانت هذه الغرفة، تَحْظى بحمايةٍ فائقة، بالنظر إلى صلابة الباب وزيادة عدد الأقفال وتعقيداتها. حاول ليون استخدامَ جميع المفاتيح التي بحوزته، ثم استخدم ورقته الرابحة الأخيرة. كان يحتفظ بها داخل جرابٍ جِلدي صغير في الجيب الخلفي لسرواله، وهي ثلاث قطع فولاذية مثبَّتة معًا وتنتهي بمخلب لامع. وبينما يطرق طرَف العتَلة الصغيرة بقبضته، دفع المخلب بين الباب وعتبته، وفي أقلَّ من دقيقة انكسر القُفل، وأصبح في حضرة أغربِ رفقة يمكن العثور عليها داخل أي منزل.

حيث وجد أربعَ دفايات كهربائية قيد التشغيل. كانت الغرفة حارَّةً وهواؤها ثقيلًا، وشعر باختناق، كما حدث مع الخادم الدنماركي. أنار كل الأضواء، وكانت كثيرة، ثم بدأ جولته.

كان هناك صفَّان من الرفوف، متباعدان بشكلٍ كبير، ويحمل كلٌّ منها عددًا من الصناديق، بعضها مغلَّف باللباد الأخضر، ولكن كان بعضها مفتوحًا وتظهر محتوياته. جميعها بواجهات زجاجية، وأسطح فولاذية بها فتحاتٌ صغيرة للتهوية، وداخل كلٍّ منها، على فِراش من الصوف أو القش، تلتفُّ حول نفسها أفعى أو اثنتان. كانت هناك الكوبرا، والأفعى النفَّاثة، واثنتان من الأفعى الجرَسية، تبدو كأنها ميتة، ولكنها كما خمَّن، كانت نائمةً، وهناك أفعى الدساس التي تنتمي لأمريكا الجنوبية، وهي الأخطر بين جميع الأنواع؛ كانت هناك ثعابينُ مَرجانية صغيرة، ووجد في صندوق طويل عُشًّا كاملًا من الأشياء الصغيرة الغريبة التي تُشبه السلطعون الأصفر الصغير، ولكنه فهِم أنها عقارب.

كان يُزيح اللباد الأخضر عندما سمع مَن يقول:

«لا تتحرك، يا صديقي! أظن أنه يمكنني أن أعِدَك بتقديمك إلى عائلتنا الصغيرة على نحوٍ وثيق أكثر.»

استدار ليون ببطء، رافعًا يدَيه. كان الموت رابضًا خلفه، بلا رحمة ودون تردُّد. وإن أدخل يده في جيبه فستصبح نهايته — وكان يتمتَّع بحاسة غريزية تُمكنه من تمييز صدق التهديدات، فعندما أمره الدكتور أوبيرزون بعدم التحرك لم يُساوره أيُّ شك بأن تهديده كان مدعومًا بإرادة التنفيذ.

وقف أوبيرزون، وخلفه بقليل، وقفت ميرابيل ليستر بوجهٍ شاحب وعينين تفيضان بالذعر.

ديجبي ... أين هو الآن؟ لقد تركه في الفناء المحيط بالمبنى.

كان الدكتور يفحص الباب المُحطَّم وهو يتذمر منزعجًا.

قال: «أخشى أن خُطتي لم تَعُد صالحة؛ فقد كانت تقتضي حبْسك في هذه الغرفة وتحطيمَ كلِّ هذه الصناديق الزجاجية، حتى تتمكَّن من التعرف إلى هؤلاء القوم الهادئين. ولكن لن يحدث ذلك. فلتتحرَّك، بدلًا من ذلك!»

ماذا كانت نيته؟ خرج ليون دون اكتراث، ولكن أوبيرزون أبقى بينهما مسافةً، وثبتت عيناه على تلك الأيدي البالغةِ الخفَّة، التي يمكنها أن تتحرَّك بسرعة وتنتفضَ لتُطلق النار بحركةٍ واحدة.

«توقَّف!»

توقَّف ليون أمام البابِ الأماميِّ والسلَّم.

«سنيور جونزاليس، هل تتذكَّر أخي الشهيد، والخسارة الفادحة التي شهدها العالم عندما قُتل بقسوة؟»

وقف ليون بثبات. وكان الرجل بصددِ إطلاق النار عليه. ولعل الرصاصة تنطلق في أيِّ لحظة لتنفيذ مهمَّتها المهلِكة. كانت تلك طريقةً غريبة لإنهاء حياةٍ حافلة بالأحداث. كان يعلم أن الموت وشيك، ولم يشعر بالأسف إلا تجاهَ أمرٍ واحد؛ وهو أن تشهد هذه الفتاةُ المرتجفة مشهدًا وحشيًّا كهذا. أراد أن يودِّعها ولكنه خشي إخافتَها.

جاءه صوتُ أوبيرزون الغاضب: «هل تتذكَّر أخي الشهيد؟» ثم كشف الضوءَ عن وجه أحدهم.

صاح ليون محذرًا: «ديجبي! ابقَ حيث أنت!»

قفز إثر دويِّ الطلقات. ورأى تصدُّع البناء الطوبيِّ الموجود فوق المدخل، وسمع شجارًا خفيضًا، واستدار والمسدس في يده. كان أوبيرزون قد دفع بالفتاة أمامَه حتى تُصبح درعًا واقيًا له، وحمل مسدسَه أسفل ذراعها.

صرخَت قائلة: «اهرب!»

تردَّد لثانية، ومرةً أخرى انطلقت رصاصةٌ من المسدس وارتدَّت في الباب. لم يستطِع ليون إطلاقَ النار. كان أوبيرزون منكمشًا على نفسه للحدِّ الذي يجعل التسديدة البارعة فقط هي القادرة على إصابته هو وتُخطِئ إصابة الفتاة. وبعد ذلك أفلتَ الدكتور القبضة الملتفَّة حول مِعصمه، ونزل درجات السُّلم واختفى في الظلام. ومضت ثانيةٌ أخرى وانغلق الباب. سمع اندفاع المزاليج وصليلَ القضيب الحديدي وهو يسقط في مكانه. وراودَه شعورٌ كما لو أن باب قلعة قد أوصد في وجهه.

كان دكتور أوبيرزون قد عاد للمنزل دون أن يُلاحظه أحد، رغم أن سماء الليل كانت صافية. وعبر بوابة المياه المفتوحة، وربط الزورق إلى الرصيف الصغير، وأنزل الراكبة

رغمًا عنها. كان ديجبي، وفقًا للتعليمات، يُجري جولةً حذرة حول المبنى، وفي هذه اللحظة كان أبعدَ ما يكون عن الصندل. ودون أن يستوقفه أحدٌ شقَّ الدكتور طريقه عائدًا إلى المنزل. حذَّره الضوء المضاء في القاعة من وجود شخصٍ ما. كم عددهم؟ لم يستطِع التخمين.

همس في أذن ميرابيل قائلًا: «اخلَعي نعلَيك»، وأطاعته ميرابيل.

مهما حدث، يجب ألا يفقدَها، أو يمنحها فرصةً للهروب. وبينما يُمسك ذراعها بيد، ومسدسه الماوزر باليد الأخرى، صعد السُّلم برفق، ودخل الرَّدهة وأنصت، وحدَّد مكان الدخيل على الفور.

حدث كلُّ ذلك سريعًا فلم تتمكَّن ميرابيل من تذكُّر أي شيء سوى الدفعة اليائسة التي أقدمَت عليها لإبعاد المسدس الموجَّه لظهر ليون جونزاليس. وقفَت بصمت، تُراقب هذا العجوز البغيض وهو يوصِدُ البابَ الضخم، وسارت أمامه طوعًا من غرفة لأخرى. رأت الصناديق الطويلة في الغرفة الحارَّة وانكمشتْ متراجعة. وبعد ذلك بدأت جولة كاملة داخل المنزل. كان هناك مزاليجُ يجب تثبيتها، وعيون سحرية لا بد من فتحها. أغلق مصاريع غرفة الخدم، وبعدها وباستخدام المطرقة حطَّم مقبض الباب.

قال: «ستظلِّين هنا». وتابع: «أنا لا أعلم ماذا سيفعلون. لعلهم سيُطلقون النار. وأنا أيضًا سأُطلق النار!»

لم يطمئنَّ للقُفل الذي يوصِد بابها، فذهب إلى ورشته وعثر على رَزَّة وشنكل وقُفل، وقضى ما يقرب من ساعةٍ في تثبيت عامل الأمان الإضافيِّ هذا. وأخيرًا انتهى من ذلك، وأصبح بإمكانه عرض الوضع الراهن على الرجال الأربعة المعنيِّين جدًّا بالأمر.

فتح باب المبنى الخرساني الملحَق، واستدعى الرجال الأربعة المسلَّحين المحبطين، وشرح لهم الموقف والخطر الذي يحيق بهم بكلماتٍ قليلة.

وقال: «لقد أصدرَت الشرطة الإنجليزية أمرًا باعتقال كلِّ فرد منكم». وتابع: «أنا لا أقول هذا لأخدعَكم، بل أقوله عن علم. لقد زارني شرطيٌّ عصر اليوم. أقول لكم إنني لستُ بخادِعكم — إنهم لا يستطيعون المساس بي؛ لأنهم لا يعلمون شيئًا عني، ولا يمكنهم إثباتُ أي شيء ضدي. وفي أقصى الحالات سأقضي بضع سنوات في السجن، ولكن في حالتكم الأمر مختلف.»

سأل أحدُهم بارتياب: «هل ينتظرون بالخارج؟» وأضاف: «لأنهم إن كانوا كذلك، فمن الأفضل أن نتحرك بسرعة.»

قال أوبيرزون: «لن تتحرَّك، بسرعةٍ أو ببطء». وتابع: «فالخروج من هنا يضمن لكم جميعًا السجن، ولكن إن بقيتم هنا، واتبعتم خُطتي، فسيَعْني ذلك أن كل واحد منكم سيُصبح طليقًا وبحوزته المال.»

سأل كوتشيني: «ما الغرض؟» وأضاف: «هل ستُقاتلهم؟»

أومأ أوبيرزون قائلًا: «بالطبع سأقاتلهم». وتابع: «تلك هي خُطتي. فالفتاة بحوزتي في الأعلى؛ ولن يرغبوا في أن يمسَّها أيُّ سوء. أنوي الدفاع عن هذا المنزل.»

سأله أحد الرجال المذهولين: «هل تقصد أنك تنوي البقاء هنا؟»

«سأبقى هنا حتى يُصيبهم الإعياء، ويجنَحوا إلى التفاوض.»

كان كوتشيني يقضم أظفاره بعصبيَّة.

وزمجَر قائلًا: «لعل الجُرم الكبير يتساوى بالصغير أيها الزعيم». وأضاف: «أظن أنك ورَّطتَنا في هذا.»

قاطعه أوبيرزون قائلًا: «يمكنك إنقاذ نفسك إذن! ها هو ذا الباب ... يمكنك الانصرافُ إذا أردت. فالشرطة هناك بالخارج؛ تَفاوضْ أنت معها. لقد كنت في ورطة قبل أيام يا صديقي. ومَن الذي أنقذك؟ الدكتور أوبيرزون. يواجه كلٌّ منكم عقوبةً بالسجن مدى الحياة، ويمكنني الحفاظ على هذا المنزل وحدي. فلتبقَوا معي، وسأعطيكم ثروةً تفوق أيَّ ثروة حلمتم بها من قبل. والأكثر من ذلك أنكم ستُصبحون أحرارًا في النهاية.»

«أين جيرتر؟»

أجاب أوبيرزون وقد بدَت عليه علاماتُ الانزعاج: «لقد قُتل ... بالخطأ». وأضاف: «مات بطريقةٍ غيرِ متوقَّعة.» وأخبرهم بالحقيقة دون أي محاولة لإقناعهم. وقال: «ليس أمامكم الآن سوى اتخاذِ القرار.»

تشاور كوتشيني ورفاقه همسًا.

سأله: «كم تبلغ حصتنا؟» وذكر أوبيرزون مبلغًا ماليًّا أصابهم بالذهول.

قال: «أنا صادقٌ فيما أقول». وأضاف: «ففي غضون يومين سأمتلك منجمًا للذهب يُقدَّر بالملايين.»

كان صريحًا للغاية، وروى لهم قصةَ التل الذهبي دون تحفُّظ. وأن وكلاءه في لشبونة قد حصلوا بالفعل من الوزارة على حق خيارٍ خاص بالأرض وحقوق مِلكية المعادن. وعندما تدق الساعة الثانية عشرة ليلة ١٤ يونيو، تنتقل مِلكية حقل ذهب بيسكارا تلقائيًّا إليه.

«ينتظرك عددٌ معيَّن من سنوات السجن من جهة، ولكن من جهة أخرى تنتظرك أموالٌ طائلة وسعادةٌ بالغة.»

سأله كوتشيني: «كم سيدوم بقاؤنا هنا؟»

«لديَّ طعامٌ يكفي لمدة شهر، وكذلك الحليب. لن يقطعوا الماء حرصًا على الفتاة. وللسبب ذاتِه لن يُفجِّروا الباب.»

من جديدٍ عقدوا جلسةَ تشاور سريعة، واتخذوا قرارهم.

«حسنًا، أيها الزعيم، سنبقى. لكننا نريد إثباتَ كتابي بحصتنا.»

أجابه أوبيرزون على الفور: «هلموا، إلى مكتبي!»

كاد ينتهي من كتابة الوثيقة، عندما أتته طرقةٌ مدوية على الباب فنهض واقفًا، وأشار إليهم بالتزام الصمت. وذهب باتجاه الباب، ماشيًا على أطراف أصابعه.

وسأل: «نعم ... مَن بالباب؟»

أتاه الصوت قائلًا: «افتح، باسم القانون!» فميَّز صوتَ ميدوز. الذي تابع: «لديَّ أمرٌ بإلقاء القبض عليك، وسنقتحم الباب إذا لزم الأمر.»

قال أوبيرزون: «هكذا إذن!» وأخرج فوهة مسدسه حتى استقرَّ فوق حافة الشِّق الصغير الموجود في الباب الذي توضَع عبره الخطاباتُ الواردة وأطلق طلقتَين.

الفصل الثالث والثلاثون

تحت الحصار

كان ميدوز قد تلقَّى بالفعل تحذيرًا للابتعاد عن صندوق الخطابات، ووصلت الرصاصات في النهاية إلى أحد جسور السكك الحديدية، مما تسبَّب في ارتباك أحد عمَّال تصليح قُضبان السكك الحديدية ممن تصادف وجودُه قرب مرمى النيران.

تراجع ميدوز أسفلَ السُّلم للاحتماء. وداخل السياج السلكيِّ كان هناك العشراتُ من رجال الشرطة ينتظرون. وقال: «أيها الرقيب، عُد إلى القسم في عربة الشرطة لإحضار الإمدادات». وتابع: «يبدو أنها ستكون مهمة طويلة.»

استطلع جونزاليس الأرضَ بعناية شديدة، وأدرك منذ البداية الصعوبات التي ستُواجه الطرَف المهاجم. فالجدار مرتفعٌ ولا توجد به أي فجوات؛ وأغلقت النوافذ القريبة من الأرض بإحكام؛ وحتى النوافذ الأعلى، كما توقَّع، كانت مغلَقة. ولكن المشكلة الكُبرى التي شغلَته، كانت تكمن في تحديد موقع الغرفة التي احتُجزت بها الفتاة، وبمراجعة خريطة تخيُّلية للمنزل في ذهنه، قرَّر أنها إما أن تكون في غرفة الخدَم وإما في تلك الغرفة التي أقام بها جيرتر. وعلى ضوء الكشاف استطاع رسم مخطَّطٍ سريع للطوابق التي دخلها.

انصرف ميدوز لمهاتفة مقرِّ الشرطة. وقرَّر إعادة الاتصالات الهاتفية مع الدكتور، وعندما انتهى من ذلك، اتصل بالمنزل وجاءه صوت أوبيرزون مجيبًا.

كان الحديثُ قصيرًا ولا طائلَ منه. فالشروط التي عرَضها الدكتور لم تكن لتَلْقى قَبولًا لدى أيِّ حكومة جديرة بالاحترام. فقد طالبَ بالحَصانة له ولرفاقه (وأصرَّ بشدةٍ على الشرط الأخير، مما دفع ميدوز للاعتقاد بأن أفراد العصابة كانوا ملتفِّين حول الهاتف).

قال ميدوز: «لا يَعنيني أمرُ رجالك على الإطلاق. وإن كان الأمر يرجع لي أنا، فيمكنهم أن ينصرفوا دون توجيه أيِّ تهمٍ لهم». وتابع: «فلتطلب من أحدهم أن يتحدث إليَّ عبر الهاتف.»

أجابه أوبيرزون قائلًا: «لا، بالطبع، لا». وأضاف: «من السخيف أن تطلب مني هذا الطلب.»

أغلق الهاتف عند هذا الحد، وشرح إلى الرجال المنصِتين أن الشرطة عرَضَت عليه إطلاق سراحه إذا سلَّم أفراد العصابة.

وقال ختامًا: «كما أخبرتُكم من قبل، هذا ليس أسلوبَ الدكتور أوبيرزون. فأنا لن أقبل أن أجنيَ المكاسب على حساب أصدقائي.»

وبعدها بقليل، حينما تسلَّل كوتشيني إلى الغرفة للاتصال بمقرِّ الشرطة للتأكُّد من الرواية التي قصَّها الدكتور، وجد أن السلك لم يُقطع فحسب، بل نُزِع منه جزء يصل طوله إلى ياردة كاملة. لم يكن الدكتور أوبيرزون ليُخاطر بشيء.

انقضت الليلة دون حوادث أخرى. وتوافدت قوات الشرطة الاحتياطية على الحي؛ وأصبح الفِناء حول المنزل معزولًا، وحُظرت حركة الصنادل بالقناة في الاتجاهَين. وتضمنَت الإصدارات الأخيرة من الصحف الصباحية عنوانًا بالخط العريض بشأن حصار منزلٍ بمنطقة نيو كروس، وحينما وصل أول المراسلين، كانت مجموعةٌ من المشاهدين قد تجمعَت بالفعل عند كل حاجز شرطة. ولاحقًا، أطلقَت صحفُ فليت ستريت، إصداراتٍ خاصةً أكثرَ تفصيلًا؛ وزادت الحشودُ الوافدة، وعندما وصل مسئولٌ كبير في سكوتلاند يارد، بعد التاسعة بقليل، أمر بإخلاء منطقةٍ أكبر، وببعض العناء دُفعت الأوتاد البشرية الراسخة شيئًا فشيئًا إلى الخلف حتى نهاية طريق هانجمان، حتى لم يَعُد بإمكانهم رؤية المنزل. حتى هنا، تُرك ممرٌّ لسيارات الشرطة، ولم يُسمح بالدخول إلى المنطقة المحظورة إلا لحاملي التصاريح.

اتخذ الرجال الثلاثة، وبرفقتهم مدير الشرطة، من المصنع مقرًّا لهم، بعد أن أخرَجوا منه جثة جيرتر في المساء. أما النائب المفوَّض الذي أتى على الفور في الساعة التاسعة، وفحص الأفاعي النافقة، فكان أحدَ المتخصصين في علم الزواحف، وأعلن أنها أفاعي الدساس، وهو الرأي الذي خالفَه بويكارت.

فقال: «إنها نوعٌ من الأفاعي يعيش على الأشجار الأفريقية، ويُسمِّيها السكان الأصليون مامبا. ولها نوعان؛ الأسود والأخضر. وهاتان الأفعيان من النوع الأسود.»

صاح المفوَّض قائلًا: «أتقصد أفعى المامبا الخاصة بحديقة الحيوان؟» متذكرًا الاختفاءَ المثير للجدل الذي أحدثته الأفعى المميتة، الذي سبق أولَ لغز من ألغاز الأفعى.

قال بويكارت: «من المحتمل أن تعثر على عظام مامبا حديقة الحيوان في بعض جُحور وسراديب حيوان الخلد المحيطة بحديقة ريجنت بارك، لا بد أنها تجمدَت ليلة هروبها». وتابع: «من المستحيل أن تحيا في درجة حرارة مماثلة. لقد أجريت تفتيشًا دقيقًا للغاية للمنطقة، والمناطق المجاورة لحدائق الحيوان، ووجدت مساحةً شاسعة تعجُّ بسراديب حيوان الخلد. لا، هذه الأفاعي واردةٌ من الخارج، والبقية التي لا تزال في حوزته داخل غرفته الخاصة بالزواحف واردة أيضًا من الخارج.»

هزَّ مدير الشرطة رأسه.

وقال: «حتى الآن، أنا لستُ مقتنعًا بأنَّ أفعى يمكن أن تُصبح هي المسئولةَ عن كل هذه الوفَيَات»، وأخذ يجول فوق الأرض المغطَّاة بكثافة.

أنصتَ الثلاثة في صمتٍ مهذب، ولم يقدِّموا أيَّ اقتراحات.

وفي الصباح جاءهم نبأ وصول واشنطن إلى لشبونة. كان قد غادر القطار في إرون، بعد أن وفَّر له أحدُ وكلاء مانفريد رحلات طيران، وانقضت الرحلة من إرون إلى لشبونة في غضون بضع ساعات. وهو الآن في طريق العودة.

قال ليون لمانفريد: «إذا أجرى اتصالاتِه فسيعود إلى هنا الليلة، أعتقد أنه سيكون عضوًا مفيدًا جدًّا في فريقنا.»

«هل تُفكر في الأفاعي الموجودة في المنزل؟»

أومأ ليون برأسه بالإيجاب.

وقال باقتضاب: «أنا أعرف أوبيرزون»، وفكَّر جورج مانفريد في الفتاة، وعرَف أن المخاوف التي أسرَّها صديقه في نفسه، كانت مبرَّرة.

لم يقضِ أوبيرزون ورفاقُه هذه الليلة دون عمل. فمع بزوغ أول ضوء للفجر، صعدوا إلى سطح المبنى، ووفقًا لتوجيهاته، فكَّك المسلَّحون السقائفَ الأربعة التي تُغطي كل ركن من أركان سور السطح. ونظرًا إلى أنهم غيرُ معتادين على التعامل مع مثلِ هذه المعدَّات المعدِنية الثقيلة، فقد حدَّق الرجال الذين تبقَّوا من عصابة الحرس القديم برهبةً في السترات الباهتة الخاصة برشاشات ماكسيم الآلية التي انكشفَت أمامهم.

كان أوبيرزون خبيرًا بآليَّة عمل هذه الأسلحة حتى إنه أنهى تعليم طاقمه طريقةَ التصويب والتعامل معها في غضون نصف ساعة فقط. تحت السقيفة الكُبرى كان هناك

حاملٌ ثلاثي القوائم قابلٌ للطي، بعد تجميعه وضع فوقه كشَّافًا صغيرًا ولكنه قوي، وأوصله بأحد المقابس الكهربائية الموجودة في السطح.

وأوضح لهم الطرق الثلاثة المؤدية إلى المنزل؛ أسوار السكك الحديدية المكشوفة، والطريق الطويل الذي بدأت تتجمَّع الحشود عند نهايته في تلك اللحظة.

وقال: «لا يُمكن لقدمٍ أن تَطأ أرضَ منزلي إلا عبر هذه الأماكن. وهي أماكنُ يُغطيها رجالي الرماة المهرة!»

وقبل الحادية عشرة بالضبط، ظهر في طريق هانجمان جرَّار آلي، يجرُّ جذعَ شجرة طويلًا معلقًا من المنتصف بالسلاسل، وأدرك أوبيرزون وهو يفحصه بعناية عبر نظارته الميدانية، أنه لا يوجد باب في العالم يُمكنه الصمود أمام هجوم هذا المقلاع. فحمل واحدةً من عشرات البنادق الملقاة على الأرض، وفحصها بعناية، ووضع مِرفقه فوق السور وأطلق النار.

رأى خوذةً تقع بعد أن أصابتها طلقةُ البندقية من فوق رأس شرطيٍّ أصابه الذهول أيضًا، فأطلق النار مرةً أخرى. ولكنه كان أكثرَ نجاحًا هذه المرة؛ لأن الشرطي الذي كان يُوجِّه قائد الجرار نحو الطريق اندفع خارجَه وطُرِح أرضًا.

علَت صافرةٌ مدوية؛ وركض رجال الشرطة للاحتماء، تاركين الجرارَ دون حراسة. وأطلق النارَ مرة أخرى، ولكنه أطلقَها هذه المرةَ على سائق الجرار. فرأى الرجل يزحف تاركًا مقعده، وهو يفرُّ للاحتماء بالسياج.

مرَّت ربع ساعة دون أن يُظهر أعداؤه إشارةً لوجود أي تحرُّك، وبعدها ظهر ثمانيةُ رجال، مسلَّحين بالبنادق، يركضون عبر الفِناء باتجاه الحاجز السلكي. حينئذٍ ألقى أوبيرزون بندقيتَه، والتقط أول رشاش آليٍّ بيده، وصوَّب سريعًا نحوَهم. وترددت الأصداء المتقطعة لرشاش ماكسيم الآلي. وسقط رجلٌ؛ وتقهقر صفُّ الرجال المتقدمين. وانطلقت مرةً أخرى صافرةٌ مدوية، وتفرقوا للاحتماء، وسحبوا رفيقهم الجريح معهم.

قال ليون وهو يعَضُّ أصابعه؛ مما يؤكد قلقَه: «هذا ما كنتُ أخشاه.»

كان قد وضع سلَّمًا مقابل جدار المصنع، وصعد آنذاك إلى السقف المقلقل وثبَّت منظاره.

صاح قائلًا: «هناك رشاش ماكسيم آخَر في هذه الجهة.» وعندئذٍ، وبمجرد أن رأى رأس رجُل يتحرك فوق السور، استلَّ مسدسه وأطلق النار. وتابع الشظايا الحجرية وهي تتقاذف، وأدرك أنها ليست بتسديدةٍ سيِّئة بالنظر إلى أنها من على بُعد أربعِمائة ياردة.

وكان لهذه الطلقة تأثيرٌ مزدوج؛ لأنها تسبَّبت في حذر المدافعين، وأثارت في نفوسهم الاستياءَ المطلوب.

استطاع أن يجثوَ على الأرض في آخر لحظة قبل وصول دفعة من طلقات الرشاش الآلي، وهي تُدوي وتطنُّ وترتطم بالسطح مُحدِثةً صوتَ قعقعة؛ وتطايرت إحدى بلاطات السقف وتناثرت شظاياها عاليًا في الهواء وسقطت بجانب يده.

كان وجود الفتاة هو المعضِلةَ الوحيدة. فلولا وجودُها، لكانت نهاية أوبيرزون ورفاقه حتميَّة. كان الدكتور هو الأكثرَ إدراكًا لهذه الحقيقة، وتناول شطيرةً كبيرة من لحم الخنزير وهو يحتمي بالسور، في رفاهيةٍ استثنائية؛ لأنه قليلًا ما يتناول أطعمةً صُلبة.

وقال: «سيكون ذلك صادمًا للغاية لأصدقائنا في كورزون ستريت. إنهم الآن يعَضُّون أصابعهم غيظًا.» (كاد يكون محقًّا).

تلصَّص من فوق السور، فلم يرَ أيَّ شرطي في الأرجاء. حتى القطارات التي كانت تمر في مواعيدَ منتظمة فوق الجسر توقفَت، وتحوَّلت حركةُ القطارات إلى مسارٍ آخر.

وعند الثانية عشرة والنصف، نظر عبر ثقب، ورأى صفًّا طويلًا من الرجال ذَوي الزيِّ الأصفر يجتازون طريق هانجمان، ويسيرون بمحاذاة السياج للاحتماء.

قال: «جنود»، وارتعش صوتُه لحظةً.

كانوا جنودًا بالفعل. وبدَءوا يتوافدون على فِناء المنزل، واحدًا تِلو الآخر، ولجأ كلُّ جندي إلى مكانٍ للاحتماء. وفي الوقت ذاتِه، أتاهم وميضٌ وصوتُ فرقعة من أقرب جسر. اصطدمت رصاصةٌ بالسور وكان صوت ارتدادها أشبهَ بطنين نحلة.

وظهر خطرٌ آخَرُ في الوقت ذاته، عربةٌ ضخمة، ثقيلة، محمَّلة بالمعدات، ظلَّت في منتصف الطريق ووجَّهَت فوهتها المخيفة نحو الهدف. كانت دبابة، وعلم أوبيرزون أن سلامة الفتاة فقط، هي ما يحول بينه وبين حبل المشنقة الذي ينتظره.

نزل ليراها، وفتح الباب، واندهش، عندما وجدها مستغرقة في النوم. استيقظت إثرَ سماعها صوتَ المفتاح داخل القفل، وقبِلت الخبز واللحم والماء الذي أحضره إليها دون أن تقول شيئًا.

«كم الساعة؟»

نظر إليها أوبيرزون محدقًا.

وقال: «هل تسألين عن الساعة في وقتٍ كهذا؟!»

كانت الغرفة معتمة، ولكنه أضاء الأنوار.

«إنها الظهيرة، وقد أحضر رفاقُنا جنودًا. يا إلهي! يا لكِ من امرأة مهمة حتى يأتيَ جيش كامل لنجدتك!»

لم تبالِ ميرابيل بسخريته.

«ماذا سيحدث ... الآن؟»

ردَّ: «لا أعرف.» وهز كتفَيه. وتابع: «لقد أحضَروا آلةً شيطانية إلى الفِناء. لعلهم سيستخدمونها لتُوفِّر لهم درعًا للحماية، حتى يتمكَّنوا من نسف الباب. وفي تلك اللحظة سأضعُك في غرفة الأفاعي. وهذا ما سأخبر به أصدقاءنا في الحال.»

حدَّقت به في ذعر.

«أنت لن تفعل شيئًا بهذا القدْر من الشر، يا سيد أوبيرزون!»

قطَّب جبينه.

وقال: «هذا ما أنا بصدد إخبارهم به، وهو ما سأفعله»، وتركها حبيسةَ تلك الفكرة المزعجة التي أكَّدها.

ذهب إلى مكتبه وأغلق الباب، وأخرج وصلتَين من الأسلاك من جيبه، وأصلح وصلات الهاتف المقطوعة.

قال للرجل الذي أجابه — وكان شرطيًّا تولَّى مهمةَ تلقِّي أي اتصال من جهته: «أود التحدث إلى ميدوز.»

وجاءه الرد: «سأوصلك به.»

اندهش الدكتور لحظةً لأن ميدوز لم يكن هو المجيبَ. لم يكن يعلم آنذاك بأنهم أحضروا خطَّ هاتفٍ ميداني، وأن المصنع الذي اتخذوه مقرًّا للقيادة كان على اتصال بالعالم الخارجي.

لم يكن ميدوز هو المجيب، بل رجلٌ آخَر، وبنبرته الآمِرة، خمَّن أوبيرزون على الفور أنه ضابطٌ أعلى رتبةً من ميدوز.

صاح قائلًا: «أنا الدكتور أوبيرزون». وأضاف: «لقد أحضرتم دبابةً لمهاجمتي. إذا تجاوزَت تلك الدبابةُ حدود السياج السلكي، فسوف أضع الفتاة ليستر في غرفة الأفاعي، وسوف أُقيِّدها وأُطلق عليها رفاقي الصغار لينتقموا لي.»

بدأ الضابط بالحديث قائلًا: «اسمع ...» ولكن أوبيرزون أغلق سماعة الهاتف.

خرَج وأغلق الباب، ووضع المفتاح في جيبه. كان الشكُّ الوحيد الذي راوده يخصُّ ولاء رفاقه. ولكن الغريب هنا أنه أخطأ في تقييم مقدار ثقتهم به بالسلب. لأن هوادة

الهجوم الموجَّه ضدهم، وإحجام الجنود الواضح عن إطلاق النار عليهم، كان سببًا في رفع سقف آمالهم وتحسُّن معنوياتهم؛ وبعد ربع ساعة، وهم يُشاهدون الدبابة تستدير وتخرج إلى طريق هانجمان، كادوا يتهلَّلون ابتهاجًا.

سأل مدير الشرطة: «هل أنت واثق أنه سيُنفذ تهديده؟»

أجابه ليون بشكلٍ قاطع: «بالتأكيد». وتابع: «لا يوجد شيء على وجه الأرض سيوقف أوبيرزون. ستقتحم المنزل لتعثرَ على رجلٍ قد مات بيديه، و...» ارتجف للفكرة التي راودته. وقال: «الشيء الوحيد الذي يجب فعله هو الانتظارُ حتى المساء. إذا حضر واشنطن في موعده، أظن أننا سنتمكَّن من إنقاذ الآنسة ليستر.»

رأى الدكتور أوبيرزون من أعلى السطح، أنَّ الجنود كانوا يحفرون صفًّا من الخنادق، ووجَّه طلقاتٍ ناريةً من المدفع الرشاش باتجاههم. فتوقفوا عن عملهم لحظةً لينظروا حولهم، ثم واصلوا حفْرَهم كأن شيئًا لم يكن.

لم تكن هناك إمداداتٌ من الذخيرة؛ لذا أحجم عن إطلاق المزيد من الرصاص لحين اشتداد الهجوم. وأطلَّ من فوق السور ليفحص الأرض أسفله مباشرة، ووجد شيئًا ملتهبًا وقويًّا اخترق أذنه. ورأى أحجارَ المدخنة خلفه تتفتَّت وتتهاوى، ورفع يده ليتحسس الدماء.

قال له كوتشيني المحتمي خلف السور: «من الأفضل أن تظل بالأسفل يا أوبيرزون». وتابع: «كانوا على وشك النَّيل منك في تلك اللحظة. إنهم يُطلقون النار من فوق جسر السكك الحديدية هذا. هل تحدثتَ إلى رئيسهم؟»

أجابه أوبيرزون على الفور: «إنهم يزدادون ضعفًا». وأضاف: «يسألونني دائمًا عمَّا إذا كنت سأسلِّم الرجال أم لا؛ ويأتيهم جوابي دائمًا: «أنا لن أفعل شيئًا شائنًا كهذا أبدًا»».

غمغمَ كوتشيني، وكان يحتفظ برأيه فيما يخصُّ روح الإيثار التي يُظهرها الدكتور.

في نهاية وقتِ ما بعد الظهر، ظهر سِرب من الطائرات غربًا؛ كانت خمس طائرات تُحلق في تشكيلٍ يُشبه علامة النصر. لم يدرك أيٌّ من الرجال الموجودين على السطح مقدار الخطر الذي يُداهمهم، إنما جعلهم التوجه الذي يتخذونه والمعنويات التي يتَّسمون بها، أشبهَ بالمشاهدين. حلَّقت الطائرات على ارتفاعٍ خفيض؛ وبالعين المجردة استطاع كوتشيني قراءة أرقامها وهي تُحلق فوق المنزل، على مسافةٍ أبعدَ من مائة ياردة بكثير. فجأةً بدأ السقف ينفث نوافيرَ صغيرةً من الأسفلت. صرخ أوبيرزون محذرًا، واندفع نحو

السُّلم، وتبعه ثلاثة رجال إلى الخارج. سقط كوتشيني مستلقيًا، باسطًا ذِراعَيه ورجليه، بعد أن اخترقت رأسَه رصاصتان من مدفع رشاش.

ارتفعت الطائرات المقاتلةُ في السماء، واستدارت وعادت. أنصت أوبيرزون الواقف في الطابق السفلي، إلى هدير المحرِّكات في أثناء مرورها، وتخلَّى عن حذره وصعد إلى السطح، ليكتشفَ أن بنادق الطائرات لا تزال تُطلق الرصاصات من ذيل الطائرة. كان أقربَ ما يكون إلى الموت من أي وقتٍ مضى. أصابت رصاصةٌ طرَفَ إصبعه وقطعَته في الحال. وكاد يسقط أرضًا وهو يصرخ، وترنَّح حتى وصل إلى برِّ الأمان، وهو يتلفَّظ بأغلظِ الأيمان باللغة الألمانية غير المفهومة.

لم تَعُد الطائرات. انتظر حتى اختفى ضجيجُها قبل أن يُغامر مرةً أخرى بالصعود إلى السطح ليجدَ السماء خالية. لقي كوتشيني مصرعَه، وكان من عادة أصدقائه الثلاثة إجراءُ تفتيشٍ شاملٍ لجيوبه قبل أن يرفعوا الجسد ويُلقوه من فوق السور.

ترك أوبيرزون الرجال الثلاثة على السطح، بعد أن أعطاهم تعليماتٍ صارمةً بالانحناء للاحتماء بمجرد أن يَلمحوا جَناح طائرة، ونزل للأسفل إلى مكتبه. كان مصرعُ كوتشيني نافعًا من بعض النواحي. نظرًا إلى أنه كان رجلًا تملؤه الشكوك؛ ولم ينخرط في القتال بكل جوارحه، وبدا الامر وكأن الجنديَّ المُكلَّف بإطلاق المدفع من الطائرة كان يقرأ أفكار أوبيرزون.

كان كوتشيني لاتينيًّا، يُجيد تحدُّث الإنجليزية ولا يُجيد الكتابة بها، وكان خطُّ يده مميزًا، واستمتع أوبيرزون بتقليده؛ لأن الدكتور كان بارعًا في الكتابة. استمرَّ بالكتابة طوال الساعات الثلاث التالية، وكان يقطع عمله على مراحل لزيارة الحراس الموجودين على السطح. وفي نهاية المطاف، أتمَّ عمله، ووضع توقيع كوتشيني المتعرِّج أسفلَ الصفحة الثالثة. ثم استدعى أوبيرزون أحد الرجال.

«لقد ترك كوتشيني هذا الإقرار. هلا تُوقِّع إقرارًا بصحة توقيعه؟»

سأل الرجل بفظاظة: «ما هذا؟»

«إنها رسالة تركها كوتشيني الكريم ... يا لكرمه! إنه يعترفُ في هذه الرسالة أنه المسئول الوحيد عن إحضاركم إلى هنا، ولا أحد سِواه. وأنه أبقاكم هنا بالتهديدات.»

سأله الرجل: «وأنت؟»

أجابه أوبيرزون بلا خجل: «وأنا أيضًا». وتابع: «ما الفارق؟ فقد مات كوتشيني. ألَا يسَعُه إنقاذنا وهو في مثواه الأخير؟ هيا، هيا يا صديقي العزيز، ستُصبح أحمقَ إن لم توقِّع. وبعدها أرسِل صديقَينا ليُوقِّعا كذلك.»

وضع توقيعه مترددًا، وأتى الرجلان الآخَران واحدًا تِلو الآخر، ووضع الجميع توقيعاتهم تِباعًا، واكتفَوا باللجوء إلى الحيلة التي أشار إليها الدكتور، وتملَّصوا من أي مسئولية تخصُّ المشاركة في هذا الدفاع.

حلَّ الظلام وأعتمَ الليل، وتدافعَت السُّحبُ من الغرب وتساقطت الأمطار الباردة. وجلس جونزاليس، حزينًا بمعزلٍ عن رفاقه، يُراقب الجزء الأكبر من المنزل المظلم وهو يتلاشى في سماء المشهد، وهو ما زاد بؤسَه. ما فعله هؤلاء الرجال بعد ذلك ... لا يهم. قُتل أحد رجال الشرطة، وهم مُدانون بالقدر ذاتِه في نظر القانون لاشتراكهم في جريمة القتل. يمكنهم الآن الشعورُ برعبٍ مضاعف؛ لأن الأسوأَ قد حدث. كان أملُه الوحيد ألَّا يُدركوا حتميةَ عقابهم المنتظر.

لم تصدر أيُّ أوامر بشنِّ هجوم. اتخذ الجنود وضعيةَ الاستعداد، وحتى الهجوم الذي شنَّته الطائرات كان نتيجةَ سوء فَهمٍ للأوامر. لقد شهد سقوط جثة كوتشيني، وفور حلول الليل، قرَّر الاقتراب من المنزل لاكتشافِ ما إذا كان هناك طريقٌ آخر بخلاف مدخل الباب الأمامي.

أنجزت الطائراتُ مهمةً أخرى بخلاف تمشيط السطح بوابل من طلقات البنادق. ففي وقتٍ متأخر من الليل، وصل مبعوث خاص بصورٍ تلسكوبية للمبنى، فحصَها القائد العسكري ومدير الشرطة بعناية.

كان ليون يُراقب المنزل عندما رأى شعاعًا أبيضَ من الضوء ينطلق ويُمشط الفِناء في حركة دائرية. توقَّع ذلك؛ كان الغرض من الوصلات الموجودة في الجدار واضحًا. وعلم، أيضًا، إلى متى ستدوم تلك التجرِبة. بعد ربع ساعة من بدء الكشَّاف الكهربائي عملية تمشيط الأرض، انطفأ المصباح، حيث فصلَت الشرطة التيار الكهربائي. ولكن لم يَدُم ذلك طويلًا، وعاد الضوء مرةً أخرى في غضونِ أقلَّ من ساعة.

أوضح جونزاليس قائلًا: «إنه يمتلك مصدرًا للطاقة في المنزل — مولِّدًا كهربائيًّا، ومحرِّكًا يعمل بالبنزين.»

كان بويكارت قد ذهب إلى المدينة وعاد بأسطوانة فولاذية طويلة وثقيلة، حملها ليون ومانفريد معًا في العَراء وترَكوها. وتعرَّضوا للقنص العنيف من أعلى السطح، وعلى الرغم من أن إطلاق النار كان عنيفًا إلى حدٍّ ما، منع الضابطُ المسئول عن العمليات أيَّ تحرك آخر في وضح النهار.

وعند منتصف الليل أتى واشنطن المبارك. كانوا ينتظرونه بلهفة؛ لأنه، من بين الجميع، كان يعرف شيئًا يجهلونه. بإيجاز، وصَف له ليون غرفةَ الأفاعي ومحتوياتها. لم

يكن متأكدًا تمامًا من بعض الأنواع، لكنَّ وصفه كان قريبًا بما يكفي ليمنحَ خبيرَ الأفاعي فكرةً عن الأنواع.

قال واشنطن، وهو يهز رأسه: «أجل يا سيدي، جميعها أنواعٌ مميتة». وتابع: «أعتقد أن جميع الأنواع الموجودة، باستثناء العقارب، يمكنها أن تقتلَ رجلًا بالغًا في غضون خمسِ دقائق ... أو عشر دقائق على الأكثر.»

عرَضوا عليه رُفات الأفعى الهالكة، وتعرَّف على هذا النوع على الفور، كما فعل خبير علم الحيوان عصرًا.

«إنها أفعى المامبا. وهي الأكثر فتكًا على الإطلاق. ألم ترَ غيرها برأسٍ طويل مِنجَليٍّ؟ هل رأيتَها؟ هذه إذن أفعى الدساس، وهي خطيرةٌ بالقدر ذاتِه. أما الرِّقاق الصغار ذات اللون الأحمر، فإنها أفاعٍ مَرجانية ...»

أمطره ليون بأسئلته المتتالية.

«لا، يا سيدي، إنها لا تقفز، هذا ليس أسلوبَها. تتشبَّث أفاعي الأشجار بشيءٍ فوق رأسك ثم تنالُ منك بينما تمر، إنها تتمايلُ فوق الأرض، ولكن يجب أن يلمس رأسُها الأرضَ أولًا. كانت الأفعى الصغيرة المسكينة التي قتلَت جيرتر خائفةً، إنها تبدأ بالانقضاضِ عليك حينما تكون خائفة ... أعرف رجلًا تعرَّض للدغةٍ في عنقه من أفعى انقضَّت عليه من فوق الأرض. ولكنها تكتفي عادةً بالنَّيل من ساقك.»

أطلعه ليون على خُطته.

أخبره واشنطن دون تردُّد: «سأرافقك.»

لكن لم يقبل بهذا العرض أيٌّ من الرجال الثلاثة. كان ليون بحاجةٍ فقط إلى رأي الخبير. فهناك عشرات العلماء في لندن، من بينهم أمناءُ المتاحف ومربُّو الأفاعي، كان بإمكانهم إخبارُه بأي معلومة تخصُّ سلوك الزواحف في الأسر. ولكنه أراد شخصًا التقى بالأفعى في بيئتها الأصلية.

وقبل ساعةٍ من بزوغ النهار، عُقد مجلس للحرب، وعرَض ليون مخطَّطه أمام السلطات، وأُقِرَّت الخُطة. ولم ينتظر لحينِ صدور الأوامر اللازمة، بل ذهب بصحبة بويكارت ومانفريد إلى حيث ترَكوا الأسطوانة، ورفَعوها، وتوجَّهوا ببطء نحو المنزل. بالإضافة إلى ذلك، حمل ليون سُلَّمًا خفيفًا وحقيبةً مليئة بالأدوات.

كانت أضواء الكشَّاف تتحرك من حينٍ لآخر، ولم تتَّجه نحوهم مدةً طويلة. وفجأةً وجدوا أنفسهم وسطَ دائرة من الضوء الساطع، وانبَطَحوا أرضًا ولامسَت وجوهُهم الأرض.

قذفهم الرشاشُ الآليُّ بعنف، اهتزَّت الأرض تحت وابل الرصاص، ولكن لم يُصِب أيًّا منهم؛ والأهم من ذلك أن الأسطوانة لم تُمسَّ.

ثم فجأةً، بدأ إطلاق النيران من كل جزء في الفِناء. استهدفت النيران الكشافَ الكهربائي، ولم يستمرَّ إطلاق النار أكثرَ من دقيقة حتى انطفأ الضوء، وكان من الواضح أن رصاصةً واحدة على الأقل قد أصابت هدفها.

قال مانفريد: «الآن»، فحملوا الأسطوانة وهم يركضون. لمس بويكارت السياجَ بيده، وارتدَّ للخلف على الفور. حيث يتصل السلكُ العلويُّ من السياج بالتيار الكهربي، ولكن من الواضح أن المولِّد الكهربائي الذي لدى الدكتور لم يكن بإمكانه توليدُ تيار كهربائي قوي إلى الحد المميت. فأخرج ليون قاطعَ أسلاكٍ عازلًا للكهرباء وقطعَه بطول ستَّة أقدام، وأجرى عملية تأريض للأجزاء المقطوعة من السلك. صاروا الآن في حماية ظلِّ جدار المنزل، وبمنأًى عن خطر تدافع الطلقات.

أسنَد ليون سُلَّمه على النافذة التي توقَّفوا تحتها، وفي غضون ثانية واحدة حطَّم الزجاج، وأدار المقبض ورفع إطار النافذة. وأخرج من حقيبته مِثقابًا ماسيًّا وبدأ في ثَقْب الصفيحة الفولاذية السميكة. كان عملًا شاقًّا للغاية، وبعد عشر دقائق من العمل، أوكل المهمةَ إلى مانفريد الذي صعد مكانه.

أيًّا كان الضررُ الذي لحِق بالكشاف الكهربائي، فقد صار سليمًا الآن، وتوجهَت أشعتُه نحو الموضع الذي رصَدَهم فيه آخرَ مرة. ولكن هذه المرة لم يستقبله وابلٌ من الرصاص، واندهش أوبيرزون وأصابه القلقُ من هذا التقاعس.

بزَغ ضوء النهار في عَنان السماء، وباتت الرؤية واضحةً، وعندما رأى الدبابة تتنحَّى عن الطريق وتُغادر مكانها الذي ظلَّت واقفةً فيه طوال اليوم السابق، وتتَّجه نحو الساحة، وتتحرك ببطء باتجاه المنزل. برزَت أسنانه بابتسامةٍ عريضة، وهبط السُّلم، واندفع نحو باب غرفة الفتاة، كان هائجًا حتى إنه لم يتمكن من تمييز ثقب المفتاح في القُفلَين اللذين ثبَّتهما لتأمين الباب.

فتحَه بدفعةٍ حطَّمته، وكاد يسقط داخلَ الغرفة بهذا الاندفاع. كانت ميرابيل ليستر واقفةً بجوار الفراش، بوجهٍ شاحب كالموتى. إلا أن صوتها أتى ثابتًا، غيرَ مُبالٍ، حين سألته:

«ماذا تريد؟»

قال بصوتٍ كالفحيح: «أنتِ!» وتابع: «أنتِ، يا سيدتي الشابة الجميلة … أودُّ تقديمك للأفاعي!»

انقضَّ عليها، ولكنها لم تُظهر أيَّ مقاومة، ودفعها إلى الفِراش وأطبق زوجَين من الأصفاد الصدئة حول مِعصمَيها. وجذبها حتى تقف على قدمَيها، وسحبها إلى خارج الغرفة ونزلا السُّلم. واجه صعوبةً في فتح باب حجرة الأفاعي؛ فقد وجده عالقًا. ولكنه تمكَّن أخيرًا من دفع الباب وفتحه، توقَّفت الدفايات عن العمل؛ لأنه لم يتمكن من توفير الكهرباء لتشغيلها. لكن الغرفة كانت شديدةَ الحرارة، وعندما أشعل الأنوار، ورأت صفَّ الصناديق الطويل، خانتها قدَماها، وكادت تسقط لولا أن أحاط خَصرها بذراعه. وسحب كرسيًّا ثقيلًا إلى منتصف الغرفة، ودفعها لتجلس عليه.

صاح فيها قائلًا: «ستنتظرين هنا يا صديقتي!» وأضاف: «ستنتظرين … ولكنك لن تنتظري طويلًا!»

كانت هناك ثلاثة أربطة طويلة معلَّقة على الحائط، تُستخدم لربط الصناديق عند الضرورة للسفر بها. خلال ثانية واحدة كان هناك رِباطٌ يلتفُّ حولها وثبَّته بإحكام في الجزء الخلفي من الكرسي. ووضع الثانيَ أسفل المقعد وشدَّ الوثاق حول ركبتيها.

«الوداع، يا سيدتي الكريمة!»

أتاه صوتُ قصف الدبابة وهو في تلك الغرفة. ولكن كان أمامه عملٌ ليُنجزه. لم يجد متَّسَعًا من الوقت لفتح الصناديق. ستتحطَّم الواجهات الزجاجية بسهولة. لذا ركض نحو صفِّ الصناديق، وضرب الزجاج بفوهة مسدسه الماوزر. رأت الفتاة، التي كانت تُحدِّق في رعب، رأسًا أخضرَ يُطل من إحدى الفتحات؛ ورأت جسمًا ملتويًا ينزلق فوق الأرض برفق. ثم أطفأ الأنوار، وأغلق الباب، وظلَّت وحدها في الغرفة المرعبة.

لم يكد أوبيرزون يَدْلف إلى الرِّواق حتى انفجرَت القنبلة الأولى عند الباب. وتطايرَت شظايا الخشب أمامه، وهو يستدير ويُسرع بصعود السُّلم، ويتحسس جيبه باحثًا عن الوثيقة الثمينة التي قد تُبرئه.

بوووم!

لم يُغلق باب غرفة الأفاعي؛ وحطَّم ليون مزلاج الباب. فليدخلوا إذا أرادوا. لم يُنسَف الباب الأماميُّ بعد، ووقف يُنصت من بسطة السلَّم بالأعلى، مستندًا إلى الدرابزين. ثم هز المنزلَ انفجارٌ أكبرُ من أي وقت مضى، وبعد وقتٍ من الصمت، سمع شخصًا يركض على طول الرواق ويرتجف أمام باب غرفة الأفاعي.

فات الأوان الآن! ابتسم فرحًا، وصعد آخر مجموعة درجات من السُّلم المؤدي إلى السطح، ليجد رجالَه الثلاثة في حالة تمرُّدٍ، لم يَعُد بإمكانه قمعُه. رأى بريق الحَربة يأتيه عبر فتحة الباب، ودخل شخصٌ يلبس الكاكي إلى السطح، وإصبعه على الزناد.

وصاح عاليًا، باللهجة الكوكنية التي يتحدثها أهلُ الجهة الشرقية في لندن: «ارفعوا أيديَكم، جميعًا!»

ارتفعت أربعةُ أزواج من الأيدي، عاليًا.

تبع مانفريد الجنديَّ الآخر، وأمسك الدكتور من ذراعه.

قال: «أريدك أنت، يا صديقي»، وهبط أوبيرزون السُّلم في استسلام.

كان عليهم اجتيازُ غرفة جيرتر؛ كان الباب مفتوحًا، ودفع مانفريد أسيرَه إلى الداخل، بينما صعد بويكارت وليون السُّلم.

قال ليون بسرعة: «الفتاة بخير. قضى الغازُ على الأفاعي لحظةَ ملامَستِها الأرض، ويتعامل واشنطن مع ما تبقَّى منها حيًّا.»

ثم أغلق الباب بسرعة. كان الدكتور وحيدًا لأول مرة في حياته برفقة الرجال الثلاثة الذين يكرههم ويخشاهم.

قال مانفريد: «أوبيرزون، هذه هي النهاية.»

ارتسمت ابتسامةٌ غريبة على وجه الدكتور الذي تملؤه التجاعيد.

وقال: «لا أظن ذلك، يا أصدقائي». وتابع: «فهذا إقرارٌ من كوتشيني. وأنا لست سوى ضحيةٍ بريئة، كما سترون. اعترف كوتشيني بجميع أفعاله، وتوريطه أصدقاءه. أنا لن أُقاوم ... لماذا أفعلُ ذلك؟ أنا رجلٌ أمين، ومحترم، ومواطن في بلد عظيم ولطيف. انظروا!»

أخرج الورقة. فأخذها مانفريد من يده لكنه لم يقرَأْها.

«وأيضًا، مهما يحدث، ستفقد امرأتُك تلَّ الذهب الجميل». وأضاف: «لأن غدًا هو اليوم الأخير ...» شعر بالسعادة لهذه الفكرة.

قال مانفريد، وهو يدفعه باتجاه الحائط: «قف مكانك يا أوبيرزون». وتابع: «لقد حُكم عليك. لعل اعترافَك يخدع القانون، ولكنه لن يخدعنا.»

ثم لمح الدكتور شيئًا، وصرخ مذعورًا. كان ليون جونزاليس يُثبت سيجارة في المبسم الأسود الطويل الذي وجده في غرفة جيرتر.

قال ليون: «هكذا تحملها، أليس كذلك؟» وخفض السيجارة للأسفل، وضغط الزنبركَ الصغيرَ المغلف بالأبنوس. «المبسم هو حجرةٌ معزولة تحتوي على شظيتَين مثلجتين صغيرتين ... لقد عثرتُ على القالب في مختبَرِك، يا سيدي الدكتور. وهما تسقطان في السيجارة، المصنوعة من المعدن، وبعدها ...»

رفعها إلى شفتَيه ونفخ فيها. ولم يلحظ أحدٌ انطلاق الشظيتين المثلجتين. ولكن أوبيرزون وضع يده على خده وأصدر صرخةً مكتومة، وحدَّق بشراسة لثانية، ثم تهاوى مثل كومة من الخردة.

التقى ليون بالمحقِّق ميدوز وهو في طريقه للأعلى.

وقال: «أخشى أن صديقنا قد مات». وتابع: «وأفلتَ من حبل المشنقة.»

سأله ميدوز: «مات؟ هل انتحر؟»

قال ليون دون اكتراث: «تبدو لي كلدغةِ أفعى»، وهو يهبط الدَّرج ليعثر على ميرابيل ليستر، التي تبدَّلت حالتها بين الضحك والبكاء، بينما كان إيليا واشنطن الجادُّ يشرح لها الصفاتِ الأليفةَ الرائعة للأفاعي.

قال، في يأس: «ماتت أفاعٍ بقيمة خمسة آلاف دولار، لكن العدد المتبقِّي يكفي لافتتاح سيرك!»

الفصل الرابع والثلاثون

أنبوب الموت

شرح مانفريد الأمر، لاحقًا، لمدير الشرطة الذي أبدى اهتمامًا.

«حصل أوبيرزون على السمِّ باستخلاصه من الأفاعي؛ إنها عملية بسيطة؛ ليس عليك سوى إثارةِ غضب الأفعى، وستلدغ أيَّ شيء. اكتشف الدكتور طريقةً تُمكنه من مزج هذه السموم معًا للحصول على الصفات الأكثرِ سُميةً منها جميعًا، تبدو فكرةً خيالية، ويراها العلماء غيرَ ممكنة. ولكنها تظل الحقيقة. حيث خُفِّف السمُّ قليلًا بالماء ورغم ذلك فهو يكفي لقتل عشرة أشخاص، وبعدها سُكب في قالَبٍ صغير للغاية وحُفظ مجمدًا.»

سأل رئيس الشرطة بدهشة: «مجمدًا؟»

أومأ مانفريد برأسه.

وقال: «لا شك في ذلك». وتابع: «لا يفقد سمُّ الأفعى فعاليته بالتجميد، كانت طريقةُ قَولبة سهامهم فكرةً صائبة جدًّا، من وجهة نظرهم. كانت ضروريةً فقط من أجل الحصول على جزء مجهري من الشظية لاختراق الجلد. يذوب على الفور بما يكفي للتسبُّب في الوفاة، وإذا فرك الضحيةُ مكانَ اللدغة، فمن المؤكد أنه سيفرك بعضَ السم الذي سيذوب على خده فيخترق الجرح. وعادة ما تُوافيه المنيَّة على الفور. لم يكن مبسمُ السيجارة الذي يحمله جيرتر والقاتل الآخر؛ فايفر، سوى أنابيبِ نفخٍ، أما السيجارة فكانت سيجارةً معدنية مزيفة ومجوَّفة. وحينما يُطلقون سهامهم الثلجية الصغيرة، تكون في حالةٍ شبهِ سائلة، وتحملُ السمَّ السائلَ الكافيَ للقتل، حتى لو ثقَبَ الجلدَ ثَقبًا صغيرًا. ومن المؤكد أن الجزء الذي لم يخترق الجلدَ كان يذوب قبل أن تتمكَّن الشرطة من فحصه. ولهذا السبب لم تكتشف الشرطةُ أبدًا حيلةَ رمي السهام مثل رجال الأدغال الذين يستخدمون قطع الخيزران وأشواك الأشجار. كان لدى أوبيرزون أبسطُ طريقة للتعامل مع جميع معارضيه؛ حيث يرسل رجالُه الأفاعيَ ليعترضوا طريقهم، ولم يفشلوا

إلا مرةً واحدة فقط؛ حينما صوَّبوا على ليون وأصابوا الرجلَ المقاوم للدغات الأفاعي؛ إيليا واشنطن!»

«وماذا عن مطالبة الآنسة ليستر بمناجم ذهب بيسكارا؟»

ابتسم مانفريد.

«لقد قدَّم طلب التجديد وحصل على الموافقة. حيث وجد ليون في مزرعة هيفيتري بعضَ الأوراق البيضاء التي تحمل توقيعَ الفتاة. فسرق واحدةً في أثناء غياب العمة، وملأ الورقة الفارغة بطلبٍ رسمي للتجديد. ووصلت للتو برقيةٌ تفيد بالموافقة على تمديد عقد الإيجار.»

اضطُرَّ هو وبويكارت إلى قطع الجزء الأكبر من طريق نيو كروس سيرًا على الأقدام، قبل أن يتمكَّنا من إيجاد سيارة أجرة. وذهب ليون برفقة الفتاة. بينما كان هناك ما يُقلق بويكارت، ولم يصرِّح بما يدور في خَلَده حتى تدخلَت العناية الإلهية وظهرت سيارة أجرة، وانطلقوا باتجاه طريق نيو كروس.

قال أخيرًا: «عزيزي جورج، يُراودني بعض القلق بشأن ليون». وتابع: «لا أكاد أصدِّق، ولكن ...»

سأله مانفريد بخفةِ ظل، وهو يعلم ما ينوي قوله: «ولكن ماذا؟»

قال بويكارت بصوتٍ خافت، وكأنه يُناقش كارثة عالمية وشيكة: «أتظن حقًّا، أتظن حقًّا أن ليون مغرَم بها؟ هل هذا صحيح؟»

فكَّر مانفريد لحظةً.

وقال: «تحدثُ مثلُ هذه الأمور، حتى لرجال العدالة»، فهزَّ بويكارت رأسه بأسًى.

وقال: «أنا لم أفكِّر أبدًا في هذا الاحتمال المؤسف»، وظل مانفريد يضحك بينه وبين نفسه طَوال طريق العودة إلى المدينة.


هنداوي